CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.

MIDDLE-EAST LIBRARY

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

الجزء الأول

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

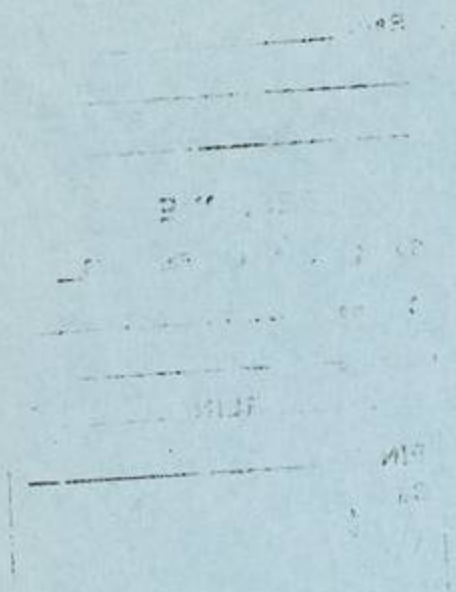

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 072 010 766

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

الجزء الاول

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة النجف ـ النجف

١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م

DLM
+
BL
193
.16
H42
1963
juz' 1

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

القرآن الكريم

الاهداء

إلى : صادق بيت الوحى ، رضيع ثدى النبوة وربيب مهد الإمامة .

إلى : منهل شرائع الكتاب وسنة المصطفى .

إلى : إمام الأمة بالحق وقدوة الأئمة بالصدق .

إلى : سيدى الإمام أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه صلوات من ربه ورحمة .

أرفع صحيفتى هذه وهى مجهودى الضئيل راجياً حسن القبول فهو غاية النجاح ومنتهى الأمل والسعادة لعبدكم .

أسد حيدر

General Library
690713-156
al-Ilmiyah
9-23-68

مقدمة الطبعة الاولى

فى ساعة من ساعات الفراغ آويت لمكتبى ، أروح النفس من عناء الدراسة الشاقة بمطالعة كتب السير والتاريخ ، وكل كتاب تناولته لم أجد فيه بغيتى ورغبت عن مطالعته من دون أن أعرف السبب الحقيق لذلك ، حتى وقعت يدى على مقدمة ابن خلدون بدون مقدمة ، وكأنه كان هو المطلوب دون غيره .

فطالعته وما كنت مستوفياً أبحاثه من قبل ، فراقنى اسلوبه وجذبنى تعبيره ، ولم أستوف الغرض من مطالعته حتى فوجئت بهذه الكلمة القاسية والقول المؤلم :

« وشذ أهل البيت فى مذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به » .

فأخذتنى الدهشة استغراباً ، إنها لجرأة على مقام أهل البيت ، وأصبحت عند ذلك « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .

وهناك نسيت ترويح نفسى وتجردت عن العوامل التى دعتنى إلى ملاقاة هذا الرجل والاجتماع به ، وشعرت أن الرجل كان منقاداً للعاطفة العمياء فى هذه الجرأة ، وجعلت أعلل نفسى فى البحث عن المذاهب الاسلامية وتكوينها وبيان مذهب أهل البيت ومكانته فى التشريع الاسلامى ، وبقيت الفكرة تخامرنى وأنا لى بتحقيقها ، وأنا تحت سلطة شواغل لا تعرف الرحمة ، ولا تحلم بالعدل ولكن إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه ، فتسلمت رسالة من صديق فاضل من

أهل الموصل (*) كنت قد اجتمعت به خارج النجف ، واتصلت به اتصالاً وثيقاً ، ودارت بيننا أبحاث علمية يطول ذكرها ، وكان يطلب منى فى رسالته أن أذكر له شيئاً عن حياة الإمام الصادق ، لأنه لا يعرف عنه ، إلا أنه ابن محمد الباقر استاذ أبى حنيفة . وهذا ما حفزنى على نشر الحقيقة بالبحث عن حياة الإمام الصادق عليه السلام وبيان مذهب أهل البيت ، وفقههم الذى انتشر فى عصره ، ولا يتسنى لى الدخول فى هذا المضمار دون أن أتعرض لذكر المذاهب الإسلامية ونشأتها والتعرف على أئمتها بدراسة حياتهم دراسة تاريخية اظهاراً للحقائق ، وخدمة للحق ، فوضعت هذا الكتاب وقد منحته وقتاً من أوقاتى ، بالرغم من تلك العراقيل الشائكة التى كدستها الظروف فى طريق الوصول إلى الغاية ، وواجهت المصاعب وجهاً لوجه ، فجاء هذا المؤلف فى عدة أجزاء متتالية وموسوعة كبيرة ، وقد أعطيت فيها صورة واضحة عن تلك العصور التى لها أثرها فى ايجاد عوامل التفرقة بين المسلمين ، والتى فسحت المجال لخصومهم فى التدخل بين صفوفهم بدافع التشفى والانتقام لبث روح العداء والتباغض .

ولم أجهد نفسى فى ابراز الكتاب مؤنق العبارة رشيق اللفظ ، ولان فاتنى التفوق فى الإنشاء وسعة الخيال ومهارة الفن فى ابرازه فلن يفوتنى إخلاص النية ، وصدق القول والتثبت فى النقل والاتزان فى الرد فهو بهذا الشكل أتقدم به خدمة لأهل البيت عليهم السلام بما استطعته ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

١٣٧٥ هجـ — ١٩٥٦ م

المؤلف

(*) هو الاستاذ السيد هاشم زين العابدين الموصلى من اسرة تعرف بآل الصراف مات أبوه وهو طفل ، فكفله أخواله (آل الدباغ) نشأ متحرراً من قيود التقاليد طالباً للحقيقة اجتمعت معه فى (ناحية الخضر) ، وكان موظفاً هناك فدارت بيننا مراسلات مهمة ، ولازلت أحتفظ بها وتوفى رحمه الله فى معهد الحقوق من الجامعة السورية وسننشر أهم رسائله وترجمته التى هى بقلم صديقه السيد عبد الزهراء الخطيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين

* * *

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الجزء - وهو الأول من كتابنا (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) فكان الاقبال عليه يبعث على التشجيع ومواصلة البحث والمضى فى خوض هذا الموضوع الشائك الذى يتطلب دراسة عميقة ، وتحمل مصاعب بعزيمة لا تستكين لصعوبة ، ولا يحد من قوتها ملل .

وإن موضوع البحث عن المذاهب قد احيط بغموض وملابسات ، وكان من وراء ذلك حصول مشاكل فى المجتمع الإسلامى ، تحتاج الى حل وعمل جدى ، وتفكير صحيح ، ايزول ما خلفته تلك العصور من ترسبات ، وما أودعت فى المجتمع من أفكار ، نتيجة للتعصب ، مما أدى الى وقوع حوادث مؤلمة ، جرت على الأمة بلاء الفرقة ، إذ اتسعت فيها شقة الخلاف ، ووجد أعداء الاسلام مجالا واسعاً ، لبث روح التباغض بين طوائف المسلمين ، وأصبحت المفاهيم معكوسة ، وعندما توارت الحقيقة وراء سحب الخصومات ، من جراء النعرات الطائفية .

وقد تكفل هذا الجزء ببيان الكثير من ذلك ، بآراء حرة ، وبيان مستفيض عما نجم من وراء ما أحدثته الخلافات من خطر على الجامعة الإسلامية

ومهما تكن أهمية هذا الموضوع فقد تناولته ـ قدر الاستطاعة والامكان بدراسة واقعية ، مستفيضة الجوانب ، تزيل اللبس ، وترفع الغموض ، فطالما رافق اللبس والغموض اكثر الدراسات التي صدرت في هذا الموضوع ؛ لأنها لم تكن خالية من نزعة التعصب ، الذي جر على هذه الأمة ويلات الدمار ، وعوامل الانهيار .

وانى أجد فيما لقيه الكتاب من اقبال واهتمام لدى الكتاب والقراء جانباً يكشف انى قد وفقت الى ما صبوت اليه .

وكان من عناية الله وتوفيقه أن يصدر من هذا الكتاب — في فترات متتالية — خمسة أجزاء ، تتكفل بالبحث عن المذاهب الإسلامية ، ونشأتها وعوامل انتشارها ، والتعرف على شخصيات رؤسائها ، عن طريق الواقع مع اعطاء صورة عن الخلافات المذهبية ، والآراء الفقهية والحوادث التاريخية ، وغير ذلك مما له صلة بالموضوع .

وقد نفد الجزء الأول والثاني حتى آخر نسخة منهما ، قبل اكمال السلسلة فأصبح من اللازم اعادة الطبع مع كثرة الطلب ، وشدة الإلحاح ، من مختلف الجهات .

وهذا هو الجزء الأول أقدمه للقراء الكرام بطبعته الثانية مع زيادة وتنقيح ، راجياً منهم التنبيه على مايقفون عليه من خطأ ، فانى لا أضمن لنفسي السلامة ، مما لايخلو منه مؤلف ، والله الموفق ومنه أطلب حسن القبول وعليه الإتكال وهو حسبي ونعم الوكيل .

المؤلف

أسد حيدر

١٣٨٣ م - ١٩٦٣ هجـ

مدخل البحث

الامام الصادق عليه السلام بين عهدين

أتاح القدر لبنى أمية فرصة نادرة ، إذ انتخب عثمان (١) خليفة للمسلمين بعد عمر بن الخطاب ، فأصبح زعيم الأمة ورب دستها المطاع ، وأميرها المسلط وخليفة صاحب الرسالة ، وبذلك برقت لهم الآمال من بين ظلمات اليأس ، وتنشقوا روائح الراحة فتعلقوا بعرى الفوز ، وطلع فجر ليلهم الذى باتوا ينشدون فيه أملهم الضائع ويأسفون لحزبهم الفاشل .

بعد أن خاب كل أمل منهم فى نيل بغيتهم لإعادة ذلك الحزب المنحل ، والمنهزم فى ميدان المعارضة للحق .

ولكن الأقدار تجرى بين عشية وضحاها لامتحان الخلق وغربلة الناس فاذا بهم يسوسون الأمة ويتلاعبون بالإمرة .

ولسنا بصدد البحث عن حوادث عهد الخليفة عثمان ، وما فيه من بلاء ومحن وما لقى المسلمون من أبناء أبيه .

عندما أصبح مروان بن الحكم (٢) أميناً عاماً ووزيراً خاصاً للخليفة

---

(١) عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة ابن حبيب بن عبد شمس ، بويع له بالخلافة سنة ٢٣ و ٢٤ وقتل صبيحة الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ فكانت خلافته ١٢ سنة وحوصر فى داره ٢٢ ليلة ودفن فى حش كوكب مقبرة اليهود واختلف فى عمره فقيل ٩٠ و٨٨ و٧٥ و٨٦ و٦٣ انظر الطبري ج ٢ — حوادث سنة ٣٥ .

(٢) مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد يوم أحد وقيل عام الخندق وقيل بالطائف قال ابن عبد البر : ولد على عهد رسول الله (ص) سنة ٢ من الهجرة وطرد رسول الله أباه وهو طفل لا يعقل ، وبهذا لا تثبت له صحبة .

ويعرف مروان بخيط الباطل ولما بويع بالخلافة قال فيه أخوه عبد الرحمان بن الحكم :—

الجديد ، يحبى بالأموال ويختص بخمس الغنائم ويتنعم بأموال الأمة بعد ذلك الشقاء ، ويتقلب بأحضان الراحة بعد العناء .

والاغيلمة الذين على أيديهم هلاك الأمة ، يتولون الحكم ويتلاعبون بالإمرة كتلاعب الغلمان بالكرة ، وينزون على منبر رسول الله نزو القردة (١)

فلنترك ذلك العهد وما فيه من أحداث وحوادث ، ولا نناقش ذلك الانتخاب الذى فاز فيه عثمان ، لا بسابقة فى الإسلام ، ولا قرابة فى رحم ، وما هو بأولى من على عليه السلام لو كان هناك انتخاب حر ومقاييس صحيحة .

نعم لا نريد أن نتعرض لما خلفته تلك الأحداث من أوضاع مؤلمة ، مما دعا أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى مقاطعة الخليفة ، عندما أصبحت مقاليد الحكم بيد بنى أبيه ، فعم الاستياء جميع الأقطار الاسلامية مما أدى الى قيام ثورة مخضت عن قتل عثمان فى داره ، ومبايعة على عليه السلام .

— لحا الله قوماً أمروا خيط باطل على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

ونظر اليه على (ع) فقال : ويلك وويل أمة محمد منك ومن بنيك ، يوبع له بعد معاوية بن يزيد سنة ٦٤ ومات سنة ٦٥ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو ممدود فيمن قتلته النساء ـ انظر ابن عبد البر ج ٣ ـ ٤٢٨ بهامش الاصابة ط الأولى سنة ١٣٢٨ والحكم بن العاص نفاه النبي (ص) إلى الطائف ثم أعيد إلى المدينة في خلافة عثمان وروى الزهري وعطاء ان أصحاب النبي (ص) دخلوا عليه وهو يلعن الحكم فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : دخل على شق الجدار وأنا مع زوجتى فلانة فكلح فى وجهي ، ومر النبي (ص) بالحكم فجعل الحكم يغمز النبي (ص) باصبعه فالتفت فرآه فقال : اللهم اجعله وزغاً فزحف مكانه .

ومر الحكم يوماً فقال (ص) : ويل لأمتى مما فى صلب هذا ومن حديث عائشة انها قالت لمروان أما أنت يا مروان فاشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت فى صلبه وطرده النبي (ص) ونفاه إلى الطائف ورده عثمان ومات في خلافة عثمان سنة ٣٢ وضرب فسطاطاً على قبره وعاب الناس عليه ذلك ـ انظر الاصابة ج ١ ـ ٣٤٦

(١) حديث ـ اخرج ابن جرير فى تفسيره قال : رأى رسول الله (ص) بنى الحكم ابن أبى العاص ينزون على منبره فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات وأنزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) وأخرجه السيوطي فى اللؤلؤ المنثور من حديث عبدالله ابن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن على وغيرهم (وطرق هذا الحديث كثيرة) .

— ٢ —

وجد معاوية (١) نفسه بدائرة ضيقة بعد قتل عثمان ومبايعة على بالخلافة أيعلن معارضة على ؟ وقد عقدت بيعته على أكمل وجه وناصره أصحاب محمد . والقلوب تغلى على بنى أمية ، أم يدخل فيما دخل فيه الناس كارهاً كدخوله فى الإسلام هو وأبوه من قبل وهو لا يجهل مكانة على ومنزلته فى الاسلام فهو أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً وأفضل الناس بعد رسول الله وأقربهم منه

وعلى قد طبعت نفسه على العدل لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يستطيع معاوية أن يعمل فى عهد على عمله الذى يحاول به نجاح مهماته ، وتأبى نفس معاوية أن ترضخ للعدل وتستسلم للواقع ، لأنه يعرف علياً وسيرته وخشونته فى الأمر .

وعلى يعرف معاوية ، وعلى أى طابع طبعت نفسه . وهو أدرى بحركاته وما يهدف اليه فى دهائه ، الذى استطاع أن يستجلب به رضا عمر ويخاتل عثمان من قبل .

إذاً كيف يصنع معاوية ؟ اذا اشتد جانب على وعظمت شوكته فكان موقفه تجاه هـــذه المشاكل موقف حيرة وارتباك ودنياه حبلى ولا يعلم ما تلد فى الغد .

---

(١) معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل سبع سنين أسلم عام الفتح ومات في رجب سنة ٦٠ قال ابو عمر معاوية وابوه من المؤلفة قلوبهم وقال ابن أبى الحديد كان معاوية مطعون فى دينه انظر ج ١ ص ١١١ وقول الزمخشرى فى ربيع الأبرار فى نسبه وكانت إمارة معاوية عشرين سنة ولاه عمر ابن الخطاب الشام وحاسب عماله إلا معاوية وبعد وقوع الصلح تم الأمر لمعاوية فاستقل مدة عشرين سنة .

كاد معاوية أن يفر من ميدان المعارضة لعلى لأنه أعزل من كل سلاح يستطيع به مقابلة على إن أعلن حربه وليس له حجة يستهوى بها قلوب الناس بماذا يدعى معاوية وأى أمل له بالخلافة والامرة على المسلمين ؟ هو يعرف نفسه ولا يفوته منها كل شىء ، فهو ابن هند (١) وابن أبى سفيان (٢) زعيم المشركين ومثير الحرب على صاحب الرسالة .

نعم كاد معاوية أن يهزم ويخضع لسلطان على وهو كاره له ، ولكن خروج أم المؤمنين عائشة (٣) .

ونقض (٤) طلحة والزبير (٥) بيعة على فتحا له باب أمل ارتج عليه من

---

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد مناف والدة معاوية ـ كانت تثير شعور المشركين بأزاجيزها فى حروبهم على النبى وتشجعهم هى وباقى نساء المشركين وكانت ترجز يوم أحد (نحن بنات طارق) وبذلت لوحشى ما يحب ان قتل حمزة عم النبى (ص) فلما قتل مثلت به واستخرجت كبده فشوت منه وأكلت ـ انظر الاستيعاب بهامش الاصابة ج ٤ ـ ٤٢٦ وتوفيت فى عهد عمر بن الخطاب فى اليوم الذى مات فيه ابو قحافة والد أبى بكر الصديق .

(٢) ابو سفيان : هو صخر بن حرب بن امية بن عبد شمس وامه صفية بنت حزن الهلالية مات فى خلافة عثمان سنة ٣٤ وقيل ٣١ وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان يكنى بأبى حنظلة الذي قتل يوم بدر كافراً قتله على (ع) .

(٣) عائشة بنت أبى بكر الصديق زوجة النبى (ص) امها ام رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ولدت بعد المبعث بأربع سنين دخل بها النبى (ص) فى السنة الثانية من الهجرة وهى بنت تسع سنين وتوفى عنها وهى بنت ١٧ أو ١٨ سنة وماتت سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٧ ودفنت بالبقيع بأمر منها وان تدفن ليلا وصلى عليها ابو هريرة .

(٤) طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وامه الصعبة الحضرمية شهد احداً وأبلى بها بلاءاً حسناً ولم يشهد بدراً وآخى النبى (ص) بينه وبين الزبير وقيل بينه وبين كعب بن مالك وكان أحد أبطال الثورة على عثمان وقتل يوم الجمل مع عائشة قتله مروان بن الحكم اخرج البغوى بسند صحيح قال : لما كان يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال لا أطلب ثارى بعد اليوم فنزع بسهم فقتله وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٦ ومات وله أربع وستون سنة ودفن بالبصرة ثم نقل لمكان آخر فيها ـ انظر الاصابة ج ٢ ص ٢٣٠ وابن كثير ج ٧ ـ ٢٤٦ .

(٥) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشى ـ

قبل ، فأسرع بالكتاب الى الزبير : (انى قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق) .

وليس له بغية بهذه البيعة إلا الفرار من على والخروج عن سلطانه ، إذ لا يجد من نفسه قدرة على اتباع على (فعلى مع الحق والحق مع على) .....

وبهذه البيعة انتهى رأيه ليتخلص من تلك المشاكل الشائكة ووجد فسحة فى الأمل وفرجاً بعد الشدة ان انتصر حزب المعارضين لعلى عليه السلام .

ولعل معاوية فى غفلة عن سلاح فاتك يستطيع به أن يأمل نجاح أمره وتكون له حجة فى مقابلة على وهو الاعلان فى الطلب بدم عثمان ، ولا استبعد بعد ذلك عن تفكيره أو أنه غافل عنه ، فهو بدهائه ومكره لا تعزب عنه هذه الفكرة ، ولكن فى نظر الواقع أنها فكرة خاطئة وحجة ليس لها برهان فعثمان قتل بأيدى المسلمين ، وما هو ولى دمه ، وليس منه فى شىء وبنوه أولى بذلك ولا يعزب عن معاوية مثل هذا فهو بحاجة الى من يدعم حجته ويؤيد هذه الدعوى الكاذبة ، ولكنه جعل هذه الفكرة فى حقيبة آماله ولم يستطع ابرازها إلا بعد أن عرف نجاحها بيد غيره (والتجربة اكبر برهان) فهذه أم المؤمنين

— امه صفية بنت عبد المطلب أحد أصحاب الشورى الستة قتل يوم الجمل يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ وعمره ٦٦ ولا يعرف قبره اما قبره الحالى الواقع فى مدينة الزبير قريباً من البصرة فقد شيد على الظن يقول ابن كثير فى تأريخه ج ١١ ـ ٣١٩ فى حوادث ٣٨٦ ما هذا نصه وفى مجرمها كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فاذا هم بميت طرى عليه ثيابه وسيفه فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه واتخذوا عند قبره مسجداً ووقفوا عليه أوقافاً كثيرة وجعل عنده خدام وقوام وتنوير .

ويقول ابو الفرج بن الجوزى فى المنتظم ج ٧ ـ ١٨٧ فى حوادث سنة ٣٨٦ ما هذا نصه : (فمن الحوادث فيها ان اهل البصرة فى شهر المحرم ادعوا انهم كشفوا عن قبر عتيق فوجدوا فيه ميتاً طرياً بثيابه وسيفه وانه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه بالمربد بين الدربين وبنى عليه الأثير أبو المكارم عنبر بناء وجعل الموضع مسجداً ونقلت اليه القناديل والآلات والحصر والسجادات واقيم فيه قوام وحفظة ووقف عليه وقوفاً (والله أعلم بحقيقة الحال)

عائشة بنت أبي بكر من تيم تعلن الطلب بدم عثمان الأموى وهى التى فتحت باب المؤاخذة عليه ووازها على ذلك قوم أراقوا بأيديهم دمه بالأمس وهم يمسحون بها دموع الحزن المصطنعة اليوم (وا عثماناه انه قتل مظلوماً) دوت هذه الصرخة واذا بالشام تقوم لها وتقعد .

— ٣ —

انتحل معاوية لنفسه حق الطلب بدم عثمان وانه أقرب الناس اليه وأولاهم بدمه ، وان عثمان قتل مظلوماً وقد جعل الشارع لوليه سلطاناً .

إذاً لمن يطالب معاوية والكل مشتركون فى اثارة الناس عليه ؟

وما غرض معاوية إلا مناوأة على وجعله هو القاتل وحده ، ولم يلتفت الى المعارضات التى قام بها أصحاب محمد ضد عثمان ، فانهم ما كادوا يلمسون منه ميله لأبناء أبيه واختصاصهم بالغنائم وتوليتهم الأمر وتقريب مروان بن الحكم وجعله أميناً للدولة واهانة بعض الصحابة وتبعيد آخرين - حتى أعلنوا مقاطعته والغضب عليه فهذا عبد الرحمن بن عوف (١) المناصر لعثمان والباذل جهده فى انتخابه هجره وأوصى أن لا يصلى عثمان عليه -١- وكان يقول : عاجلوه قبل

(١) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحرث بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى اسمه فى الجاهلية عبد عمر — وقيل عبد الكعبة امه الشفاء بنت عوف بن الحرث بن زهر ولد بعد الفيل بعشر سنين وكان من المهاجرين وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله (ص) وهو أحد الستة أصحاب الشورى وكان من أهل الثروة الطائلة وخلف من بعده الف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأوصى بان يتصدق من ماله بخمسين الف دينار وصولحت إحدى نسائه التى طلقها فى مرضه عن ربع الثمن بثلاث وثمانين الف انظر الرياض النضرة - ٣٨٩ وكان عنده من الذهب ما كسر بالفؤوس - وتوفي سنة ٣٢ وقيل ٣١ ودفن بالبقيع .

- ١ - البلاذري ج ٥ - ٧٥ .

أن يتمادى فى ملكه وقال لعلى عليه السلام : خذ سيفك وآخـــذ سيفى فانه قد خالف ما أعطانى .

وكان طلحة من أشد الناس على عثمان حتى كان عثمان يدعو : اللهم اكفنى طلحة فانه حمل على هؤلاء وألبهم على ، والله انى لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه -١- .

وهذه أم المؤمنين عائشة تعلن معارضة عثمان ، وتخرج شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثوباً من ثيابه ونعلا من نعاله ثم قالت : ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد -٢- فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول ، وكانت تقول : إن عثمان عطل الحدود وتوعد الشهود وأغلظت لعثمان وأغلظ لها ، وقال : ما أنت وهذا إنما أنت امرأة ، أمرتى أن تقرى فى بيتك فقال قوم مثل قوله وقال آخرون : ومن أولى بذلك منها فاضطربوا بالنعال وكان أول قتال بين المسلمين بعد النبى صلى الله عليه وسلم -٣- وهذا عمرو ابن العاص وزير معاوية وشريكه فى الأمر كان من الثائرين والمحرضين على عثمان يقوم اليه فى ملأ من الناس ويقول : إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك فتب نتب -٤- وقال له : اتق الله يا عثمان ، فقال له عثمان : وانك هناك يابن النابغة قلت جبتك منذ عزلتك عن العمل . ونودى من ناحية اخرى تب الى الله -٥- فخرج الى فلسطين وأقام هناك وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم

- ١ - الكامل لابن الأثير ج ٣ - ٨٦ .
- ٢ - البلاذري ج ٥ - ٤٨ .
- ٣ - البلاذرى ج ٥ - ٨٤ .
- ٤ - الطبرى ج ٣ - ٣٦٩ .
- ٥ - الكامل ج ٣ - ٨٠ .

ولما بلغه قتله قال : أنا أبو عبدالله إذا حككت قرحة نكأتها -١- .

وجل الصحابة أظهروا الإنكار على عثمان لسوء ما ارتكبه بنو أبيه الذين حملهم على رقاب الأمة وكان جيش مصر تحت قيادة عبدالرحمن بن عديس البلوى وهو ممن شهد الحديبية وبايع بيعة الشجرة واشترك فى حصاره جمع من أهل بدر كرفاعة بن رافع الأنصارى وغيره . وقتل نيار بن عياض وهو من الصحابة المحاصرين له .

على أن النصوص التاريخية مجمعة بالاتفاق على مكاتبة الصحابة من أهل المدينة إلى من بالآفاق منهم : إن أردتم الجهاد فهلموا اليه فان دين محمد قد أفسده خليفتكم -٢- .

ومهما يكن من أمر فقد أعلن معاوية الطلب بدم عثمان ولا يريد بذلك إلا اعلان الحرب على على عليه السلام لأنه يبغض علياً بغضاً لا يحمله قلب إنسان على وجه البسيطة ان معاوية يبغض علياً لإيمانه وعدله ، وعلى يبغض معاوية لنفاقه وظلمه .

لذلك سلك معاوية طرق المكر والخداع واتخذ أعواناً هم على شاكلته يثيرون الناس لحرب على عليه السلام بتهمة قتل خليفة المسلمين ، ودب وهم هذه الفكرة فى إفئدة ضعفاء العقول والإيمان ، وأحاطوا بقميص عثمان يبكون عليه ، ويتوقدون لطلب القود من قاتله .

قدم قبيصة العبسى إلى المدينة رسولا من معاوية ، فقال على : ما وراءك ؟ قال : تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود . قال : ممن ؟ قال : من خيط رقبتك ، وتركت ستين الف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو منصوب لهم قد ألبسوه

- ١ - البلاذرى ٥ - ٧٤ .

- ٢ - الكامل ج ٣ - ٨٣ والبلاذرى ج ٥ - ٦٠ والطبرى ج ٣ - ٤٠٠ .

منبر دمشق فقال على : أمنى يطلبون دم عثمان ؟!! ـ ـ .

* * *

ما هذا العطف من معاوية على عثمان وهذه الرحمة المرتجلة أين كانت عاطفة معاوية على ابن عمه يوم كان محصوراً وترده أخباره ، ويستنجده فلا يجيبه بشيء ، ويستغيث به وكأن فى أذنيه صمم ؟!!.

يحدثنا الطبرى ج ٣-٤٠٢ ان عثمان كتب الى معاوية بن أبى سفيان وهو بالشام : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان أهل المدينة كفروا وخلعوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول ..

فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره اظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ وقد علم اجتماعهم .

لايستطيع معاوية نصرة عثمان كيف وهو يحاول أن ينتصر المسلمون عليه فيقتل فتكون له وسيلة لنجاح الخطط التى رسمها ضد على وبنى هاشم ، لأن الأمويين يحاولون أن يكيلوا لهم صاع الإنتقام بكل وسيلة ، وكانوا فى حذر من تنازل عثمان عن العرش فتفشل ريحهم ، ويخيب كل أمل لهم فى الأمر ، لذلك كان مروان وباقى الحزب الأموى يقفون حاجزاً دون تحقيق ذلك ، وكلما أراد على عليه السلام إصلاح أمر عثمان بالإتفاق بينه وبين الثائرين ، من طريق التفاهم وإيقاف تيار الخلاف عند حده ، لكن الأمويين كانوا يسلكون طرق الشغب ، ويوقدون نار الفتنة ، فكانت مواعيد عثمان كلها فاشلة ، وأعمال مروان تزيد حراجة الموقف .

وكان الخليفة المقتول يأمل من معاوية نصره فى تلك المشكلة ولكنه

ـ ١ ـ الكامل ج ٣ ـ ١٠٠ .

خذله بصورة لا مجال للتشكيك فيها .

ولما ازدادنشاط الثوارعاود عثمان أمله فانتصر بمعاوية مرة اخرى فأرسل معاوية جيشاً تحت قيادةيزيد القسرى وأمره أن يقيم بذى خشب ولايتجاوز وقال له : لا تقل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فانى أنا الشاهد وأنت الغائب. فأقام الجيش حتى قتل عثمان ، فاستقدمه معاوية الى الشام ، وإلى هذا يشير أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ بقوله لمعاوية : إن الذى تربص بعثمان وثبط يزيد بن أسد عن نصرته لأنت .

فمعاوية بطلبه لثأر عثمان بعد موته وخذلانه له فى حياته دليل على سوء نواياه وما يقصده من وراء ذلك .

وهو لا يقيم لقتل عثمان وزناً ولا يرى له قيمة ولكنها حجة استهوى بها أمة أخضعها لإرادته وسيرها كما شاء ، وإلا فان من قتلة عثمان قد أصبحوا أنصار معاوية وحزبه وهو يعرف ذلك .

ولجأ لهذه الوسائل لتمنحه الظروف يوماً ما أهلية المقابلة لعلى عليه السلام والبيت الهاشمى فهو بحاجة الى ابراز شخصيته بصورة القبول لهذا الغرض .

وقد نجح معاوية فى مخاتلته ومكره ، فقد أصبح خصماً لعلى عليه السلام وطرفاً مقابلا والتف حوله ضعفاء العقول الذين يحاولون الوصول لغاياتهم بكل وسيلة فهاهم يقومون فى الأندية والمجتمعات ، ويبثون بين الأفراد والجماعات يذيعون بين الناس أن خليفة المسلمين قتله على بن أبى طالب عليه السلام ، وهم يبكون ويتألمون واستدرجوا لهذه الغاية من عرف بالنسك ووسم بالصلاح لتكون كلمته أوقع فى النفوس ، وسرت هذه الدعوى المفتعلة بخطى واسعة ، وتلقتها النفوس الضعيفة بكل قبول فأصبح شتم قاتل عثمان على ألسنتهم ، وهم يتوقدون بنار الغيض لطلب الثأر ، ومعاوية وحزبه يحركون شعور الناس بنشر قميص عثمان

فيطول بكاؤهم ويعلو نحيبهم ، وأقسموا أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه .

وجاء عمرو بن العاص الى دمشق راجلا ومعه ابناه وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقولوا عثماناه أنعى الحياء والدين حتى دخل دمشق ، وانضم لجانب معاوية على حرب على وذلك لما بلغه بيعة على لأنه يكره ولاية على عليه السلام وبيعته -١- ، ولكنه اشترط على معاوية أن يعطيه ولاية مصر ما دام على قيد الحياة ثمناً لافتعاله واصطناعه التظلم لمقتل عثمان . فرضى معاوية بذلك اذ كان لا يهمه شيء إلا التكثر والإعتماد على الخائنين أو المتمردين على الإمام على بن أبي طالب عليه السلام .

وازداد نشاط خصوم على بهذه الفكرة وقويت شوكة معاوية ، وعظم جانبه ، وبرأ الكل من دمه إلا على وحده وانقلب بعض المعارضين لعثمان والثائرين عليه من قبل الى جهة الشفقة والحنان عليه .

— ٤ —

وكانت أم المؤمنين عائشة تتطلع أخبار المدينة وهي في مكة ، وقد تركت عثمان محصوراً ، فقدم عليها رجل يقال له أخضر فقالت : ما صنع الناس ؟ قال : قتل عثمان المصريين ، فقالت : إنا لله وانا اليه راجعون أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟!! والله لا نرضى بهذا .

فهي بهذه اللحظة متمسكة بالإنكار على عثمان وان من رأيها أحقية المطالبين لعثمان ، والثائرين عليه ثم لقيها رجل آخر فسألته ما صنع الناس ؟

-١- الكامل ج ٣ - ١٢٩ .

قال : قتل المصريون عثماناً . قالت : العجب لأخضر زعم المقتول هو القاتل ولم يظهر الى هذا الحد منها تغير وتبدل ، ولكن عندما بلغها قتل عثمان وبيعة على عليه السلام وهى تريد الخروج الى المدينة نادت : ردونى إن عثمان قتل مظلوماً - فاطلبوا بدم عثمان -١- . ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبك (تعنى علياً) ردونى ردونى قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه .

فقال لها الرجل : ولم ؟!! والله ان أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر ، قالت : قلت وقالوا وقولى الأخير خير من الأول فقال لها :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا انه قد كفر

والتف حولها بنو أمية الذين هربوا الى مكة ، وجاء طلحة والزبير فأيدوا هذا الرأى وانضموا لجانب عائشة ، ومن هناك تألف جيش البصرة ، وكثر نعى عثمان واعلان الحرب على على عليه السلام .

فكانت حرب الجمل (٢) وبعدها صفين وانتهت بذلك التحكيم الذى جرى بغير ما أنزل الله وارتحل على عليه السلام الى دار البقاء شهيداً بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه وأقام فى الأمة العدل وسار بسيرة الرسول واهتدى بهديه فصلوات الله عليه ورحمته ومغفرته ورضوانه .

وقام من بعده ولده الحسن عليه السلام بنص من أبيه من جهة ، واجتماع

- ١ - الطبرى ج ٣ - ٣٦٩ والكامل ج ٣ - ١٠٢ .

(٢) كانت حرب الجمل فى سنة ٣٦ هجرية فى جمادى الآخرة وقتل فيها من الطرفين عدد لا يقل عن عشرة آلاف وفيها قتل طلحة رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله وقد اشتهر عنه قوله أينما أصابت فتح وكذلك وقعة صفين ابتدأت فى هذه السنة وأنهت فى أمر التحكيم فى شهر رمضان سنة ٣٧ .

المسلمين على بيعته من جهة اخرى وهو ريحانة رسول الله وسبطه الذى خلفه فى أمته فكان ماكان من مقابلة معاوية له باعلان الحرب عليه ، ومقابلته له بما يكره ، واستعماله طرق الخداع والمكر لتفريق الناس عنه ، ليضرب معاوية ضربته القاضية ، ويتم له الأمر بالظفر والغلبة .

فكان من حنكة الحسن عليه السلام وحسن تدبيره تنازله للصلح ليوقف تيار غلبة معاوية عند حده فان معاوية لو تم له الأمر بالغلبة لكان ماكان من أفعال انتقامية كما هو شأن الظافر الذى لا وازع له يحجزه عن ارتكاب ما يريد وقوعه فى خصومه ولكن الحسن عليه السلام قيده بشروط تقف حاجزاً دونه ودون مآربه وتجعله لا يشعر بسلطة الظفر الذى يبيح ما يريد وكان يثقل عليه وجود الحسن فى الوجود فتوصل الى قتله بالسم فانا لله وانا اليه راجعون وتم لمعاوية ما أراد (وان ربك لبالمرصاد) .

— ٥ —

ماكان معاوية يحلم يوماً ما بتلك العظمة فيتسنم عرش الخلافة الإسلامية لقد كان صعلوكا لا مال له ، وذليلا تحت عزة الإسلام ، ووسم هو وأبوه وحزبهم الفاشل بالطلقاء ، يوم فتح الله على نبيه ونصره نصراً عزيزاً ، ودخلوا فى الإسلام وقلوبهم مملوءة بالحقد على الإسلام يتربصون الفرص لمحو سطوره وقلع جذوره وما تغير شيء من نفسيات أبى سفيان بعد دخوله فى حضيرة الإسلام فلامة ظفر » .

فلا يستغرب من معاوية تلك المقابلة التى قابل بها علياً بوجه لا يعرف الخجل ، لأنه وريث ذلك العداء المتأصل بين بنى هاشم وبنى أمية فتلك « عداوة جوهرية ذاتية يستحيل تحويلها ويمتنع زوالها » فما أعظم محنة المسلمين وما أشد

بليتهم عندما يعود أمرهم لخصوم لا يعرفون الرحمة ، ولا عهد لهم بالعدل ، وناهيك بما فى القلوب من حقد ، وبما فى النفوس من حب الانتقام ، وقد آن الأوان لتحريك ساكن الغل واظهار مكنون العداء .

وانه ليثقل على معاوية ذكر على بخير وتأبى نفسه أن يرى فى الوجود أنصاراً لعلى يحفظون به وصايا محمد ويرعون حقه ، لذلك أصدر أمره الى عماله عامة بنسخة واحدة : انظروا من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه .

فما أعظم بلاء الأمة عندما فتح معاوية عليهم باب التشفى والانتقام ، وما أكثر المأخوذين بهذه التهمة ومعاوية يحاول بذلك أن يوقع بين صفوف الأمة عداء تتوارثه الأجيال ، ويبعث العصبية بين القبائل ليشق الطريق الى غايته.

ويحدثنا المدائنى فى كتاب الأحداث انه كتب الى عماله نسخة واحدة : ان برأت الذمة ممن روى شيئاً فى فضل أبى تراب وأهل بيته .

وقام الخطباء فى كل كورة ينالون من على ويقعون فيه وفى أهل بيته ، وكان اشد الناس بلاء أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة على اذ استعمل عليهم المغيرة بن شعبة ثم زياد بن سمية وضم اليه البصرة فكان يقتل كل من اتهمه بحب على ، وهدم داره وقطع الأيدى والأرجل ، فكان ذلك الدور أعظم خطراً على المسلمين .

أما الذين على شاكلة معاوية قد أخلصوا له وقاموا بما يحب فأعلنوا شتم على والبراءة منه . فكان المرتزقة يتقربون اليه بذلك وعلماء السوء يوازونه فى نشر الحكايات المفتعلة حتى أدت الحالة فى الشام بأن تختم مجالس الوعظ بشتم على عليه السلام (١) . وبعد ذلك فكر معاوية ان هذا العمل الذى يقوم به لا يثمر

---

(١) انظر ابن عساكر ج ٣ / ٤٠٧ .

كثير فائدة لأنه عمل ارهابى وسرعان ما يتبدل الوضع ، فضم لهذا العمل شيئاً آخر من تقريب خصوم على والمتظاهرين بعدائه والمعروفين بشيعة عثمان واغداق العطاء عليهم ومنحهم الصلات الجزيلة ورعايتهم والعناية بهم وتسجيل أسمائهم وأسماء عشائرهم ليكونوا فى محل الاعتبار ، ورفع أسمائهم للبلاط الأموى ليشملهم بعطفه ويرعاهم بلطفه ، فما أكثر المتقربين اليه خوفاً من شفرة السيف وظلمة السجن وضيق اللحد وعناء المطاردة والتبعيد .

ثم فكر معاوية بشىء يستطيع به إنجاح خططه عندما يستعمل اولئك الدجالين وذوى الضمائر الرخيصة لوضع الأحاديث على لسان صاحب الرسالة بما تشاء نفسه وتتطلبه رغباته بدون التفات إلى مؤاخذة وعدم مبالاة بجريمة الكذب على الله وعلى رسوله كما انه لم تقف أمامه حواجز عند ارتكاب جرائم قتل المسلمين على الظنة والتهمة وسلب الأموال وهتك الأعراض وسبى النساء وهدم الدور وإلقاء الجثث فى الطرقات والقتل فى المساجد وأخـــذ البرىء بالسقيم الى غيرها من جرائم يتصدع لها قلب المسلم وتكاد نفسه تذهب حسرات.

وها نحن نتخطى عهد معاوية ولا نقف موقف المدقق الذى يريد حصرها فليس من غرضنا ذلك ، وقد كفانا رجال التحقيق من علماء الأمة ، والتاريخ الصحيح بيان ذلك إذ ليس لنا من الوقت ما يتسع لنشر تلك الصحائف السود وذكر تلك الفظائع المؤلمة .

فأعمال معاوية سجلها التأريخ عليه وهى بعيدة عن روح الإسلام ومجانبة للعدالة وإن ضرب الحصانة عليه باسم الصحبة بدعة فى الدين وافتراء عليه .

ومضى معاوية لسبيله مثقلا بأوزاره تاركاً وراءه ولى عهد فرضه على المسلمين بشكل حتمى كما فرض على نفسه الحلم الإصطناعى ومداراة الناس ليحملهم على اجابته ، ومن سوء حظ الأمة أن يلى أمرها فاسق لا يعرف إلا الرذيلة

وهو أشر خلق الله وألعنهم ، وسيعلم الذى مهد له ذلك وولاه رقاب المسلمين ولا يستبعد من معاوية وكيده للإسلام ومحاربته له من البداية الى النهاية أن يرشح يزيد لعلمه بما طبعت عليه نفسه من الفسق وعدم المبالاة بمايرتكبه ليتم الخطط التى رسمها معاوية فى حياته لمحاربة الإسلام وأهل البيت وشرع فى تطبيقها فى حياته وعهد الى يزيد لتنمو فى عهده فينال معاوية غرضه . فكان يزيد كما أراد أبوه فقد قام بدور خطر ومثل تلك العظائم التى يقف القلم عند بيانها .

فكانت باكورة عمله أن قتل الحسين ابن بنت رسول الله وسبى نساءه بصورة يذوب لها قلب كل انسان مهما اختلفت ملته ونحلته فضلا عن المسلم الذى يعرف الحسين ومنزلته من رسول الله ﷺ ومكانته من الإسلام ، وما أعظمها من جريمة تقشعر لها الجلود وتذوب لها النفوس حسرات فكانت وقعة الطف سلسلة فجائع مروعة ونكبات أليمة ، فانا لله وإنا اليه راجعون .

وفى السنة الثانية أباح مدينة الرسول وترى جنده يجوسون خلال ديار الوحى ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل يتدفقون فى شوارع ذلك البلد الطيب يهجمون على البيوت ، ليهتكوا أعراضاً ويسلبوا أموالا فلا تزعجهم أصوات النساء المعولات على أزواجهن وأولادهن .

وترى مخدرات ذلك البلد كأسراب القطا تتخطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الغنم تتناهبها الذئاب الضارية فهن تحت تصرف اولئك الوحوش ثلاثة أيام يفعلون ما شاءوا . ومروان بن الحكم ينظر تلك الفجائع فيهتز طرباً ومرحاً يعجبه أن يرى شيوخ الصحابة ووجوه العرب وأبطال الإسلام يقادون لقائد الجيش ليأخذ منهم البيعة ليزيد بيعة عبودية . فبعين الله ما لقيت الأمة ، ولا تخفى على الله خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وفى السنة الثالثة هدم الكعبة ولعلها أبلغ أمنية لنفس الأمويين ليجعلوا

يوماً بيوم الهبل واللات والعزى . هذا هو ولى عهد معاوية ـ الذى عرف لياقته للحكم وصلاحيته للأمر فلنترك عهده ونتخطى فظائعه بدون تفصيل فهى أشهر من أن تذكر .

— ٦ —

تحول الأمر من بعد يزيد بن معاوية من آل أبى سفيان إلى بنى الحكم لأن عهد معاوية بن يزيد (١) لم يطل وقد فر بنفسه من ولاية ورثها بدون حق ، وهو يعرف أهلها وإن أباه وجده غاصبون لها فصرح بذلك فى خطبته فقال:

إن هذه الخلافة حبل الله ، وإن جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه على بن أبى طالب عليه السلام وركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته فصار فى قبره رهيناً بذنوبه ، ثم قلد أبى الأمر وكان غير أهل له ، ونازع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصف عمره ، وانبتر عقبه ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه . ثم بكى وقال : إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباح الخمر ، وخرب الكعبة ولم أذق حلاوة الخلافة ، فلا أتقلد مرارتها فشأنكم أمركم والله لان كانت الدنيا خيراً فقد نلنا منها حظاً ولان كانت شراً فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا منها ـ٢ـ

---

(١) معاوية بن يزيد أبو عبد الرحمن ويقال أبو يزيد ويقال أبو ليلى استخلف بعهد من أبيه فى ربيع الأول سنة ٦٤ وكان شاباً صالحاً وكانت مدة خلافته أربعين يوماً ولم يخرج إلى الناس بعد هذه الخطبة ولا فعل شيئاً من الأمور ولا صلى بالناس ومات وهو ابن ٢١ سنة وقيل ٢٣ وقيل غير ذلك ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق ولما حضرته الوفاة قيل له ألا توصى فقال : لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبنى أمية ولما دفن حضر مروان دفنه فقال : أتدرون من دفنتم ؟ قالوا : نعم معاوية بن يزيد فقال : مروان نعم هو أبو ليلى الذى يقول فيه الغزاري:

انى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

ـ٢ـ ابن حجر فى الصواعق ١٢٤ .

ثم تنازل عن عرش أقيم على جماجم الأبرياء من المسلمين ، وخلع برداً نسج على نول المكر والخداع والتمويه وفر بنفسه عن التلبس بتلك الجرائم فعفى الله عنه

وولى الأمر مروان بن الحكم - بعد أخذ ورد ووقوع فتن فى الشام وغيره وتعصب بين القبائل ، وحروب فى جميع الأقطار وكثرة الدعاة ضد بنى أمية .

فأصبح مروان خليفة المسلمين - ولم تطل أيامه ومات سنة ٦٥ قتلته زوجته أم خالد بن يزيد وهو معدود فيمن قتلته النساء -١- .

ثم جاء دور عبدالملك بن مروان - بويع له بعد أبيه والأمور مضطربة والبلاد تموج من فوضى الأمويين وسوء سيرتهم وعبدالله بن الزبير قارب أن يتم له الأمر ، والمختار بن أبى عبيدة نهض لطلب ثار الحسين عليه السلام ونكل بقاتليه ومزقهم كل ممزق وشفى صدور قوم مؤمنين ، وقضى على علوج الشرك ، وقتلة أولاد الأنبياء فرحمه الله وجزاه خيراً ، فكان مجىء عبد الملك للحكم - مجىء فاتك لا يقف عند حد ، وناقم لا يعرف قلبه الرحمة ، وظالم لا عهد له بالعدل فكان دوره دور إرهاب وجور .

— ٧ —

وبهذا الدور فى عهد عبد الملك بن مروان ولد الإمام الصادق عليه السلام فى ليلة الجمعة فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ وقيل فى غرة شهر رجب من الهجرة والأمة الاسلامية تلاقى تلك الأحكام القاسية ، وقد انتشر فيها دعاة الفساد ، وتحكم أئمة الجور واستولى على الأقطار الاسلامية أولئك

- ١ - انظر ترجمته فى الاستيعاب والاصابة .

الجزارون الذين يتقربون لأئمتهم بضحايا البشرية ، بدون جناية والأخيار من الأمة الذين ينكرون تلك الأعمال الوحشية عرضة للأخطار ومحلا للنقم.

ولد عليه السلام في حجر الرسالة ونشأ في بيت النبوة وترعرع في ربوع الوحي وتربى بين جده زين العابدين وأبيه الباقر عليهما السلام .

أقام مع جده علي بن الحسين عليه السلام اثنتي عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وعلى رواية المدائني ست عشرة سنة وأخذ عنه في حياته وتربى في مدرسته .

وبدون شك ان جده زين العابدين هو أفضل الهاشميين ، وسيد أهل البيت في عصره . وأعلم الأمة في زمانه وأورعهم وأصدقهم حديثاً ، وبعد وفاة جده تفرد بتربيته أبوه الباقر عليه السلام ، وهو هو في علمه وورعه فنشأ الامام تلك النشأة الصالحة وهو خليفة أبيه ، والمتحمل أعباء الامامة من بعده وعاشر أباه بعد وفاة جده تسع عشرة سنة .

ولا شك ان الامام الصادق ـ نشأ في وسط مجتمع لا يتصل بآل البيت إلا من طريق الحذر والتكتم لشدة المراقبة التي تحوط بهم من السلطة الأموية وشاهد طلاب العلم يتصلون بمدرسة جده وأبيه وهم بأشد حذر ، لأن ذلك الدور لا يستطيع أحد أن يتظاهر بالاتصال بآل محمد ومن عرف في ذلك فانما مصيره القبر أو ظلمة السجن الى حيث الأبد .

نشأ الصادق في عصر تتنازع فيه الأهواء ، وتضطرب فيه الأفكار وطغت فيه موجة الاحن والأحقاد وتلاطمت فيه أمواج الظلم والارهاب .

وتقرب الناس الى ولاة الأمر بالوشايات والاتهامات فلا حرمة للنفوس ولا قيمة للدين ولا نظام يشمل الرعية ، بل هي فوضى والأمراء يحكمون بما شاءوا والرعية بين أيديهم العوبة لأغراضهم .

وأشد الناس بلاءاً هم أنصار آل محمد وشيعتهم واتخذ خصومهم شتم على

سنة يتمون به فرضهم ، فلا يدخل الداخل الى مسجد ولا معبد ولا مجلس ولا حلقة علم إلا ويسمع تلك العبارات التي يعبر بها أولئك القوم عن سوء سريرتهم ولا يكاد يصغى لخطيب أو قصاص أو واعظ إلا وكانت براعة استهلاله شتم على عليه السلام .

فكان آل محمد يلاقون تلك المشاق ويواجهون تلك المصاعب بقلوب مطمئنة بما وعد الله الصابرين ، وكل هذه الأمور شاهدها الامام الصادق فى نشأته أو أخذ عنها من أبيه صورة واقعية بعد حدوثها فبعين الله ما لقيت الأمة الاسلامية ومالقى آل محمد الذين هم حملة العلم ؛ ومبلغى رسالات الاسلام.

أدرك الامام الصادق صلوات الله عليه ثلاث سنين من خلافة عبدالملك وتسع سنين وثمانية أشهر من خلافة الوليد بن عبدالملك ، وثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام من خلافة سليمان ، وسنتين وخمسة أشهر من خلافة عمر ابن عبدالعزيز وأربع سنوات وشهراً من خلافة يزيد بن عبد الملك وعشرين سنة من خلافة هشام بن عبد الملك ، وسنة واحدة من خلافة الوليد بن يزيد وستة أشهر من خلافة يزيد بن الوليد وبعده لم يبق خليفة للأمويين بعينه لكثرة الاضطرابات حتى زال ملكهم فى سنة ١٣٢ هجـ .

كل هذه الأدوار شاهدها الامام الصادق ، وهو يعيش وأهل بيته بتلك الدائرة الضيقة محاطاً بالرقابة ، لتلك الاتهامات التي يحوكها ضده المتقربون لخصوم آل محمد وهو يرى بين آونة وأخرى مصارع زعماء الشيعة وسجن آخرين ومطاردة السلطة لبقية السيف منهم ، وكان يطرق سمعه مدة تسع عشرة سنة شتم جده على عليه السلام وانتقاص آله وكان يرى بعض ولاة المدينة يجمع العلويين يوم الجمعة قريباً من المنبر يسمعهم شتم على وانتقاصه ، حتى ولى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ فرفع السب عن على عليه السلام كما سيأتى بيانه .

— ٨ —

كانت نشأة الامام الصادق نشأة خشونة وملاقاة مصائب وخوض غمرات ومحن وبلاء ، ومع هذا كله فانه كان لا يمتنع من الجهر بالحق وارشاد الناس وتحذيرهم من مخالطة أولئك الظلمة وإذ كان ينهى عن المرافعة اليهم وينهى عن الاختلاط بهم واعانتهم فى شىء والتولى لهم وقبول أى عمل منهم .

وفى أيامه كان خروج زيد بن على فى الكوفة فكان يلزم متابعته ويقول بايعوه ولما قتل زيد كان يؤبنه بكلماته البليغة ويلعن قاتله وذلك فى أيام هشام ابن عبد الملك ذلك الجائر الذى أظهر العداء لآل أبى طالب بصورة ارهابية بعد قتل زيد ، وأمر عماله بالتضييق عليهم وأن تمحى أسماؤهم من ديوان العطاء وملأ منهم السجون ، وكتب لعامله يوسف بن عمر الثقفى بقطع لسان الكميت ويده ، لأنه رثى زيداً كامنع العطاء عن أهل المدينة لاتهامه اياهم بالميل الى زيد وألزم آل أبى طالب بالبراءة من زيد الى آخر ما هنالك من فجائع وأمور كانت تحوط بالإمام وتنكد عيشه ولكن عناية الله قضت بأن يزداد شعور الناس نحو آل محمد مع تلك المحاولات التى اتخذها الأمويون ، فكانت هناك اجتماعات ومؤتمرات سرية سعياً الى انقلاب عام يزيل مملكة الأمويين وتحويلها لآل محمد وبانتشار الدعاة لهذه الفكرة وحصول خلاف بين الأمويين أنفسهم اضطربت الدولة ودب فى جسمها الضعف وأحاطت بها عوامل الانهيار فكانت فترة سعيدة ولكنها كانت فترة مؤلمة فى الوقت نفسه إذ كان الامام الصادق يرى ما يصيب الدين الاسلامى من وهن وتشويه وانتهاك فانبرى لفتح أبواب مدرسته ، وليقوم بما يجب عليه من توجيه الناس ، وبث الأحكام وتعاليم

الدين فهو بين شيخوخة الدولة الأموية . وطفولة الدولة العباسية قام فى عصر ازدهار العلم لتعليم الناس حتى عد تلامذته أربعة آلاف رجل .

وكان بيته عليه السلام فى تلك الفترة كالجامعة ، يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الاوقات الفان وبعض الاحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين -١- .

وكان يؤم مدرسته طلاب العلم ورواة الحديث من الاقطار النائية ، لرفع الرقابة وعدم الحذر فأرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز الى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها ومن كل قبيلة من بنى أســـد ومخارق ، وطى ، وسليم ، وغطفان ، وغفار ، والازد ، وخزاعة ، وخثعم ، ومخزوم ، وبنى ضبة ، ومن قريش ، ولاسيما بنى الحارث بن عبدالمطلب ، وبنى الحسن بن الحسن بن على-٢-

ونقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم مثل يحي بن سعيد الانصارى ، وابن جريج ومالك بن أنس ، والثورى ، وابن عيينة ، وأبى حنيفة ، وشعبة ، وأيوب السجستانى ، وغيرهم ، وعدّوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها -٣- .

ونالت مدرسة الصادق شهرة عظيمة - كما يأتى بيان ذلك إن شاء الله - ففى تلك الفترة السعيدة . كان هو زعيم الحركة الفكرية فى ذلك العصر .

ويعتبر فى الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية فى الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسى المذاهب الفقهية فحسب بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية -٤-.

-١- انظر مجلة رسالة الاسلام العدد ٤ السنة ٦ .

-٢- انظر كتاب جعفر بن محمد لسيد الأهل .

-٣- كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي فى مطالب السؤال ج ٢ - ٥٥ .

-٤- تاريخ العرب للسيد مير على الهندي ١٧٩ .

هذا ما يتعلق بالعهد الأول من حياته عليه السلام وهو العهد الأموى على سبيل الإجمال ، وسيأتى ما له صلة بالبحث فى موضوع ملوك عصره وأمراء بلده .

والآن نتحول إلى العهد الثانى وهو العهد العباسى فلنتحدث عنه باختصار :

— ١ —

ما كاد المسلمون يلمسون من الأمويين انحرافهم عن الدين واستهانتهم برجال الأمة ، ومحاربتهم أهل البيت حتى اشتد إنكارهم على تلك السيرة الملتوية وذلك النظام الجائر الذى لا يعرف العدل ولا عهد للمسلمين به من قبل .

وكانت نهضة الحسين عليه السلام صرخة داوية فهى على دعاة الجور بركان بلاء ونقمة ، ولدعاة الحق شعلة هداية يستنيرون بها فى طريق الوصول إلى الدعوة الصالحة ، وأعقبتها سلسلة ثورات دموية . مهدت الطريق لحدوث انقلاب الحكم وإبعاد اولئك القوم الذين تربعوا على دسته ، فقد ثقلوا على الناس وطال عهدهم الجائر ، فكان أفقهم مثقلا بسحب السخط على أعمالهم ، فتألفت الجمعيات السرية التى كان هدفها تحقيق ثورة إصلاحية ، لنقل الحكم من أمية - التى تعتبر فى الواقع عدوة للإسلام من البداية إلى النهاية ، إلى آل محمد الذين هم دعاة الحق وأئمة العدل .

وكان العباسيون فى طليعة أنصار العلويين ، وهم أشد الناس حماساً لتحقيق ذلك الغرض . وكان لمحمد بن عبدالله بن الحسن نشاط سياسى فى ذلك العهد ، وبويع فى مؤتمر عقده الهاشميون من العباسيين والعلويين - وأول من بايعه السفاح وأخوه المنصور .

ومهما يكن من أمر فقد اندلعت نيران الثورة وهتافات الثوار إلى الرضا

من آل محمد فوقعت الواقعة بأمية ودارت بهم الدوائر فزال ملكهم وأراح الله العباد والبلاد منهم ، وتطلع المسلمون الى العهد الجديد الذى يأملون به انتشار العدل وتطهير الأرض من الفساد ، لاسيما إذا قام على رأس الدولة الجديدة زعيم علوى ممن لاشك فى حقه بالخلافة .

— ٢ —

جرت الحوادث ودارت عجلة الزمن ، وانتقل الأمر إلى بنى العباس الذين انتحلوا انطباق اسم آل محمد عليهم دون غيرهم ، وبويع السفاح (١) فكان عهده عهد ثورة وقد شغل الناس بمطاردة الأمويين وتتبع البقية منهم ، واستطاع بمهارته أن يظهر للناس عطفه على أبناء عمه باكرامهم وعدم التعرض لهم وهو يحاول بذلك جلب قلوبهم ، وإقناع الأمة التى ترى أن الحق لهم دونه وأنه أحد الأفراد المطوقين بالبيعة لآل على (ع) فاقتضت سياسة الدولة الفتية أن يسير على خطة المجاراة لأبناء عمه والتظاهر بأخذ الثار من قتلة الحسين عليه السلام لمصانعة الناس الذين بدأوا يدركون بأن العباسيين إنما كانوا يسعون فى تحصيل الخلافة لأنفسهم باسم (آل البيت) وما كانوا يقصدون بآل البيت إلا أنفسهم دون العلويين .

ولم تطل أيامه حتى مضى لسبيله وقد عهد بالأمر لأخيه المنصور (٢)

---

(١) السفاح هو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٢ وتوفى بالجدرى فى الانبار يوم الأحد ١١ ذى الحجة سنة ١٣٦ وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر .

(٢) هو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس وهو اكبر من أخيه السفاح وأمه أم ولد اسمها سلامة وكان اكبر من أخيه أبى العباس بويع له بالخلافة سنة ١٣٦ وكانت خلافته ٢٢ سنة وتوفى سنة ١٥٨ .

وهو ذلك الداهية الذى صقلت جوهره الأيام وأعطته التجارب درساً من التيقظ وجعلته يحذر أشد الحذر حتى من أقرب الناس اليه .

قام المنصور والدولة لم ترتكز دعائمها على اسس قوية فهى مهددة من نواح شتى : فالعلويون يرون العباسيين دعاتهم وأنصار دعوتهم والأمة متجهة بأنظارها اليهم ، وان الأمر لهم دونهم ، وقواد الثورة يرون ان قيام العباسيين بالأمر كحكومة مؤقتة يستطيعون أن يحولوا الأمر عنهم متى شاؤوا ، وبقية السيف من الأمويين يخشى على الدولة من انتشارهم فى الآفاق .

وكان علماء المدينة يجهرون بالفتوى بأن بيعة العباسيين غير صحيحة .

ومن هذا وذاك من الأمور التى تقف أمام المنصور فتكدر عيشه ، وإن أهم شىء عنده أمر العلويين وفى طليعتهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فكان يحذر منه أشد الحذر ويحاول زوال تلك العقبات بكل حيلة ولا يقف عند حد .

والمنصور عندما يلى الخلافة يرجع بتفكيره الى الوراء ويتذكر سالف أيامه وماضيه المحزن يوم كان جوالا ، تتقاذفه أمواج الخوف ، وتسوقه الحاجة ، وطلب العيش الى رواية الحديث ، وهو لا ينسى ضرب السياط وظلمة السجن فى عهد الدولة الأموية ، ولا ينسى استعطاف الناس بمدح آل محمد ، وهو أحد رواة حديث الغدير -١- كل ذلك لا تنمحى صورته عن مخيلته فهو أمامه ومعه .

— ٣ —

والآن وقد أصبح أمير المؤمنين تجبى له الأموال من الشرق والغرب وأودع فى خزائنه ما يكفى للدولة عشر سنين بعد أن كان لا يجد درهماً واحداً

-١- تأريخ بغداد (ج ١٢ ص ٣٤٤) .

وتحوط به آلاف من الجنود ، بعد أن كان يقطع المسافة البعيدة وحده خائفاً فهو بحكم الغريزة النفسية يشح بما اوتى حتى على نفسه ، فكان يرقع ثيابه بيده ويحاسب على الدانق ، حتى عرف به ، ويكون فى حذر من أقل واهمة يتخيل بها زوال ملكه ، فحصنه بالسيف ، وجعل بينه وبين الخطر سوراً من أشلاء الأبرياء وبحراً من الدماء التى حرم الله إراقتها .

وقد اتخذ طبيباً نصرانياً يستعين به على قتل من لايود أن يتظاهر فى قتله فكان يدس السم بالدواء فهذا الخصيب النصرانى (كان زنديقاً معطلا) لا يبالى بمن قتل ، أرسل اليه المنصور يأمره بأن يقتل محمد بن أبى العباس . فاتخذ سماً قاتلا ثم انتظر علة تحدث به ، فوجد محمد حرارة فقال له الخصيب : خذ شربة دواء ، فقال هيئها فهيأها له وجعل فيها ذلك السم ثم سقاه فمات منها . فكتبت امه تخبر المنصور فأمر بضرب الخصيب ثلاثين سوطاً خفيفة وسجنه ثم أطلقه وأعطاه ثلاثمائة درهم -١- هذه دية القتيل فى شرع المنصور .

وهناك نوع آخر من ألوان العذاب الذى كان يعذب بها من وقع تحت قبضته ، وهو وضع الأحياء فى البناء ، فهذه اطلال الهاشمية وبغداد لو تمكنت من الإفصاح عن شيء لكان أول شيء تفصح عنه هى جثث الأبرياء الذين دخلوا فى بطونها بدون جرم . وعندالله تجتمع الخصوم .

لقد سلبت الرحمة من قلبه فلا يعرف لها فيه موضعاً ، وكان يقف أمام المشاهد المحزنة موقف رجل لا تؤلمه مناظر البؤس أو تزعجه مواقف الشقاء .

يمر موكبه عندما أراد الحج بابنة عبدالله بن الحسن (ع) وكان أبوها تحت أسره وقد حمل مع من حمل من العلويين ، فأرادت استعطافه ، والرفق بحال أبيها فأنشأت :

-١- الطبري ج ٧ - ٣٠٩ .

أرحم كبيراً سنه متهدم في السجن بين سلاسل وقيود
وارحم صغار بني يزيد انهم يتموا لفقدك لا لفقد يزيد
إن جدت بالرحم القريبة بيننا ما جدنا من جدكم ببعيد

فكان جواب المنصور : أذكرتنيه . ثم أمر به فأحدر في المطبق وكان آخر العهد به .

هذه صورة من جور المنصور وقساوته لم تعطفه عاطفة الرحم ، ولم تدعه الإنسانية الى الرحمة بهذه المسكينة ، ولم يراقب القربى وحرمة النسب وذل موقفها بين يديه ، وكيف يؤمل منه العطف على أهل بيت ينظر اليهم نظر خصم ملأ قلبه عليهم حقداً ونفخ في أوداجه غضباً .

— ٤ —

إنه لا يرى لملكه بقاءاً ان بقي منهم أحد في الوجود ، وكان الفتك بهم هو شغله الشاغل ولا يتوقف في تنفيذ ارادته مهما كلفه الأمر فقام بذلك العمل الإرهابي وفتك بهم فتكاً ذريعاً يوم دخل المدينة محتجاً بأداء فريضة الحج ، وما الحج أراد ولكنه أراد أن يعرف حقيقة الأمر عندما يقوم بمهمة الفتك بآل محمد .

وها هو يدخل المدينة وبنو الحسن في سجن رياح ، فأمر بالقبض على من بقي منهم فترى شرطته وقواده يعلوهم الغضب ، ويرتكبون الشدة ، يأتون بأبناء على واحداً بعد واحد ويودعونهم في السجن بأشد ما يتصور من القسوة .

كان العباس بن الحسن بن الحسن (١) واقفاً على باب داره وأمه تراقبه

(١) هو العباس بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب وامه عائشة بنت طلحة —

وقلبها كجناح الطير من الخوف فقبض عليه الشرطة ، فأخذتها الدهشة ولم تستطع شيئاً فى الدفاع عنه إلا أنها طلبت منهم أن تشم ولدها وتودعه ، فكان الجواب بشدة وغلظة لا يكون ذلك ، وقبض على محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو بنى الحسن لأمهم ، فأحضره أمامه وكلمه بما لا يليق ذكره ، وأمر بأن يشق ازاره لتبدو عورته ، وأمر بضربه بالسياط فضرب حتى سال دمه ، وأرجعه لاخوانه فأقعد الى جنب أخيه عبدالله بن الحسن وكان قد أخذ العطش منه مأخذاً فاستسقى ماءاً فلم يجسر أحد أن يسقيه إلا خراسانى رق عليه فسقاه ماءاً .

ثم أصدر المنصور أمره بحملهم من المدينة الى العراق بعد أن أثقلوا بالحديد وضربوا بالسياط ، وهو مطرب لنغمة السلاسل وأنين المعذبين ، فسار ذلك الموكب فى شوارع المدينة محاطاً بالجند ، وهو يسرع الخطى من المدينة الى الكوفة ، الى مقرهم الأخير فأودعوا ذلك السجن المظلم ، الذى لا يعرف فيه الليل من النهار .

لقد أودعهم المنصور فى بطن الأرض ، وفعل بهم ما لا يفعل الحيوان المفترس بفريسته ، وعاملهم بأقسى ما يتصور من الشدة . فهم لا يعرفون الليل من النهار ، وكان الواحد منهم اذا مات من شدة العذاب بقيت جثته ما بينهم ، وهم صابرون محتسبون ، يتلون الكتاب ، ويقيمون الصلاة ولا يعرفون أوقاتها إلا بأجزاء من القرآن يقرأونها وكانت خاتمة مطافهم أن هدم عليهم السجن فماتوا تحت أنقاضه .

— الجود بن عمر بن عبدالله التيمى وكان العباس أحد فتيان بنى هاشم وله يقول ابراهيم بن على الشاعر :

لما تعرضت للحاجات واعتلجت ... عندى وعاد ضمير القلب وسواسا
جعلت أسمى لحاجاتي ومصدرها ... براً كريماً لثوب المجد لباسا

توفى فى سجن المنصور سنة ١٤٥ لسبع بقين من شهر رمضان وهو ابن خمس وثلاثين سنة

لقى أبو عبدالله فى هـذين العهدين كثيراً من المشاكل ، فهو فى العهد الأموى عرضة لأخطار أولئك القوم الذين يكيدون آل محمد ﷺ ويتوقعون الفرص للفتك بهم ، وهو فى عصره عميد البيت النبوى وسيد الهاشميين والمبرز من آل محمد ﷺ ومن رجال الأمة الذين كانوا يهم الدولة أمرهم باتجاه الأنظار اليهم ولا يستبعد من الأمويين أن يقابلوه بكل أذى وشدة ، ولكن الله سبحانه وتعالى عصمه منهم ورد كيدهم عنه . ولما دب الضعف فى جسم الدولة كانت فترة مريحة استطاع الإمام أن يركن الى الراحة والاطمئنان فتوافد عليه طلاب العلم من رجال الأمة كما مر ذكره .

أما فى العهد العباسى فهو قذى فى عيونهم لأنه زعيم أهـل بيت ثارت الأمة لأجلهم وانهارت الدولة الأموية بالدعوة لهم .

وقد كان فى أيام السفاح برفاهية نظراً للظروف والأوضاع التى سايرها السفاح بمقتضى سياسة الدولة . وفى زمن المنصور كانت المشكلة أشـد مما هى عليه من قبل ، فقد كان المنصور يقظاً لا يفوته ما لجعفر بن محمد من المنزلة فى المجتمع ويعظم عليه اتجاه الأنظار اليه وقد عاشره من قبل وعرف منزلته وعلمه لذلك كان حذراً منه أشـد الحذر ، والمخاوف تحيط به والأوهام والشكوك تساوره ، كما أن الوشاة ملأوا سمع المنصور من الأكاذيب على جعفر بن محمد عليهما السلام مما جعله يحاول الفتك به ، وكانت سياسة جعفر بن محمد وانعزاله ونظره الى الأمور بعين الواقع برهنت على كـذب أولئك الوشاة وخففت من سورة غضب المنصور قليلا ولكنها لم ترفع أصل الإتهام .

— ٦ —

كثرت الوشاة على أبي عبدالله عليه السلام فأثارت من المنصور كوامن ضغنه وحركت عوامل غيظه فحج فى سنة ١٤٧ ودخل المدينة وأمر الربيع باحضار جعفر وقال له : أبعث الى جعفر من يأتينا به تعباً قتلنى الله ان لم أقتله ، فتغافل عنه الربيع لينساه ، ثم أعاد ذكره وقال : أرسل اليه من يأتينى به متعباً ، فلما حضر الصادق عليه السلام اعلم أبا جعفر حضوره ، فلما دخل عليه قابله بوحشية وكلام لا مجال لذكره .

وقال : اتخذك أهل العراق إماماً يجبون اليك زكاة أموالهم وتلحد فى سلطانى وتبغى الغوائل قتلنى الله ان لم اقتلك فقال الصادق عليه السلام : يا أمير إن سليمان أعطى فشكر وان أيوب ابتلى فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك السنخ . فقال أبوجعفر : الى وأنت عندى يا أباعبدالله البرىء الساحة السليم الناحية ، القليل الغائلة ، جزاك الله من ذى رحم أفضل ما جزى ذوى الارحام عن ارحامهم ، ثم تناول يده فأجلسه معه ثم قال : على بالمتحفة فأتى بدهن فيه غالية فخلقه بيده . ثم قال : فى حفظ الله وفى كلاءته . ثم قال : يا ربيع ألحق أبا عبدالله جائزة وكسوة .

قال الربيع فلحقته فقلت له : انى قد رأيت قبل ذلك ما لم تره ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت فما قلت يا أبا عبدالله حين دخلت ؟ قال عليه السلام قلت : اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام ، واكفنى بركنك الذى لا يرام ، واغفرلى بقدرتك علىّ ، لا أهلك وأنت رجائى ، اللهم انك أكبر وأجل ممن أخاف

وأحذر ، اللهم بك أدفع فى نحره وأستعيذ بك من شره -١- .

وتركزت فى ذهن المنصور فكرة الفتك بجعفر بن محمد ، لانه يعلم أن مئات الآلاف يقولون بامامته وتجبى له الاموال وينظر بعين العظمة والاحترام كما أن أكثر الملتفين حول المنصور والمؤازرين له يذهبون إلى القول بامامته .

وأراد امتحانه مرة ليكون له طريق فى المؤاخذة . فدعا ابن مهاجر وقال: خذ هذا المال وآت المدينة والق عبدالله بن الحسن وجعفر بن محمد وأهل بيتهم وقل لهم : إنى رجل غريب من أهل خراسان من شيعتكم ، وقد وجهوا اليكم بهذا المال ، فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط كذا وكذا فاذا قبض المال فقل : إنى رسول وأحب أن يكون معى خطوطكم بقبض ما قبضتم منى . ومضى فلما رجع قال له أبو جعفر : ما وراءك ؟ فقال : أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد فانى أتيته وهو يصلى فى مسجد الرسول ﷺ فجلست خلفه وقلت : ينصرف وأذكر له فعجل وانصرف ، فالتفت إلى فقال: يا هذا ، اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد ، وقل لصاحبك اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد ، فانهم قريبوا العهد بدولة بنى مروان وكلهم محتاج ، فقلت : وما ذاك أصلحك الله ؟ فقال : ادنو منى فدنوت ، فأخبرنى بجميع ما جرى بينى وبينك حتى كأنه ثالثنا ، فقال له : يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم (٢) .

وصعبت على المنصور تلك الطرق التى اتخذها جعفر بن محمد فى حذره واحتياطه عن أى مؤاخذة من المنصور له ليستحل بها إباحة دمه فانه لم يبق طريقاً إلا سلكه من إرسال الكتب المزورة عن لسان شيعة جعفر بن محمد

-١- ابن الجوزي فى صفوة الصفوة ج ٢ - ٩٦ وابن الصباغ المالكى فى الفصول المهمة ٢٠٧ والمفيد فى الارشاد ٢٥ .

(٢) ابن شهراشوب ٢ - ٣٠٢ .

يدعونه للنهوض وإرسال الأموال الكثيرة مع أناس استخدمهم المنصور لهذه الغاية عساه أن ينجح بموافقة جعفر عليه السلام فى قبض المال أو جواب الكتب ، لتكون له وسيلة للقضاء على الإمام ، ولكن تلك المحاولات ذهبت وكان نصيبها الفشل .

وان المنصور ليهمه أمر جعفر بن محمد أكثر من غيره وله معه أخبار أهمل كثير من المؤرخين ذكرها ، وكانت بينهما صلة أيام بنى أمية وعاشره فى خلافته أكثر من عشر سنين ، ولقى فى هذه المدة جهداً وامتحن غير مرة ، وكان الخطر محدقاً به والمنصور لا يجهل مكانته عليه السلام ، فهو الشخصية التى كان يتطلع اليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية وكان لمدرسته حركة واسعة ونشاط علمى ، وازدحم عليه طلاب العلم ، واشتهر ذكره ، وكان زعيم أهل الحديث فى معركة أهل الرأى وأهل الحديث كما يأتى بيانه . فكان المنصور يخشى خطر هذه الشهرة ، ويحذر من حدوث انقلاب مفاجىء من قبل العلويين ينضم اليه علماء الأمة الذين اتصلوا بجعفر بن محمد وعرفوا منزلة أهل البيت ، مع علمه بمعارضته لبيعة محمد بن عبدالله ، فانه اعترض على هذه البيعة معلناً أنها جاءت سابقة لأوانها ، ولكن المنصور يخشى أن يترأس الإمام الصادق دعوة العلويين فيشتد الخطر على الدولة الجديدة .

ولكن جعفر بن محمد كان بحدسه الصائب ونظره الثاقب يخترق الحجب ويستشف أحداث المستقبل ويخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها » .

فكان من رأيه عدم التعرض لطلب الأمر ، ونهى قومه عن عقد تلك البيعة وكان ينصحهم فى التجافى عن شؤون الدولة فى عصره ، وقد عرض عليه الخلافة أبو سلمة الخلال وزير آل محمد فى بدء الدعوة ، قبل وصول الجند اليه فأبى الإمام قبولها ، ولم يقنع أبو سلمة بهذا الرد وحاول إقناع الإمام بكل

صورة ، وعندما أقبلت الرايات كتب أبو سلمة اليه : إن سبعين الف مقاتل وصل الينا فانظر أمرك ـ١ـ فأجابه بالرد وان الأمر للسفاح وللمنصور من بعده.

كما انه عليه السلام لم يستجب لما دعاه اليه ابو مسلم الخراسانى قائد الثورة فى بلاد فارس ، وصاحب السلطان فى ذلك الدور ، فان أبا مسلم كان يدعو الناس الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله ، وأعلن غضبه على بنى امية لأنهم ظلموا اهل البيت ، واراقوا دماءهم ، واراد اسناد الامر لآل على عليه السلام لانهم احق بهذه الدعوة من غيرهم ، فكتب الى الامام الصادق عليه السلام ـ وهو زعيم اهل البيت وسيدهم فى عصره ، واليه تطلعت الانظار ، واتجهت القلوب ـ وقال فى كتابه للإمام الصادق عليه السلام :

انى قد اظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بنى امية الى موالاة اهل البيت ، فان رغبت فلا مزيد عليك .

فأجابه الامام الصادق عليه السلام : ما انت من رجالى ، ولا الزمان زمانى(٢).

فهو عليه السلام بنظره الصائب ومنهجه السديد ، وعلمه بما وراء الحوادث ، لا يرى أن يستجيب لدعوة لا تتركز على ما يؤمل فيه تحقيق اهداف الامة واصلاح الاوضاع الفاسدة ،لعلمه بأن هؤلاء الذين اظهروا الولاء له لم يكونوا مخلصين فى ذلك وانما هناك غايات لا يمكنه أن يوافقهم على تحقيقها فهو ينظر الى الامور بمنظار الواقع ويسير على خطط حكيمة وآراء سديدة فى تقدير الظروف ومناسباتها .

وقد أخبر عليه السلام من قبل بصيرورة الخلافة لبنى العباس دون غيرهم من الهاشميين (ولذلك كان أسد الهاشميين رأياً بمعارضته لبيعة النفس الزكية . والواقع

ـ١ـ مناقب ابن شهراشوب ٢ ـ ٣١٠ .

(٢) الملل والنحل ١ / ٢٤١ .

ان أئمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت اشاراتهم الى ملك بنى العباس وانهم سيطأون أعناق الرجال ويملكون الشرق والغرب ويجمعون من الأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلهم وان مدة ملكهم ستطول وتكون أضعاف مدة الدولة الأموية وقد اخبروا بهذه الحوادث قبل وقوعها)-١- .

كما انهم كانوا ذوى تجارب سياسية واختبارات اجتماعية تقيض لخواطرهم نوعاً من الفراسة واستطلاع الحوادث التى لابدلها أن تقع فى ميادين الإنقلابات الحزبية والثورات المتشابكة فى طول الامبراطورية الإسلامية وعرضها .

-١- انظر مؤرخ العراق ابن الفوطي لفضيلة العلامة الشبيبي .

الامام الصادق عليه السلام

١ — انطباعات عن شخصيته

٢ — مكانته العلمية

٣ — ملوك عصره وأمراء بلاده

٤ — مدرسته وتلامذته

التأريخ هو مرآة تأخذ الصور فتحفظها للأجيال ، وهو للجميع لايختص بأمة دون أخرى ولا يتقيد برأى دون رأى ، وهو أمين ، والأمين يقبح به أن يخون أمانته . ولئن تحتم عليه أن يحتفظ بالحقائق والأضاليل معاً فليس ذلك إلا الى أمد من الآماد ثم تنكشف الحقائق لتثبت وحدها سليمة من مجاورة الأضاليل .

والتأريخ يسجل الحوادث على ما هى عليها بصورها وأشكالها فلا تغيير ولا تبديل ولا نقل صورة وترك أخرى . هذه هى وظيفة التأريخ الصحيح فى كل دور من الأدوار .

ولكن التلاعب السياسى الذى لعب دوراً هاماً فى سيطرته على نظام التأريخ وتصرفه فى سيره ، وسلب حريته فى أداء أمانته جعلنا نعترف بأنه لم يتمكن من أداء واجبه على الوجه الصحيح ، وقد أودعت فى طياته أشياء هى أعظم عليه من وخز المدى ، وتركت أشياء هى مفخرته عندما يؤديها الأجيال وان من المؤسف جداً أن يفقد التأريخ حريته وتلتوى به الطرق ، وإذا به ينظر فى مرآة الغير ولاينظر الغير فى مرآته . بفعل المسيطرين عليه لا بفعله هو .

ولئن منى التأريخ بتلك القيود فهو لا يخلو من حقائق يطمئن اليها كل باحث وها نحن على ضوء تلك الحقائق ننتزع من أشواك العصبية والأهواء زهرة ﴿ حياة الإمام الصادق ﴾ وإن أكثر المؤرخين قد أهملوا أخباره وسيرته ولم يذكروا إلا النزر منها ، ومن وقف على ماكتبه ابن كثير فى تأريخه عن بعض الشخصيات التى لا قيمة لها فى سوق الإعتبار يعرف مدى انحرافه وانه

أهمل الواقع وظلم الحقيقة وتراه عندما يأتى لذكر جعفر بن محمد الصادق فى حوادث ١٤٨ يقتصر على قوله : (وفيها مات الإمام جعفر الصادق) ، ولا يروق له ذكر شيء عن حياته .

وأغرب شيء وقفنا عليه أن البحاثة محمد محى الدين المعروف بالتتبع وضبط الألفاظ فى تصحيحه وتعليقه على الكتب أهمل اسم جعفر بن محمد وغير اسمه فيقول عند ذكر وفاته فى العنوان ـ وفاة محمد بن جعفر العلوى . انظر مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ طبع دار الرجاء . وهب أن ذلك غلط مطبعى أو من الناسخ فى أصل الكتاب فان الواجب عليه التنبيه والإلتفات لهذا الغلط .

ومثل شخصية جعفر بن محمد تلك الشخصية الإسلامية العظيمة يجب على التأريخ اعطاءها حقها من البحث ، فهو أبرز شخصية فى عصره وأعلم الأمة على الإطلاق .

ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ان الإمام الصادق عليه السلام كان أعلم أهل عصره وهو أولى الناس بحفظ أمانة الدين ، ولا نبعد عن الواقع ، ان قلنا ان تلك الخطوات التى سار عليها فى عصر ازدهار العلم قد اعطت الأمة درساً ، وعلمتهم كيف يجب ان يكون المصلح الذى يقتدى به عظماء الأمة ورجال الدعوة ، وان يستقل العلم بمؤهلاته النفسية ويفرض نفسه على المجتمع بقيمه الروحية ، بدون التزام بالقوة . بل الأولى ان يكون مقبولا من حيث هو ، لا من حيث الإرهاب والسلطة او المغريات الخداعة ، وان الكثير ممن درسوا حياة الإمام الصادق عليه السلام إنما سلكوا طرق الحذر والتكتم ، فتلك دراسة سطحية لا تتجاوز حدود دائرة الحذر او التعصب ، وقد رسمت صورته فى اطار التأريخ بريشة مفن مرتعشة اخذت معانيها من طريق التلقين لا من طريق الفن والواقع ، لذلك لم تبرز طبق الأصل ومع هذا فقد جاءت سليمة من التشويه وفريدة فى الابداع .

وغرضنا فى البحث عن حياة الصادق بيان منزلته العلمية بالقياس الى غيره ممن أخذ الشهرة وما هو منه فى شيء والاسباب غير مجهولة والحقيقة غير صامتة . وهنا يلزمنا أن نتخلى عن الموضوع ونستمع إلى أقوال علماء الامة ورؤساء المذاهب وحفاظ الحديث وكبار المؤرخين والكتاب من القدماء وبعض المعاصرين فى انطباعاتهم عن شخصية الإمام الصادق عليه السلام بدون احاطة للكل ، بل من يحضرنا ذكره فلنصغ لأقوالهم تمهيداً للبحث .

* * *

فى كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه ، وحجة زماننا ابن أخى جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدى من خالفه - ١ -

زيد بن على (ع)

إن جعفراً كان ممن قال الله فيه : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) . وكان ممن اصطفاه الله وكان السابقين فى الخيرات - ٢ - وانه ليس من أهل بيت إلا وفيهم محدث وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم . - ٣ -

المنصور الدوانيقى

جعفر بن محمد اختلفتُ اليه زماناً فما كنت أراه إلا على احدى ثلاث خصال ، إما مصلّ ، وأما صائم وأما يقرأ القرآن . - * - وما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر بن محمد الصادق علماً

- ١ - مناقب ابن شهر اشوب ٢ - ١٤٧

- ٢ - اليعقوبى ٣ - ١٧٧

- ٣ - المناقب ٢ - ٣٠٢

- * - عبارة تهذيب إلى هنا وما بعدها زيادة فى كتاب المجالس السنية ج ٥ وقد ذكر ابن تيمية فى كتاب التوسل والوسيلة ص ٥٢ ط ٢ هذه العبارة فى جملة طويلة فى ضمنها هذه الجملة وسنذكرها انشاء فى ج ٢٤ للمؤلف

وعبادة وورعاً - ١ -

مالك بن انس

كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت انه من سلالة النبيين - ٢ -

عمرو بن المقدام

ما رأيت افقه من جعفر بن محمد لما اقدمه المنصور بعث الى فقال : يا أبا حنيفة ان الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيء له من المسائل الشداد فهيأت له أربعين مسألة ، ثم بعث الىّ أبو جعفر وهو بالحيرة فاتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما ابصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر ، فسلمت عليه واومأ إلى فجلست ثم التفت اليه فقال : يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة .

فقال جعفر : نعم . ثم اتبعها قد أتانا . كأنه كره ما يقول فيه قوم انه إذا رأى الرجل عرفه ، ثم التفت المنصور إلى فقال : يا أبا حنيفة الق على أبى عبدالله من مسائلك . فجعلت القى عليه فيجيبنى ، فيقول : انتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا . فربما تابعهم وربما خالفنا جميعا حتى اتيت على الاربعين مسألة ، ثم قال أبو حنيفة : السنا روينا ان اعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس ؟ - ٣ -

أبو حنيفة

ما هذا ببشر وإن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ، ويتروح إذا شاء ، فهو هذا وأشار الى الصادق .

ابن أبى العوجاء

- ١ - تهذيب ٢ - ١٠٤

- ٢ - تهذيب التهذيب ٢ - ١٠٤

- ٣ - مناقب أبى حنيفة الموفق ج ١ ص ١٧٣ وجامع اسانيد أبى حنيفة ج ١ ص ٢٢٢ وتذكرة الحفاظ للذهبى ج ١ ص ١٥٧

جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل فى الحكمة وزهد فى الدنيا وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار العلوم ، ثم دخل العراق وأقام بها مدة ما تعرض للأمامة قط ولا نازع فى الخلافة أحداً ، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يقع فى شط ومن تعلا الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط - ١ -

أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستانى

الإمام الصادق كان بين أخوته خليفة أبيه نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره . كان رأساً فى الحديث ، روى عنه يحي بن سعيد وابن جريح ومالك بن انس وابن عيينة وابو أيوب السجستانى وغيرهم .

القرمانى فى تاريخه

جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلما وفضلا .

ابن حيان

جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله - ٢ -

الحافظ أبو حاتم

جعفر بن محمد هو من علماء أهل البيت وساداتهم ذو علوم جمة وعبادة موفورة وأوراد متواصلة وزهادة بينة وتلاوة كثيرة يتتبع معانى القرآن ويستخرج من بحره جواهره ويستنتج عجائبه ويقسم أوقاته على انواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه ، رؤيته تذكر بالآخرة ، واستماع كلامه يزهد فى الدنيا ، والاقتداء بهديه يورث الجنة ، نور قسماته شاهد انه من سلالة النبوة ، وطهارة افعاله تصدع انه من ذرية الرسالة ، نقل عنه الحديث واستفاده منه

- ١ - الملل والنحل ج ١ - ٢٧٢ - ط ٢

- ٢ - تهذيب ٢ - ١٠٤

العلم جماعة من اعيان الأمة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الانصارى وابن جريج ، ومالك بن انس والثورى وابن عيينة ، وايوب السجستانى وغيرهم ، وعدوا أخذهم منه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها - ١ -

كمال الدين محمد بن طلحة الشافعى

جعفر بن محمد الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق أقبل على العبادة والخضوع ، وآثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع - ٢ - أبو نعيم

جعفر بن محمد بن على بن الحسين كان مشغولا بالعبادة عن حب الرئاسة - ٣ -

عبدالرحمن بن الجوزى

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن أبى طالب وكنيته أبو اسماعيل ويلقب بالصادق والطاهر والفاضل ، واشهر القابه الصادق - ٤ -

أبو المظفر يوسف شمس الدين

أدركت فى هذا المسجد (يعنى الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثنى جعفر بن محمد - ٥ -

الحسن بن على الوشاء

جعفر بن محمد ، ازدحم على بابه العلماء ، واقتبس من مشكاة انواره الاصفياء ، وكان يتكلم بغوامض الاسرار وعلوم الحقيقة وهو ابن سبع سنين - ٦ -

عبدالرحمن بن محمد الحنفى البسطامى

- ١ - مطالب السؤول ج ٢ ص ٥٥
- ٢ - حلية الأولياء ج ٣ - ١٩٢
- ٣ - صفوة الصفوة ج ٢ - ٩٤
- ٤ - تذكره الخواص ٣٥١
- ٥ - المجالس للسيد الأمين ج ٥ - ٢٠٩
- ٦ - مناهج التوسل ١٠٦ الجواب

جعفر بن محمد . الذى ملأ الدنيا علمه وفقهه . ويقال : ان أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثورى . وحسبك بهما فى هذا الباب - ١ -

أبو بحر الجاحظ

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فقيه صدوق -٢-

ابن حجر العسقلانى

مناقب الصادق فاضلة ، وصفاته فى الشرف كاملة ، جرى على سنن آبائه الكرام وأخذ بهديه وهديهم عليهم السلام ، ووقف نفسه الشريفة على العبادة وحبسها على الطاعة والزهادة ، واشتغل باوراده وتهجده وصلاته وتعبده لو طاوله الفلك لتزحزح عن مكانه .

الوزير أبو الفتح الاربلى

* * *

أبو عبدالله الإمام المعظم جعفر الصادق ، صاحب الخارقات الظاهرة والآيات الباهرة المخبر بالمغيبات الكائنة أمه وأم أخيه عبدالله أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبى بكر وأمها اسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ولذا كان جعفر بن محمد عليه الرضوان يقول ولدنى أبو بكر مرتين ولد سنة ٨٣ وتوفى سنة ١٤٨ ودفن بالبقيع - ٣ -

نقيب حلب

محمد بن حمزة بن زهرة

جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان وانتشر صيته فى جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانين وأبى حنيفة وشعبة وأيوب السجستانى - ٤ -

أحمد بن حجر الهيثمى

- ١ - رسائل الجاحظ للسندوبى ١٠٦
- ٢ - تقريب التهذيب ٦٨
- ٣ - غاية الاختصار ٦٢
- ٤ - الصواعق المحرقة ١٢٠

ولد الصادق بالمدينة يوم الجمعة عند طلوع الفجر سنه ٣٨ وعاش ٦٥ سنة وكانت امامته أربعاً وثلاثين سنة ، وقد نقل الناس عنه على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم ماسارت به الركبان ، وقد عد اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف رجل توفى فى شوال سنة ١٤٨ ودفن بالبقيع مع أبيه وجده وقيل قتله المنصور الدوانيقى بالسم - ١ -

محمد سراج الدين الرفاعى

جعفر الصادق بن محمد الباقر زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم سمى الصادق لصدقه ، وينسب اليه كلام فى صفة الكيمياء والزجر والفال ولدسنة ٨٠ بالمدينة بالبقيع .

عمرو بن الوردى فى تاريخه

جعفر الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبدالله الهاشمى العلوى الحسينى المدنى ، وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر ، وأشهر القابه الصادق . حدث عنه أبو حنيفة وابن جريج وشعبة والسفيانان ومالك وغيرهم - ٢ -

جمال الدين أبو المحاسن

وجعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب السادس من الأئمة الاثنى عشر والدته أم فروة كريمة القاسم بن محمد ابن أبى بكر (رض) . ولد الإمام جعفر فى المدينة المنورة سنة ٨٢ هـ وهو أكبر اولاد الإمام محمد الباقر تلمذ على والده فريد زمانه فى العلم والفضل ، استمر على حلقة تدريس وإفادات جعفر الصادق الإمام الاعظم أبو حنيفة ، واستفاد منه أولا فى المعارف الظاهرية والباطنية ، وكان للامام اليد الطولى

- ١ - صحاح الاخبار ٤٤

- ٢ - النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨

فى الجفر والكيمياء والالمام بسائر العلوم - وكان ممن تتلمذ على الإمام موجد فن الكيمياء جابر - لم يكن له نضير فى الزهد ، والتقوى ، والقناعة وحسن الاخلاق ، ولصدق حسبه سمى بالصادق . كان أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين يدعو إلى تعظيم الإمام وتكريمه ويستنير بآرائه وارشاداته ونصائحه ، وعرض أبو مسلم الخراسانى الخلافة ابتداء على الإمام جعفر الصادق فلم يقبلها ، كان له من الأولاد سبعة ابناء وثلاث بنات ، توفى فى سنة ١٤٨ عن عمر ناهز ٦٥ سنة فى المدينة المنورة ودفن بجوار جده ووالده ، والمذهب الشيعى عرفوا صاحب الترجمة بامام وتسمائهم اليه سموا بالجعفريه -١-

* * *

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن ابى طالب الهاشمى المدنى المعروف بالصادق امه ام فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر . . . متفق على امامة وجلالته - ٢ - .

على القارى

جعفر بن محمد الصادق وهو ابن على بن الحسين بن على بن ابى طالب الهاشمى رضى الله عنهم يكنى أبو عبدالله وامه ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابى بكر الصديق وام ام فروة اسماء بنت عبد الرحمن ابن ابى بكر ، وكان من سادات أهل البيت ، سمع أباه ومحمد بن المكندر وعطاء بن ابى رباح ، روى عنه عبد الوهاب الثقفى ، وحاتم بن اسماعيل ، ووهيب بن خالد ، وحسن بن عياش ، وسليمان بن بلال ، والثورى والداوردى ويحي بن سعيد الانصارى ، وحفص بن غياث ومالك بن انس ، وابن جريج ، ولد سنة ثمانين ومات سنة

- ١ - قاموس الأعلام تأليف ش سامى ج ٣ ص ١٨٢١ استانبول وقد ترجمت الكلمة عن اللغة التركية .

- ٢ - شرح الشفا لعلى القارى ٢ / ٣٥

ثمان وأربعين ومائة وهو ابن أربعة وستين سنة - ١ -

محمد بن طاهر بن على المقدسى

جعفر الصادق أبو عبدالله جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمى القرشى سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية : كان من أجل التابعين ، وله منزلة رفيعة فى العلم أخذ عنه جماعة منهم : أبو حنيفة ، ومالك وجابر بن حيان ، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، له اخبار مع الخلفاء من بنى العباس ، وكان جريئاً عليهم صداعاً فى الحق ، وصنف تلميذه جابر بن حيان كتابا فى الف ورقة يتضمن «رسائل الإمام جعفر الصادق» وهى عدد ٥٠٠ رسالة مولده ووفاته بالمدينة-٢-

خير الدين الزركلى

(لولا السنتان لهلك نعمان) أبو حنيفة

يقول الألوسى : (هذا أبو حنيفة وهو من أهل السنة يفتخر ويقول بافصح لسان لولا السنتان لهلك نعمان) يعنى السنتين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق - ٢ -

جعفر الصادق فاق جميع اقرانه من أهل البيت وهو ذو علم غزير ، وزهد بالغ فى الدنيا ، وورع تام عن الشهوات ، وأدب كامل فى الحكمة .

الشيخ عبد الرحمن السلمى

جعفر الصادق كان من بين اخوته خليفة أبيه ووصيه ، نقل عنه فى العلوم ما لم ينقل عن غيره وكان اماماً فى الحديث ومناقبه كثيرة .

السويدى فى سبائك الذهب

- ١ - الجمع بين رجال الصحيحين ج ١ ص ٧٠
- ٢ - الاعلام ج ١ ص ١٨٦
- ٣ - التحفة الاثنى عشرية ٨ - ط / ١

جعفر الصادق له عمود الشرف ، ومناقبه متواترة بين الأنام ، مشهورة بين الخاص والعام ، وقصده المنصور الدوانيق بالقتل مراراً فعصمه الله .

جمال الدين الداوردى

* * *

ولا مشاحة ان انتشار العلم فى ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة فى كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامى ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذى تزعم تلك الحركة : هو حفيد على بن أبى طالب المسمى بالامام الصادق وهو رجل رحب افق التفكير ، بعيد اغوار العقل ، ملم كل الالمام بعلوم عصره ، ويعتبر فى الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة فى الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين أصبحوا مؤسسى المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية -١- .

السيد مير على الهندى

* * *

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، وكنيته أبو عبدالله وقيل أبو اسماعيل وألقابه الصادق والفاضل والطاهر وأشهرها الأول ، نقل الناس عنه من العلوم ماسارت به الركبان ، وانتشر صيته فى جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الكبار كيحي ومالك وأبى حنيفة -٢- .

محمود بن وهيب البغدادى

-١- تاريخ العرب ١٧٩ .

-٢- جواهر الكلام ١٣ / ط بغداد .

الامام أبو عبدالله جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم الهاشمى المدنى الصادق ، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وعطاء ومحمد بن المنكدر والزهرى وغيرهم ، وروى عنه محمد بن اسحاق ويحيى الأنصارى ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيى القطان وآخرون - واتفقوا على إمامته وجلالته - قال عمر بن أبى المقدام : كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين -١- .

أبو زكريا محى الدين بن شرف

* * *

جعفر الصادق أبو عبدالله بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب روى عنه كثيرون كمالك والسفيانان وابن جريج وابن اسحاق ، واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته ، ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٤٨ قيل مسموماً ، وثقه فى روايته الشافعى وابن معين وأبو حاتم والذهبى وهو من فضلاء أهل البيت وعلمائهم -٢- .

احمد شهاب الدين الخفاجى

* * *

كان جعفر بن محمد الصادق مستجاب الدعوة اذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلا وهو بين يديه .

الشبلنجى فى نور الأبصار

* * *

جعفر بن محمد سيد بنى هاشم ابو عبدالله العلوى .

الذهبى

* * *

-١- تهذيب الأسماء ج ١ ص ١٥٥ .

-٢- انظر شرح الشفاء .

جعفر بن محمد ابو عبدالله فقيه صدوق -١- . الزرقانى

* * *

ابو عبدالله جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن ابى طالب رضى الله عنهم اجمعين احـــد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الامامية وكان من سادات آل البيت ، ولقب بالصادق لصدقه وفضله اشهر من ان يذكر . ابن خلكان فى وفياته

* * *

سلالة النبوة ومعـدن الفتوة ابو عبدالله جعفر الصادق بن ابى جعفر محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين الهاشمى العلوى وامه ام فروة بنت القاسم بن محمد بن ابى بكر ، فهو علوى الأب بكرى الأم ولد سنة ثمانين فى المدينة (وفيها) توفى ودفن بالبقيع فى قبر فيه ابوه محمد الباقر ، وجـــده زين العابدين ، وعم جده الحسن بن على رضوان الله عليهم اجمعين واكرم بذلك وما جمع من الأشراف الكرام ، اولى المناقب ، وانما لقب بالصادق لصدقه فى مقالته ، وله كلام نفيس فى علوم التوحيد وغيرها وقد الف تلميذه جابر بن حيان الصوفى كتاباً يشتمل على الف ورقة يتضمن رسائله وهى خمسمائة رسالة -٢- . اليافعى

* * *

وقال الشيخ المناوى فى الكواكب الدرية -٣- عند ذكر الامام جعفر الصادق : وكانت له كرامات كثيرة ومكاشفات شهيرة منها :

انه سعى به عند المنصور فلما حج احضر الساعى وقال للساعى أتحلف ؟

-١- شرح المواهب ج ١ ص ٥١ .

-٢- مرآة الجنان ١ / ٣٠٤ .

-٣- انظر ج ١ / ٩٤ .

قال : نعم فحلف فقال جعفر للمنصور : حلفه بما أراه فقال : حلفه فقال : قل برئت من حول الله وقوته والتجأت الى حولى وقوتى لقد فعل جعفر كذا وكذا فامتنع الرجل ، ثم حلف فما تم حتى مات مكانه .

ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل ليلته يصلى ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجة بموته .

ومنها ـ أنه لما بلغه قول الحكم بن العباس الكلبى فى عمه زيد :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

قال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك . فافترسه الأسد .

ومنها ـ ما أخرجه الطبرى من طريق ابن وهب قال : سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة ومائة فلما صليت العصر رقيت أباقبيس فاذا رجل جالس يدعو فقال : يا رب حتى انقطع نفسه ثم قال : يا حى يا حى حتى انقطع نفسه ثم قال : إلهى إنى أشتهى العنب فأطعمنيه وان بردى قد خلق فاكسنى قال الليث : فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً إلى آخر ماذكره.

المناوى

* * *

السادس من الأئمة جعفر الصادق ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة روى عنه الحديث كثيرون مثل مالك بن أنس وأبى حنيفة ويحيى بن سعيد ، وابن جريج والثورى ، ولد رضى الله عنه بالمدينة المنورة سنة ثمانين من الهجرة وغرر فضائله على جبهات الأيام كاملة ، وأندية المجد والعز بمفاخره ومآثره آهلة وتوفى رضى الله عنه سنة ١٤٨ ـ١ـ .

عبدالله الشبراوى

ـ١ـ أتحاف الأشراف ٥٤ .

جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الهاشمى أبو عبدالله الصادق المدنى أحد الأعلام حدث عن أبيه وجده وأبى أمه القاسم بن محمد وعروة وعنه خلق لا يحصون فمنهم ابنا موسى وشعبة والسفيانان قال الشافعى وابن معين وأبو حاتم ثقة مات سنة ١٤٨ عن ٦٧ -١- .

الجزرى

* * *

أبو عبدالله جعفر الصادق : كان من سادات أهل البيت ، ولقب بالصادق لصدقه فى مقالته ، ولد سنة ثمانين وروى عنه مالك بن أنس وأبو حنيفة وكثيرون من علماء المدينة -٢- .

محمد الخضرى

* * *

وأكبر شخصيات ذلك العصر فى التشريع الشيعى بل ربما كان أكبر الشخصيات فى ذلك فى العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق ، وعلى الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات فى عصره وبعد عصره ، وقد مات فى العام العاشر من حكم المنصور .

الدكتور أحمد أمين

* * *

جعفر بن محمد كان إماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط ، وإنما بقى منها فى كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ ، يعلم الزهاد زهداً ، ويكسب العلماء علماً ، يهدى المضطرب ويشجع المقتحم ، يهدم الظلم ويبنى للعدالة ، وهو ينادى بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا ، وان قوماً لم يختلفوا فى ربهم وفى نبيهم لمجموعون مهما اختلفوا فى يوم قريب -٣- .

عبد العزيز سيد الأهل

-١- الخلاصة ٧٦ .

-٢- التشريع الاسلامى ٢٦٣ .

-٣- كتاب جعفر بن محمد ص ٦ .

كان بيت جعفر الصادق كالجامعة يزدان على الدوام بالعلماء الكبار فى الحديث والتفسير والحكمة والكلام ، فكان يحضر مجلس درسه فى أغلب الأوقات الفان وبعض الأحيان أربعة آلاف من العلماء المشهورين ، وقد الف تلاميذه من جميع الأحاديث والدروس التى كانوا يتلقونها فى مجلسه مجموعة من الكتب تعد بمثابة دائرة معارف المذهب الشيعى أو الجعفرى .

السيد محمد صادق نشأة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

* * *

أبو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين هو أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوى لقب بالصادق لصدقه فى كلامه .

فريد وجدى

* * *

جعفر الصادق وهو ابن محمد الباقر بن على زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه ، وفضله عظيم ، له مقالات فى صناعات الكيمياء والزجر والفال وكان تلميذه جابر بن حيان قد الف كتاباً يشتمل على الف ورقة تتضمن (رسائل الصادق) وهى خمسمائة رسالة ، واليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر ، وكان جعفر أديباً تقياً ديناً حكيماً فى سيرته -١- .

بطرس البستانى

* * *

عندما يتفرغ الباحث لدراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب دراسة صحيحة على ضوء الضمير النقى ، والواقع العقلى ، والتجرد العلمى ، متبعاً الأصول الحديثة ، مبتعداً عن العاطفة ،

-١- دائرة المعارف ج ٦ ص ٤٦٨ .

ومرض التعصب ، وأثر الجنسية ، فلا يستطيع إلا الإقرار بانها مجموعة فلسفية قائمة بذاتها ، تزخر بالحيوية النابضة ، والروحية المتجسدة ، والعقلية المبدعة التى استنبطت العلوم ، وأبدعت الأفكار ، وابتكرت السنن ، وأوجدت النظم والأحكام (١) .

معهد البحوث الشرقية

عارف ثامر ، والأب أ . عبده خليفة اليسوعى

* * *

وبهذا نكتفى عن ذكر أقوال بقية العلماء الآخرين ؛ وسيأتى محل آخر ننشر فيه آراء علماء العصر من المسلمين وغيرهم . ويلزمنا التنبيه على شىء مر ذكره فى بعض هذه الأقوال وهو نسبة الزجر والفال إلى الإمام الصادق عليه السلام وهذا من الخطأ والإشتباه وإنما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه يخبر بالحوادث قبل وقوعها ، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور وتبقى فى أولاده من بعده ، وأخبر بمقتل محمد وابراهيم على يد المنصور ، وكان معارضاً لبيعة محمد فى المؤتمر الذى عقده الهاشميون من عباسيين وعلويين لبيعة محمد بن عبدالله وقال لعبدالله بن الحسن : لا تفعلوا فان الأمر لم يأت بعد ، فقال عبدالله : لقد علمت خلاف ما تقول ، قال الصادق : لا ، ولكن هذا وأبناؤه دونك وضرب بيده على أبى العباس . ثم نهض فاتبعه عبد الصمد بن على وأبو جعفر المنصور فقالا له : أتقول ذلك ؟ قال : نعم أقوله والله وأعلمه .

وليس فى وسعنا بسط القول فى علمهم (ع) وانكشاف حقائق الأشياء لهم فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها ، وقد صدر عن الصادق

---

(١) مقدمة كتاب الهفت والأظلة ص ١٥ ـ ١٦ .

كثير من ذلك مما لا يتسع المجال لذكره .

وأما نسبة الزجر والفال اليه فهو خطأ نشأ من اشتباه فى الإسم وتقارب فى الزمن وذلك ان جعفر بن محمد البلخى المعروف بأبى معشر الفلكى كان مشهوراً بالزجر والفال وأستاذ عصره فى التنجيم ونقل الناس أخباره وشاع ذكره .

قال ابن كثير فى البداية والنهاية ج١١ ص ٥١ : والظاهر أن الذى نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر والفال ، واختلاج الأعضاء إنما هو منسوب إلى جعفر بن أبى معشر هذا وليس بالصادق وإنما يغلطون .

هذا ما يتعلق بالانطباعات عن شخصيته عليه السلام وسيأتى فى الجزء الرابع إن شاء الله ما له صلة بالموضوع .

الامام الصادق

مدرسته وتلامذته

(١)

ليس من المبالغة والخروج عن الواقع وصف مدرسة الامام الصادق بأنها جامعة اسلامية ، خلفت ثروة علمية وخرجت عدداً وافراً من رجال العلم وانجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء ، وقد عدت أسماء تلامذته والمتخرجون من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل ، وقد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم الى أربعة آلاف .

قال الشيخ المفيد فى الارشاد : « إن أصحاب الحديث قد جمعوا الرواة عن الصادق من الثقات على اختلافهم فى الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال الشيخ محمد بن على الفتال : « قد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم فى الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف».

وقال السيد على بن عبد الحميد النيلى فى كتاب الانوار : « ومما اشتهر بين العامة والخاصة ان اصحاب الحديث جمعوا اسماء الرواة عنه فكانوا أربعة آلاف » .

وقال الشيخ الطبرسى فى أعلام الورى : « ولم ينقل عن أحد من سائر العلوم مانقل عنه ، فان اصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعه آلاف رجل ، وقال فى القسم الثالث : « وروى عن الصادق من أهل العلم أربعة آلاف إنسان » .

وقال ابن شهر اشوب فى المناقب : « نقل عن الصادق من العلوم مالا ينقل عن أحد ، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على

أختلافهم فى الآراء فكانوا أربعة آلاف » .

وقال المحقق فى المعتبر فى جملة كلامه عن الصادق : « فانه انتشر عنه من العلوم الجمة مابهر به العقول وروى عنه جماعة من الرجال مايقارب أربعة آلاف رجل » .

وقال الشهيد فى الذكرى : « إن أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنف لاربعمائة مصنف ، ودون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق والشام والحجاز » .

وقال الشيخ حسين والد العلامة البهبهانى فى ذكر الصادق : « ودون العامة والخاصة ممن تبرز بعلمه من العلماء والفقهاء أربعة آلاف » .

(٢)

وعلى أى حال فان مدرسة الامام الصادق ، كانت مصدراً للعلم وينبوعا يفيض على الامة بالعلوم والمعارف الاسلامية ، واغدقت على العالم الاسلامى بخدماتها الجليلة ، فى بث تلك التعاليم القيمة فى عصر ازدهر فيه العلم ، وأقبل المسلمون على انتهاله .

ولو تسنى لمدرسة الامام الصادق عليه السلام الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن مايتطلبه واقع المسلمين وماهم فيه من الحاجة الى نشر التعاليم القيمة فى بث روح الاخوة الاسلامية ، والعدالة الاجتماعية ، ومحو المعتقدات الفاسدة والآراء الشاذة .

ولكن بمزيد الأسف أن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة ، لأن شهرة الامام الصادق عليه السلام فى العالم الاسلامى

كانت تقض مضاجعهم ، وتبعث فى قلوبهم الوجل من نشاطه العلمى الى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسى ، ولهذا فقد كانوا يضعون الخطط التى يأملون فيها الوصول الى غلق أبواب تلك المدرسة والقضاء على الامام الصادق بكل وسيلة ، لأن الانظار أصبحت متجهة اليه ، وكانت وفود رجال الامة وطلاب العلم تتسابق الى الحضور عنده ، والاستماع منه حتى كان ذكره حديث الركبان ، وكانت أندية العلم فى العواصم الاسلامية تلهج بذكره ، وينتهى الاحتجاج فى الاستشهاد بقوله .

« والحقيقة ، أن مدرسة الأمام جعفر الصادق الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين ، وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء ، واذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال فهى : أن الحضارة الاسلامية والفكر العربى مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والرقى والخلود ، ولعميدها الصادق بالمجد العلمى والتراث الثمين ».

كما انها وجهت الامة الى قواعد الاستنباط ونقد الحديث وبعثت على النشاط فى مجال التأليف وتبويب الأحكام فكانت ملتقى العلماء ، وبحمعاً لطلابه رغم تلك المحاولات التى تبذل فى طريق شهرتها والوقوف أمام انتشار ذكرها.

(٣)

وأود بأن اسارع هنا فاشير الى مايأتى فيما بعد : بأن مدرسة الامام الصادق عليه السلام : كان طابعها التى طبعت عليه ومنهجها الذى اختصت به ، هو استقلالها الروحى ، وعدم خضوعها لنظام السلطة ، ولم تفسح المجال لولاة الأمر بأن يتدخلوا فى شؤونها ، أو تكون لهم يد فى توجيهها وتطبيق نظامها لذلك لم يتسن لذوى السلطة استخدامها فى مصالحهم الخاصة ، أو تتعاون معهم

فى شؤون الدولة ، ومن المستحيل ذلك - وان بذلوا جهدهم فى تحقيقه - فهى لاتزال منذ نشأتها الاولى تحارب الظالمين ، ولا تركن اليهم كما لاترتبط وإياهم بروابط الالفة ، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام ، وبهذا النهج الذى سارت عليه ، والطابع الذى اختصت به أصبحت عرضة للخطر ، فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتد والعداء يتضخم - الأمر الذى جعل المدرسة عرضة للخطر - .

ورغم ذلك كله فقد صمدت لتلك الهجمات التى توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود ، وقد عانت من بطش الجبارين وعسف الظالمين مالا يحيط به البيان .

وعلى كل حال فان مدرسة الامام الصادق عليه السلام كانت بعيدة عن التأثر بآراء الحكام الذين يفرضون ارادتهم على العلم والعلماء ، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية الى جانب السلطة التنفيذية .

وقد بذل المنصور كلما فى وسعه لجلب رضا الامام الصادق عليه السلام والفوز بمسايرته له ، ولكنه لم يفلح ،فقد أعلن عليه السلام مقاطعته ، وأوعز الى اصحابه ذلك ، فسارت مدرسته عليه السلام على ذلك الاستقلال الروحى ، ونالت تلك الشهرة العظيمة ، وخلفت ذلك التراث الثمين والمجد العلمى ، وان الحضارة الاسلامية مدينة لها بالتطور والخلود . وسيأتى فى الاجزاء القادمة مزيد بيان لذلك .

(٤)

أما تلامذته فقد أجمع العلماء على أنهم كانوا أربعة آلاف وهم من مختلف الأقطار الاسلامية على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم ، وقيل: ان الثقات منهم كانوا بهذا العدد . ولا بد لنا من الاشارة هنا الى البعض منهم مقتصرين على

ذكر أسمائهم بدون تفصيل لأنا سنشير الى جملة منهم فى الجزء الثانى ، كما أننا لم نذكر منهم إلا من اشتهر بالعلم وخرج حديثه أصحاب الصحاح كالبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأصحاب السنن .

وان منهم من أصبحوا رؤساء طوائف ، وأئمة مذاهب كأبى حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ صاحب المذهب المنسوب اليه وقد اشتهر قوله : مارأيت أعلم من جعفر بن محمد .. (١) وقوله : لولا السنتان لهلك النعمان (٢) وكانت له مع الامام الصادق اتصالات متفرقة بالمدينة والكوفة ، وقدلازمه مدة سنتين متواصلتين بالمدينة . فجعل هاتين السنتين نجاة له من الهلكة.

مالك بن انس المتوفى سنة ١٧٩ رئيس المذهب المنسوب اليه وكانت له صلة تامة بالامام الصادق عليه السلام وروى الحديث عنه واشتهر قوله : مارأت عين أفضل من جعفر بن محمد (٣) .

سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ وهو من رؤساء المذاهب وحملة الحديث واعلام الأئمة وقد بقى مذهبه معمولا به الى مابعد القرن الرابع وكان لسفيان الثورى اختصاص بالامام الصادق وقد روى عنه الحديث كما روى كثيراً من آدابه عليه السلام واخلاقه ومواعظه .

سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ والمدفون بالحجون وهو من رؤساء المذاهب البائدة . وغير هؤلاء من حملة الحديث وأعلام الامة ولا يتسع المجال لذكرهم الآن ونكتفى بذكر البعض منهم فى عرض موجز وهم :

شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى المتوفى سنة ١٦٠ خرج له أصحاب الصحاح والسنن وروى عنه خلق كثير .

---

(١) انظر ص ٥٠ من هذا الجزء

(٢) انظر التحفة الاثنى عشرية ط ١ ص ٨

(٣) انظر ص ٤٩ من هذا الجزء

قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق . وقال أحمد: شعبة امة وحده

وفضيل بن عياض بن سعد بن بشر التميمي اليربوعي المتوفى سنة ١٨٧ قال الجزري : « هو أحد أئمة الهدى والسنة ، روى عنه الاعمش وسليمان التيمي وابن المبارك وابن القطان وأحمد بن المقدام وخلق كثير ، وثقه النسائي وغيره ، وخرج له البخاري والترمذي ومسلم والنسائي (١) .

وحاتم بن اسماعيل المتوفى سنة ١٨٠ كوفي الاصـــل خرج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة وكان ثقة في الحديث ، أخذ عن الصادق وأخذ عنه خلق كثير منهم اسحاق وابن معين (٢) .

وحفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفي المتوفى سنة ١٩٤ روى عن الصادق وروى عنه أحمد ، واسحق ، وأبو نعيم ، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني وعفـان بن مسلم ، وعامـة الكوفيين ، ولي قضاء بغـداد ثم عزل وولي قضاء الكوفة ، وكان كثير الحديث حافظاً له ثبتاً فيـه مقدماً عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث خرج له الجماعة أجمع (٣) .

وزهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني المتوفى سنة ١٦٢ أخذ عن الامام الصادق وعنه أبو داوود الطيالسي ، وروح بن عبـــادة ، وأبو عامر العقدي وعبد الرحمن بن مهدي ، والوليد بن مسلم ، ويحيى بن بكير ، وأبو عاصم وغيرهم وثقه أحمد ويحيى وعثمان الدارمي وهو من رجال الصحاح .

يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري المتوفى سنة ١٩٨ روى له رجال الصحاح وحدث عنه ابن مهدي، وعفان ومسدد وأحمد واسحاق وابن معين.

---

(١) تهذيب التهذيب

(٢) خلاصة الكمال ٥٦

(٣) تأريخ بغداد ج ٨ ـ ١٨٨ والخلاصة ص ٧٤

اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الانصاري المتوفى ببغداد سنة ١٨٠ روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري ، وأبو الربيع الزهراني ، وأبو معمر الهذلي وغيرهم ، قال ابن سعد : ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد ولم يزل بها حتى مات ، خرج له البخاري ومسلم والجماعة (١) .

ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى الاسلمي أبو اسحاق المدني المتوفى سنة ١٩١ روى عن الصادق ، وله كتاب مبوب عنه في الحلال والحرام ، وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ، وروى عنه ابراهيم بن طهمان والثوري وهو أكبر منه وكنى عن اسمه ، وابن جريج والشافعي وسعيد بن ابي مريم وأبو نعيم وآخرون ويعد من مشايخ الشافعي وقد اكثر عنه في كتبه (٢) وقد اتهم ابراهيم بالحط من السلف فضعف ونسب الى الكذب ، ولعل سبب ذلك اختصاصه بحديث أهل البيت أكثر من غيره .

الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل البصري المتولد سنة ١٢٢ والمتوفى سنة ٢١٤ روى عن الصادق وعنه البخاري وأحمد بن حنبل وابن المديني واسحاق ابن راهويه ، قال ابن شيبة : والله ما رأيت مثله .

محمد بن فليح بن سليمان المدني المتوفى سنة ١٧٧ روى له البخاري والنسائي وابن ماجة .

عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت المتوفى ١٩٤ روى عنه محمد بن ادريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن المديني وغيرهم ، قدم بغداد في ايام المنصور وحدث بها وثقه ابن معين وكانت غلة عبد الوهاب في كل سنة مائتين وأربعين الف ينفقها على أصحاب الحديث لايحول الحول على شيء منها

---

(١) تهذيب التهذيب ج ١ ـ ٢٨٢

(٢) « « « ١ ـ ٧٦٠

خرج له مسلم والبخارى .

عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصرى خرج له البخارى فى صحيحه والترمذى وروى عنه ابن المدينى وابن المثنى وزيد بن احزم ، قال ابن حبان مستقيم الحديث .

عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز الزهرى بن أبى ثابت الاعرج المدنى المتوفى سنة ١٩٧ خرج له الترمذى فى صحيحه .

عبد الله بن دكين الكوفى خرج له البخارى فى الأدب المفرد وثقه أحمد وروى عنه يحيى الوضاحى وموسى بن اسماعيل .

زيد بن عطا بن السائب روى عنه اسرائيل وجرير بن عبد الحميد وثقه أبو حاتم . وخرج حديثه النسائى والترمذى .

مصعب بن سلام التميمى الكوفى روى عنه أحمد وأبو سعيد الأشج وخرج له الترمذى ، قال ابن معين : ليس به بأس ، وقال أبو حاتم: شيخ محلة الصدق .

بشير بن ميمون الخراسانى المتوفى سنة ١٨٤ روى عنه أحمد بن عاصم الخراسانى ، قدم بغداد وروى الحديث عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام خرج له ابن ماجة .

ابراهيم بن سعد الزهرى المتوفى سنة ١٨٣ أحد الاعلام ومن رجال الصحاح وهو من شيوخ أحمد بن حنبل .

سعيد بن مسلمة الاموى المتوفى سنة ٢٠١ وهو من رجال الصحاح وشيوخ الشافعى .

الحارث بن عمير البصرى نزل مكة روى عن الصادق عليه السلام وعنه ابن عيينة وابن مهدى وأبو اسامة .

المفضل بن صالح الاسدى أبو جميلة الكوفى خرج له الترمذى وروى عنه محمد بن عبيد الله المحاربى .

أيوب بن أبى تميمة السختيانى أبو بكر البصرى مولى عنزة ، ويقال مولى جهينة روى عنه الاعمش وقتادة وهو من شيوخه والحمادان والسفيانان وشعبة ، وخلق كثير ، وثقه ابن سعد وابن معين ، ولد سنة ٦٦ ومات سنة ١٢١ .

عبد الملك بن جريج القرشى أحد العلماء المشهورين ويقال : إنه أول من صنف الكتب فى الاسلام ، ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٤٩ .

وغير هؤلاء ممن نسب لمدرسة الصادق ، وأخذ عنه وروى حديثه ، وقد ذكر ذلك ابن حجر فى تهذيب التهذيب ولسان الميزان وتقريب التهذيب والذهبى فى ميزان الاعتدال وتذكرة الحفاظ ، والجزرى فى الخلاصة والخطيب فى تاريخه وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل وغيرهم ولا يصعب على المتتبع احصاءهم ، وقد افرد بعض علمائنا رسائل فى عددهم وذكر اسمائهم وسيأتى فى الجزء الثانى بيان جملة منهم :

أما حملة فقهه عليه السلام وخواص اصحابه - الذين كانت لهم اليد الطولى فى خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية ومحاربة أهل الالحاد والزندقة ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والآراء الشاذة ومقابلة الظلمة فى شدة الانكار عليهم وتوجيه الانتقاد اليهم فسيأتى فى الجزء الثالث تفصيل عن حياة بعضهم والمشهورين منهم كأبان بن تغلب ومؤمن الطاق وهشام بن الحكم وغيرهم .

ونكتفى هنا بالتنويه عنهم بموجز من البيان .

أبو سعد الكوفى ، روى عن السجاد ، والباقر ، والصادق ، ومات فى أيامه قال الشيخ فى الفهرست : أبان بن تغلب بن رباح ابو سعيد البكرى الحريرى مولى جرير بن عباد ، ثقة جليل القدر عظيم المنزلة فى أصحابنا ، لقى أبا محمد على بن الحسين وأبا جعفر الباقر وروى عنهم ، وكانت له عندهم حظوة وقدم ، وقال له ابو جعفر الباقر : اجلس فى مسجد المدينة وأفت الناس فانى أحب أن يرى فى شيعتى مثلك . وكان غزير العلم متضلعاً فى عدة علوم وله كتب ذكرها ابن النديم فى الفهرست منها كتاب معانى القرآن ، كتاب القراءآت ، كتاب من الاصول فى الرواية على مذهب الشيعة (١) .

وقال ابن سعد فى الطبقات ابان الربعى توفى فى الكوفة فى خلافة ابى جعفر وعيسى بن موسى وال على الكوفة وكان ثقة وروى عنه شعبة ، وقال فى التهذيب روى عنه موسى بن عقبة ، وشعبة ، وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة ، وثقه أحمد ، ويحيى ، وابو حاتم ، والنسائى .

قال الذهبى فى ميزان الاعتدال ابان بن تغلب الكوفى شيعى جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته (٢) وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وابو داوود خرج له مسلم وأبو داوود ، والترمذى ، وابن ماجة .

قال الجوزجانى : ابان بن تغلب زائغ مذموم المذهب ، قال ابن حجر :

(١) ابن النديم ٣٠٨ .

(٢) لم يكن ابان مبتدعا ولكنه بتفضيله امل وقوله بامامته اصبح مبتدعاً فى نظر الذهبى واضرابه .

وأما الجوزجانى فلا عبرة بحطه على الكوفيين ، فالتشيع فى عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عثمان ، وان علياً كان مصيباً فى حروبه وان مخالفه مخطىء مع تقديم الشيخين ، وربما اعتقد بعضهم ان علياً أفضل الخلق بعد رسول الله واذا كان معتقد ذلك ورعا ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته (١) .

أبان بن عثمان بن أحمر البجلى أبو عبد الله أصله كوفى ، وكان يسكنها تارة والبصرة أخرى ، وقد أخذ عنه أهلها منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو عبد الله محمد بن سلام ، واكثروا الحكاية عنه فى أخبار الشعراء والنسب والأيام روى عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام وأبى الحسن موسى عليه السلام . وله مؤلفات منها كتاب المبتدى ، والبعث والمغازى والوفاة ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، قال محمد بن أبى عمر : كان ابان من أحفظ الناس بحيث انه يرى كتابه فلا يزيد حرفا على رأس المأتين (٢) .

وهو من الستة أصحاب ابى عبد الله (ع) الذين أجمعت العصابة على تصحيح مايصح عنهم والاقرار لهم بالفقه وهم : جميل بن دراج ، وعبد الله بن مسكان ، وعبد الله بن بكير ، وحماد بن عيسى ، وحماد بن عثمان وابان بن عثمان

بكير بن أعين الشيبانى أخو زرارة روى عن الباقر والصادق عليهما السلام ومات فى أيام الصادق عليه السلام ولما بلغه خبر موته قال : أما والله لقد انزله الله بين رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وذكره يوماً فقال : رحم الله بكيراً وهو من الثقات ، وقد روى عنه جماعة .

جميل بن دراج بن عبد الله النخعى روى عن الصادق والكاظم وتوفى أيام الرضا ، وهو من الستة الذين اجمعت العصابة على تصحيح مايصح عنهم.

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٩٣

(٢) وردت العبارة هكذا والصحيح يقرأ كتابه فلا يزيد حرفا واحداً وتوفى على رأس المأتين ـ انظر لسان الميزان ـ ج ١ ص ٢٤ .

حماد بن عثمان بن زياد الرواسى الكوفى روى عن الصادق عليه السلام والكاظم والرضا عليهما السلام ، وهو من أصحاب الصادق عليه السلام ومن الستة المار ذكرهم توفى سنة ١٩٠ .

الحارث بن المغيرة النصرى روى عن الباقر عليه السلام وعن الصادق (ع) والكاظم (ع) ، كان جليل القدر مقبول الرواية له منزلة عظيمة .

هشام بن الحكم البغدادى الكندى مولى بنى شيبان كنيته أبو محمد وقيل أبو الحكم أصله من الكوفة وانتقل الى بغداد قال ابن النديم : هو من جلة أصحاب أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) وهو من متكلمى الشيعة ممن فتق الكلام فى الامامة وهذب المذهب والنظر وكان حاذقا بصناعة الكلام حاضر الجواب سئل عن معاوية أشهد بدراً ؟ فقال : نعم من ذاك الجانب، وكان ينزل الكرخ من مدينة السلام وتوفى بعد نكبة البرامكة مستتراً ، وقيل فى خلافة المأمون وله من الكتب كتاب الامامة ، كتاب الدلالات ، ثم ذكر له اكثر من عشرين مؤلفاً .

ودعى له الامام الصادق (ع) قال : « لاتزال مؤيداً بروح القدس مانصرتنا بلسانك ، وكان أولا من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل الى القول بالامامة بالدلائل والنظر ، وكان الصادق (ع) يقول فيه : هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ويقول أيضاً : هشام بن الحكم رائد حقنا وسائق قولنا المؤيد لصدقنا والدامغ لباطل اعدائنا .

وكان هشام يقول : مارأيت مثل مخالفينا عمدوا الى من ولاه الله من سمائه فعزلوه ، والى من عزله الله من سمائه فنصبوه ، ولهشام أخبار كثيرة ومحاججات ومناظرات مع خصوم آل محمد ، وكان يخوض غمرات البحث فيخرج منها وحليفه النصر .

روى الكلينى فى الصحيح أنه ورد على الصادق (ع) رجل من أهل الشام فقال له : إنى صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك .

فقال له الصاق (ع) : كلامك هذا من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك ؟ .

فقال الرجل : بعضه من كلام رسول الله ﷺ وبعضه من عندى ،

قال الامام الصادق (ع) : فانت اذاً شريك رسول الله ﷺ ! قال: لا ، قال : فسمعت الوحى عن الله تعالى ؟ قال : لا ، قال : فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ، فقال الصادق (ع) : هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم ، ثم أخرج الصادق (ع) رأسه وكان فى خيمة فى الحرم قبل الحج بايام فاذا هو ببعير يخب فقال (ع) : هشام ورب الكعبة فاذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته وليس فى اصحاب الصادق (ع) إلا من هو اكبر سناً منه فوسع له الصادق (ع) وقال : ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ، ثم قال للشامى : كلم هذا الغلام يعنى هشام بن الحكم .

فقال الشامى لهشام : سلنى فى إمامة هذا يعنى الصادق (ع) فغضب هشام حتى ارتعد وقال ياهذا ربك انظر لخلقه أم هم لأنفسهم ؟ فقال : بل ربى أنظر لخلقه ، قال هشام : فعل بنظره لهم فى دينهم ماذا ؟ قال : كلفهم وأقام لهم حجة ودليلا على ما كلفهم وأزاح فى ذلك عللهم .

قال : فما هذا الدليل الذى نصبه لهم ؟

قال : هو رسول الله ﷺ ، قال : فبعد رسول الله ﷺ ؟ قال : الكتاب والسنة ، قال فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف ؟

قال : فقال الشامى : نعم فقال هشام : فلم اختلفنا نحن وانت وجئتنا من الشام

تخالفنا وتزعم ان الرأى طريق الدين وأنت تقر أن الرأى لايجتمع على القول الواحد للمختلفين ؟ فسكت الشامى كالمفكر فقال له الصادق (ع) : مالك لاتتكلم ؟ قال : إن قلت ماإختلفنا كابرت ، وان قلت إن الكتاب والسنة يرفعان الاختلاف أبطلت لانهما يحتملان الوجوه ، ولكن لى عليه مثل ذلك فقال الصادق (ع) : سله تجده ملياً فقال لهشام : من انظر للخلق ربهم أو أنفسهم ؟ قال : بل ربهم ، قال : فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقهم من باطلهم ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : أما فى ابتداء الشريعة فرسول الله ﷺ ، وأما بعده فغيره ، قال : من هو غيره ؟ قال : فى وقتنا هذا هو هذا الجالس الذى تشد اليه الرحال يعنى الصادق (ع) الى آخر ما ذكره (١) .

* * *

المعلى بن خنيس كان من أصحاب الامام وموالية ومن عذب فى الله وقتل بحب آل محمد قتله الأمير داوود بن على وصادر أمواله - والأسباب غير مجهولة فى ذلك - لأن المعلى كان من خواص الامام الصادق (ع) بصورة تستدعى غضب الوالى وكان داوود بن على عندما ولى المدينة أو الجزيرة برمتها استعمل العسف والجور والاضطهاد للطالبيين فكان شديداً فى مطاردتهم وتتبع أنصارهم . وبطبيعة الحال ان مثل المعلى بمواقفه واتصاله بالامام لايسلم من شر هذا الوالى وقد تلقى الامام الصادق هذه الحادثة بالاستياء واثر فى نفسه ومشى الى ديوان الامير وهو محنق على خلاف عادته وقال له قتلت مولاى واخذت مالى أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولاينام على الحرب ، وقابله الامام بالشدة والعنف وحاول ذلك الامير أن يسند هـــذا الجرم اصاحب

(١) انظر اصول الكافى ١ / ١٧٢ - ١٧٣ ط ٢

الشرطة ويبرأ من تبعته فامر بقتله ليتستر بذلك ، ولكن صاحب الشرطة فضح أمره فاعلن للملأ عندما سيق للاعدام بقوله : يأمرونني بقتل الناس فاقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلي .

وقد اختلفت اقوال المؤرخين في الحادثة فتارة يذكرونها في عهد السفاح واخرى في عهد المنصور .

هذا وليس في امكاننا احصاء اصحابه ﷺ ورواة الحديث عنه من الشيعة وغيرهم ونكتفي بهذا القدر، وقد أرجأنا ذكر بعض الاعيان منهم الى الجزء الثالث كعبد الملك بن أعين وزرارة وابنه ، وعلي بن يقطين ، وعمار الدهني وعمرو ابن حنظلة ، والفضيل بن يسار ، وأبو بصير ، ومؤمن الطاق ، ومحمد بن مسلم ، ومعاوية بن عمار ، والمفضل بن عمر ، وهشام بن سالم ، وغيرهم .

مع البخاري

قطع صحيح البخاري (١) شوطاً بعيداً من الشهرة ونال قبولا دون غيره من كتب الحديث فاصبحت له منزلة لايشاركه بها غيره ، ومن العسير موآخذته بشيء لأن ذلك يدعو الى الرمي بالبدعة والخروج عن سبيل المؤمنين(٢) ولهذا تهيب اكثر الحفاظ نقده ، ووقفوا امامه موقف خضوع وتسليم .

---

(١) ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن (بردزبه) بباء موحدة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم دال مهملة مكسورة ثم زاء ساكنة ثم باء موحدة ثم هاء معناه بالعربية الزراع وكان جده المغيرة مجوسياً كابيه اسلم على يد اليمان البخاري الجعفي لذلك قيل للبخاري جعفي لانه مولى يمان الجعفي ولد سنة ١٩٤ وتوفي سنة ٢٥٦ ودفن بخرتنك قرية على فرسخين من سمرقند

(٢) قواعد التحديث ٢٤١

يقول الذهبي فى ذكره لبعض الاحاديث : ولولا هيبة الصحيح لقلت إنها موضوعة . وذهب ابن حزم الى تكذيب بعض أحاديثه (١) فعنف ، لان التسليم لصحيحه أصبح معمولا به فلا يمكن لاحد أن يعمل بحرية الرأى .

ومع هذا فان بعض الحفاظ من كبار المحدثين تناولوه بالنقد بصراحة وحرية فى الرأى من وجوه أهمها :

١ ـ ترتيب الكتاب والعلاقة بينه وبين الترجمة وما تحتها .

٢ ـ انه يقطع الحديث فيذكر بعضه فى باب وبعضه فى آخر ، وقد تختلف الرواية فى الاجزاء المختلفة ، وقد يذكر بعضها متصل السند وبعضها منقطعة وقد أخذ عليه فى هذا الباب بعض مآخذ لم يستطع المنتصرون له أن يجيبوا عنها (٢) .

٣ ـ انتقده الحفاظ فى بعض أحاديث بلغت ١١٠ منها ٣٢ حديثاً اتفق فيها هو ومسلم ومنها ما انفرد بتخريجه وهو ٧٨ . (٣) .

٤ ـ إن بعض الرجال الذين روى لهم غير ثقات وقد ضعف الحفاظ من رجال البخارى نحو الثمانين .

وعلى كل حال فان صحيح البخارى كان محلا للوثوق والاعتماد عند اكثر المحدثين ولشخصيته منزلة عظيمة فى عصره ولبعض الناس فى صحيحه اعتقاد عظيم حتى قالوا إنه :

« هو عدل القرآن وانه اذا قرأ فى بيت أيام الطاعون حفظ أهله منه ، وان من ختمه على أى نية حصل ماتواه ، وأنه ماقرأ فى شدة إلا فرجت ، ولا ركب به فى مركب فغرقت » (٤) .

---

(١) تهذيب التهذيب ٨ ـ ١٤٦ .
(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ـ ١١٦
(٣) مفتاح السنة للخولى
(٤) قواعد التحديث للقاسمى ٢٥٠

وقد جرى على العمل بذلك كثير من رؤساء العلم ، ومقدمى الاعيان اذا ألم بالبلاد نازلة . يوزعون اجزاءه - على العلماء والطلبة - (لكشف الخطوب وتفريج الكروب . فهو يقوم عندهم فى الحرب مقام المدافع والصارم والاسل ، وفى الحريق مقام المضخة والماء وفى الهيضة مقام الحيطة الصحيحة وعقاقير الاطباء ،وفى البيوت مقام الخفراء والشرطة وعلى كل حال هو مستنزل الرحمات ومستقر البركات) (١) .

والحاصل ان صحيح البخارى قد احيط بهالة من التقديس والاكبار فهو عدل القرآن وهو أصح كتاب على وجه الارض - كما يقال - ولهذا فقد تهيب اكثر الحفاظ عن نقد احاديثه ومن أقدم على ذلك عنف .

ومن أظرف الأشياء : أن مجلس المبعوثان فى عهد الاتراك بالعراق قد قرر مبلغاً جسيما لوزارة الحربية جعلوه لقراءة البخارى فى الاسطول فقال الزهاوى - وكان عضواً فى المجلس - : أنا أفهم ان هذا المبلغ فى ميزانية الأوقاف ، أما الحربية فالمفهوم ان الاسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة (٢) .

ونحن لا ننكر عظمة حديث النبى ﷺ وبركة آثاره ولكن من الخير أن نتسائل لأى شئ اختص صحيح البخارى دون غيره بهذه الخصوصية من كتب الحديث ؟ ولماذا كانت له هذه المنزلة دونها ؟! ونتسائل لم لم يقرأ القرآن وفيه شفاء للناس ودفع لما يكرهون ؟ ! ولماذا كان صحيح البخارى عدلا للقرآن وأصبح التوسل به من العقائد الراسخة يتلى لدفع المجاعة ويوزع احزابا فى المساجد والبيوت كما حدث فى مجاعة سنة ٧٩٨ فى مصر ؟؟؟ فان كان لصحة

---

(١) من مقال لأحد علماء الازهر نشرت فى احدى المجلات المصرية فى معرض نقده لذلك الاعتقاد السائد نشرها سنة ١٣٢٠ هـ انظر - قواعد التحديث - ٢٥١ .

(٢) مجلة الرسالة السنة الخامسة ص ٤٠٣ .

احاديثه فلماذا لم تكن هذه الخصوصية لموطأ مالك الذى قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله ؟ !! وصحيح مسلم الذى قالوا فيه : ماتحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم (١) ويقول ابن حجر : حصل لمسلم فى كتابه حظ عظيم مفرط لم يحصل لأحد مثله بحيث ان بعض الناس كان يفضله على صحيح محمد بن اسماعيل وذلك لما اختص به من جمع الطرق وجودة السياق والمحافظة على اداء الألفاظ من دون تقطيع ولا رواية بمعنى . وقال الحاكم : سمعت أبا الوليد يقول قال لى أبى : أى كتاب تجمع ؟ قلت اخرج على كتاب البخارى ، قال : عليك بكتاب مسلم فانه اكثر بركة .

وهذا صحيح الترمذى بحسن ترتيبه وتنميقه وتتبعه للصحيح من غيره لم يكن بمنزلة البخارى ؟ ! وقد قالوا : إن كتاب الترمذى انور من كتاب البخارى . فان كانت تلك العظمة التى احرزها لما حواه فالقرآن أولى بأن يتخذ لدفع تلك المشاكل ، أو كان لعظمة البخارى نفسه ؟ فان مالك بن أنس صاحب الموطأ أعظم منزلة واعلا كعباً ، واعرق نسباً ، واغزر علماً .

ولا نريد أن نقسو على البخارى بالحكم ، أو نجحف بحقه ، ونقول بمقالة جمال الدين الحنفى : « من نظر فى كتاب البخارى تزندق » (٢) .

ولا نذهب بعيداً عن الواقع فنقول : إن كلما فيه صحيح يلزم الأعتقاد به والتصديق له ، وإن عدم التصديق بدعة ، أو كفر بالله وتكذيب لأحاديث الرسول ﷺ كما ذهب الى ذلك كثير من المقلدين الذين لايعقلون .

ان كتاب البخارى لايخلو من احاديث لاتتصف بالصحة كما لايخلو من احاديث عليها علامة الوضع كحديث « إن النبى كان مسحوراً .. » ، وغيره من

(١) تذكرة الحفاظ ٢ ـ ١٠٤ .

(٢) شذرات الذهب ٧ / ٤٠

الاحاديث التى لايمكن القول بصحتها ، لتناقضها أو تعارضها مع غيرها مما يصعب الجمع بينها .

والعلماء الذين انكروا صحة بعض أحاديثه لم ينكروها إلا بادلة قامت عندهم ، ولايعد ذلك طعناً فى دين الاسلام ، وهدماً للسنة كما يذهب بعضهم.

وقد انتقد العلماء من أحاديث البخارى اكثر من مائة حديث ، كما انتقدوا رجاله وطعنوا فى كثير منهم لأنهم اناس لاقيمة لهم فى ميزان الصدق والعدالة ، ومنهم ضعفاء لايتصف حديثهم بالصحة .

لقد ترك البخارى الرواية عن كثير من علماء الامة وأعلام الحديث ، ومن هم ادرى بحديث الرسول ﷺ ، وأشد عناية فيه واحاطة له ، وفى طليعتهم الامام الصادق عليه السلام فلم يقدح ذلك فيهم او يحط من مقامهم .

وقد خرج احاديث اناس لم يسلموا من الطعن ، سواء فى العقيدة أو العدالة ، أو الوثاقة ، فان منهم من اتهم بالكذب ، ووصف بوضع الحديث ، وللمثال نذكر منهم :

اسماعيل بن عبد الله بن اويس بن مالك المتوفى سنة ٢٢٦ .

قال يحيى بن معين : إن اسماعيل مخلط كذاب . وقد تكلم فيه النسائى كما أنه عرف بوضع الحديث لأهل المدينة اذا اختلفوا فيما بينهم .

وزياد بن عبد الله العامرى المتوفى سنة ٢٨٢ فانه متهم بالكذب . قال الترمذى عن وكيع : إن زياد بن عبد الله على شرفه كان يكذب فى الحديث .

والحسن بن مدرك السدوسى الطحان رماه أبوداود بالكذب ، وتلقين المشايخ وغير هؤلاء ممن لانحب اطالة الحديث عنهم وبسط القول فيهم .

أما الضعفاء فقد ذكروا منهم عدداً لايقل عن الثمانين أمثال : الحسن ابن ذكوان البصرى فقد كان قدرياً يدلس ، وعرف بالخطأ ، وضعفه أحمد

وابن معين ، والنسائى ، والترمذى ، وابن المدينى .

ومنهم أحمد بن ابى الطيب البغدادى ، وسلمة بن رجاء التميمى وبسر ابن آدم الضرير وغيرهم ممن نص الحفاظ على ضعفهم .

أما القدرية ، فهم عدد كثير كعبد الله بن أبى لبيد المدنى ، وعبد الله بن أبى نجيح المكى ، وكهمس بن منهال السدوسى ، وهارون بن موسى الازدى وسفيان بن سليمان ، وعبد الوارث بن سعيد ، وغيرهم .

والقول : بأن تخريج البخارى هو دليل الوثاقة ، وشاهد العدالة ، وأن من يروى له البخارى (فقد جاز القنطرة) كما يقول بعضهم بمعنى أنه لايلتفت الى ماقيل فيه . فهذا مجرد افتراض لايدعمه دليل ، وتخالفه القرائن والشواهد ، فليس قول البخارى فى الشخص هو الحكم العدل والقول الفصل فالخلاف فى الجرح والتعديل لم ينته الى حد أو يقف عند قول احد ، على أنهم قد احصوا على البخارى اخطاء فى معرفة الرجال وأسمائهم كجعله اسم الرجل الواحد اسمين أو ثلاث ، كالوليد بن ابى الوليد مولى عبد الله بن عمر ، وهرون بن سعد مولى قريش ، وكثير بن خنيس وغيرهم فقد جعل اسمين لكل واحد منهم وكذلك جعل محمد بن ايوب اليمامى ثلاثة اسامى وهو واحد كما نسب عبد الملك بن اخى القعقاع الى القعقاع وذكر فى باب النون اسم ناسح الحضرمى ، وهو عبد الله بن ناسح الذى يروى عنه شرحبيل بن شفعة ، الى غير ذلك من المؤآخذات عليه .

وهناك ناحية ذات أهميه فى الموضوع وهى تخريجه لاناس عرفوا بالنصب والعداء لعلى عليه السلام وبغضهم لآل محمد من خوارج وغيرهم امثال :

عمران بن حطان السدوسى البصرى المتوفى سنة ٨٤ كان من رؤوس الخوارج والمعلنين عداء الامام على عليه السلام وهو الذى مدح عبد الرحمن

ابن ملجم المرادى بقوله :

ياضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

فهذا الرجل قد تحدى مقام النبي ﷺ فسمى من وسمه النبي ﷺ بأنه اشقى الاولين والآخرين ، بأنه تقى ، وقد صح عن النبي ﷺ بأنه قال : ياعلى أتدرى من اشقى الاولين ؟ فقال على عليه السلام : الله ورسوله اعلم فقال ﷺ عاقر الناقة . قال ﷺ : ياعلى أتدرى من اشقى الآخرين ؟ فقال على عليه السلام الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : قاتلك ياعلى . أخرجه أحمد بن حنبل وابن الضحاك ورواه الطبرى فى ذخائر العقبى (١) .

وروى صهيب عن النبي ﷺ مثـــله وكان على عليه السلام يقول : لأهله والله وددت لو انبعث اشقاها . أخرجه أبو حاتم .

فاى ثقة وأى عدالة لمن يخالف قول النبي ﷺ ويتجرأ على مقامه ، فيسمى من سماه ﷺ شقياً تقياً ويعلن مدحه والثناء عليه . وقد انبرى للرد عليه كثير من علماء الاسلام نظما ونثراً مما لايتسع المجال لذكرهم .

وأبو الأحمر السائب بن فروخ المتوفى سنة ١٣٦ وكان شاعراً هجاء خبيثاً فاسقاً مبغضاً لآل محمد ، وهو القائل لأبى عامر بن واثلة الصحابى المعروف بابى الطفيل (٢) .

لعمرك انى وأبا طفيل لمختلفان والله الشهيد

لقد ضلوا بحب أبى تراب كما ضلت عن الحق اليهود (١)

فهذا الرجل كسابقه أيضاً قد تحدى ماروى عن النبي ﷺ أنه قال :

---

(١) ص ١١٥ .

(٢) ابو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر الليثى الكنانى صحابى جليل وهو آخر الصحابة وفاتاً بقى الى سنة ١٠٠ هـ وتوفى فيها وكان من شيعة على شهد معه حروبه كلها .

(٣) نكت الهميان للصفدى .

« علي مع الحق والحق مع علي » وقوله ﷺ : « علي مع القرآن والقرآن مع علي » الى غير ذلك من الاحاديث الواردة عنه ﷺ بأن الهدى فى اتباع علي عليه السلام والضلالة فى خلافه ولكن هذا الشاعر الاموى قد رد أقوال النبي ﷺ وتحدى مقامه ، فاى عدالة يتصف بها واى ثقة تدعوالى الاطمئنان بقوله؟!!

وحريز بن عثمان الحمصى (١) المتوفى سنة ١٦٣ كان من المشهورين بالنصب والمعلنين العداء لعلي عليه السلام ، وكان ينال منه ويقول : لا أحب علياً قتل آبائى . ويقول : لنا امامنا (يعنى معاوية) ولكم امامكم (يعنى علياً)

وغير هؤلاء من رجال صحيح البخارى الذين عرفوا بالنصب أمثال اسحق بن سويد التميمى المتوفى سنة ١٣١ وعبد الله بن سالم الاشعرى المتوفى سنة ١٧٩ وزياد بن علاقة أبو مالك الكوفى المتوفى سنة ١٢٩ وغيرهم من النواصب والخوارج الذين أعلنوا العداء لعلي وتظاهروا بالتحامل عليه ، وقد قال ﷺ : « ياعلي لايحبك إلا مؤمن ولايبغضك الا منافق » . وان المنافقين لفى الدرك الاسفل من النار .

فكيف تصدق أخبارهم ويؤخذ بأحاديثهم (والله يشهد أن المنافقين لكاذبون) .

فمن الحق وواجب العلم أن نستنكر على البخارى تخريج حديث اناس خالفوا احاديث الرسول ﷺ فى وجوب حب آله لحبه ﷺ واعلنوا العداء لهم وعرفوا بالنصب ، ولعل هناك امر خفى علينا وكان هو الداعى له على اقدامه لروايته عنهم واحتجاجه بهم ، ولست ادرى أخفى على البخارى قول النبي لعلي : لايحبك إلا مؤمن ولايبغضك إلا منافق . حتى اشتهر فى عصر الصحابة انهم كانوا لايعرفون المنافقين إلا ببغضهم على بن أبى طالب . وبغض على

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٢٣٨/١ وتاريخ بغداد ٢٩٥/٢ وشذرات الذهب ٢٥٧/١ وغيرها

بغض رسول الله ﷺ ؟! .

أم خفى على البخارى قوله (ص): يا على حربك حربى وسلمك سلمى أليس على هو من النبى بمنزلة هرون من موسى كما يحدثنا البخارى نفسه فى صحيحه ج ٢ ص ١٩٩ ؟!! .

وهناك آلاف من الاحاديث فى فضل على ع، وأهل بيته وقد خرجها الحفاظ من طرق عديدة ولكن البخارى لم يخرج إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها وليس من المعقول ان عدم تخريجه لأكثر من هذا كان لعدم وثوقه بصحتها ، ولكن هناك شئ غير هذا ، ولعله كان يفقد الشجاعة والجرأة الأدبية كما لاحظ ذلك منه بعض الكتاب فقال مامضمونه : إن كتاب البخارى لاتتجلى فيه الشجاعة وعدم الخوف من العباسيين كمسند أحمد لأنه - أى مسند أحمد - لم يتحرج من ذكر أحاديث كثيرة فى ذكر مناقب على وشيعته ، وعكسه البخارى

وللايضاح نذكر بعض ماورد فى أهل البيت مما خرجه حفاظ الحديث وعلماء الامة من طرق صحيحة ليتضح لنا مدى تحفظ البخارى واعراضه عن ذكر فضائل آل محمد .

آية التطهير

١ - قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

أخرج مسلم فى صحيحه عن طريق عائشة : خرج النبى ﷺ وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن على عليه السلام فادخله ، ثم جاء

الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فادخلها ثم جاء علي فادخله ثم قال : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١).

وأخرج الترمذي من طريق عمرو بن ابي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ في بيت أم سلمة فدعا النبي ﷺ فاطمة وعليا وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطيرا » قالت ام سلمة : يارسول الله وأنا معهم ؟ قال : أنت على مكانك وأنت على خير (٢).

وأخرج الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ في الخصائص ص ٤ من طريق سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي .

وأخرج الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية وكان في البيت علي وفاطمة والحسن والحسين ، قالت : وكنت على باب البيت فقلت : أين أنا يارسول الله ؟ قال : أنت في خير والى خير(٣)

وأخرج أيضا من طريق أبي سعيد عن النبي ﷺ في نزول هذه الآية قال : جمع رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ثم ادار عليهم الكساء فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي .. الخ .

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٢ ص ٢٧ بهامش الاصابة . قال لما نزلت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » دعا رسول الله ﷺ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً في بيت أم سلمة وقال :

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٧
(٢) الترمذي ج ٤ ص ٢٠٤
(٣) الخطيب ج٩ ص ١٢٧

« اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » وأخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة ج ٥ - ٥٢١ من طريق أم سلمة .

واخرج ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : نزلت هذه الآية فى خمسة : فىّ ، وفى على ، وحسن وحسين وفاطمة . « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وأخرج عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت فى بيتها وان فى البيت رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

وعن أبى سعيد الخدرى عن ام سلمة ان النبى ﷺ قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى ، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (١) .

وأخرج أيضاً من طريق ابى هريرة عن ام سلمة مثله وكذلك اخرجه عن شهر بن حوشب عن ام سلمة (٢) .

واخرج عن واثلة بن الاسقف عن على عليه السلام انها نزلت فى رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام .

وعن انس بن مالك أن النبى ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة اشهر كلما خرج الى الصلاة فيقول الصلاة اهل البيت « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ، وعن ابى الحمراء : مثله (٣) .

وقال السيوطى من طريق ام سلمة فى الدر المنثور - ج ٥ ص ١٩٨ : أخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن ام سلمة

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٢/ ٧

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

ان رسول الله ﷺ كان فى بيتها على منام له وعليه كساء خيبرى ، فجاءت فاطمة فقال (ص) : ادعى لى زوجك وأبنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون اذ نزلت على رسول الله (ص) « إنما يريد الله ... الآية » فأخذ النبي (ص) بفضلة أزاره فغشاهم ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى . الخبر .

وقال محمد بن أحمد المالكى فى الفصول المهمة ص ٦ : روى الواحدى فى كتابه المسمى أسباب النزول يرفعه بسنده الى ام سلمة انها قالت : كان النبي صلى الله عليه وآله فى بيتها يوماً فاتته فاطمة ببرمة فيها عصيدة فدخلت فيها عليه ، فقال لها : ادعى لى زوجك وأبنيك . فجاء على عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام فدخلوا يأكلون والنبي (ص) جالس على دكة وتحته كساء خيبرى قالت : وأنا فى الحجرة قريب منهم فأخذ النبي (ص) الكساء فغشاهم به ، ثم قال : « اللهم أهل بيتى وخاصتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فأدخلت رأسى وقلت : وأنا معكم يارسول الله ؟ قال (ص) : انك على خير ، فانزل الله عز وجل : إنما يريد الله .. الآية .

وأخرجه محب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى ص ٢١ قال : فى بيان أن فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً هم أهل البيت المشار اليهم فى قوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » الى آخر ماذكر .

ورواه من طريق ام سلمة ، ومن طريق عمر بن أبى سلمه ربيب رسول الله (ص) ، ومن طريق زينب بنت أبى سلمة ، ومن طريق واثلة بن الاسقف ، ومن طريق عائشة (١) .

وعن أبى سعيد الخدرى - انها نزلت فى خمسة - رسول الله وعلى ،

(١) انظر ذخائر العقبى ص ٣٤

وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، وأخرجه أحمد فى المناقب والطبرانى .

وأخرجه الخطيب البغدادى ج ٩ ص ١٢٩ عن سعد بن أبى عوف عن أبى سعيد عن أم سلمة . وأيضاً فى ج ١٠ ص ٢٧٨ عن ابى سعيد الخدرى أنها نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين وأخرجه البغوى من طريق عائشة (١)

وأخرجه الحاكم فى المستدرك عن عطاء بن يسار عن أم سلمة (٢) .

وقال عبد الملك الثعالبى النيسابورى : جمع النبى علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ثم قال : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » قال : ويروى أن جبرائيل انظم اليهم واندس فيهم تقرباً الى الله تعالى بمداخلتهم (٣) .

وقال - فى ص ٤٨٣ : كساء آل محمد يضافون اليه فيقال آل الكساء كما قال ديك الجن فى مدحهم :

والخمسة الغر أصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب

وقال ابن تيمية فى جواب من سأله عن دخول على عليه السلام فى أهل البيت : مما لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو اظهر عندهم من أن يحتاج الى دليل بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بنى هاشم بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه أدار كساه على على وفاطمة ، وحسن وحسين فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (٤) .

وقال ابن حجر الهيثمى فى شرح همزية البوصيرى ص ٣١٩ عند قوله :

وبأم السبطين زوج على وبنيها ومن حوته العباء

---

(١) معالم التنزيل ٢١٣ بهامش الخازن

(٢) انظر المستدرك ج ٢ ص ٤١٦

(٣) ثمار القلوب ص ٤٨٤

(٤) الفتاوى لابن تيمية ج ١ ص ٢٣٠

وهم النبي ﷺ وفاطمة وعلي وابناهما (الحسن والحسين) .

وقال : وصح أنه ﷺ جعل على علي وفاطمة وابنيهما كساء وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ، فقالت ام سلمة : وأنا منهم ؟ قال : إنك على خير ؛ وفي رواية القي عليهم كساء ووضع يده عليهم وقال : اللهم إن هؤلاء آل محمد ﷺ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد انك حميد مجيد » .

وقال الشيخ عبد القادر الرافعي : (في نيل المراد) ص ٦٥ عند ذكر بيت البوصيري ومن حوته العباء هم : النبي وعلي وفاطمة وابناهما .

وذكر ابن كثير في تفسيره طرق نزول هذه الآية في الخمسة فقط ، وهم محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، في خمسة عشر مورداً ونود الاشارة اليها زيادة في التوضيح وتأكيداً للبيان .

١ ـ حديث أبي الحمراء ان النبي (ص) كان اذا طلع الفجر جاء الى باب علي عليه السلام وفاطمة وقال : الصلاة الصلاة ياأهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

٢ ـ حديث شداد بن عمار عن واثلة ـ قال ابن عمار : إني جالس عند واثلة ابن الاسقف اذ ذكروا علياً فشتموه ، فلما قاموا قال : اجلس حتى اخبرك عن هذا الذي شتموه ، كنت عند رسول الله (ص) إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فالقى عليهم كساء له ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

٣ ـ حديث أبي رياح عمن حدثه عن ام سلمة ـ انها نزلت في الخمسة .

٤ ـ من طريق أبي هريرة عن ام سلمة أيضاً .

٥ ـ عن حكيم بن سعد : ذكرنا علي بن أبي طالب عند ام سلمة ، فقالت

فى بيتى نزلت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»

٦ ـ عن عطية عن أبيه عن أم سلمة .

٧ ـ عن أبى سعيد عن أم سلمة .

٨ ـ عن شهر بن حوشب عن ام سلمة .

٩ ـ عن عمر بن أبى سلمة عن ام سلمة .

١٠ ـ عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج النبى ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر اسود فجاء الحسن فادخله معه ثم جاء الحسين فادخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء على فأدخله معه ثم قال (ص) « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

١١ ـ وعن العوام بن حوشب ـ عن ابن عم له قال : دخلت مع أبى على ام المؤمنين عائشه فسألتها عن على فقالت : تسألنى عن رجل كان أحب الناس الى رسول الله (ص) وكانت ابنته تحته ، رأيت رسول الله (ص) دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فألقى عليهم ثوباً ، فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» قالت : فدنوت منهم فقلت: يارسول الله وانا من أهل بيتك ؟ فقال : تنحى إنك على خير (١) .

١٢ ـ عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى (ص) أنها نزلت فى خمسة فى وفى على وفاطمة وحسن وحسين .

١٣ ـ عن عامر بن سعد عن سعد قال : إن النبى (ص) حين نزلت عليه فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : ربى هؤلاء أهلى وأهل بيتى .

---

(١) اخرجه البغوى عن عائشة فى معالم التنزيل ٢١٣ المطبوع بهامش تفسير الخازن وكذلك الخازن نفسه ذكره عن طريق عائشة ٢١٣ ـ وفيه زيادة انت من ازواج النبى ولا نتكلف البحث عن قوله (ص) لعائشة تنحى . والحاق انت على خير او انت من ازواج النبى

١٤ ـ عن أبي جميلة عن الحسن بن علي عليه السلام .

١٥ ـ عن السدى عن أبي ديلم عن علي بن الحسين عليه السلام .

هذا ماذكره ابن كثير فى تفسيره سلكنا فى نقله طريق الاختصار واعتقد ان المنصف يكتفى بما ذكرنا ولا نحتاج الى ذكر تفاصيل اخرى حول تخصيص نزول هذه الآية فى أهل البيت خاصة ، فالامر اجلى من الشمس .

وكان صلى الله عليه وآله يؤكد بعمله أمام أصحابه بهذه المنزلة ، لذلك كان يمر على باب فاطمة يرفع صوته بالسلام عليهم ويتلو هذه الآية .

روى الترمذى فى صحيحه عن أنس بن مالك . قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر كلما خرج الى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» (١) .

وفى رواية أبى الحمراء: ان النبى «ص» كان يمر ببيت فاطمة وعلى عليه السلام فيقول: السلام عليكم أهل البيت «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» .

رواه السيوطى فى الدر المنثور ج ٥ ص ١٧٤ عن ابى الحمراء ان النبى «ص» كان يمر على باب بيت فاطمة ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج الى الصلاة الغداة إلا وأتى باب فاطمة ويقول : السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله .. الآية .

ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة ابى الحمراء ج ٥ ص ١٧٤ قال رواه الثلاثة (٢) .

---

(١) شرح الترمذى لابن العربى ج ١٣ ص ٨٥ وابن عبد البر فى الاستيعاب بهامش الاصابة ٤ ـ ٤٦ .

(٢) الدر المنثور ٥ ـ ٩٩ واخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤ ـ ٦٤

وعن ابن عباس شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على عليه السلام عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم أهل البيت إنما يريد الله ... الآية خمس مرات .

وهذا البيان منه ﷺ زيادة فى البيان لأمته وتأكيداً لهم فى ابراز أهله بتلك المنزلة العظيمة وبديهى أنه ما كان قصده أن يوقظهم للصلاة فهم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

ولكن لشدة اهتمامه بآله وباظهار فضلهم للامة كان يعمل هذا ليطبقه تطبيقاً عملياً . وقال الشيخ عبد المجيد الشرنوبى الازهرى (١) .

ثم إنه يختلف تفسير آله « ص » باختلاف المقامات ، ففى مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الصدقة كبنى هاشم وفى مقام المدح هم أهل بيته الكرام الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المرام . وفى الحديث : من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له . ولله در القائل :

أرى حب آل البيت عندى فريضة ... على رغم أهل البعد يورثنى القربى
فما اختار خير الخلق منا جزاءه ... على هديه إلا المودة فى القربى

وهم أهل العبا جمعهم النبى ﷺ تحت الكساء وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فانزل الله عز وجل : إنما يريد الله .. الآية : وهم الحسن والحسين وامهما وأبوهما كما قال بعضهم :

إن النبى محمداً ... ووصيه وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء وانى بولائهم ... أرجو السلامة والنجا فى الآخرة

ورواه الشيخ عبد الله الشبراوى فى الاتحاف السنية ص ٥ . وأخرجه

---

(١) انظر شرح الثانية ـ ١٢٣

ابن عساكر فى تاريخه ج ٤ ص ٢٠٤ وأطال البحث فى تحقيقه . ومحمد بن يوسف الشافعى فى كفاية الطالب ج ٢ ص ١٣ . والشيخ ابو بكر بن ملا الحنفى فى كتاب قرة العيون ج ١ ص ١٨٩ .

وابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ١ ص ٣٧ .

والشيخ نعمان الآلوسى فى غالية المواعظ ج ٢ ص٨٦ قال اخرجه الامام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ان الآية نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين وأخرج البيهقى والترمذى وابن المنذر عن ام سلمة .. الخ .

وأخرجه الواحدى فى اسباب النزول ٢٦٧ عن ابى سعيد عن ام سلمة.

ويطول بنا البحث ، فى تتبع ايضاح هذه الآية ، وذكر رواتها ، وبيان اختصاصها بآل محمد ولايشاركهم بتلك المنزلة أحد ، فنقتصر على هذا البيان الموجز بالنسبة لما تقتضيه من ايضاح يستدعى الى وضع مجلدات .

٢ — حديث الغدير

رواه جماعة من الصحابة ، ينوف عددهم على المائة ، وفى طليعتهم أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى ، المتوفى سنة ٢١ الذى قال فيه رسول الله ﷺ : ما اضلت الخضراء ، ولاأقلت الغبراء من ذى لهجة اصدق من أبى ذر رواه عنه جماعة من الاعلام .

وحذيفة اليمانى المتوفى سنة ٢٩ والبراء بن عازب ، وجابر ابن عبد الله الانصارى ، وأبو أيوب خالد بن زيد الانصارى المتوفى بغزوة الروم سنة ٥٠ ، وسعد بن أبى وقاص ، وسلمان الفارسى المتوفى سنة ٣٦ ،

وطلحة بن عبيد التيمى ، وعائشة زوجة النبي ﷺ اخرج حديثها ابن(١) عقدة فى كتاب حديث الولاية .

وعبد الله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ والعباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وآله وعثمان بن عفان ، وأبو اليقظان عمار بن ياسر العنسى شهيد صفين سنة ٢٧ ، والصديقة فاطمة بنت النبي ﷺ وغيرهم الى عدد يتجاوز المائة .

ورواه من التابعين عدد ينوف على الثمانين ، وكانت عناية الجميع بهذا الحديث ظاهرة ، وقد خرجه جماعة من العلماء فى كتبهم المعتبرة كمسلم فى صحيحه ، والترمذى والحاكم ، وعدد لايمكننا حصره بهذه المجالة ، وقد الف فيه جماعة كتباً خاصة يربو عددهم على الثلاثين .

وشهد به لأمير المؤمنين عدد من الصحابة ، يوم ناشدهم بحديث الغدير فى مواطن عديدة كيوم الشورى ، وأيام عثمان ، ويوم الرحبة ، وقام له فى ذلك اليوم من الصحابة عدد ليس بالقليل وفى طليعتهم : أبو الهيثم بن التيهان وأبو هريرة الدوسى ، وأبو سعيد الخدرى ، وغيرهم عدد لايقل عن العشرين وتواتر النقل بتعدد مناشدة امير المؤمنين أصحاب محمد ، ص ، باظهارهم للملأ هذا الحديث الشريف كما ورد أنه ناشدهم يوم الجمل ، ويوم الركبان فى الكوفة ، وشهد له بذلك جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر وهو من

---

(١) هو احمد بن محمد بن سعيد الكوفى المتوفى ٢٣٠ قال الذهبى : هو حافظ العصر والمحدث البحر كان اليه المنتهى فى قوة الحفظ وكثرة الحديث وقال الدار قطنى اجمع اهل الكوفة انه لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود الى زمن ابن عقده احفظ منه ، وقال ابو على الحافظ: مارأيت لحديث الكوفيين احفظ من ابى العباس بن عقدة ، وكان ابن عقدة يقول : احفظ مائة الف حديث باسانيدها ويقول اجيب فى ثلثمائة الف حديث من احاديث اهل البيت قال الذهبى وكان مقدما فى الشيعة انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٣ ص ١٦ وذكرنا ترجمته هنا لانه من الذين الفوا فى حديث الغدير فى القرن الرابع واخرج الحديث من مائة وخمسين طريقاً .

البدريين ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وقيس ابن سعد بن عبادة ، وهم ممن شهدوا بدراً ، وقد اخفى ذلك الحديث جماعة من القوم لمؤثرات العاطفة وعوامل التعصب فدعا عليهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : اللهم من كتم هذه الشهادة وهو يعرفها فلا تخرجه من الدنيا حتى تجعل به آية يعرف بها ، فبرص أنس ، وعمى البراء بن عازب ، ورجع جرير اعرابياً بعد هجرته وهم ممن كتموا شهادتهم ولم يؤدوا ماحملوا ، ومنهم زيد ابن أرقم ، ويزيد بن وديعة .

وكذلك ناشد أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب محمد صلى الله عليه وآله يوم صفين ، واحتجت به فاطمة « ع » والامام السبط الحسين بن على عليه السلام وعبد الله بن جعفر وغيرهم ، ولزيادة البيان نورد طرفا من خطبة النبي صلى الله عليه وآله يوم الغدير

أخرج ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى كتاب الولاية بسنده عن زيد بن ارقم قال : لما نزل النبي « ص » بغدير خم فى رجوعه من حجة الوداع وكان فى وقت الضحى وحر شديد فامر بالدوحات فقممت ونادى الصلاة جامعة فجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال :

إن الله تعالى انزل الىّ « بلغ ماانزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » وقد أمرنى جبرئيل عن ربى أن اقوم فى هذا المشهد واعلم كل أبيض واسود أن على بن ابى طالب أخى ووصى وخليفتى والامام بعدى ، فسألت جبرئيل أن يستعفى لى ربى لعلمى بقلة المتقين وكثرة المؤذين لى واللائمين لكثرة ملازمتى لعلى ، وشدة اقبالى عليه حتى سمونى اذنا ، فقال تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي « ص » ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم » ولو شئت ان اسميهم وادل عليهم لفعلت ولكنى بسترهم قد تكرمت ، معاشر الناس فان الله قد نصبه لكم ولياً واماماً وفرض

طاعته على كل أحد ماض حكمه جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدقه ، اسمعوا وأطيعوا فان الله مولاكم وعلى إمامكم ، ثم الامامة من صلبه الى القيامة ومنها :

افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا متشابهه ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده ومعلمكم : إن من كنت مولاه فعلى مولاه وموالاته من الله عز وجل أنزلها على ألا وقد أديت ، ألا وقد أسمعت ، ألا وقد أوضحت ، الى آخر خطبته ﷺ التى رواها الثقات من رجال الامة .

ومن أراد الاطلاع وسعة البيان فليراجع ماكتبه الحجة المتتبع فقيه التأريخ شيخنا العلامة الامين الشيخ عبد الحسين الاميني ففيه نجعة الرائد وبغية الطالب (١) .

فهذا بيان موجز عن حديث الغدير ، الذى تحرج البخارى عن اخراجه وتنكر له كما تنكر لكثير من فضائل أهل البيت ، وحادثة الغدير أهم الحوادث الاسلامية التى سجلها التأريخ بصورة لامجال لأحد انكارها ، وأهم شئ انكار بعض المسلمين لهذه الحادثة المهمة ، مكابرة منهم بعد وضوح الحجة والدليل القاطع يوم قام النبى ﷺ فى ذلك الحفل الرهيب ، والجمع الحاشد وفى ذلك الهجير المضطرم ، فى غدير خم حيث مفترق المدنيين ، والمصريين ، والعراقيين وعدد الجمع لايقل عن مائة الف ، وبلغ ما أمره به ربه ، بأن ينص على على عليه السلام وينصبه علماً للناس من بعده ، وكان النبى ﷺ يعلم ان ذلك سوف يثقل على الناس وقد يحملونه على المحاباة والمحبة لابن عمه وصهره ، ومن المعلوم أن الناس ذلك اليوم والى اليوم ليسوا فى مستوى واحد من الايمان واليقين بنزاهة النبي ﷺ وعصمته عن الهوى والغرض ، ولكن الله سبحانه لم

(١) يقع الكتاب فى عشرين مجلداً صدر منه عشرة اجزاء واعيد طبعها وهو بواصل طبع الاجزاء الباقية .

يعذره ، فى ذلك فاوحى اليه : « يا أيها النبى بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » فلم يجد بداً من الامتثال بعد هذا الانذار الشديد ، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع فى غدير خم فنادى وجلهم يسمعون: الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فقالوا : اللهم نعم . فقال : « من كنت مولاه فهذا على مولاه » الى آخر ما قال ثم أكد ذلك فى مواطن أخرى تلويحاً وتصريحاً واشارة ونصاً حتى أدى الوظيفة ، وبلغ عند الله المعذرة ، ولكن كبار المسلمين بعد النبى ﷺ تأولوا تلك النصوص نظراً منهم لصالح الاسلام حسب اجتهادهم فقدموا واخروا وقالوا (الامر يحدث بعده الامر) (١) .

وكان عيد الغدير محل عناية أهل البيت وشيعتهم على ممر العصور يقيمون شعائره حسب مناسبات الظروف ، وفى عهد آل بويه أقيم فى بغداد سنين متطاولة بصورة علنية نظراً لرفع الرقابة وعدم الحذر وقد عظم ذلك على خصوم الشيعة فثاروا ضد اعلان هذا العيد وحدثت ثورات دموية بين السنة والشيعة على ممر الزمن والشيعة متمسكة باظهار هذا العيد لاتقف تلك المحاولات فى طريق اقامة شعائره . ولما رأى خصوم الشيعة أن وسائلهم التى قاموا بها ضد هذه الشعائر كان نصيبها الفشل ، التجأوا الى المغالطات العملية فقاموا فى احداث عيد يقابلون فيه عيد يوم الغدير الزاهر . وهو يوم الغار وجعلوه عيداً وأقاموا الزينة ونصبوا القباب فى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة وزعموا أن النبى ﷺ وأبا بكر اختفيا فى الغار ، وهذا من الجهل والغلط البين ، فان ايام الغار إنما كانت فى آخر صفر أو فى أول شهر ربيع الاول (٢) واستمروا على ذلك مدة ثم كان مصير هذا العيد الى الاهمال والنسيان

(١) اصل الشيعة واصولها لسماحة الامام فقيد الاسلام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء عطر الله مرقده .

(٢) انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ١٢٠

أما الشيعة فقد استمروا باقامة عيد الغدير واقامة المآتم يوم عاشورا فضاق باعدائهم ذرعا ففى سنة ٣٦٣ عمدوا الى مقابلة الشيعة واركبوا امرأة وسموها عائشة ، وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير ، وقالوا : نقاتل أصحاب على فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير (١) .

واستمرت الفتن بين الطرفين بسبب اقامة هذه الشعائر ، وبلغت مبلغاً شديداً حتى التجأ خصوم الشيعة الى الاستعانة بالجند والسودان وذلك فى سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م وكان الجنود يسألون من يجدونه فى الطريق من خالك؟ فان لم يقل معاوية ضربوه .

وطاف أحد السودان المتهجمين بالطرقات وهو يصيح بين الناس معاوية خال على فتابعه العامة ، وأصبحت هذه هى صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة (٢) .

ويحكى عن بعض الشيعة فى تلك المحنة قيل له : معاوية خالك فقال : لا أدرى أكانت أمى نصرانية (٣) . كل ذلك محاولة منهم لأرغام الشيعة على ترك إقامة هذه الشعائر ولكنها مرت على ذلك غير مبالية ، بتلك المقابلات الفاشلة .

كما أنهم قابلوا يوم عاشورا بيوم مصرع مصعب بن الزبير ، وأقاموا عليه النياحة وزاروا قبره يومئذ بمسكن ونظروه بالحسين عليه السلام لكونه صبر وقاتل حتى قتل ، ولأن اباه ابن عمة رسول الله وحواريه ، كما أن أبا الحسين عليه السلام ابن عم النبى «ص» وفارس الاسلام فنعوذ بالله من الهوى والفتن(٤)

(١) تاريخ ابن كثير ج ١١ ص ٢٢٥
(٢) الحضارة الاسلامية الاستاذ آدم متز ١٠٨
(٣) نفس المصدر .
(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٣٠

وناهيك ماجرى فى بغداد من حروب دامية مبعثها الجهل والتعصب التى يقف القلم عند وصفها ، وأعظمها محنة وقعة الكرخ التى تجلت فيها نفسية قوم أشرب فى قلوبهم بغض آل محمد والقضاء على من يواليهم ، فقد هجمت طوائف يبعثهم صلف الولاة وميلهم للنزعات ، حتى أحرقوا دور شيعة آل محمد « ص » وقتلوا الرجال والأطفال فكانت عاقبة الدولة الى الدمار والانهيار بعد تلك الحادثة بقليل ، وليس فى وسعنا التعرض لذكر تلك الفجائع السود ولا نود نبش تلك الدفائن التى مرت فى تلك العصور المظلمة ونحن فى عصر ما أحوجنا فيه الى الاخوة والاتحاد لنقابل من يكيد الاسلام ويحاول القضاء على تعاليمه ولا يروق له اتحاد المسلمين لأن فى اتحادهم يكون القضاء على المستبدين بامور الامة ، لوجود الوعى الشامل بوجوب تطبيق نظام الاسلام ومن الله نسئل تحقيق ذلك .

٣ — حديث الثقلين

أخرج مسلم فى صحيحه ج ٧ ص ١٢٢ من طريق زيد بن أرقم خطبة النبى ﷺ يوم الغدير وقوله « ص » فيها وانا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال وأهل بيتى اذكركم الله فى اهل بيتى .

واخرجه الترمذى فى ج ٢ ص ٣٠٨ عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله « ص » : إنى تارك فيكم الثقلين ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله ممدود من السماء الى الارض ، وعترتى أهل بيتى ولن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما .

وأخرجه أحمد فى مسنده ج ٢ - ص ١٤ ط ١ عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .

وفى ص ١٧ منه عن أبى سعيد أيضاً عن النبى ﷺ قال : إنى أوشك أن أدعى فاجيب وإنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، وعترتى أهل بيتى ، وان اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا بم تخلفونى فيهما ؟ وفى ص ٢٦ منه عن أبى سعيد الخدرى مثله .

ورواه البغوى فى مصابيح السنة ج٢ ص ٢٠٤ والقاضى عياض فى الشفاء

وأخرج الخطيب البغدادى فى ج ٨ - ص ٤٤٣ من طريق حذيفة بن اسيد أن رسول الله ﷺ قال : يا أيها الناس إنى فرط لكم وأنتم واردون على الحوض ، وانى سائلكم حين تردون على عن الثقلين فانظروا كيف تخلفونى فيهما ، الثقل الاكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم واستمسكوا به .

وأخرجه الحاكم من طريق زيد بن أرقم فى المستدرك ج ٤ ص ١٠٩ ورواه السيوطى من ثلاث طرق : من طريق زيد بن أرقم - وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى .

وأخرجه فقيه الحرمين محمد بن يوسف الشافعى فى كتابه كفاية الطالب وأخرجه الطبرى فى الذخائر من طريق زيد بن ارقم .

وأخرجه ابن حجر فى الصواعق المحرقة ص ١٣٦ ثم ذكره بطرق مختلفة وقال : ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً . وذكره الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوى فى ص ٦ فى كتاب الاتحاف بحب الاشراف

والسيوطى أيضاً فى كتاب احياء الميت بفضائل أهل البيت المطبوع على هامش الاتحاف ، وذكره الشيخ العدوى فى مشارق الانوار عند ذكره لفضائل أهل البيت ص ١٤٦ ، والعلامة السيد خير الدين أبى البركات نعمان افندى الالوسى فى غالية المواعظ ص ٨٧ ج ٢ .

وقال ابن حجر فى شرح الهمزية عند ذكر آل محمد ﷺ: وفى الحديث والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد بى حتى يحبنى ولا يحبنى حتى يحب ذوى قرابتى انا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم ألا ومن آذى قرابتى فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ثم ذكر حديث الثقلين واختصاصه بآل محمد ﷺ .

ورواه ابن كثير فى تفسيره ج ٣ ص ٤٨٦ ، من طريق زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمدالله واثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس فانما انا بشر يوشك ان يأتينى رسول ربى فاجيب وانا تارك فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال وأهل بيتى اذكركم الله فى أهل بيتى اذكركم الله فى أهل بيتى اذكركم الله فى أهل بيتى .

وقال الشيخ عبد الرحمن النقشبندى فى كتابه العقد الوحيد بعد ذكره أهل البيت ص٧٨ : كيف وهم انجم ديننا ومصدر شرعنا وعمدة أصحابنا ، فبهم ظهر الاسلام وفشى ، وبهم تأيدت اركانه ونشأ ، ومن ثم صح أنه صلى الله عليه وآله قال : انى تارك فيكم ما أن اخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، فانظروا كيف تخلفونى . وصح عنه ﷺ قال : من سره أن يكتال بالمكيال الاوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل، اللهم صل على محمد وآله

وروى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير وروى له قوله .

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له

وجاء في مجلة المسلم الصادرة في مصر عدد ١ ـ السنة ٢ في شهر شعبان سنة ١٢٧١ هـ ص ٨ رقم ٧ قال أهل البيت حراس هذا الدين وورثة هذا المجد الى أن يقول : وكان أهل البيت هدفا للطعن والاذى المنوع ، بل والإبادة في كل عصور التاريخ من عهد الامام علي رضي الله عنه ، وقد اتخذ اعداءهم محاربتهم ديناً نسبوه ظلماً لجدهم ﷺ ولعبت أطوار التأريخ في ذلك أدوارا مريرة ، حتى جردوهم من أنسابهم وأملاكهم وأوقافهم ؛ بعد أن أفاؤا عليهم صنوف المهانات وألوان العذاب باسم الدين المظلوم مالا يعلمه إلا الله ، ولم يكفهم أن ينالوا منهم حتى دفعهم سوء الطبع وسوء الادب وسوء الايمان والغل الدفين الى تأليف الكتب في اضطهاد آل الرسول وسبهم باسم احياء السنة واجتهاد الرسول والعياذ بالله انتهى .

وقال في القاموس في مادة ثقل : الثقل كعنب ، ضد الخفة ، والثقل محركة متاع المسافر وحشمته وكل شئ نفيس مصون ، ومنه الحديث : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

وقال محب الدين في التاج في مادة ثقل عند ذكر الحديث : جعلهما ثقلين اعظاما لقدرهما وتفخيما لهما ، قال ثعلب : سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما ثقيل .

وقال ابن أبي منظور في لسان العرب : روى عن النبي ﷺ أنه قال في آخر عمره : « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » ثم ذكر قول

ثعلب وقال : واصل الثقل ان العرب تقول لكل شيء نفيس مصون خطير ثقل فسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيما لشأنهما ويقال للسيد العزيز ثقل الى آخره .

وقال ابن الاثير فى النهاية بعد أن ذكر قوله ﷺ : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى سماهما ثقلين لان الاخذ بهما والعمل بهما ثقيل ، ويقال لكل خطير ثقل ، وقال فى المصباح : العترة نسل الانسان قال الأزهرى وروى ثعلب عن ابن الاعرابى : ان العترة ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف العرب من العترة غير هذا .

وقال السيد محمد صديق حسن البخارى فى كتاب الدين الخالص ج ٣ ص ٥١١ بعد ذكره لهذا الحديث من طريق زيد بن أرقم :

هذا الحديث فيه فضيلة أهل البيت وبيان عظم حقهم فى الاسلام ، وانهم قرين القرآن فى التعظيم والاكرام ، وليس بعد هذا البيان من رسول الله ﷺ بيان ، ولا قرية بعد عبادان .

وقال فى ص ٥١٤ : وعندى أن المراد بهم (اى بأهل البيت) هم الموجودون فى عصر النبوة أولا بالذات ، ولكن يدخل فيهم أيضاً من وجد بعدهم من السادة القادة الى العلم والعبادة ، كالأئمة الاثنى عشر من العترة الى أن يقول : والمراد بأهل البيت ـ هنا ـ العترة الطاهرة ، والذرية المطهرة خاصة دون ازواج النبى ﷺ .

ويطول بنا الحديث اذا حاولنا تتبع مخارج هذا الحديث وبسط القول فيه وقد اقتصرنا على هذا القدر من طرقه وقد الف الحافظ محمد بن طاهر بن على المعروف بالقيصرانى كتاباً خاصاً جمع فيه طرق هذا الحديث وقد خرجه عن ٢٧ صحابياً .

وهناك أمر يستدعى الانتباه وهو ان يد التحريف التى لازالت تبعث على الامة عوامل التفرقة قد جنت جناية عظيمة ، لحرفته مخالفة لله ولرسوله فان الحديث يقول : كتاب الله وعترتى ، هم يقولون كتاب الله وسنتى وهم يقصدون من وراء ذلك تغيير الواقع والتمويه لما يتظمنه هذا الحديث الشريف الذى قرن العترة بالكتاب ، وجعلهما كتوأمين يلزم التمسك بهما ، وايثار حقهما ، وأن العترة باقية الى يوم القيامة .

قال الشريف السمهودى : هذا الخبر يفهم منه وجود من يكون أهلا للتمسك به من عترته ﷺ فى كل زمن الى قيام الساعة حتى يتوجه الحث المذكور على التمسك به ، كما أن الكتاب كذلك ، ولذا كانوا أمانا لأهل الارض ، فاذا ذهبوا ذهب أهل الارض (١) .

وقال الشيخ الزرقانى - بعد شرحه لهذا الحديث - : أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية ، والاسرار والحكم الشرعية ، وكنوز الحقائق ، وخفايا الدقائق .

وأما العترة فلأن العنصر اذا طاب أعان على فهم الدين ، فطيب العنصر يؤدى الى حسن الأخلاق ، ومحاسنها يؤدى الى صفاء القلب ونزاهته وطهارته ، واكد ﷺ تلك الوصية وقواها بقوله : « فانظروا بماذا تخلفونى فيهما ، هل تتبعونى فتسرونى ، أولا فتسيئونى ؟ (٢) .

وهو ﷺ اعرف بالمصالح العامة ورأى أن مصلحة امته فى التمسك بهذين الثقلين من باب رعاية المصلحة لهم ، وتحصيلا لسعادتهم ، فاكد(ص) فى عدة مواطن على لزوم اتباع أهل بيته وانهم أولى الناس برعاية شؤون

---

(١) شرح المواهب اللدنية ٧/٨

(٢) نفس المصدر

الامة ولذا جعل مثلهم كمثل سفينة نوح .

حدث أبو ذر الغفارى عن رسول الله ﷺ - وهو آخذ بباب الكعبة - أنه قال : « مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » .

خرجه أحمد بن حنبل والحاكم فى المستدرك ، وغيرهما من المحدثين .

واخرج الطبرانى عن ابى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « انما مثل أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى اسرائيل من دخله غفر له » .

وغير هذه الاحاديث الواردة بالطرق الصحيحة مما ملأ سمع الدنيا ورددتها الاجيال وأوردها العلماء فهى تقضى بوجوب التمسك بأهل البيت واتباعهم وحبهم ومناصرتهم ، فهم دعاة الحق وهداة الخلق ، واعلام الرشاد وقادة العباد .

ونحن نقطع بأن المسلمين لو توفرت لهم حرية الرأى توافراً تاماً ليعلنوا غير خائفين - فيمن يجب أن يرشحوه خليفة عليهم ، ويؤهلوه لرعاية امورهم وولاية أمرهم لتحقيق المصالح العامة وسعادة المجتمع الاسلامى من جميع الوجوه ، لما عدلوا عن أهل بيت النبى ﷺ رعاية لوصاياه ﷺ وامتثالا لأمره ، وأن أهله المرشحين للخلافة قد اجتمعت فيهم خصال الكمال وأهلية الرعاية وولاية الامر ولم يستطع أحد أن يلصق بهم عيباً وان كان خصما لهم . وحرباً عليهم .

ولكن الامر أصبح وراثياً فى اسرة معينة ، ينتقل من واحد لواحد بالوصاية وولاية العهد ، كما رأينا من فعل معاوية ببيعة يزيد بالسيف وقوة السلطان ، وهكذا من بعده فى ولاية الحكم ولا رأى للامة فى ذلك .

وعلى أى حال فان أهل البيت هم هداة الامة ، وكانت الانظار تتجه

اليهم فى جميع الادوار ، وسنوضح فيما بعد التفاف الناس حول الامام الصادق وترشيحه لولاية الامر ، لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم فى عصره .

ونعود الى القول : بأن عدم تخريج الشيخ البخارى أحاديث الامام الصادق هوشئ يعود الى البخارى نفسه ولايقدح بشخصية الامام الصادق عليه السلام فهو الذى اجمعت الامة على صدقه فلقبوه بالصادق ، وقد خرج البخارى أحاديث تلامذة الامام الصادق عليه السلام ولكنه تجنب الروايات التى يرونها عنه عليه السلام

وليس بغريب أن تقضى الظروف القاسية بأن يبتعد الناس عن أهل البيت حباً للسلامة أو استسلاماً لعوامل اخرى .

ولا بد لنا أن نشير هنا بأن البخارى لم يجمع الاحاديث الصحيحة عنده كلها فانه قد ترك الكثير منها .

حدث الاسماعيلى عنه أنه قال : لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحاً وما تركت من الصحيح اكثر (١) .

وقد نقل عنه أنه يحفظ مائة الف حديث صحيح (٢) وليس فى كتابه بالنسبة لذلك إلا القليل ، فان جميع ما فيه أربعة آلاف والمكرر الفان فيكون المجموع سبعة آلاف .

ومع هذا فلا يمكن القطع بصحة كل مايرويه أو أنها أصح الاحاديث .

قال المحقق ابن همام فى شرح الهداية : وقول من قال : أصح الأحاديث ما فى الصحيحين ، ثم ما انفرد به البخارى ، ثم ماانفرد به مسلم ، ثم ما اشتمل على شرطهما ، ثم ما اشتمل على شرط أحدهما نحكم لايجوز التقليد فيه ، اذ الأصحية ليست إلا لاشتمال رواتها على الشروط التى اعتبراها ، فان فرض

---

(١) هداية البارى /٥.

(٢) شرح الفية العراقى ١/٤٨

وجود تلك الشروط فى رواة حديث فى غير الكتابين أفلايكون الحكم باصحية ما فى الكتابين عين التحكم ؟!

وبعد هذا نقول : لعل ترك البخارى للاحاديث الصحاح فى فضائل أهل البيت (ع) لم يكن لعدم وثوقه فى صحتها ، أو توقفه عن قبولها ، ولكنه مع ذلك تركها عمداً اختصاراً لكتابه ، أو تهيباً مما وراء ذلك من اتهام .

كما أن عدم تخريج أحاديث الامام عليه السلام لاالشئ يعود لنفس الصادق عليه السلام بل أن ذلك يعود لنفس البخارى ، ولم يستطع البخارى ولا غيره أن يجرحوا الامام الصادق عليه السلام بشئ أبداً .

والامة الاسلامية قد تقبلت رواياته وأخذت بأقواله عليه السلام حتى لقب بالصادق ، وكان المرجع الوحيد لايضاح المبهم وحل ما اشكل عليهم ؛ وقد ملأ رواة حديثه الاقطار الاسلامية ، وكان فى الكوفة الف شيخ محدث كل يقول : حدثنى جعفر بن محمد .

ولا نطيل الحديث هنا وسيأتى فيما بعد ماله صلة بالموضوع ان شاء الله.

الامام الصادق (ع)

ملوك عصره وامراء بلده

تمهيد

لقد رفضت الدولة الاموية الأخذ بنظام الاسلام فى حريـــة الرأى والاجماع الصحيح من أهل الحل والعقد الناس ودعت الى محاربته وارتبطت أشد الارتباط بفوضى الجاهلية وجمعت شتات ذلك الجمع الذى فرقه المصلح الأعظم بدعوته .

فالاسلام يأمر بالوحدة ، وهم فرقوا الكلمة ، وينهى أن تراق الدماء وقد ولغوا فيها ، ويأمر بالاحسان والعدل وقد جاروا فى الحكم ، وأساؤا السيرة فى الامة فاذا رجعنا الى ماضى الجاهلية والتاريخ الذى سجل تلك العصور الوحشية أدركنا أنه تمثل فى عصرهم باوضح صورة ، إذ هى دفعت الناس الى التخطى عن حدود الدين الاسلامى الذى جاء بتعاليم تحسبها النفوس الشريرة سجناً ضيقاً تتمنى الخروج من القوانين التى سنها الشرع المقدس لحفظ النظام وسعادة البشر ، فهو يعاقب على ترك الصلاة ، وشرب الخمر ، وقتل النفس وأكل الأموال بالباطل ، وحدد حدوداً ، ونظم قوانين يعاقب بها المجرم بمخالفته حسب جريمته ، ولم يفرق فى تطبيقها بين أفراد الامة جمعاء ، فهى بعمومها تشمل الشريف والوضيع ، والحر والعبد ، والذكر والانثى ، ولم تكن هناك رخصة لأحد فيها ، ولا ميزة تطبق من أجلها على طبقة دون أخرى ، فالكل يخضعون لذلك النظام على حد سواء ، وليس هناك طبقة فوق القانون الذى شرعه الاسلام ، وما ذلك إلا لقلع جذور الشقاء ،

وغرس السعادة ، ورعاية المصلحة العامة ، ليجتنى الناس ثمر ذلك الغرس الذى غذاه محمد ﷺ بتعاليمه ، وأجهد نفسه أى جهد فى تفهيم الناس منافعه ومصالحه .

ولا ريب أن هذه التعاليم التى تكفلت للامة بالسعادة فى اتباعها تحتاج الى تنفيذ وتطبيق ، ولا يقوم بهذه المهمة إلا الانسان الكامل الذى لاتهمه مصلحـــة نفسه ؟ بل ان أهم شىء عنده المصلحة العامة ، وهو الذى يغذى الامة بدمه لتنال السعادة على ضوء تعاليمه ، وتحيى الحياة المطلوبـــة فى صعيد إرشاداته .

وما الاسلام إلا مجموعة نظم وقوانين سماوية هبطت الى الارض بواسطة النبى الاعظم فهو الذى يتولى تطبيقها فى حياته ، ومن يختاره لذلك بعد وفاته بأمر من المشرع الاعلى « وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة » .

قال الامام كاشف الغطاء رحمه الله : « فالامامة منصب إلهى كالنبوة ، فكما ان الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة فكذلك يختار للامامة من يشاء ، ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوضائف التى كان على النبى أن يقوم بها ، سوى ان الامام لايوحى اليه كالنبى ، وإنما يتلقى الاحكام منه مع تسديد الهى ، فالنبى مبلغ عن الله والامام مبلغ عن النبى ، والامامة متسلسلة فى اثنى عشر كل سابق ينص على اللاحق وهو معصوم ـ كالنبى ـ عن الخطأ والخطيئة ، وإلا لزالت الثقة (إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) لأن الغرض هو تكميل البشر وتزكية النفوس بالعلم والعمل الصالح : (هو الذى بعث فى الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) والناقص لايكون مكملا لغيره والفاقد لايكون معطياً انتهى .

والامام الصادق هو سادس الأئمة الاثنى عشر ، وهو صاحب هذه الولاية وولى أمر المسلمين وهو الانسان الكامل الذى اختاره الله لتطبيق ذلك النظام المقدس فى عصره . وحسبك دليلا على نزاهته وعظمته ان خصومه - على كثرة عددهم واختلاف مكائدهم - لم يستطيعوا أن يثبتوا عليه زلة أو منقصة اجتماعية ، أو نكسة علمية حتى ساعة وفاته .

وكانت الانظار متجهة اليه فهو المبرز من أهل البيت وسيدهم فى عصره وقد طلب منه قواد الثورة أن يبايعوه، لأهليته للخلافة ولثقة المجتمع به ولكنه عليه السلام امتنع عن ذلك لما يراه من وراء سير الحوادث كما سنبينه ان شاء الله .

ولسنا فى موقف الراغب هنا الى البحث عن الامامة والولاية العامة ، فلها محل آخر .

ولكننا فى معرض بيان موجز ، عن أعمال الولاة فى عصر الامام الصادق عليه السلام الذين تولوا رعاية الأمة وليس لهم قدرة على اصلاح انفسهم فكيف تصلح بهم الأمة ؟! وقد شاهد عليه السلام صنيعهم السيء وسيرتهم الملتوية فى منهجهم السياسى الفاتك من اضطراب حبل الأمن ، ولا يهمهم شيء إلا الرياسة والسيطرة على الرعية واشباع رغباتهم ، من أى طريق كان ، الى ماهنالك من جرائم هى شعلة عذاب ونقمة على الامه ، إذ خالفوا الكتاب والسنة ، ووقفوا حاجزاً دون المجتمع ودون سعادته التى جعلها الله لهم باتباع أوامر الدين والخضوع لنظامه .

وسنعرض بعض الحوادث التى جرت فى ذلك العصر لنعرف مقدار ماتحمله الامام الصادق عليه السلام عند مشاهدته لتلك الأعمال القاسية ، والاوضاع الشاذة ، وهو المصلح الذى تهمه مصلحة الناس قبل مصلحة نفسه ، ويريد لهم السعادة تحت ظلال الدين الحنيف .

فكان موقفه عليه السلام فى تلك المدة موقف الرجل المصلح الذى يصول بيد جذاء لقلة أعوانه ، فهو يراقب الحوادث عن كثب ، ويتألم لتلك الفضائع ويشارك المسلمين فى مآسيهم .

ولم يكن عليه السلام ليترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وارشاد الناس مع شدة الرقابة ونصب حبائلهم له ليلحقوه بشهداء آل محمد ولكن الله دفع شرهم عنه .

فكان عليه السلام يبث تعاليمه فى معارضتهم ، ويحذر الامة من مخالطة أئمة الجور ، كما اشتهر ذلك عنه فكان عليه السلام يقول : إياكم أن يخاصم بعضكم بعضا الى أهل الجور .

أيما مؤمن قدم مؤمنا فى خصومة الى قاض أو سلطان جائر ، فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه فى الأثم .

أيما رجل كان بينه وبين أخ له مماراة فى حق فدعاه الى رجل من اخوانكم ليحكم بينه وبينه فابى إلا أن يرافعه الى هؤلاء كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنو بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » .

اتقوا الحكومة فان الحكومة للامام العالم بالقضاء ، العادل بالمسلمين كنبى أو وصى نبى . وسأله رجل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق ؟ فاجابه عليه السلام : ان ذلك سحت . وقال : العامل بالظلم والمعين له والراضى به كلهم شركاء ثلاثتهم ، الى كثير من ذلك ، وسنذكر بعضها فيما بعد .

وكان يحث الناس ويدعوهم الى مقاطعتهم وعدم الركون اليهم ، ويدعو الامة الى الاتحاد ضد أولئك الظلمة امتثالا لقوله تعالى : « ولا تركنوا الى

الذين ظلموا فتمسكم النار ، فهو يبث نصيحته بين طبقات ذلك المجتمع بصفته امام زمانه ويواصل جهاده فى سبيل الدعوة الاصلاحية ، ليفك اسر الامة من يد من أفسدوا ذلك المجتمع الصالح ، وقد عاش عليه السلام مدة من الزمن وعاشر كثيراً من ملوك عصره فما ركن لهم ، وما استطاعوا أن يستميلوه وقد حاول المنصور أن يستميله عليه السلام ليوهم الناس أن ولايته على حق ، فارسل اليه لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس ؟ .

وكان المنصور يظن أن ينال من الامام جواباً يحقق هذا الطلب إذ المنصور سلطان العصر ومهاب الجانب .

فكان جواب الامام عليه السلام « ماعندنا من الدنيا مانخافك عليه ولا عندك من الآخرة مانرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنيك عليها ، ولا تعدها نقمة فنعزيك عليها فلم نغشاك ؟ » .

وعظم هـــذا الجواب على المنصور ولكنه يعرف منزلة الصادق عليه السلام وصدقه فى ذلك ، وحاول أن يسلك طريقاً لضم الامام الى جانبه كما ضم غيره إذ يصعب عليه انعزاله وترفعه عن مخالطته ، فارسل اليه انك تصحبنا لتنصحنا . ولم يخف مراده على الامام فاجابه : « من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك .

عاصر الامام الصادق عليه السلام عشرة من ملوك بنى امية وهم : عبد الملك ابن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار وهو آخر ملوكهم .

وعاصر (ع) من العباسيين عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس

المعروف بالسفاح ، وأخيه المنصور الدوانيق .

ولا بد لنا من الوقوف على تراجمهم وذكر بعض الحوادث التى جرت فى ايامهم .

عبد الملك :

عبد الملك بن مروان بن الحكم بن ابى العاص بن امية ، امه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن ابى العاص ، فهو اموى بين امويين .

وكان جده المغيرة من اشد الناس عداء لرسول الله ﷺ فظفر به (ص) فى خروجه لغزوة حمراء الاسد فامر بضرب عنقه (١) وقال ابن كثير : المغيرة جد عبد الملك لامه هو الذى جدع انف حمزة يوم احد (٢) .

تولى عبد الملك بعهد من أبيه مروان سنة ٦٥ وبقى فى الملك الى سنة ٨٦ وهو سنة وفاته .

وكان قبل ولايته يجالس العلماء ، ويحفظ الحديث ويتعبد فى المسجد وكان متقشفاً ، وقد انكر على يزيد بن معاوية حربه لعبد الله بن الزبير ، وقال - لبعض من سار فى ذلك الجيش - :

ثكلتك امك اتدرى الى من تسير ؟ الى أول مولود ولد فى الاسلام ، ومن حنكه رسول الله ﷺ وابن حواريه ، وابن ذات النطاقين .

أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ، وليلا وجدته قائماً ، فلو أن أهل الارض اطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعاً فى النار .

قال ذلك الرجل الذى خاطبه عبد الملك بهذا : فلما صارت الخلافة الى

---

(١) السيرة لابن حزم ١٧٥

(٢) تاريخ ابن كثير ٩ / ٦٣

عبد الملك وجهنا عبد الملك مع الحجاج حتى قتلناه (١) (اى ابن الزبير)

وذلك ان عبد الملك بن مروان عندما ولى الخلافة ارسل الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير فى جيش من أهل الشام ، وحوصر ابن الزبير ستة أشهر وسبع عشرة ليلة ، وكان الحجاج يرمى الكعبة بالمنجنيق من ابى قبيس(٢)

روى ابن عساكر : أن الحجاج لما رمى الكعبة بالمنجنيق أخذ قومه يرمون من ابى قبيس ويرتجزون :

خطارة مثل الفنيق المزبد ارمى بها اعواد هذا المسجد

فجاءت صاعقة فاحرقتهم ، فامتنع الناس من الرمى ، وخطب بهم الحجاج فقال : ألم تعلموا أن بنى اسرائيل كانوا اذا قربوا قرباناً فجاءت نار فاكلته ، علموا أنه قد تقبل منهم ، وان لم تأكله النار علموا أن القربان لم يقبل ولم يزل يخدعهم حتى عادوا فرموا (٣) .

ودام الحصار والرمى للكعبة حتى قتل عبد الله بن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ وصلبه الحجاج منكوساً بعد قتله وبعث رأسه الى عبد الملك ابن مروان فطيف به فى البلاد (٤) .

ولما أفضى الامر اليه كان المصحف بيده فاطبقه وقال : هذا آخر العهد بك أو هذا فراق بينى وبينك (٥) .

قال ابن كثير : حج عبد الملك فى سنة ٧٥ وخطب الناس بخطبة قال فيها : انه كان من قبلى من الخلفاء يأكلون ويوكلون ، وانى والله لا أداوى

---

(١) التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ٣/٣١٧ للسخاوى

(٢) انظر شفاء الغرام للقاضى تقى الدين المكى ١/ ١٦٩

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/٥٠

(٤) شفاء الغرام ١/١٧٠

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٨٤ وتاريخ ابن كثير ٩/٦٣

أدواء هذه الامة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف - يعنى عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعنى معاوية - ولا الخليفة المأبون - يعنى يزيد بن معاوية - أيها الناس انا نحتمل منكم مالم يكن عقد راية او وثوب على منبر هذا عمرو بن سعيد حقه حقه قرابته وابنه قال برأسه هكذا قلنا بسيفنا هكذا ، وان الجامعة التى خلعها من عنقه عندى ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها فى رأس أحد إلا اخرجها الصعداء فليبلغ الشاهد الغائب (١) .

وعمرو بن سعيد هو المعروف بالاشدق قتله عبد الملك بيده سنة ٦٩ وقال بعد أن فرغ من قتله : كان أبو أمية أحب الىّ من زهر النواظر ولكن والله ما اجتمع فحلان فى شول قط إلا أخرج احداهما صاحبه (٢) وكان قتله لعمرو بن سعيد غدراً لأنه آمنه وحلف له وجعله ولى عهد من بعده .

وكان عبد الملك له اقدام على سفك الدماء ولما قالت له ام الدرداء : بلغنى انك شربت الطلى بعد العبادة والنسك !! فقال : اى والله والدماء أيضاً شربتها (٣) .

وكانت أول بادرة صدرت منه وتعتبر منهاجا لسيرته أنه نهى عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقال : لايأمرنى أحد بتقوى الله إلاضربت عنقه

وهو الذى حمل الحجاج بن يوسف على رقاب المسلمين عندما ولاه على الحجاز والعراق .

والحجاج ذلك الطاغية الذى أذاق الامة أنواع العذاب ، يغمد سيفه فى رقاب الأبرياء ، وقد اتخذ ذلك السجن المكشوف الذى يضم بين جدرانه

---

(١) تاريخ ابن كثير ٩/٦٤

(٢) تهذيب التهذيب ٧/٣٧

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٨٤

عدداً لايقل عن مائة وعشرين الفاً بين رجل وامرأة ، يلاقون فيه حرارة الشمس وألم الجوع ، ويكابدون غصص وضع الرماد على الرؤوس ، وهم يموجون من الشدة ، ويغلون كالمرجل ، تحركهم حرارة الشمس وتقلبهم السياط وبعج الرماح وصرخة السجانين ، ولقد اتخذ الحجاج فى معاملة الناس عند ولايته أقسى مايتصور من القسوة والشدة فهو يغمد سيفه أنى شاء وكيف شاء ، وله أساليب فى انزال العذاب والعقوبة بمن يظفر بهم .

فهذا سجين يشد عليه القصب الفارسى المشقوق ويجر عليه ثم ينضح عليه الخل (١) وذاك اسير آخر اصيب ساقه بنشابة ثبت نصلها فى ساقه وعلم الحجاج أن أشد عذاب يعامل بهـــا اسيره ان يحرك النصل ليسمع استغاثة السجين وصياحه فتأخذه نشوة الطرب تجبرا وطغياناً .

قال عمر بن عبد العزيز : لو جاءت كل امة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم (٢) .

وقال عاصم : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج (٣)

وسئل الحسن البصرى عن عبد الملك بن مروان ؟ فقال : ما أقول فى رجل الحجاج سيئة من سيئاته (٤) .

وكان عبد الملك يشجع الحجاج ويشد ازره ، ولا يسمع عليه أى شكاية ولا يرق لأى استغاثة ، ولما ادركه الموت اوصى ولى عهده الوليد ـ برعاية الحجاج واكرامه (٥) وكيف لايوصيه برجل كان من رأيه ان عبدالملك

---

(١) كامل ابن الاثير ج ٤ ص ٢٣٦

(٢) نفس المصدر ٢٧١

(٣) تاريخ ابن كثير ج ٩ ص ١٣٢

(٤) تاريخ ابى الفداء ج ١ ص ٢٠٩

(٥) السيوطى ٨٠

أفضل من النبي ﷺ . ولا عجب من الحجاج بل العجب ممن يطلب له المعاذير ويحاول أن يوفق بين أعماله القبيحة و بين الدين ، ويريد ان يدخله الجنة رغم الحواجز وليس ببعيد عن التعصب والعاطفة حصول هذا وأمثاله ، ونستطيع ان نعرف نفسية عبدالملك وما هو فيه من جرأة على سفك الدماء ، فى ولايته للحجاج ، وكانت تصله أخباره وترفع اليه الشكايات ، والاستغاثة منه فلا يرون عنده إلا تشجيع الحجاج على عمله .

ولما حضرته الوفاة أوصى ولده الوليد، فى أخذ البيعة له بالسيف وقال وهو فى آخر ساعة من الدنيا : ياوليد حضر الوداع وذهب الخداع وحل القضاء فبكى الوليد ، فقال له عبد الملك : لاتعصر عينيك كما تعصر الامة الوكاء ، اذا أنا مت فغسلنى وكفنى وصل على واسلمنى الى عمر بن عبد العزيز يدلينى فى حفرتى ، واخرج أنت الى الناس والبس لهم جلد نمر ، واقعد على المنبر ، وادع الناس الى بيعتك ، فمن مال بوجهه كذا فقل له بالسيف كذا ، وتنكر للصديق والقريب ، واسمع للبعيد ، وأوصيك بالحجاج خيرا (١) .

وبهذا نأخذ صورة عن كيفية أخذ البيعة من الناس لخليفة جديد ، يتولى ادارة شؤون الامة ، فهل للامة اختيار فى الانتخاب أم أنها مرغمة ليس لها أى رأى .؟! ولا يحق لها الاعتراض على شئ من ذلك ، والمعارض يقتل. فهل تصح مثل هذه البيعة التى سن نظامها العهد الاموى ، وهل يصح ان يسمى من يفوز بمثل هذا التعيين الاجبارى بامير المؤمنين ويكتب ذلك بحروف بارزة ؟ انا لاادرى ولعل هناك من يدرى والى القارىء النبيه الحكم .

وكان عبد الملك يبتعد عن دماء بنى هاشم لاتدينا ولكنه رأى عاقبة آل أبى سفيان السيئة من وراء ذلك كما يشير بكتابه للحجاج بن يوسف فى

(١) الامامة والسياسة ٢/٧٤

فى عدم التعرض لهم ومع هذا فقد حمل الامام زين العابدين عليه السلام مقيداً من المدينة الى الشام كما حدث الحافظ أبو نعيم فى حلية الاولياء فى ج ٣ ص١٣٥ ولا يسعنا التوسع فى البحث عن عبدالملك وأعماله وسوء سيرة عماله فى الرعية وسيأتى بعض منها .

الوليد بن عبد الملك

ولى الامر بعد أبيه يوم الخميس فى النصف من شوال سنة ٨٦ وهو اليوم الذى مات فيه عبد الملك ، وكان الوليد ولى عهده ، وبقى والياً الى أن مات يوم السبت فى النصف من جمادى الاولى سنة خمس وتسعين ، وكانت مدة ولايته تسع سنين وسبعة اشهر ، وله ست واربعون سنة .

وامه ولادة بنت العباس ، بن جزء ، بن الحارث ، بن زهير ، بن جذيمة العبسى .

وكان الوليد له سطوة شديدة لايتوقف اذا غضب ، وكان كثير النكاح والطلاق ، يقال أنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة (١) غير الاماء وكان لجوجا كثير الاكل . وكان يغلب عليه اللحن .

وهو الذى بنى جامع دمشق . والذى عرف بالجامع الاموى ، وانفق على ذلك أربعمائة صندوق من الذهب ، وفى كل صندوق أربعة عشر الف دينار وقيل كان فى كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار ، وقد لامه الناس على ذلك وأنه انفق مال بيت المسلمين فخطبهم وقال : انما هذا كله من مالى .

(١) مآثر الانافة ١/١٣٣

كما أنه زاد فى مسجد النبى ﷺ وزخرفه ونمقه ، ورصعه بالفسيفساء وهى الفص المذهب ، وادخل فيه حجر ازواج النبى ﷺ وسائر المنازل التى حوله (١) فقال له خبيب بن عبد الله بن الزبير انشدك الله أن تهدم آية من كتاب الله (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) فامر الوليد بضربه حتى مات وسيأتى بيان السبب الذى من اجله وسع الوليد مسجد النبى ﷺ .

وفى ايامه مات الامام زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام مسموما وذلك فى الخامس والعشرين من شهر محرم الحرام سنة ٩٥ هـ وكان الوليد هو الذى دس اليه السم ويقال : أن هشام بن عبد الملك هو الذى دس اليه السم بامر من الوليد (٢) وسيأتى بيان ذلك ان شاء الله .

وفى ايامه قتل سعيد بن جبير ، قتله الحجاج بن يوسف فى شعبان سنة ٩٥ ، وكان سعيد قد هرب من الحجاج الى اذربيجان ، ومنها توجه الى مكة مستجيرا بالله ، ولائذاً فى حرمه .

وكتب الحجاج الى الوليد : ان جماعة من التابعين قد التجأوا الى مكة فكتب الوليد الى عامل مكة خالد القسرى : يأمره بحملهم الى الحجاج . وكانوا خمسة وهم : سعيد بن جبير ، وعطاء ومجاهد وطلق بن حبيب ، وعمر بن دينار .

ولما دخل سعيد على الحجاج دارت بينهما محاورة واسمعه الحجاج كلاما شائناً ، ثم سأله عن عبد الملك ؟ فقال سعيد تسألنى عن امرىء أنت واحد من ذنوبه .

وأمر الحجاج بقتله فقال سعيد : اشهد ان لا إله إلا الله وحده

---

(١) المصدر السابق ١٣٦

(٢) ذكر ذلك جماعة من الحفاظ والمؤرخين كالقرمانى فى تاريخه وابن حجر فى صواعقه وابن الصباغ المالكى فى الفصول ، وابن جرير فى دلائل الامامة وروضة الواعظين والحافظ النيسابورى وغيرهم مما لا يترك مجالا للشك فى ذلك .

لاشريك له استحفظكما ياحجاج حتى القاك يوم القيامة ولما قتل هلل رأسه افصح فيها بمرة ، والتبس عقل الحجاج يومئذ وجعل يقول : قيودنا قيودنا فظنوها قيود سعيد التى فى رجليه فاخذوها من رجليه بعد أن قطعوا رجليه من ساقيه ، وكان الحجاج اذا نام ينتبه مرعوباً ويقول : مالى ولسعيد بن جبير(١)

ولم يبق الحجاج بعد ذلك إلا أياماً ، فانه قتل سعيداً فى شعبان ومات هو فى شهر رمضان من السنة المذكورة .

وكذلك الوليد فانه مات فى السنة الثانية ٩٦ فى النصف من جمادى الاخرة . او الاولى .

قال بعض من هرب من جور الحجاج : مررت بقرية ، فوجدت كلباً نائماً فى ظل حب ، فقلت فى نفسى ليتنى كنت مثل هذا الكلب وكنت مستريحاً من خوف الحجاج .

قال ثم عدت بعد ساعة فوجدت الكلب مقتولا فسألت عنه ؟ فقيل : جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب (٢) .

وكان يدعى نزول الوحى عليه وانه لايعمل إلا بوحى من الله تعالى(٣) وبهذا ينطبق عليه الحديث الشريف (ان فى ثقيف مبير وكذاب) .

وقد حققنا ذلك فى غير هذا المكان .

سليمان بن عبد الملك:

ولى الامر بعد أخيه الوليد يوم السبت فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٣/٦٠ والطبري ٨/ ٩٥

(٢) ابن نباتة فى سرح العيون ٩٦

(٣) ابن عساكر ٤/٧٠

بعهد من أبيه عبد الملك وبقي والياً الى ان مات يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ وكانت ولايته عامان وتسعة اشهر وأيام وهو شقيق الوليد أخيه.

وأراد الوليد أن يعزل سليمان عن ولاية العهد ، ويبايع لولده عبدالعزيز فابى سليمان ، فكتب الوليد الى عماله ، ودعى الناس الى ذلك ، فلم يجبه إلا الحجاج ، وقتيبة بن مسلم (١) .

ولهذا غضب سليمان على آل الحجاج ونكبهم ، وقتل قتيبة بن مسلم سنة ٩٦ وعزل عمال الحجاج ، وعذب اهله ، واطلق فى يوم واحد من المسجونين فى سجن الحجاج احدى وثمانين الفاً من الاسراء ، وأمرهم أن يلحقوا بأهاليهم ، ووجد فى سجن الحجاج ثلاثين الفاً ممن لاذنب لهم ، وثلاثين الف امرأة (٢) .

وسجن يزيد بن مسلم كاتب الحجاج ، وأدخل عليه وهو مكبل فى الحديد فلما رآه سليمان ازدراه فقال : مارأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلا اجرك رسنه وحكمك فى امره .

فقال له يزيد : لاتفعل ياأمير المؤمنين فانك رأيتنى والامر عنى مدبر وعليك مقبل .

ثم قال سليمان : عزمت عليك لتخبرنى عن الحجاج ماظنك به اتراه يهوى بعد فى جهنم أم قد استقر ؟ قال : لانقل هذا فى الحجاج ، فقد بذل لكم نصحه ، واحقن دونكم دمه ، وأمن وليكم ، واخاف عدوكم ، وانه يوم القيامة لعن يمين ابيك عبد الملك ، ويسار أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ، فقال سليمان : اخرج عنى الى لعنة الله (٣) .

(١) سمط النجوم العوالى لعبد الملك العصامى المكى ٣/١٨٧

(٢) ابن عساكر ٤/٨٠

(٣) مروج الذهب ٣/ ١٨٧

وكان سليمان يأخذ برأى عمر بن عبد العزيز فى بعض اموره يستشيره فيها ، وقال له : انه قد ولينا ماترى ، وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فمربه فليكتب. فكان رد الصلاة الى ميقاتها الاول، بعد أن كانوا يؤخرونها الى آخر وقتها (١) .

وسمع سليمان ليلة صوت غناء فى عسكره فلم يزل يفحص حتى اتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة ، وان الجمل يهدر فتضع له الناقة ، وان التيس لينب فتستخذى له العنز ، وان الرجل ليغنى فتشتاق له المرأة ، ثم أمر بهم فقال : أخصوهم فيقال أن عمر بن عبد العزيز قال : يا أمير المؤمنين أنها مثلة ، ولكن انفهم فنفاهم (٢) .

وقد أجمع المؤرخون على شدة نهم سليمان وأنه يأكل كثيراً يجوز المقدار . وقال بعضهم : كان يأكل مائة رطل وغير ذلك مما ذكروه .

وكان يلبس الثياب الرقاق ؛ وثياب الوشى ، ولبس الناس جميعاً الوشى جبابا وأردية وسراويل . وعمائم وقلانس ، والبس جميع أهله وحاشيته الوشى ؛ حتى الطباخين وأمر ان يكفن فيه (٣) .

وكان مجحفاً فى جباية الاموال ، فمن ذلك أنه كتب الى عامله على خراج مصر ـ وهو اسامة بن زيد التنوخى ـ : احلب الدر حتى ينقطع ، وأحلب الدم حتى ينصرم .

قال الكندى : فذلك اول شدة دخلت على أهل مصر .

وقد أعجب سليمان بفعل اسامة وقال : هذا اسامة لايرتشى ديناراً

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧٨

(٢) ابن كثير ٩ / ١٨٠

(٣) مروج الذهب ٣/١٨٥

ولا درهما . فقال له عمر بن عبد العزيز : أنا أدلك على من هو شر من اسامة ولا يرتشى ديناراً ولا درهما .

فقال سليمان : ومن هو ؟ قال : هو عدو الله ابليس . فغضب سليمان وقام من مجلسه (١) .

وقدم اسامة على سليمان بما اجتمع عنده من الخراج وقال : ياأمير المؤمنين إنى ماجئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رأيت أن ترفق بها وترفه عليها ، وتخفف من خراجها ماتقوى به على عمارة بلادها فافعل ، فانه يستدرك ذلك فى العام المقبل . فقال له سليمان : هبلتك امك ، احلب الدر فاذا انقطع فاحلب الدم (٢) .

وغضب سليمان على أعظم قائد فتح الفتوحات العظيمة فى بلاد المغرب وهو موسى بن نصير ، وكان من رجالات الكوفة العسكريين ، وزهادها المؤمنين ا ممن عرف بولائه لأهل البيت ، واستقامته ولعل من هذا كان سخط سليمان عليه بعد تلك الاعمال الجليلة والفتوحات العظيمة كما مشهور .

وقد أهمل كثير من المؤرخين عظيم بلائه وجهاده فى نشر الاسلام ، واتساع رقعته ، وأشادوا بذكر مولاه طارق بن زياد الذى كان تحت امرته ويسير على مخططاته العسكرية .

كانت لموسى هذا مواقف مشهورة ، ففتح بلاد المغرب ، وغنم اموالا طائلة ، وكان يوجه ولده عبد العزيز ، ومولاه طارق بن زياد لافتتاح المدن ، ولكن سليمان وجد على موسى فقتل ولده عبد العزيز الذى افتتح فى امارته مدائن كثيرة ، وكان عبد العزيز متصفاً بالزهد والصلاح ولكن

(١) النجوم الزاهرة ١/٢٣٢
(٢) الجهشيارى /٣٢

بعض المؤرخين حاكوا حوله تهمة لاتتفق مع مايتصف به من الاستقامة وحسن السيرة ، وكان قتله سنة ٩٨ قال ابن الاثير : ويعدون ذلك من زلات سليمان .

وكان والده موسى قد سخط عليه سليمان وعذبه انواع العذاب ، وضمنه أربعة الف الف دينار وثلاثين الف درهم .

ولما قتل ولده عرض رأسه عليه فتجلد للمصيبة وقال : هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه والله صواماً قواماً .

وكان موسى ممن عرف هو وأبوه نصير بولائه لآل محمد ولقد غضب معاوية عليه اذ لم يخرج معه لصفين .

عمر بن عبد العزيز :

ابو حفص عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم ، وامه ام عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

ولى بعهد من سليمان بن عبدالملك ، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ وبقى والياً الى أن مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ . ومدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام .

وكان أبوه عبد العزيز المتوفى سنة ٨٦ ولى عهد مروان بعد أخيه عبد الملك ، ولكنه مات قبله .

وقدوجد الناس فى عهد عمر بن عبدالعزيز عدلا فقدوه زماناً واستراحوا فى ايامه القليلة مما كانوا يتحملونه من ظلم وتعسف ، وجور فى الحكم ، واستبداد

فى الامر ، من حكام سبقوه وهم لايتقيدون بقانون سماوى او وضعى ، ولا ينظرون الا لأنفسهم وانصارهم ، فيستأثرون بما يجبونه من الأموال ، وينفقونه فى مصالحهم الخاصة .

وكان الخراج فى عهده من أعظم المشاكل التى تواجهها الامة لسوء تصرف العمال ، وجشع الولاة ، وكانت جبايته غير محدودة ولامقررة ، بل يعود امرها الى العمال انفسهم ، فظلموا العباد وخربوا البلاد .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز عالج هذه المشكلة ، ويعطينا كتابه لعامله فى العراق صورة واضحة عن سوء الحالة وتردى الاوضاع .

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامل الكوفة : أما بعد فان أهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة فى احكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وان قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكن شىء أهم اليك من نفسك ، فلا تحملها قليلا من الاثم ، ولاتحمل خراباً على عامر ، وخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذن من الغامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الارض ، ولا تأخذن اجور الضرابين ، ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن المصحف . ولا أجور الفتوح ، ولا اجور البيوت ولا درهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الارض (١) فاتبع فى ذلك امرى فانى قد وليتك ما ولانى الله ، ولا تعجل دونى بقطع ولا حلب حتى تراجعنى فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها والسلام (٢) .

وقد عامل العلويين معاملة حسنة وفرق فيهم أموالا وكتب الى عامله

---

(١) سيأتى فى الجزء الثانى ان شاء الله بيان كيفية الخراج ومشكلته وجور العمال فى جبايته

(٢) الكامل لابن الاثير ٥/٢٩ والطبرى ٨ / ١٣٩ ط ١

بالمدينة : أن أقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار . فكتب اليه العامل : أن علياً قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ففى أى ولده ؟ فكتب اليه عمر : اذا أتاك كتابى هذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فطالما تخطتهم حقوقهم والسلام (١) .

ودخلت عليه فاطمة بنت على عليه السلام فقال لها يابنت على والله ماعلى ظهر الارض أهل بيت أحب الى منكم ، ولا انتم أحب الى من أهل بيتى (٢) .

قال ابن الاثير : وكان سبب محبته علياً أنه قال : كنت بالمدينة أتعلم العلم ، وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فبلغه عنى شىء من ذلك ، فاتيته يوماً وهو يصلى ، فقال لى : متى علمت ان الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم ؟ قلت : لم اسمع ذلك .

قال : ماالذى بلغنى عنك فى على عليه السلام ؟ قلت : معذرة الى الله واليك وتركت ماكنت عليه .

وكان ابى اذا خطب فنال من على رضى الله عنه تلجلج ، فقلت : ياأبت انك تمضى فى خطبتك ، فاذا اتيت على ذكر على عرفت منك تقصيرا ؟!

قال : أو فطنت لذلك ؟ قلت نعم . فقال : يابنى إن الذين حولنا لو يعلمون من على مانعلم تفرقوا عنا الى أولاده .

فلما ولى الخلافة لم يكن عنده من الدنيا مايرتكب هذا الامر العظيم لأجله فترك ذلك وكتب بتركه وقرأ عوضه : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان ... الآية) فجل هذا الفعل عند الناس محلا حسناً واكثروا مدحه بسببه (٣) .

---

(١) مروج الذهب ٣/ ١٩٤

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٣٣

(٣) ابن الاثير ٥/٢٠

وصعب على الامويين ترك هذه البدعة وحاولوا اعادتهـــا بعد عمر ابن عبد العزيز .

حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ فقال له سعيد بن الوليد بن عثمان : ياأمير المؤمنين ان الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين ، وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن الصالحة أبا تراب ، فامير المؤمنين ينبغى أن يلعنه فى هذه المواطن الصالحة ، فشق على هشام ذلك وقطع كلامه وقال : ماقدمنا لشتم أحد (١) .

وعلى اى حال فان عمر بن عبد العزيز قام بامور مشكورة ووجد فى عهده مالم يجدوه فى عهد غيره من الامويين .

ولقد ثقل على الامويين ماقام به عمر بن عبدالعزيز من الاعمال الصالحة ومعالجة مشاكل المجتمع ، ولذا قيل : أنه مات بالسم من بنى امية علماً منهم انه ان امتدت ايامه اخرج الامر عنهم ، وأنه لايعهد بعهده إلا لمن يصلح للامر فعاجلوه (٢) .

تنبيه

ذكر بعض المؤرخين : أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ذات يوم بمكة فقال :

أيها الناس من كانت له ظلامة فليتقدم . فتقدم على بن الحسين بن على عليهما السلام فقال : ان لى ظلامة عندك . فقال : وما ظلامتك . ؟

فقال على بن الحسين : مقامك هذا الذى انت فيه . فقال عمر : انى

(١) الطبرى ٨/٨٦ ط ١

(٢) مآثر الاناقة فى معالم الخلافة ١/ ١٤٢

لاأعلم ذلك ، ولكن لو علمت أن الناس يتركونه لك والله لتركته (١) .

ونحن لانتكر اعتراف عمر بن عبد العزيز باحقية أهل البيت للامر ، ولا ننكر مطالبة أهل البيت فى حقهم عند سنوح الفرص ، وأنهم مظلومون، وايديهم من حقهم صفرات .

ولكننا ننكر اتخاذ امثال هذه الوسائل من امام عصره ، وسيد أهل البيت زين العابدين ، فهو أعرف الناس بالاوضاع السائدة ، وأعلمهم بالظروف ومناسباتها .

هذا من جهة ومن جهة اخرى أن التأريخ لايقر ذلك فان وفاة الامام زين العابدين عليه السلام كانت فى سنة ٩٥ وولاية عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩ فكيف يصح ذلك ؟

ومثل هذه ماذكره بعضهم : أن على بن الحسين عليه السلام اقترض من مروان بن الحكم أربعة آلاف دينار ، فلم يتعرض له أحد من بنى مروان حتى استخلف هشام ، فقال لعلى بن الحسين : ما فعل حقنا قبلك ؟ فقال عليه السلام موفور ومشكور . فقال هشام : هو لك .

وهذا لايصح من جهات أهمها التأريخ فان خلافة هشام كانت سنة ١٠٥ كما سيأتى ووفاة على بن الحسين كانت سنة ٩٥ اى قبل ان يلى الامر هشام بعشر سنوات (٢) .

يزيد بن عبد الملك

يزيد بن عبد الملك بن مروان أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

(١) انظر سمط النجوم العوالى المكى ٣ / ٢٠٤

(٢) تاريخ ابن كثير ٩ / ٢٥٢

تولى الحكم بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ وبقى الى أن مات ليلة الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة ١٠٥ فكانت ولايته أربعة أعوام وشهراً واحداً ويومين.

أراد عندما ولى الخلافة أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ، فشق ذلك على قرناء السوء ، وأعوان الظلم ، ودعاة الباطل ، فاتوا اليه بأربعين شيخاً ، فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولاعذاب (١) .

فخدعوه بذلك فانخدع بهم ، وكان كلامهم موافقاً لهواه ، فانهمك فى اللذات واللهو والطرب ، ولم يراقب الله ولم يخشه (٢) .

فعادت الامور الى وضعها قبل عمر بن عبد العزيز ، وعادت مشكلة الخراج وعزل جميع عمال عمر ، وكتب الى عماله : أما بعد فان عمر بن عبد العزيز كان مغروراً ، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى ، أخصبوا أم اجدبوا ، أحبوا ام كرهوا ، حيوا أم ماتوا (٣) .

وقال ابن الاثير : وعمد يزيد بن الوليد الى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ، ولم يخف شناعة عاجلة ، ولا اثماً عاجلا فمن ذلك : أن محمد بن يوسف أخا الحجاج كان على اليمن ، فجعل عليهم خراجا مجدداً ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله بالاقتصار على العشر ، وترك ماجدده محمد بن يوسف ، وقال : لان يأتينى من اليمن حصة ذرة احب الى من تقرير هذه الوضعية ، فلما ولى يزيد بعد عمر أمر بردها ،

---

(١) ابن كثير ٩/ ٢٣٣

(٢) انظر سمط النجوم الغوالى ٢٠٩٣

(٣) العقد الفريد ٣/ ١٨٠

وقال : لعامله خذها منهم ولو صاروا حرضاً والسلام (١).

وكان يزيد صاحب لهو ولذة وهو صاحب حبابة ، وسلامة وهما جاريتان وكان مشغوفا بهما ، وماتت حبابة فمات بعدها بيسير أسفاً عليها ، وكان قد تركها أياماً لم يدفنها ، لعدم استطاعته فراقها ، فعوتب على ذلك ، فدفنها ، ويقال أنه نبشها بعد الدفن حتى شاهدها (٢) .

هشام بن عبد الملك:

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولى الامر بعهد من أخيه يزيد إبن عبدالملك سنة ١٠٥ لخمس بقين من شعبان وبقى الى سنه ١٢٥ وهى سنة وفاته وكانت مدة ملكه تسع عشرة سنة وسبعة اشهر غير أيام وامه بنت هشام بن اسماعيل المخزومى .

كان هشام يعد من دهاة بنى امية ، وقرنوه بمعاوية ، وعبد الملك ، وقد عرف بالغلظة ، وخشونة الطبع ، وشدة البخل ، وسوء المجالسة وكان أحول ، وهو الرابع من أولاد عبدالملك الذين تولوا الحكم .

وكان شديد البغض للعلويين ، حاول الانتقام منهم ، والانتقاص لهم مهما أمكنته الفرصة .

حج هشام قبل أن يلى الخلافة فطاف فى البيت ولم يتمكن من استلام الحجر من شدة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ، وأهل الشام حوله .

وبينما هو كذلك اذ أقبل على بن الحسين زين العابدين عليه السلام فانفرج

(١) الكامل ٥ / ٢٢ ط ١

(٢) الانافة ١/١٤٦ والبدء والتاريخ ٤٨/٣

الناس له وصاروا سماطين ، اجلالا وهيبة ، واحتراما ، فعظم على هشام وغاضه ذلك . وقال : من هذا ؟ استنقاصا له وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه .

فقال هشام : من هو ؟ فانشأ الفرزدق قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

الى آخر القصيدة ، فغضب هشام وأمر بسجن الفرزدق .

وحج هشام بن عبد الملك فى أيام خلافته سنة ١٠٦ وكان الامام محمد الباقر عليه السلام فى المسجد وقد أحاط به طلاب العلم وهو فى تلك الحلقة ، يلقى عليهم تعاليم الدين الاسلامى ، ويعلمهم الاحكام والفرائض ، فصعب ذلك على هشام ، فقال لرجل من جماعته : اذهب اليه واسأله وقل له يقول لك أمير المؤمنين : ماالذى يأكله الناس ، ويشربونه فى المحشر الى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فلما سأله الرجل قال عليه السلام : قل له يحشر الناس ، على مثل قرص النقى (١) فيها أشجار وأنهار يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب .

وكان هشام يقصد من وراء هذا السؤال ان يظفر بشىء يستطيع به ان يضع من منزلة الامام فى ذلك المجتمع ولو من باب المغالطة ، لأنه حانق عليه فلما رجع الرسول اليه بما أجابه الامام ظن هشام أنه ظفر بما أراد ونجح بما دبر فقال الله اكبر اذهب اليه فقل له يقول لك : ما أشغلهم عن الاكل

---

(١) النقى كغنى قال فى النهاية الحديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقى يعنى الخبز الحوارى .

والشرب يومئذ ؟

فقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : هم فى النار أشغل ولم يشغلوا عن ان قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . فسكت هشام وعرف فضله .

وهو الذى سير الامام الباقر عليه السلام وولده الصادق عليه السلام من المدينة الى الشام ، يقصد بذلك اهانتهما ، والتشفى منهما لما رآه وسمعه عندما حج فى تلك السنة ، وحج فيها الامام محمد الباقر وولده الصادق عليهما السلام فقال الامام الصاق فى ذلك الملأ : الحمد لله الذى بعث محمداً بالحق نبياً واكرمنابه ، فنحن صفوة الله من خلقه و خيرته من عباده و خلفائه ، فالسعيد من تبعنا ، والشقى من عادانا .

فبلغ هشام ذلك ، وعظم عليه فلم يتعرض لهما بشىء ، حتى انصرف الى دمشق ، وأمر باشخاص الامام وولده الصادق عليهما السلام الى دمشق قال الامام الصادق عليه السلام فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثاً ، ثم اذن لنا فى اليوم الربع الى آخر ماهو معروف من هذه القصة .

ودخل عليه زيد بن على عليه السلام فسلم عليه بالامرة فلم يرد السلام اهانة له واغلظ فى الكلام ولم يفسح له فى المجلس .

فقال زيد : السلام عليك ياأحول ، فانك ترى نفسك أهلا لهذا الاسم فغضب هشام ، وجرت بينهما محاورة كان نصيب هشام فيها الفشل ، وخرج زيد وهو يقول : ماكره قوم حر السيوف إلا ذلوا .

وأمر هشام برده وقال له : اذكر حوائجك . فقال زيد : أماوأنت ناظر على أمور المسلمين فلا . وخرج من عنده وقال : من أحب الحياةذل(١) ومضى زيد الى الكوفة وبها استشهد فى الثالث من صفر سنة ١٢١ بعد

(١) انظر تاريخ الطبرى ٨ حوادث سنة ١٢١ وابن عساكر ٦/٢٢ ـ ٢٣

ثورة وآزرته فيها مختلف الطبقات ، وجرت حوادث لايتسع المجال لذكرها

وبعد شهادته رضى الله عنه صلب جسده عرياناً منكوساً بامر من هشام وبقى الجسد مصلوباً اربع سنين ، ونسجت العنكبوت على عورته (١) وارسل يوسف بن عمر أمير الكوفه ـ رأس زيد الى هشام ، فصلبه على باب دمشق ثم أرسله الى المدينة ، فنصب عند قبر الرسول يوماً وليلة ، ثم نصب فى مؤخر المسجد على رمح ، وأمر الوالى باجتماع الناس ، فقام خطباء الامويين يشتم أهل البيت ، وهكذا بقى الرأس سبعة أيام (٢) .

ثم أمر هشام بارسال الرأس الى حنضلة بن صفوان عامله على مصر سنة ١٢٢ فامر حنضلة بتعليقه ، وان يطاف به (٣) .

* * *

أما الجسد الشريف فقد بقى مصلوبا الى أيام الوليد بن يزيد وقد أقام عليه يوسف بن عمر حراساً خوفا من أن ينزل الجسد فيغسل ويكفن ، وكان الموكل بحراسة الجسد زهير بن معاوية ، أحد رجال الصحاح وحملة الحديث .

وكان زهير يحدث الناس : بأنه رأى رسول الله ﷺ فى النوم ، وقد وقف على الخشبة وقال : هكذا تصنعون بولدى من بعدى ؟!! يابنى يازيد قتلوك قتلهم الله صلبوك صلبهم الله (٤) .

تعقيب وايضاح

ونود ان نوضح هنا ـ بايجاز ـ نقطة ذات أهمية فى الموضوع وهى :

---

(١) تاريخ الخميس ٢/٣٢٠

(٢) زيد الشهيد للعلامة السيد عبد الرزاق المقرم ١٦٢ ـ ١٦٤

(٣) النجوم الزاهرة ١/٢٨١

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/٣٢٣

أن المشهور بأن الشيعة اجتمعوا الى زيد فسألوه عن أبي بكر وعمر وما هو رأيه فيهما ؟ أو أنهم سائلوه البراءة منهما ، فاجابهم بخلاف ما أرادوه من الطعن فى الشيخين . فتفرقوا عنه فسماهم الرافضة .

وعلى هذا فقد وسم الشيعة باسم الرافضة ، وأنهم الذين رفضوا الشيخين أو رفضوا زيداً الى غير ذلك مما هو مشهور فى هذه القضية .

وعندما نرجع الى الواقع وندرس الحوادث على ضوء العلم وعدم التحيز ونتثبت - قدر الامكان - فى صحة هذا القول فبدون شك يبدو لنا عدم صحته ورب مشهور لا أصل له .

وحقيقة الأمر أن الشيعة لم يسألوا زيداً عن الشيخين ورأيه فيهما بذلك الموقف الحرج ، وإنما كان ذلك من قبل المندسين فى صفوف جيشه ، وانها كانت حيلة من قبل الوالى يوسف بن عمر ليوقع الفرقة ، ويثير غبار الخلاف لأن جيش زيد كان يتألف من عناصر مختلفة الآراء والعقائد ، ففيهم الخوارج وفيهم الناقمون على الامويين ، وفيهم الجواسيس وغير هؤلاء .

قال ابن عساكر : فخرج زيد فى أربعة آلاف بالكوفة ، فاحتال عليه بعض من كان يهوى هشاماً ، فدخلوا عليه وقالوا : ماتقول فى أبي بكر وعمر ؟ .

فقال زيد : رحم الله ابا بكر وعمر صاحبي رسول الله ﷺ ثم قال: أين كنتم قبل اليوم ؟ !! (١)

وكان الغرض من القاء هذا السؤال فى ذلك الموقف الحرج فى ساعة حرب وتجمع ، وهياج وتحزب ، هو أحد أمرين وفى كليهما نجاح تلك الخدعة ، وتحقيق هدف تلك المؤامرة ، فاما أن يتبرأ زيد من الشيخين

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/٢٣

ويسيء القول فيهما ، فيكون حينئذ أقوى سبب لقتل زيد ، لأنه يسيء القول في الشيخين وتلك وسيلة اتخذها الامويون ومن بعدهم للقضاء على خصومهم .

وأما أن لايتبرأ فيقولون كيف لايتبرأ ممن ظلمهم حقهم ، وبالفعل قالوا ونجحت هذه المؤامرة ، وتفرق أهل الغدر وذووا الاطماع ، وكانت هذه الحيلة من الوالي يوسف بن عمر اقوى سلاح لجأ اليه .

يقول الاستاذ الخربوطلي : ولجأ يوسف بن عمر الى الحيلة فدس لزيد بين أنصاره من يسأله عن رأيه في أبي بكر وعمر .. الخ (١)

كما أنه أعطى لبعض جواسيسه الاموال ليتعرف على أصحاب زيد (٢) وإن الامر لايحتاج الى مزيد من اقامة الشواهد على اهتمام الامويين في اتخاذ الوسائل لفشل ثورة زيد ، وأن نفسيات الاكثرية التي انظمت اليه قد طبعت على الغدر ونقض العهود .

وان قول زيد لمن سائله : اين كنتم قبل هذه ؟ ليدل بصراحة على ما في الامر من هدف معين وأمر مبيت .

إن الشيعة هم محور تلك الثورة ، وليس من الصحيح أن ينسب اليهم اثارة موضوع هم في غنى عنه ، وهم لايجهلون رأي أهل البيت في ذلك الامر فما معنى هذا السؤال في ذلك الموقف الحرج؟ كما انهم يعرفون الجيش واختلاطه من عناصر مختلفة ، فكيف يهبط بهم الشذوذ في التفكير الى هذا المستوى الذي لايتفق مع عقائدهم ولايسير مع خططهم الثورية ؟! والحقيقة والواقع ان الشيعة لم يثيروا هذا الموضوع لأنهم لايجهلون خطره في ذلك الموقف الحرج ، وإنما كان اثارته من الخدع السياسية ، والحيل الأموية .

---

(٢) انظر الدولة العربية الاسلامية /٣٠٥

(٣) الطبري ٨/٢٧٧

ولقد نجحت تلك المؤامرة وتسربت الفرقة بين صفوف الجيش ، وتفرق عن زيد من لم يات لنصرته عن عقيدة ثابتة ، ولم يبق معه إلا الخاص من الشيعة ، فدافعوا عنه دفاع الابطال ، وثبتوا معه الى أن قتل رحمة الله عليه ، وقد قتل بين يديه جماعة منهم ، وآخرون صحبوا ولده يحيى وقاتلوا معه ، ولم ترفض الشيعة زيداً بل إنما رفض المعاونة معه ، انصار الامويين وأعوان الظلمة .

وليس باستطاعتنا التفصيل لهذه القضية الآن والاحاطة بها من جميع الوجوه ، ليتضح الامر كما يرام وسيأتى ان شاء الله مزيد بيان فى دراسة هذا الموضوع والوقوف على الحوادث التى ادت الى فشل ثورة زيد بن على عليه السلام .

الوليد بن عبد الملك :

هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان ، وأمه ام الحجاج بنت محمد ابن يوسف أخى الحجاج الثقفى .

ولى الامر بعد هشام بعهد من يزيد بن عبد الملك ، وتربع على دست الحكم يوم الاربعاء لست خلون من شهر ربيع الاول سنة ١٢٥ . وقيل لعشر خلون من ربيع .

بقى فى الحكم الى ان قتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ . فكانت ولايته سنة واحدة وشهرين .

قال ابن حزم : وكان (الوليد) فاسقاً خليعاً ماجناً (١) .

(١) السيرة /٣٦٣

وقال ابن فضل الله فى المسالك : الوليد بن يزيد ـ فرعون ذلك العصر الذاهب ، يأتى يوم القيامة فيورد قومه النار ، ويرديهم العار ، وبئس الورد المورود ، رشق المصحف بالسهام ، ولم يخش الآثام .

وقال القلقشندى : وكان مصروف الهمة الى اللهو ، والاكل ، والشرب وسماع الغناء ... (١)

وقال ابن كثير : كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش ، مصراً عليها ، منتهكا محارم الله عز وجل لايتحاشى من معصية ، وربما اتهمـــه بعضهم بالزندقة والانحلال .

ولما ولى هشام اكرم ابن أخيه الوليد ، حتى ظهر عليه أمر الشراب ، وخلطاء السوء ، ومجالس اللهو ...

وقال هشام للوليد : ويحك والله ما أدرى أعلى دين الاسلام انت أم لا ؟! فانك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا اثبته غير متحاشى ولا متستر .

فكتب اليه الوليد :

يا أيها السائل عن ديننا ديني على دين ابى شاكر (٢)

وأبو شاكر هو مسلمة بن هشام بن عبد الملك .

وعلى اى حال فان للوليد أعمالا منكرة ، وجرائم لاتوصف ، وقبائح تشمئز لها النفس ، ويقف القلم عند بيانها خجلا .

وكانت له جرأة عظيمة على انتهاك حرمة الاسلام ، فمن ذلك أنه كان يستهدف بالمصحف ويقول :

تهدد كل جبار عنيـــد فها أنا ذاك جبار عنيد

---

(١) الاناقة فى مآثر الخلافة ١/ ١٥٦

(٢) تاريخ ابن كثير ١٠/ ٢ـ ٦

اذا ماجئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقنى الوليد (١)

وهو الذى كتب الى عامله على الكوفة يوسف بن عمر : خذ عجل أهل العراق فانزله جذعة (يعنى زيد بن على ﷺ) وأحرقه بالنار ثم انسفه باليم. فامر يوسف به فاحرقه ثم رضه وحمله فى سفينة ، ثم ذراه فى الفرات (٢) .

* * *

وقد وردت فى الوليد أحاديث بأنه فرعون هذه الامة منها : ماأخرجه الامام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه ولد لأخى أم سلمة غلاماً فسموه الوليد فقال النبى ﷺ : « سميتموه بأسم فراعينكم ، ليكونن فى هذه الامة رجل يقال له الوليد ، لهو أشد فساداً لهذه الامة من فرعون لقومه » وفى لفظ لهو أضر على أمتى .

وأخرج البيهقى عن زينب بنت ام سلمة عن امها قالت : دخل النبى ﷺ وعندى غلام من آل المغيرة اسمه الوليد ، فقال ﷺ : من هذا يا أم سلمة ؟ قالت : هذا الوليد . فقال ﷺ : « قد اتخذتم الوليد حناناً غيروا اسمه فانه سيكون فى هذه الامة فرعون يقال له الوليد » (٣) .

وعندما ولى كان يكتب الى الناس :

ضمنت لكم ان لم تعقنى منيتى بأن سماء الضر عنكم ستقلع (٤)

ولما عم ظلمه وجوره وفسقه واستهتاره ، قال فيه الشاعر العربى حمزة بن بيض :

---

(١) البدء والتأريخ المقدسى ٣/٥٣ وتاريخ الخميس ٢/٣٢٠ وابن الاثير ٥/١٣٧ والحور العين لابن نشوان ص ١٩٠ وغيرها

(٢) الطبرى ٨/ ١٢٢ وابن الاثير ٥/١٢٧

(٣) انظر ابن كثير ١٠/٦ وتأريخ الاسلام للذهبى ٥/١٧٣

(٤) البدء والتأريخ ٣/٥١

وصلت سماء الضر بالضر بعدما زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاماً كان حياً يسومنا وكنا كما كنا نرجى ونطمع

وقال أيضاً :

ياوليد الخنا تركت الطريقا واضحاً وارتكبت فجاً عميقاً
وتماديت واعتديت وأسرفـ ـت وأغويت وانبعثت فسوقا
انت سكران ما تفيق فما تر تق فتقاً وقد فتقت الفتوقا (١)

وكتب اليه عامله على خراسان : بتردى الاوضاع ، وحدوث ثورات فاجابه : انى مشغول بالعريض ومعبد وابن أبى عائشة وهم المغنون الذين أحضرهم عنده (٢) .

واشتدت النقمة على الوليد ، وثار الناس عليه بقيادة ابن عمه يزيد ابن الوليد ، وقال له يزيد بن عنبسة : ماننقم عليك فى أنفسنا ، لكن ننقم عليك انتهاك حرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح امهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله (٣) .

وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وحمل رأسه الى يزيد بن الوليد ، فامر أن يطاف به فى البلد .

* * *

وفى أيامه قتل يحيى بن زيد بن على بن الحسين عليه السلام وذلك انه خرج من الكوفة بعد مقتل أبيه زيد وتوجه الى خراسان ، فسار الى الرى ، ومنها أتى سرخس ، ثم خرج ونزل فى بلخ على الحريش بن عبد الرحمن الشيبانى ،

(١) ابن الاثير ٥/١٣٣
(٢) البدء والتاريخ ٣/٥٣
(٣) تاريخ الاسلام للذهبى ٥/١٧٨

ولم يزل عنده حتى هلك هشام وولى الوليد (١).

وكتب يوسف بن عمرو الى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى ، وأنه فى منزل الحريش ، فطالبه نصر بيحيى فقال له الحريش : لاعلم لى به ، فأمر به فضرب ستمائة سوط .

فقال الحريش : والله لو أنه تحت قدمى مارفعتهاعنه (٢) ثم وقعت بعد ذلك حوادث يطول ذكرها ، وقامت الحرب بين يحيى وبين نصر ، وأرسل نصر ليحيى جيشاً عدده عشرة آلاف فارس ، وكان يحيى فى سبعين رجل فهزمهم يحيى وقتل قائد الجيش عمر بن زرارة .

فارسل نصر جيشاً آخر فى طلب يحيى ، فادركوه بالجوزجان ، ووقع القتال بينهم وبين يحيى وأصاب يحيى سهم فى جبهته فقتل وقتل أصحابه عن آخرهم ، وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه (٣) .

كانت شهادة يحيى يوم الجمعة وقت العصر سنة ١٢٥ وبعث برأسه الى الوليد بن يزيد ، فبعثه الى المدينة ، وجىء به الى امه ريطة بنت ابى هاشم ابن محمد بن الحنفية فقالت : شردتموه عنى طويلا ، وأهديتموه الى قتيلا ، صلوات الله عليه ، وعلى آبائه بكرة وأصيلا (٤) .

أما جسده الشريف فصلب بالجوزجان ، ولم يزل مصلوباً حتى ظهر ابو مسلم الخراسانى ، واستولى على خراسان ، فانزله وصلى عليه ودفنه ، وأمر بالنياحة عليه (٥) .

---

(١) زيد الشهيد للسيد عبد الرزاق المقرم ١٧٦

(٢) ابن الاثير ٥/١٢٧

(٣) الكامل لأبن الاثير ٥/١٢٧

(٤) زيد الشهيد المقرم ١٨١ نقلا عن عمدة الطالب

(٥) الكامل لأبن الاثير ٥/١٢٧

يزيد الناقص :

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد ملك الفرس .

ولى الامر بعد قتل الوليد سنة ١٢٦ وبقى الى ان مات يوم الاحد فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، ومدة حكمه خمسة اشهر وليلتين .

وإنما سمى بالناقص لأنه نقص الزيادة التى كان الوليد زادها فى عطيات الناس وهى عشرة عشرة ، ورد العطاء الى ما كان ايام هشام .

وفى أيامه اضطرب حبل الدولة اشد مما كان عليه من قبل ، ووقع خلاف بين ولاة الامصار ، وثار أهل حمص ، ووثب اهل فلسطين ، ووقع الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم الى غير ذلك من الامور ، ومات يزيد ولم يعهد لأحد من بعده .

وكان مولاه قطن وهو الموكل بخاتم الخلافة قد افتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لابراهيم بن الوليد ، ودعا اناساً فشهدوا عليه زوراً (١) .

ابراهيم بن الوليد :

هو ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وامه ام ولد اسمها نعمة. ولى الامر بعد أخيه يزيد بعهد منه زوره الموكل بالخاتم وهو مولاهم

---

(١) ابن عبد ربه فى العقد ٣/١٩٤

قطن كما تقدم . وذلك فى ذى الحجة سنة ١٢٦ ولم يتم له الامر لكثرة الثورات واختلاف الكلمة ، وسقوط هيبة الدولة ، وكان اتباعه يسلمون عليه تارة بالخلافة وتارة بالامارة ، وكانت مدة ولايته ثلاثة اشهر ، وقيل شهرين وأيام . وقد خلع نفسه وسلم الامر لمروان الآتى ذكره ، وذلك فى صفر سنة ١٢٧ . وقيل ان مروان قتله بعد أن ظفر به وصلبه وقتل جميع أصحابه ، وقيل غرق فى الزاب أوانه قتل فيه (١) .

مروان بن محمد :

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وامه ام ولد من الاكراد اسمها لبابة ، ولى الحكم فى صفر سنة ١٢٧ الى أن قتل ببوصير من أرض مصر لثلاث عشر ليلة خلت من ربيع سنة ١٣٢ . وبه انتهى الحكم الاموى وانتقل الامر الى بنى العباس .

وتفرق الامويون فى البلاد ، وكانوا طعمة للسيف وزالت دولتهم بعد أن حكمت البلاد احدى وتسعين سنة ، وتسعة اشهر .

وقامت على انقاضها الدولة العباسية ، بعد حروب طاحنة دامت مدة من الزمن ، وكانت دعوة بنى العباس الى أهل البيت .

وأول من ولى الحكم منهم هو : أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، بويع فى ربيع الآخر سنة ١٣٢ ومات فى ذى الحجة سنة ١٣٦ .

وقام من بعده أخوه أبو جعفر المنصور واسمه عبد الله بن محمد بن على

(١) انظر مروج الذهب ٣/٢٣٩ وجوامع السيرة ٣٦٤ والاثافة ١/١٦١ وغيرها

ابن عبد الله بن العباس .

بويع اذ مات أخوه السفاح ، وبقى والياً الى أن مات سنة ١٥٨ فى ذى الحجة ، وفى عهده استشهد الامام الصادق عليه السلام بالسم دسه اليه المنصور سنة ١٤٨ فى الخامس والعشرين من شهر شوال ودفن بالبقيع مع أبيه وجده والحسن السبط صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد تجرع من المنصور كؤوس الاذى والمحن ، وتحمل فى سبيل اداء رسالته انواع الآلام كما تقدم (١) .

امراء المدينة :

أما ولاة المدينة المنورة فنحن نتعرض لمن وليها فى العهدين الاموى والعباسى فى حياة الامام الصادق عليه السلام بايجاز ، لنقف على بعض الحوادث التى شاهدها الامام الصادق عليه السلام ، وتجرع مرارة ذلك الظلم الذى لقيته الامة وتحمله رجالها الأبرار .

وقد تعاقب على المدينة ولاة جاروا فى الحكم ، واستهانوا بحرمة هذا البلد ، ومنهم الحجاج بن يوسف فقد ولى المدينة بعد قتل ابن الزبير سنة ٧٤ وأقام فيها ثلاثة اشهر وتغيب عنه أهلها ، وقد استهان بصحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وختم أيديهم وأعناقهم بالرصاص ، ليذلهم ثم عزله عبد الملك سنة ٧٥ وولاه العراق ، وأمر على المدينة أبان بن عثمان بن عفان ، ثم عزله عبد الملك سنة ٨٢ وولى مكانه هشام بن اسماعيل المخزومى .

ونحن لانريد أن نتعرض بالحديث عن الولاة الذى سبقوا عهد الامام

(١) انظر هذا الجزء ٣٩ ـ ٤٤

الصادق عليه السلام وأيام حياته ، بل يختص بحثنا بمن ولى المدينة فى أيامه عليه السلام وهم :

هشام بن اسماعيل :

هشام بن اسماعيل بن الوليد المخزومى المتوفى سنة ٨٨ ولاه عبد الملك ابن مروان إمرة المدينة المنورة سنة ٨٢ وكان ظالماً فى حكمه مبغضاً لآل محمد صلى الله عليه وآله وكان يؤذى على بن الحسين عليه السلام وأهل بيته ، ويخطب على المنبر وينال من على بن أبى طالب عليه السلام .

ولما أراد عبد الملك أن يبايع لولده الوليد ثم من بعده لسليمان بن عبد الملك امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع ، فامر به هشام فضربه ستين سوطاً وألبسه ثياباً من شعر ، وأركبه جملا ، وطاف به فى المدينة ، وذلك فى سنة ٨٥ .

ولما بلغ عبد الملك ذلك لام هشام وكتب : إنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق . وقال : ماينبغى له إلا ان يبايع ، وان لم يبايع ضربت عنقه او خليت سبيله (١) .

وكانت ولاية هشام على المدينة أربع سنوات وقد أساء فيها لأهل المدينة وجار فى حكمه .

وفى سنة ١٨٧ عزله الوليد بن عبد الملك وولى مكانه عمر بن عبد العزيز وأمره بأن يوقف هشام بن اسماعيل للناس عند دار مروان ، لأنه أساء الى

---

(١) انظر تاريخ الاسلام للذهبى ٣/٣١٠ وتاريخ ابن كثير ٩/٦٠

أهل المدينة مدة ولايته (١) .

ولما أنفوه للناس قال : ما أخاف إلا من علي بن الحسين ، لأنه أسامعه اكثر من غيره ، ولكن الامام علي بن الحسين عليه السلام أمر مواليه وخاصته بأن لايتعرضوا له بكلمة واحدة ، ولما مر به علي بن الحسين عليه السلام ناداه هشام : الله اعلم حيث يجعل رسالته (٢) .

عمر بن عبد العزيز :

تقدمت ترجمته وطرف من سيرته وكان محباً لأهل البيت ، وهو الذى رد عليهم فدكا ومنع سب علي عليه السلام بعد أن اتخذته الدولة الاموية شعاراً لها ليمحوا بذلك ذكره ، ولكن الله سبحانه وتعالى رد كيدهم وفشلت محاولتهم وقد تقدم بيان ذلك .

وكان الامام الباقر عليه السلام يوصى عمر بن عبدالعزيز بالعدل فمن وصيته له: « اوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخا ، وأكبرهم أباً ، فارحم ولدك وصل أخاك ، وبر والدك ، فاذا صنعت معروفا فربه(٣) » بمعنى ادمه ولا تقطعه .

ولى امرة المدينة فى سنة ٨٧ وبقى والياً الى سنة ٩٣ وفيها عزله الوليد عن المدينة لأن عمر بن عبد العزيز كتب الى الوليد بعسف الحجاج وظلمه ، واستبداده وجوره فى حكمه ، واعتدائه على الناس بغير حق ولاجناية .

(١) ابن كثير ٩/٧١

(٢) الطبرى ٨/٦١ وتاريخ الاسلام ٣/٣١٠

(٣) انظر عين الادب والسياسة والطرز الخفاجى

فبلغ الحجاج ذلك وكتب الى الوليد : إن من قبلي من مراق العراق وأهل الشقاق لجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن .

فاستشاره الوليد عمن يوليه المدينة فاشار الحجاج عليه بعثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسرى ، فولى خالداً مكة وعثمان المدينة ، وعزل عمر ابن عبد العزيز .

وفى سنة ٨٨ شرع عمر بن عبد العزيز ببناء مسجد النبي وتوسعته بأمر الوليد .

* * *

وكان السبب الذى من أجله قام الوليد بعمارة المساجد ، وتوسعة مسجد الرسول ﷺ هو : أنه خرج حاجاً فمر بمسجد النبى ﷺ فدخله ، فرأى بيتاً ضاعناً فى المسجد ، شارعا بابه ، فقال : مابال هذا البيت ؟ فقيل : هذا بيت على بن ابى طالب (ع) ، اقره رسول الله ﷺ وردم سائر أبواب أصحابه .

فقال الوليد : ان رجلا نلعنه على منابرنا فى كل جمعة ، ثم نقر بابه ظاعناً فى مسجد رسول الله ﷺ اهدم ياغلام .

فقيل له : لاتفعل ياأمير المؤمنين ، حتى تقدم الشام ، ثم تخرج امرك بتوسيع مساجد الامصار ، مثل مكة والمدينة وبيت المقدس ، وتبنى بدمشق مسجداً ، فيدخل بيت على (ع) فيما يوسع من مسجد المدينة فقبل ذلك (١) .

ولم يهدم الوليد دار عثمان بن عفان فلما تولى بنو العباس أراد الحسن ابن زيد أن يوسع المسجد ليهدم دار عثمان كما هدم الوليد دار على عليه السلام

(١) انظر مختصر تاريخ البلدان لأبى بكر احمد بن ابراهيم المعروف بابن الفقيه ١٠٧

فكتب الى ابى جعفر المنصور : يصف له ناحية موضع الجنائز . ويقول : إن زيد فى المسجد من الناحية الشرقية توسط قبر النبى ﷺ فى المسجد .

فكتب اليه أبو جعفر : إنى قد عرفت الذى أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان (١) .

وكان اهتمام الوليد فى توسعة المسجد شديداً ، وأمر عامله عمر بن عبد العزيز بشراء ما حوله من الدور ، ومن أبى هدمت عليه داره (٢) .

وشق على أهل المدينة ذلك وأرادوا ترك حجر النبى ﷺ على حالها لينظر اليها الحجاج والزوار ، والمسافرون ، ويكون ذلك ادعى لهم الى الزهد فى الدنيا ، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة ، ويعرفون أن هذا البنيان العالى انما هو من أفعال الفراعنة والاكاسرة (٣) .

فكتب عمر بن عبد العزيز الى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة من عدم الرضا بالهدم .

فارسل اليه الوليد يأمره بالخراب وبناء المسجد ، ولما شرعوا فى الهدم صاح الاشراف ووجوه الناس من بنى هاشم وغيرهم ، وبكوا مثل يوم مات فيه النبى ﷺ (٤) .

ويظهر أنه لم يجسر أحد من عمال المدينة على الهدم ، ولذلك اضطر الوليد الى جلب عمال من بلاد الروم ، وكانوا أربعين من الروم وأربعين من القبط (٥) .

---

(١) الدرة الثمينة لأبن النجار ٨٥

(٢) الدرة الثمينة ٨١

(٣) تاريخ ابن كثير ٩/٧٤

(٤) نفس المصدر /٧٦

(٥) الدرة الثمينة ٨١ والطبرى ٨/٦٥

عثمان بن حيان :

عثمان بن حيان المرى مولى ام الدرداء أو مولى عتبة بن أبى سفيان .

كان ظالماً متعسفاً ، وأول عمل أجراه فى المدينة أنه أرسل على جماعة من العلماء كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، منهم محمد بن المنكدر أحد العلماء الثقات ومن تلامذة الامام الباقر (ع) فضربهم ، ونكل بهم لما كان من كلامهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . كما حدث بذلك مالك ابن أنس (١) .

ونفى العراقيين من المدينـــة ، وحذر كل من آواهم ، لأنهم كانوا يستجيرون بالحرم النبوى من الحجاج وجوره ، فكان يتتبعهم ويرجعهم الى الحجاج مقيدين بالحديد ، ولم يترك أحداً لا تاجراً ولا غير تاجر .

وخطب على المنبر فقال : أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين فى قديم الدهر وحديثه .

ثم ذكر العراقيين ووصفهم بالشقاق والغدر . ثم قال : والله ماجربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذى يقول فى آل ابى طالب مايقول وما هم لهم بشيعة .. والله انى لا اوتى بأحد آوى أحداً منهم او أكراه منزلا ، إلا هدمت منزله وانزلت به ما هو أهله (٢) .

---

(١) السخاوى فى النحفة ٣/٣٨١

(٢) الطبرى ٨/٩٢

أبو بكر بن محمد :

أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم المتوفى سنة ١٢١ كان من العلماء ومن رجال الصحاح ، وتولى قضاء المدينة ، ثم ولى امرتها بعد عثمان بن حيان المرى.

وكان عثمان قد عزم على التنكيل بأبى بكر وأن يحلق رأسه ولحيته ، ولكن عاجله أمر سليمان بتولية أبى بكر وعزله ، وتقييده بالحديد وذلك فى سنة ٩٦ .

أقام أبو بكر بولاية المدينة من سنة ٩٦ الى سنة ١٠١ فعزله يزيد وولى مكانه عبدالرحمن بن الضحاك الفهرى واشتد على أبى بكر وعذبه بما يطول ذكره.

عبد الرحمن بن الضحاك :

عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهرى .

تولى امرة المدينة سنة ١٠١ ولاه يزيد بن عبد الملك بعد أبى بكر بن حزم ثم عزله سنة ١٠٤ وولى مكانه عبد الواحد بن عبدالله بن بشر النضرى ، وأمره أن يعذب عبد الرحمن ، وأن يضربه بالسياط ، وأن يغرمه الف دينار ، ففعل به عبد الواحد ما أمره يزيد ، وسلب ماله حتى أصبح لا يملك إلا جبة صوف ، وهو يسأل الناس ، لسوء حاله وشدة حاجته .

وكان عبدالرحمن هذا سيء السيرة ، عامل الناس بالظلم والتعسف وعادى الانصار ، وضرب أبابكر بن حزم ظلماً وعدواناً ، فكرهه الناس وهجاه الشعراء

عبد الواحد النضرى :

عبد الواحد بن عبدالله بن يسر النضرى - بمعجمة - نسبة لجده النضر ابن معاوية .

ولى امرة المدينه ومكة والطائف فى سنة ١٠٤ من قبل يزيد بن عبدالملك الى ان عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ وولى مكانه ابراهيم المخزومى، وكان مرضى السيرة عند أهل المدينة ، ولا يفعل أمراً إلا بعد استشارة القاسم ابن محمد بن أبى بكر .

ابراهيم بن هشام :

ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى هو خال هشام بن عبد الملك ولى المدينة سنة ١٠٦ وضم اليه الطائف ومكة ، وبقى والياً الى سنة ١١٤ .

وحج بالناس سنة ١١٠ وخطب بمنى يوم النحر بعد الظهر فقال: سلونى أنا ابن الوحيد ، لاتسألون أحداً أعلم منى ، فقام اليه رجل من أهل العراق فسأله عن الاضحية أواجبة هى ام لا ؟ فما درى اى شىء يقول .

خالد بن عبد الملك :

خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن ابى العاص .

ولى امرة المدينة سنة ١١٤ بعد عزل ابراهيم بن هشام ، وبقى والياً عليها الى سنة ١١٨ وولى مكانه محمد بن هشام بن اسماعيل أخو ابراهيم الوالى السابق

وكان خالد يحمل على على عليه السلام ويتكلم على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتقاصه ، فقام اليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال له : كذبت كذبت حتى خفضه الناس (١) .

محمد بن هشام :

محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومى خال هشام بن الحكم ولى سنة ١١٨ وبقى والياً عليها الى سنة ١٢٥ وعزله الوليد الفاسق ، وولى مكانه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى ، وهو خال الوليد . وأضاف اليه مكة والطائف .

وغضب الوليد على ابراهيم ومحمد ابنى اسماعيل المخزومى ، وهما من امراء المدينة السالفين ، فسجنهما ودفعهما الى يوسف بن محمد موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فى شهر شعبان ١٢٥ وأقامهما للناس ثم بعث بهما الى يوسف بن عمر عامل العراق ، فعذبهما عذاباً شديداً حتى ماتا تحت العذاب (٢)

يوسف الثقفى :

يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى ابن أخى الحجاج وخال الوليد .

---

(١) ابن عساكر ٥/٨٢

(٢) ابن كثير ١٠/٤ والطبرى ٨/٢٩٩

ولى المدينة سنة ١٢٥ ولاه ابن اخته الوليد الفاسق ، وضم اليه جميع الحجاز ، وأقره يزيد بن الوليد ، وبقى والياً الى سنة ١٢٦ وعزله وولى مكانه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وبقى والياً الى سنة ١٢٩ ثم عزله مروان الحمار ، وولى مكانه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وهو آخر ولاة الامويين على المدينة والحجاز .

وفى عهده دخل المدينة ابو حمزة الخارجى فى صفر سنة ١٣٠ بعد وقعة قديد وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير . وقامت النياحة فى بيوت أهل المدينة .

ودخل أبو حمزة الخارجى مدينة الرسول ﷺ وهرب عبد الواحد بن سليمان الى الشام وأقام أبو حمزة الخارجى فى المدينة ثلاثة أشهر ، ثم خرج لقتال مروان الحمار ، فلقيهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى فى جيش فاوقعوا بأصحاب ابى حمزة ، وانهزم جيشه ، وعادوا الى المدينة منهزمين ، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم ودخل المدينة عبد الملك بن محمد بن عطية منتصراً وأقام شهراً ثم مضى الى مكة واستخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد ابن عطية .

فى العهد العباسى :

أما امراء المدينة فى العهد العباسى فعندما ولى أبو العباس السفاح عزل عن المدينة يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى أمير المدينة من قبل الامويين ، وولى عمه داود بن على بن عبد الله بن العباس ، وذلك فى سنة ١٣٢ وضم اليه مكة ، واليمن ، واليمامة .

ولما دخل المدينة هدد الناس وتوعدهم وقال فى خطبته :

أيها الناس أغركم الامهال حتى حسبتموه الاهمال ، هيهات منكم وكيف بكم ، والسوط كفى ، والسيف مشهر .

حتى يبيد قبيله فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسراً يمسحن عرض ذوائب الايتام

ولكن الله لم يمهله وعجل عليه فلم تطل أيامه ومات فى شهر ربيع الاول سنة ١٣٣ وكانت مدة ولايته أقل من ثلاثه أشهر .

ولما دنت وفاته استخلف ولده موسى ، وولى السفاح مكانه زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثى ، وهو خال السفاح وبقى الى أيام المنصور وعزله فى سنة ١٤١ وغضب عليه وحمله الى الكوفة مكبلا بالحديد .

وولى مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ثم عزله فى سنة ١٤٤ .

وولى مكانه رياح بن عثمان بن حيان المرى وبقى الى سنة ١٤٥ وفى عهده ثار محمد بن عبد الله بن الحسن فى المدينة ، وقبض على رياح وأخيه ابراهيم وأودعهما السجن ، ودخل رجل من ولد مصعب بن الزبير عليهما فى السجن عندما اشتد القتال بين محمد بن عبدالله وبين جيش المنصور فذبحهما ، ورجع الى محمد وقاتل معه حتى قتل .

ثم ولى إمرة المدينة - بعد قتل محمد - عبد الله بن الربيع الحارثى وذلك فى سنة ١٤٥ وبقى والياً الى سنة ١٤٧ ثم عزله المنصور .

وولى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وبقى والياً من قبل المنصور الى سنة ٤٩ .

وفى أيامه مات أبو عبد الله الصادق عليه السلام وذلك فى سنة ١٤٨ مسموما.

* * *

هذا موجز من البيان عن ولاة إمرة المدينة فى العهد العباسى وقد شهدت

المدينة المنورة فى عهد رياح بن عثمان المرى - الذى ولاه المنصور امرة المدينة - اولئك الجند القساة يهجمون على منازل آل الرسول ، ويخرجون الرجال منها فيزج بهم فى السجون ، ويعذبون فيها بدون رحمة ، ولا خشية من عقاب .

ولعل من اعظم تلك المشاهد وقعاً ، واشده الماً ، مرور موكب آل الرسول ﷺ من شيوخ وشبان فى شوارع المدينة ، وهم مكبلون فى الحديد ، وقد غير الم العذاب نضارة تلك الوجوه يحوط بهم جند المنصور وهم يسيرون الى الكوفة حتى اودعوا فى سجنه المظلم فكان به خاتمة مطافهم ، وماتوا جميعاً تحت انقاضه فانا لله وانا اليه راجعون .

موقف الامام الصادق (عليه السلام)

(١)

وبعد أن عرفنا اهم الحوادث التى جرت فى عهد الامام الصادق عليه السلام سواء أكانت فى عهد جده زين العابدين (ع) أم فى عهد ابيه الامام الباقر (ع) او فى عهده بالذات فانه يتضح لنا مدى تحمله للمتاعب ومواجهته للآلام التى ماجت بها تلك العهود .

كما تتضح لنا الظروف التى احاطت به والمشاكل التى كان يواجهها وقد شاهد تلك الاحداث التى واجهها العالم الاسلامى وتخطى معه تلك المراحل التى اجتازتها الامه الاسلامية وهى اعظم المراحل التى تمر عليها يوم اصبح الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه .

وكانت الاهواء هى الحاكمة ، والاحقاد هى المسيطرة ، وقد رضخ المسلمون لحكم اناس ابتعدوا عن القرآن وتركوا العمل بسنة الرسول فاصبحت الامة الاسلامية يثقل كاهلها اطماع اولئك الحكام ويرهقها جورهم .

وقد ماجت البلاد الاسلامية - فى عهد الامام الصادق (ع) بالاخص - بكثرة الخلافات ، وحدثت ثورات دموية وحروب طاحنة ، ادت الى استغلال الوضع من قبل اناس لا يهمهم اراقة الدماء فى تحقيق مآربهم الشخصية .

وقد نشأ الامام الصادق (ع) فى بيت النبوة ودرج فى ربوع الوحى ومهبط التنزيل .

(٢)

تولى الامام الصادق (ع) اعباء الامامة ومسؤلية اداء رسالة الاسلام وهداية الأمة بعد ابيه الباقر (ع) وقد لمعت شخصيته . وظهرت قابلياته . فتوالت عليه الطلبات لقيادة تلك الثورات التى قامت بوجه الطغيان ، احتجاجاً على ذلك الحكم الظالم ، وكانت الدعوة باسم اهل البيت (ع) ، لانهم زعماء هذه الامة وأملها المنشود .

وكان الامام الصادق (ع) قد اختط لنفسه طريق الدعوة الصامتة والثورة الاصلاحية ، بعد أن عرف بثاقب بصره وخبرته ، وهو ينظر الى تلك الحوادث ـ وان هذه الثورات لا تؤدى الى الغاية التى ينشدها ، ولاتحقق الهدف ، بل فى ذلك مزيد من التضحيات التى لا يتورع بنو أمية فى مقابلتها عن سفك الدماء .

وكان يعلم عواقب تلك الخلافات ، وتحس حاجة المجتمع الاسلامى الى التوجيه الصحيح ، والدعوة الى الالتزام بمبادىء الاسلام وتعاليمه ، ليحقق بذلك التكافل الاجتماعى ، والتآزر العام .

فقام (ع) بمهمة التوجيه ، ليخلق الوعى بين الصفوف ، وليحقق التكاتف والتآخى ، وليقضى على بقايا رواسب جاهلية عملت على احيائها طغمة حاكمة ، لتحقق لنفسها مغانم تسند بها سلطانها الجائر ، والحكم الظالم وقد شهد طغيان المؤثرات القبلية والسياسية وغيرها .

(٣)

ان الدعوة التى قام بها الامام الصادق (ع) انما هى ثورة اصلاحية وحملة توجيه عامة ، ليوجد من تلك الجموع الثائرة امة ذات وعى تحسب للظروف حسابها ، وتنظر الوقت المناسب لقيام الثورة المتكفلة لتحقيق غايتها وتحقيق هدفها فى اعادة الخلافة الاسلامية وتطبيق نظام الاسلام الذى يكفل للبشر سعادتهم .

والامام الصادق (ع) وسط ذلك المعترك هو الموجه القائد الذى اجتمعت فى شخصيته جميع مؤهلات القيـــادة العامة ، وقد واجه تلك الحوادث بحزم وثبات .

وقد رد (ع) طلب من الح عليه فى تزعم الحركة الثورية التى نشبت فى ايامه بين انصار العلويين وبين الامويين ، وكانت الدعوة باسم اهل البيت (ع) وهو زعيمهم وسيدهم فى عصره .

ولكنه كان يرى أن اصلاح الوضع بالتوجيه الصحيح وتفهيم الناس ضرورة الوقوف تجاه الخصوم موقف تحسس بما تؤل اليه الحالة من التسرع فى اثارة الحرب ، وأن ذلك لا يجدى نفعاً لوجود ذوى الاطماع الذين لا يقل ضررهم على الامة الاسلامية من ضرر الامويين ، وبهذا يكون حل المشكلة بمشكلة اعظم منها .

واتخاذ مثل هذا الموقف الذى اتخذه الامام لنفسه ومن ورائه ذووا البصيرة من اعيان الامة ليدل على عمق التفكير وحصافة الراى .

(٤)

لقد وقف الامام الصادق (ع) موقف المصلح الذى يحاول أن يعيد للامة مجدها فى تفهم مبادىء الاسلام الصحيحة ونشر الوعى الأسلامى بما

يجب على كل مسلم أن يقوم به فى اصلاح الوضع فى عصر انتشر به الفساد ومنى المجتمع فيه بضروب المحن والابتلاء ، وهو ﷺ بدون شك يحمل من الأذى اضعاف ما تتحمله افراد الأمة ، لأنه المصلح الذى يريد للمجتمع السعادة المفقودة فى عهد ولاة لا تحترم حقوق الأمة المشروعة ، وتتحدى نظامها المقدس ، إذ استبدوا بالأمر وظلموا الأمة ، واستأثروا بالمغانم ، وخالفوا الكتاب والسنة فى سبيل غاياتهم الدنيئة ، وخلقوا مشكلات الخلاف والتعصب ليفرقوا الكلمة ويشتتوا الشمل ويشغلوا الافكار مما اثر على سير المسلمين وتقدمهم من الجهة الروحية التى هى قوام دينهم ، وذلك خلاف ما قرره الاسلام ، (لأنه يدعو الى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) .

والامام يرى ان واجبه يحتم عليه نشر دعوة الاصلاح ، وتوجيه المجتمع وبث تعاليم الدين ، وأن يعلن غضبه على ذلك النظام الجائر بصفته امام زمانه ولكنه ماذا يصنع وهو الرجل المغلوب على أمره ، والمغصوب منه حقه ، ومع ذلك فانه لم يأل جهداً فى معارضتهم ، ونهى الناس عن مخالطتهم والتولى لاعمالهم ، وقد أوجب على الأفراد عدم التعاون مع ولاة الامر ، وحرم عليهم العمل لهم ، وحذر وأوعد من عاونهم بالعذاب لانه كبيرة من الكبائر ، إذ الوالى الجائر يشتد عزمه وتتسع دائرة استبداده عندما يكثر مناصروه .

(٥)

كان الامام (ع) يرى أن انفصال الامة عن القادة الظالمين وعدم الركون اليهم يضيق دائرة الاستبداد ويرغم الولاة على العدل ، ويأمل من وراء ذلك لهم السعادة ، والغرض أن ولاة ذلك العصر أو خلفاء الدولة المروانية قد انهمكوا فى الدنيا وسفكوا الدماء ، وانتهكوا المحرمات وتجاهروا

فى عداء آل محمد ﷺ ، وتتبعوا من عرف بحبهم ، والميل اليهم ، وتقريب من عرف ببغضهم ، وهم يحاولون بذلك تحويل انظار الامة عن أهل البيت اذ هم أهل العلم والورع والعبادة ، والناس وإن تمكن من نفوسهم حب الدنيا والطموح الى المال فهم يخضعون لسيطرة العلم والدين بدافع العقيدة ، وحب الناس لآل محمد ﷺ لا للدنيا ولكنه للدين وحده ، فحبهم من الدين ، لذلك كان يثقل على بنى أمية ذكر أهل البيت بخير ، لأن سياستهم ترتكز على بغضهم ونصب العداء لهم واقصاء من عرف بحبهم وقتل من اتضح منه ذلك . تارة باسم الزندقة واخرى باسم الخروج على طاعة السلطان .

ويعطينا الشاعر العبلى (١) صورة عن تلك السياسة بقوله :

شردوا بى عند امتداحى علياً ورأوا ذاك فىّ داءاً دوياً
فوربى ما أبرح الدهر حتى تختلى مهجتى بحبى عليـــا
وبنيه لحب أحمـــد انى كنت احبتهم بحب النبيا
حب دين لا حب دنيا وشر الـــحب حب يكون لى دنيويا
صاغنى الله فى الذوابة منهم لا ذميماً ولا سنيداً دعياً

وكان هذا الشاعر فى عداد الأمويين ، فهو من عبد العزى بن عبد شمس وكان يكره ما يجرى عليه بنو أمية من ذكر على وسبه على المنابر ، ويظهر الانكار ، فنهوه عن ذلك ونفوه من مكة الى المدينة ، وعاش مجفوا من الأمويين مع مدحه لهم وشعره فيهم .

ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت - كما يقال - فى الطنبور نغمة حتى قال أحد مخضرمى الدولتين .

ياليت جور بنى مروان دام لنا وليت عدل بنى العباس فى النار

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن عبد الله بن ربيعة بن عبد العزى .

لأنهم تتبعوا الذرارى العلوية فقتلوهم تحت كل حجر ومدر وخربوا ديارهم وهدموا آثارهم حتى قال الشعراء فى عصر المتوكل :

تالله ان كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد اتته بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
اسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... فى قتله فتتبعوه رميما

وكابد أهل البيت من المحن مالا يمكن حصره فقد امتلأت منهم السجون واهتزت باجسامهم المشانق ، وسالت بدمائهم الارض .

وكانت السلطة الحاكمة تشجع خصومهم وتدعو الناس للابتعاد عنهم . ويصدر مرسوم من بغداد إلى مصر ، بأن لا يقبل (١) علوى ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفساط إلى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين علوى وبين أحد من سائر الناس خصومة فلا يقبل قول العلوى ويقبل قول خصمه بدون بينة (٢) وكانوا بين آونة وأخرى ، يصدر مرسوم بان يسفروا من الاطراف الى عاصمة الملك ليكونوا تحت الرقابة وينالوا العقاب هناك ، وأمر الرشيد عامله على المدينة ان يضمن العلويون بعضهم بعضا وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم فمن غاب عوقب .

ولم يقف العلويون تجاه هذه المشاكل موقف الذلة والخضوع ، وأبت نفوسهم التسليم لتلك النظم والاحكام القاسية ، وقد استطاعوا الافلات من تلك السيطرة ، فثاروا فى وجه الظلم لرفع راية العدل ، فكانت هناك ثورات دموية كان النجاح مع اكثرهم فاسسوا دولا وحكومات اقلقت العباسيين ودفعتهم

---

(١) اعطاء الارض الزرع بحصة منها .
(٢) الولاة والقضاة للكندى ١٩٨

الى الانتقام من العلويين ، وتطبيق مادة الفناء والابادة بحق من عرفوه بالميل لهم أو اتهم بذلك فحاكوا لهم التهم والصقوا بهم العيوب ، فلقيت شيعة أهل البيت من ذلك أشد الأذى ، ولكنهم ذللوا تلك المصاعب بسلاح العقيدة والايمان الصحيح ، ووقف معسكرهم من البداية الى النهاية مرابطاً على خط الدفاع عن حقوق آل محمد والأنتصار لهم .

على ان الاكثرية الساحقة دعاهم ـ الطمع ، وحب الدفاع عن النفس ، وهو من الغرائز الملائمة لطبيعة الانسان ـ للتظاهر مع السلطة على هضم حقوق العترة وبث تلك الدعايات الكاذبة ضد شيعتهم لأنهم شاهدوا الأحكام القاسية التي تطبق على الشيعة ، وشاهدوا ان أقرب الناس من ساحات الأمن وأبعدهم عن الخطر من الف كتابا في ذمهم أو ابدى رأيا في مؤاخذتهم أو الطعن في معتقداتهم أو قال شعراً يهجوهم به ، أو عرف بالعداء لآل محمد ، وهم أئمة الشيعة ولا يرون طاعة أحد غيرهم فتجد الكتاب والعلماء والشعراء يتقربون الى ولاة الأمر بما يحط من كرامتهم ، لينالوا شهادة الانتساب الى تأييد السلطة (١) .

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والالحاد يقف امام الخليفة العباسي فينشد :

انى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

فيجيزه المهدي بسبعين الف درهم ، فاحال الرعاع وذوي الحاجة والضمائر الرخيصة الذين يبيعون ضمائرهم بابخس الأثمان عند مشاهدة هذا التشجيع . ويدخل مروان بن حفص على المهدي فينشده قصيدة يتعرض بها لآل علي عليه السلام .

هل تطمعون من السماء نجومها باكفكم أو تشترون هلالها

---

(١) يأتي ذلك انشاء الله في كتابنا (الشيعة في قفص الاتهام) .

أو تدفعون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الانفال آخر آية بتراثهم فاردتم ابطالها

يعنى بذلك بنى على وبنى العباس (١) . فترى المهدى يتزاحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط اعجابا بما سمع وتقديراً لموهبة هذا الشاعر :

ثم قال له كم بيتاً هى ؟ قال : مائة بيت ، فامر له بمائة الف درهم :

وناهيك ما فى هذا العمل والتشجيع من الخليفة وأثره فى نفوس العامة ولاشىء أملك للنفس من عطف الامراء وتوددهم للافراد بما تميل طباعهم اليه .

ودخل رجل على الرشيد فقال : لقد هجوت الرافضة ، قال : هات فانشد :

رغماً وشمساً وزيتوناً ومظلة من أن تنالوا من الشيخين طغيانا

قال الرشيد : فسره لى ، قال : لا ، ولكن أنت وجيشك أجهد من أن تدرى ما أقول قال : والله ما أدرى ما هو وأجازه .

ويقف مروان بن ابى الجنوب فينشد المتوكل شعراً ينال فيه من آل على ويذم شيعتهم فيأمر المتوكل بان ينثر على رأسه ثلاثة آلاف دينار ، ويأمر ولده وسعد الايتاخى بالتقاطها له ، ويعقد له على امارة البحرين واليمامة ويخلع عليه أربع خلع (٢) .

هذا بعض ما ابدته السلطة فى مقاومتهم وتشجيع خصومهم ، ولكنه عمل لم يثمر أى شىء . فآل محمد لا تستطيع أى قوة إخفاء ذكرهم أو محو آثارهم فهم فى كل زمن أعلام هدى ودعاة صلاح وذكرهم يتجدد كلما تحرر الفكر وازدهر العلم . والمنصف اذا نظر الى انتشار مذهب أهل البيت فى

---

(١) الخطيب ج ١٣ ص ١٤٤
(٢) ابن الاثير ج ٧ ص ٣٨

الاقطار الاسلامية ، كالعراق ، والحجاز ، ومصر والشام والاندلس والهند وايران ، والبحرين والقطيف وغيرها ، يرى ان ذلك الانتشار انما كان بحسب ذاته ولياقته وقيمه الروحية ، مع شدة مقاومة السلطات فكلها تقف بالعداء له ووقفوا دون انتشاره مواقفاً خانهم النجاح فيها وسيتضح كل ذلك عند دراساتنا لنشأة المذاهب الاسلامية وعوامل انتشارها وهانحن ننتقل بالقارىء الكريم الى البحث عن نشأة المذاهب والله ولي التوفيق .

المذاهب الاربعة

نشأتها وعوامل انتشارها

تمهيد

(١)

وقبل البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة يلزمنا ذكر أسباب نشأتها وكيف تكيف الالتزام بها دون غيرها من المذاهب ، حتى أصبح الوقوف عند قول امام معين لازم ، ولا يمكن استنباط حكم شرعى لأى أحد دون اولئك القوم الذين وقفت قافلة التشريع الاسلامى عندهم ، فاصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى فى الدين حتى ادعى استحالة الاجتهاد لمن بعدهم ، فاغلق بابه فى وجوه المسلمين .

وغلق باب الاجتهاد جمود للتشريع وذهاب لحياة الامة ، فتلك امور يلزمنا النظر فيها ولا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التى تكونت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معين ، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها فهل كانت دواعى الانتشار بسبب القيم الروحية ؟ أم انها استندت الى السلطة التنفيذية ؟ وهل كانت مستقلة عن تأثر السلطة أم انها عرضة لذلك ؟ وهل اخضعتها لمتابعتها أم انها خضعت لأغراض الولاة ؟ وسيتضح لنا ذلك عندما نبحث عن نشأة المذاهب .

على اثر النجاح الذى احرزته الجمعيات السرية المنعقدة ضد النظـــام الاموى طلع نجم بنى العباس ، وكان لهم نشاط سياسى فى المجتمع ، فهم فى

طليعة رجال حركة الأنقلاب الذى أحدثته الامة لتحويل الحكم من البيت الاموى الى البيت العلوى ، وكان العباسيون أشد الناس حماساً فى ايقاد نار الثورة انتقاماً من الامويين لأبناء على ﷺ وكانت هتافات الثوار هى الدعوة الى الرضا من آل محمد .

على هذا ثارت الامة وانتظمت صفوفها التى نالت الانتصار فى تلك الحروب الدامية ، ومحيت امية من صفحة الوجود ، ونال العباسيون ثمرة ذلك الغرس ، فتاقت نفوسهم الى انتحال هذا الاسم عسى أن يوفقوا لاقناع الامة بانطباقه عليهم فتكون لهم حكومة وراثية وتمنحهم الامة ثقتهم التامة .

وبالطبع ان هذه الفكرة لاتلاقى كثير قبول عند العرب وفى المدينة ومكة فى الخصوص ، لذلك وجهوا عنايتهم الى الموالى . فاهل المدينة أعرف بآل محمد وأدرى بنزول الآيات فيهم وأحاديث النبى ووصاياه فى آله ، ولأنهم شاهدوا تلك الأعمال التى عامل الأمويون بها آل محمد ﷺ وتألموا لها ، فكان كل ينكر ذلك ويتمنى مناصرتهم فلا يمكنهم ان يجعلوا العباسيين هم آل محمد .

وحذراً من انكار العرب وانضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم توجيه العناية الى الموالى ، وهم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعد المملكة اليوم وللنقمة من العرب يوماً آخر .

(٢)

كانت المدينة المنورة مصدراً للفتيا ترجع اليهم الأمة فى مهمات التشريع الاسلامى لانها مركز العلم وفيها اصحاب الرسول وأهل بيته والتابعين لهم باحسان ، وقد لاحظت الدولة الاموية من قبل هذه المهمة التى يجب أن تلاحظها ، وهى اتجاه الانظار الى المدينة لأنها الجامعة الاسلامية ويخشى على الدولة خطرها ، فكانت تحذرهم أشد الحذر ، فاستمالت اكثر الفقهاء بالعطاء

والرجوع اليهم فى المهمات ، لتسد بذلك ثغرة الخطر على الدولة .

وفى العهد العباسى نشطت الحركة العلمية وكان طبيعياً أن تنتعش العلوم فى ظل سلطانهم لانهم كانوا يجعلون حقهم فى الامامة قائماً على انهم سلالة النبى ، وكانوا يقولون انهم سيشيدون - على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل التقى - نظاماً على سنة النبى وأحكام الدين الإلهى .

فنهض أهل البيت وبقية العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حرية الرأى والتفوا حول آل البيت لانتهال العلوم من موردهم العذب ، وكان الامام الصادق عليه السلام هو الشخصية التى يتطلع اليها الناس يوم طلع فجر النهضة العلمية فحملوا عنه العلم الى سائر الاقطار ، وقصده طلاب العلم من الانحاء القاصية ، وفتحت مدرسته بتلك الفترة فكان المنتمون اليها أربعة آلاف كما مر ذكره .

وهذا النشاط العلمى لا يروق الدولة الفتية التى قامت على اطلال الدولة الأموية بدون حق شرعى ، وإنما هى فى صالح العلويين وانضمام العباسيين اليهم يطلبون الانتقام من أمية التى جرعتهم كأس الغصص فهم كسائر البيوتات التى انضمت لهذه الدعوة ولكنهم نشطوا بالحيلة وتغلبوا باصطناع المعروف لآل البيت فكانوا فى حذر متواصل من العرب عامة ومن المدينة خاصة ، لأن أهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة وانها لآل على عليه السلام دون بنى العباس ، كما انهم كانوا فى طليعة من بايع محمد بن عبد الله بن الحسن وفى رقبة السفاح والمنصور بيعته فكيف يستقلان بالأمر وينقضان تلك البيعة ؟

ولكن السفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس اليه ، وتثبيت قواعد ملكه على أيدى الفرس لانه يأمن وثبة العرب لجانب العلويين فهم فى نظر العباسيين انصار بنى على لا انصار بنى العباس ، كذلك كان من سياستهم فى بدء الدعوة قتل كل من يتكلم بالعربية فى بلاد فارس .

ومضى السفاح وجاء المنصور للحكم وهو ذلك الرجل الحديدى الذى يقتحم مواقع الخطر ، ولا يتهيب من اراقة الدماء ، ولا يقف امامه حاجز ولا يردعه وازع دينى فى سبيل تركيز دعائم ملكه ، إذكان الخطر محيطاً به من كل الجهات وامام غايته حواجز لايتخطاها إلا بالتجرد عن العاطفة ففتك بأهل البيت وبكثير من العباسيين انفسهم وأبعد علماء المدينة ونصر الموالى واوجد تلك المعركة القوية وهى معركة أهل الحديث وأهل الرأى .

فقرب فقهاء العراق القائلين بالقياس وأحاطهم بعنايته ليحول أنظار الناس اليهم ، وبذلك نقل قيمة علماء أهل المدينة الذين هم أهل الفتيا الى حد كبير ، وما زالت الاقطار الاسلامية عيالا عليهم ، إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه .

(٣)

وكان الحديث فى العراق قليلا ولكن انفتح فيه باب الرأى والقياس وقد اخذه حماد عن ابراهيم النخعى المتوفى سنة ٩٥ هجرية وسنة ٧١٣ م وأخذه أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هجرية عن حماد ، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يتركون الاحاديث لأقيستهم ، والدين لا يقاس بالرأى وإنما سموا أهل الرأى لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، وربما يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار وطريقتهم أن للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت ، فجعلوا هذه المصالح أصلا من أصول الأدلة إذ لم يجدوا نصاً فى الكتاب والسنة الصحيحة عندهم وقد كانت قليلة العدد لبعد العراق عن موطن الحديث .

وأما أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأى فى استنباط الأحكام هذا المحل . واتسعت شقة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا

الى فرقتين .

وانت ترى أن هذا النزاع بعد أن كان علمياً محضاً أصبح مزيجاً بالسياسة أو التعصب وتعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة الى إقوى الفريقين ، واتسع نطاق الخلاف فترى مالك بن انس يحط من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويعلن بقوله : انزلوهم منزلة أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى انزل الينا واليكم والهنا والهكم واحد (١) .

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيبانى فسمعه يقول هذه المقالة ثم رفع رأسه فكأنه استحيى فقال : يا أبا عبد الله أكره أن تكون غيبة كذلك أدركت أصحابنا يقولون ، وكان يقرأ اذا نظر الى العراقيين (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) (٢) .

وكان يسمى الكوفة دار الضرب يعنى انها تضع الاحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير وقال عطاء لأبى حنيفة : من اين أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً (٣) .

ومهما يكن من الامر فقد تعصب كل فريق الى بلده وتنابزوا وعير أهل المدينة بسماع الغناء وأهل مكة بالمتعة وأهل الكوفة بالنبيذ واشتدت عصبية كل قوم لبلادهم . وحملتهم على وضع الاخبار فى مدح قومه وبلده وذم مقابله وعظم الانشقاق بين الطائفتين وبالطبع ان الكوفة تضعف عن مقابلة الحجاز ولكن السياسة الزمنية اقتضت أن تكون الى جانب اهل الرأى لاحباً لهم

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ـ ٢ ـ ١٥٢

(٢) ضحى الاسلام ٢ ـ ١٥٢

(٣) تاريخ بغداد ١٣ ـ ٢٢٠

ولكن بغضاً لاهل المدينة ، واصبح لكل جانب أنصار ومتعصبون فكان مالك ابن أنس فى طليعة أهل الحديث وأنصاره من الحجاز سفيان الثورى واصحابه وزعيم أهل الرأى هو أبو حنيفة وأصحابه وكثير من فقهاء العراق .

فالشافعى أخذ عن مالك وأصحابه ، وأحمد المتوفى سنة ٢٤١ هـ ٨٢٠ م أخذ عن الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ٨٢٠ م واصحابه .

وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ولا يرجعون الى القياس .

يقول الشافعى : إذا ما وجدتم لى مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبى فاعلموا ان مذهبى ذلك الخبر وتبعه اصحابه . وهم اسماعيل بن يحيى المزنى والربيع بن سليمان الجيزى ، وحرملة بن يحيى ، وأبو يعقوب البويطى ، وابن الصباح وابن عبد الحكم المصرى ، وأبو ثور ، وغيرهم .

وأما أصحاب الرأى ، فهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، واصحابه ، محمد بن الحسن الشيبانى ، وأبو يوسف القاضى ، وزفر بن هذيل ، والحسن ابن زياد اللؤلؤى ، وأبو مطيع البلخى ، وبشر المريسى ، فهؤلاء عرفوا بأهل الرأى وقالوا ان الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يرجع اليها ، ولاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على اصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم كما كان يفعل الفريق الاول فانهم يقفون ولا يتعدون حدود النص ، وكانوا يحبون معرفة العلل والغايات التى من اجلها شرعت الاحكام وربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لاصول الشريعة ، ولا سيما إذا عارضها حديث آخر .

وبهذا افترقت الأمة الى فرقتين أهل حديث وأهل رأى ، أو أهل المدينة وأهل الكوفة مع العلم بأن أهل العراق لا يقاسون بأهل المدينة فى الحديث

فكان القياس عندهم أكثر وعليه يبنون غالب فتاواهم ونشط سير الحركة العلمية في ذلك العصر .

(٤)

أصبح النشاط العلمي واسع النطاق فكان في كل بلد إمام له مذهب ينتسب اليه ، وكثر عددها والمنتمون اليه إلا أنه لم يكتب البقاء لاكثرها واعتراها الانقراض وكان لمؤسسيها الذين كثر اتباعهم تاريخ مجيد ومكانة سامية ربما فاقوا في نظر معاصريهم وذوى العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم واقتصر استنباط الاحكام عليهم ، ولكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مسايرة الظروف فلم يكتب لها البقاء ومحيت من صفحة الوجود ولم يبق لأبناء السنة منها إلا الاربعة .

المالكى . والحنفى . والشافعى . والحنبلى . اما المذاهب التى انقرضت فهى كثيرة ونذكر منها :

مذهب سفيان الثورى	المتوفى سنة ١٦١ هجرية وسنة ٧٧٧ م ٧٨
مذهب سفيان بن عيينة	« سنة ١٩٨ هجرية وسنة ٨١٣ م - ١٤
مذهب الحسن البصرى	« سنة ١١٠ هجرية
مذهب الاوزاعى	« سنة ١٥٧ هجرية وسنة ٧٧٣ م
مذهب محمد بن جرير	« سنة ٣١٠ هجرية وسنة ٩٢٢ م - ٢٣
مذهب عمر بن عبد العزيز	« سنة ١٠١ هجرية وسنة ٧٢٠ م
مذهب الأعمش	« سنة ١٤٧ هجرية وسنة ٧٦٤ م
مذهب الشعبى	« سنة ١٠٥ هجرية وسنة ٧٢٣ م
مذهب اسحق	« سنة ٢٣٨ هجرية
مذهب الليث	« سنة ٩٢٠ هجرية

مذهب ابى ثور المتوفى سنة ٢٤٠ هجرية وسنة ٨٥٤ م

مذهب داوود الظاهرى « سنة ٢٧٠ هجرية وسنة ٨٣٣ م

ومذهب عبد الله بن اباض (١) وغيره من مذاهب المسلمين التى تتفق احياناً وتفترق احياناً فى كثير من المسائل الشرعية ، ومنهم من جعل فى تعداد هذه المذاهب ، مذهب عائشة ، مذهب ابن عمر ، مذهب ابن مسعود مذهب ابراهيم النخعى . ولزيادة البيان نذكر طرفا من حياة بعض اولئك العلماء ورؤساء المذاهب .

سفيان الثورى :

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى المتولد سنة ٦٥ - ٦٦ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ متواريا عن السلطان وعده ابن قتيبة فى عداد الشيعة وهو أحد الأئمة المجتهدين . وله مذهب لم يطل العمل به لقلة اتباعه وعدم مؤازرة السلطة له اذ كان طريداً يخشى سطوتهم وهم يطلبونه حتى مات مختفياً منهم وهو أحد تلامذة الامام الصادق عليه السلام وخريج مدرسته وكان اماماً من أئمة المسلمين قيل روى عنه عشرون الفاً ، وكان والده سعيد بن مسروق من محدثى الكوفة وثقه ابن معين وابو حاتم والعجلى .

نشأ الثورى فى مسقط رأسه الكوفة نشأة صالحة وكان بيته معروفا وله مكانة فى محيطه فهو من فقهاء العراق الذين تشد اليهم الرحال فى طلب العلم ، وأراد المنصور قتله فلم يتمكن ، ودعى الى القضاء فهرب وبقى مذهبه معمولا به الى القرن الرابع .

---

(١) راجع تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ١٠٦ (المذهب الاباضى والفرقة مع مذاهب اهل السنة) .

سفيان بن عيينة :

أبو محمد سفيان بن عيينة بن ابى عمران الهلالى مولاهم الكوفى المتوفى سنة ١٩٨ هـ كان اماماً عالماً ثبتاً أخذ العلم عن الصادق عليه السلام والزهرى وابن دينار ، وابى اسحق وغيرهم ، وروى عنه الشافعى وشعبة بن الحجاج وخلق كثير ، قال الشافعى : ما رأيت أحداً فيه آلة الفتيا ما فى سفيان ، وما رأيت أكف منه عن الفتيا ، وثقه العجلى والشافعى وغيرهم ، وقال الشافعى لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز وله مذهب يعمل به ولم يطل عمره وانقرض فى القرن الرابع لقلة اتباعه وانصاره وعدم ملائمته لسلطان عصره ودفن بمكة .

الحسن البصرى :

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ كان من التابعين وابوه مولى زيد بن ثابت الانصارى وامه خيرة مولاة ام سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

نشأ بوادى القرى ، وكان من اجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بانفه ما شوه خلقته ، كان مؤازراً لبنى مروان يشد أزرهم وله علاقة وثيقة مع الولاة والامراء ويلاقى منهم الاكرام ، وكان لهم فى ثغر البصرة بقوة الدفاع أعظم من الجيوش المدربة فى ساحات الحرب ، حتى قالوا : لولا لسان الحسن وسيف الحجاج لوئدت الدولة المزوانية فى لحدها واخذت من

وكرها وكان مدلساً فى حديثه كما نص عليه الحفاظ ولم يطل العمل بمذهبه .

كان الحسن البصرى يتفق مع سياسة الدولة الاموية ويروى عن على عليه السلام فاذا حدث عنه قال قال ابو زينب (يعنى علياً) مجاراة للدولة التى اقتضت سياستها ان لايظهر أسم على عليه السلام ونقل عنه انه تكلم فى على فقال له ابان ابن عياش : ما هذا الذى يقال عنك انه قلته فى على ؟ فقال : يا ابن أخى احقن دمى من هؤلاء الجبابرة ولولا ذلك لسالت بى أعشب .

ولاشك ان هذا من أظهر موارد التقية وكان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة ، وفى مجلسه نشأت فكرة الاسم والحكم التى كانت أساساً لمذهب الاعتزال .

الاوزاعى :

عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعى امام الشاميين المتوفى سنة ١٥٧ هـ .

انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك فى الحجاز وابو حنيفة فى العراق ، وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن ، وانتشر بالاندلس ثم اندرس مذهبه وحل محله مذهب الشافعى عندما عين محمد بن عثمان الشافعى قاضياً على دمشق فحكم بمذهب الشافعى ، وهو أول من نشره هناك وبقى مذهب الاوزاعى الى سنة ٣٠٢ هجرية .

وكانت للاوزاعى شخصية مرموقة فى عصره ، ولن يعدم العناية من السلطة ، فقد كان فى العهد الأموى محترما مبجلا لأنه على شاكلتهم ، ومن المؤيدين لدولتهم ، والمناصرين لهم ، واتخذته السياسة رمزاً دينياً لاغراضها الخاصة وفى العهد العباسى قربوه لمكانته عند اهل الشام فكانوا يستميلونه

ويقربون محله وكان المنصور يعظمه ويراسله لانه عرف عنه الانحراف عن آل محمد ﷺ كما يتضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله ، وأما منزلته العلمية لاتنكر فى عصره وبعد عصره ، روى ابن القطان عن مالك بن أنس انه قال اجتمع عندى أبو حنيفة والثورى والاوزاعى فقلت : ايهم ارجح ؟ قال : الاوزاعى ومات فى خلوة فى الحمام وذلك ان زوجته أوقدت له كانون فحم واغلقت الباب عليه فمات .

ابن جرير الطبرى :

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبرى المتولد سنة ٢٢٤ هـ بامد الطبرستان وتوفى ببغداد فى ٢٦ شوال سنة ٣١٠ هـ .

هو من المجتهدين لم يقلد أحداً وله مذهب عمل به مدة واعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافى بن زكريا النهروانى المعروف بابن طراز . قال محمد بن اسحاق بن خزيمة : ماأعلم تحت أديم الارض أعلم من محمد بن جرير ، وقال الخطيب البغدادى كان حافظاً لكتاب الله تعالى عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعانى فقيهاً باحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً باقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

الظاهرى :

أبو سليمان داوود بن على بن خلف المعروف بالظاهرى ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هجرية ونشأ ببغداد وتوفى بها سنة ٢٧٠ هجرية وكان له لون خاص فى التشريع

لعمله فى الظاهر .

استمر العمل بمذهب داوود الى القرن السابع الهجرى وكان من اتباعه وأئمته عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى المتوفى سنة ٦١٠ هـ ، ومحمد بن الحسين المشهور بالميورقى المتوفى منتصف القرن السادس ، ومجد الدين عمرو ابن حسن بن على بن محمد بن فرج المتوفى سنة ٦٢٣ وكان من المحدثين . ومن أئمة هذا المذهب محمد بن حزم (١) صاحب الفصل فى الملل والنحل وصاحب المحلى على قواعد المذهب الظاهرى .

ومهما يكن من الامر فان هذا المذهب قطع شوطاً من الزمن بخطى ثقيلة ونراه يسرع فى خطاه وينتشر بنطاق واسع عندما تولى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن وأعلن بتمسكه بهذا المذهب واعرض عن مذهب مالك الذى غمر المغرب بانتشاره فعظم المذهب الظاهرى وكثر اتباعه ، وانقطع علم الفروع وخاف الفقهاء سطوة السلطان عندما فرض اعتناق هذا المذهب وامر باحراق كتب مذهب مالك ، كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد والتهذيب للبردعى .

قال فى المعجب ولقـــد شهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع وتطلق النار عليها . واستمر المذهب وقد عده المقدسى فى (احسن التقاسيم) خامساً للمذاهب .

---

(١) هو على بن احمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة ٤٠٤ والمتوفى سنة ٤٥٧ وكان عظيم الحفظ كثير التصانيف وكان جرىء اللسان متسرع الى النقل بمجرد ظنه كبير الوقوع بالعلماء وله كتاب الفصل يعرف به تحامله على المسلمين فانه يطلق لسانه حتى قيل ان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان كان شافعى المذهب قال ابن العربى : ثم انه انتسب الى داوود ثم خلع الكل واستقل وزعم انه امام الأئمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع وينسب الى دين الله ما ليس فيه انظر تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٢٣ .

الليث بن سعد :

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبدالرحمن المتولد سنة ٩٢ والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة ١٧٥ بمصر ، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره أحد المزارات هناك وله مكانة علمية ومذهب يعمل به وكان يقرن بمالك بن أنس ، يقول الشافعي : الليث افقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به ، وكان ابن وهب يقرأ على الشافعي : مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل أحسن والله الليث كانه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو . فقال ابن وهب للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث .

وكان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا ولم يسعده الحظ بانصار ينشرون مذهبه فيكتب له الخلود وقد انقرض لمدة قليلة ، يقول الاستاذ أحمد أمين : (لو تعصب المصريون لمن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه ولكانوا اتباعه ولكن زامر الحى لا يطرب . وازهد فى عالم اهله) .

وفى الواقع ان عدم اشتهار مذهبه وانتشاره من عدم امتزاجه بسلطان عصره فقد طلبه المنصور للقضاء فابى وقال إنى اضعف عن ذلك ولم يكن من أصحابه من يتولاه . فالقضاء هو عامل قوى لخلود المذاهب وبقائها كما ياتى بيانه .

ومما يؤثر عنه انه لقى الرشيد فسأله الرشيد : ما صلاح بلادكم ؟ قال : ياامير المؤمنين صلاح بلادنا اجراء النيل وصلاح أميرها ومن رأس العين يأتى

الكدر فاذا صفا رأس العين صفت العين .

وقال فى النجوم الزاهرة : كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى عصره بحيث ان القاضى والنائب من تحت امرته ومشورته ، كان الشافعى يتأسف على فوات لقياه وقد كتب بعض من غاظه ذلك الى المنصور .

أمير المؤمنين تلاف مصراً فان أميرها ليث بن سعد

عمر بن عبد العزيز :

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم كان تابعيا جليلا روى عن انس ابن مالك وغيره وكان اعدل ملوك الامويين مر بيان ترجمته عند ذكرنا لملوك عصر الامام الصادق عليه السلام وامراء بلده ، ولا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه والعاملين به ولا نعلم مدة بقائه وربما كانت له آراء خاصة اخذها الناس عنه فعد فى عداد المذاهب .

الاعمش :

أبو محمد سليمان بن مهران الاعمش مولى بنى كاهل من ولد اسد المعروف بالاعمش الكوفى المتوفى سنة ١٤٨ كان ثقة عالما وكان أبوه من دنباوند وهى ناحية من رستاق الرى فى الجبال وكان يقارن بالزهرى فى الحجاز ورأى انس بن مالك لكنه لم يسمع منه ويروى عن أنس ارسالا أخذه عن أصحاب أنس ، وروى عنه سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج وكان لطيف الخلق مزاحا .

دخل أبو حنيفة يوما لعيادته فطول القعود عنده فلما عزم على القيام

قال أبو حنيفة ما كأنى إلا ثقلت عليك فقال : والله انك الثقيل على وأنت فى بيتك ، وعاده أيضاً جماعة وأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم فاخذ وسادته وقام وقال شفى الله مريضكم بالعافية ، ولد الاعمش سنة ٦٠ الهجرة وقيل انه ولد يوم مقتل الحسين عليه السلام وعده ابن قتيبة فى كتاب المعارف من جملة من حملت به أمه سبعة اشهر وتوفى سنة ١٤٨ أى فى السنة التى توفى بها الامام الصادق عليه السلام ولم يكن لمذهبه ظهور وانتشار فى المجتمع وانقرض بمدة قليلة .

الشعبي :

عامر بن شرحبيل الشعبي أبو عمر الكوفى سنة ١٠٥ هـ

سمع من جماعة من الصحابة وقال أدركت خمسمائة منهم وكان قاضياً لعمر بن عبد العزيز وكان محدث الكوفة وكان يفتى على ما صح عنده من الاثر وينقبض عن الفتوى ان لم يجد نصاً ولا يقول برأيه ، ونسبة المذهب اليه لما صدر عنه من الفتوى وإلا فلم يشتهر عنه ذلك والعمل به قليل .

هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة ، وهى كثيرة تزيد على الخمسين ونقصر الخطى على هؤلاء ، فالاستقصاء يقصينا عن الغاية التى نطلب من ورائها كشف الحقيقة .

وليس لنا غرض فى التعرف عليهم ، ولكن الغرض أن نعرف الاسباب التى دعت الى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود واثبات المذاهب الأربعة ، مع العلم ان رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية ونستطيع القول بأن أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة : فسفيان الثورى لقبوه بأمير المؤمنين فى الحديث وسيد الحفاظ وغير ذلك كما قاله شعبة وأبو عاصم

وابن معين وغيرهم وقال ابن المبارك : كتبت عن الف شيخ كان سفيان أفضلهم وقال القطان : الثورى أحب الى من مالك الى غير ذلك من أقوال علماء الرجال مما لم نعثر على مثلها لأبى حنيفة وغيره نعم من طرق اتباعهم تتعدى حد الحصر ، واعطف عليه سفيان بن عيينة وابن جريج والليث وغيرهم فانهم بمكانة من العلم وقد رجع الناس اليهم فى الفتيا مدة من الزمن واستمر العمل بمذاهبهم ثم انقرضت ولم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة الحنفى ، المالكى الشافعى ، الحنبلى .

اما اتباع آل البيت فقد بقيت آراؤهم ومعتقداتهم فى الاصول والفروع وغيرهما أقوى من أن تلين للسياسة وتدخلات الولاة والامراء . . واذا شوهدوا فى بعض الاحيان يميلون الى التقية والى تحاشى ضغائن الملوك فان ذلك كان من عزم الامور ودرء المهالك عن انفسهم حين يرون أن دماءهم احفظ للدين من اراقتها دون طائل .

وهنا يلزمنا البحث عن عوامل انتشار المذاهب الاربعة .

عوامل الانتشار

المذهب الحنفي :

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء الى النبي ﷺ ، وانهم سلالة البيت النبوى فهم أحق بالأمر من أمية خصوم الاسلام وأعداء محمد ﷺ وبالطبع انهم يقيمون على اطلال تلك الدولة المتهمة بمخالفة الدين دولة ذات صبغة دينية يحاولون أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة ليكونوا من أحكام الشريعة الاسلامية دستوراً ونظاماً تسير الدولة عليه سيراً صوريا ، فقربوا العلماء ، واتصلوا بهم اتصالا وثيقاً وآثروا نشر العلم ، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأى من أهل العراق ، حتى ولى ابو يوسف القضاء وهو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفى لمكانة ابى يوسف وسلطته التنفيذية يومذاك ، فكانت للمذهب الحنفى خطوة واسعة فى قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره . فابو يوسف (١) هو تلميذ ابى حنيفة وقد تربى فى نعمة ،

(١) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الانصارى المتوفى سنة ١٨٢ ببغداد والمدفون فى مقابر قريش وهو اول من دعى بقاضى القضاة تولى القضاء ثلاث من الخلفاء المهدى وابنه الهادى والرشيد . قال محمد بن جرير الطبرى نحاما قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأى عليه وتفريع الفروع والاحكام مع صحبة السلطان . وقال عمار بن ابى مالك ما كان فى اصحاب ابى حنيفة مثل ابى يوسف لولا ابو يوسف ما ذكر ابو حنيفة ولا محمد بن ابى ليلى وهو الذى نشر قولهما . وعن ابن المبارك انه وهاه وعن يزيد بن هارون انه قال لا تحل الرواية عنه كان يعطى أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه . وابو يوسف هو الذى عناه الشاعر بقوله :

يا قاتل المسلم بالكافر جرت وما العادل بالجائر

وسنأتى ترجمته ببيان ووضوح فى موكب القضاة .

وبتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب وولى منصب رآسة القضاء العامة فى عهد الرشيد سنة ١٧٠ هـ فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ، ومصر إلا من أشار به القاضى ابو يوسف (١) وذلك لمكانته فى الدولة ومنزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد : يا ابايعقوب لو جاز لى ادخالك فى نسبى ومشاركتك فى الخلافة المفضية الى لكنت حقيقاً به ، ألست القائل لأخى وقت كذا : وكذا ؟ وفى وقت كذا : وكذا ؟ (٢) .

يشير بذلك الى ما عزم عليه الهادى من خلع الرشيد واستشارة ابى يوسف فى ذلك ، وجوابه له برد عزمه ، فكان الرشيد يشكر لابى يوسف هذه اليد ، حتى قيل لم يتمكن أحد كتمكن ابى يوسف من الرشيد (٣) وقال بشر المريسى ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت ابا يوسف بلغها عشية من العشايا (٤) .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب : وبلغ ابو يوسف مع الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته (٥) .

وقال ابن عبد البر فى الانتقاء ص ٦ : كان ابو يوسف قاضى القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء ، ولى القضاء فى بعض أيام المهدى ثم للهادى ثم للرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله ، وكان عنده حظياً مكيناً لذلك كانت له اليد الطولى فى نشر ذكر ابى حنيفة ، واعلاء شأنه لما اوتى من قوة السلطان وسلطان القوة .

واذا نظرنا الى مقومات المذهب فى نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٤٤

(٢) المكافاة لابن الداية ٦٣

(٣) نفس المصدر ٦٢

(٤) نفس المصدر ٦٤ وذكر هناك قصة الجارية .

(٥) نفس المصدر ـ ١١٦ ـ ١٧٣

من اصحاب ابى حنيفة فانهم الفوا فيه وهذبوا مسائله ، وليس لأبى حنيفة الا المشاركة فى الرأى أحيانا وخالفوه فى اكثر المسائل ، كما انهم وسعوا دائرة المذهب فى الحيل الشرعية فاول اولئك النفر هو ابو يوسف القاضى فقد خدم المذهب فى قوته وسلطانه وفى تصنيف الكتب وتبويب المسائل ، وقد ادخل الحديث فى فقه ابى حنيفة ، والف كتاب الخراج لهارون الرشيد مستنبطاً من الحديث على مذهب مالك .

والثانى محمد بن الحسن الشيبانى مولاهم المتولد (١) سنة ١٣٢ هـ والمتوفى سنة ١٨٩ هـ نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية ، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحداثة سنه فاتم دراسة المذهب على ابى يوسف ، وكان ذا فطنة وذكاء ، واصبح المرجع لأهل الرأى فى نبوغه وتقدمه ، والف فى المذهب كتباً هى فى الحقيقة المرجع الأول فيه ، فان الحنفية ليس بايديهم إلا كتبه وخرج الى المدينة ولقى مالكا وقرأ الموطأ عليه ثم رجع الى بلده فطبق مذهب اصحابه على الموطأ مسألة مسألة (٢) ونظم الفقه الحنفى وخالف ابا حنيفة فى اكثر مسائله

والثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة ١١٠ هـ كان من أهل الحديث وكان أقيس اصحاب ابى حنيفة .

الرابع الحسن بن زياد (٣) اللؤلؤى مولى الانصار درس على ابى حنيفة

---

(١) محمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩ قال فيه أحمد بن حنبل انه مرجىء ورد شريك شهادته لذلك وقد وقعت بينه وبين ابى يوسف مناكرة فكان يقول محمد بن الحسن جهمياً وقال محمد بن سعد الصوفى سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب وقال : مرة انه جهمى كذاب ، وعن منصور بن خالد سمعت محمداً يقول لا ينظر فى كلامنا من يريد الله ، انظر لسان الميزان ج ٥ ص ١٣١ والوفيات ج ص ٣٢٤

(٢) رسالة الانصاف ص ٨

(٣) الحسن بن زياد اللؤلؤى كذبه يحيى بن معين وابو داود ومحمد بن عبد الله بن نمير ، قال ابن المدينى لا يكتب حديثه ، وقال ابو حاتم ليس بثقة وقال الدار قطنى : ضعيف -

ثم على ابى يوسف وعلى محمد بعده وصنف الكتب فى مذهب ابى حنيفة ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنيفة كما كانت لكتب محمد بن الحسن .

فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقى المذهب وسعة دائرته ولم ينقل لنا التاريخ عن ابى حنيفة كتابا يتضمن مسائله وفقهه وانما دون علم المذهب أصحابه .

نعم ينسب لأبى حنيفة كتاب يسمى الفقه الاكبر هو وريقات قليلة لا يتضمن إلا شيئاً من العقائد وقد شرح ووسع واضيفت اليه آراء اخر مع ان الاكثريه يذهبون الى نسبة هذا الكتاب الى ابى حنيفة البخارى وليس هو ابو حنيفة رئيس المذهب . وبهذا يصبح لا أثر له فى تدوين أى شىء ، كما أن أبا حنيفة لا يفارق فتوى ابراهيم وعبد الرزاق إلا فى مواضع يسيرة . والغرض ان المذهب إنما انتشر وكثرت مسائله باعمال هؤلاء الأربعة ومساعيهم .

ـ متروك ، وقال محمد بن حميد الرازى : ما رأيت اسوء صلاة منه ، وقال الخطيب : ان الحسن ولى القضاء ولم يوفق فكان اذا جلس لا يفهم شيئاً وعن اسحاق بن اسماعيل كنا عند وكيع فقلنا له : السنة مجدبة قال : وكيف لا تجدب وحسن اللؤلؤى قاض وحماد بن ابى حنيفة قاض .

المذهب المالكى :

كان من نتائج النزاع الذى حدث بين اهل العراق وأهل المدينة أو أهل الحديث وأهل الرأى ظهور شخصية ابى حنيفة فى العراق ومالك فى الحجاز ، وكانت السلطة تؤيد جانب اصحاب أبى حنيفة وتشد ازرهم وتقدم الموالى لتحط من قيمة العرب لأنهم فى نظر السلطة أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يوماً ما لميلهم للعلويين وانهم ليترقبونها فى غالب الاحيان فهم دائماً فى حذر وكان مالك ممن انضم لجانب العلويين وأخذ العلم عن الامام الصادق عليه السلام ، وأفتى بوجوب الخروج مع محمد ، فأهين لذلك وناله الأذى وتعصب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة فى المجتمع ، ولحظت السلطة أهمية مكانته فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجه اليه المجتمع طوعاً أو كرهاً ، فاصبح محترماً الى أبعد حدود الاحترام .

ويعطينا الامام الشافعى صورة عن عظيم منزلته ، عندما دخل المدينة يحمل الى واليها كتاباً من والى مكة توصية منه بالشافعى ، ويطلب منه ايصاله الى مالك قال الشافعى : فابلغت الكتاب الى الوالى فلما أن قرأه قال : يا فتى ان المشي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً راجلا أهون على من المشي الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه ، قال الشافعى : فقلت اصلح الله الأمير ان رأى يوجه اليه ليحضر ، قال هيهات ليت انى اذا ركبت انا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا قال :

فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال ، فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت الينـــا جارية سوداء فقال لها الأمير قولى لمولاك انى بالباب قال : فدخلت فابطأت ثم خرجت فقالت ان مولاى يقرؤك السلام ويقول ان كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرفت فقال : قولى له ان معى كتاب والى مكة اليه فى حاجة مهمة قال فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته ثم اذا انا بمالك قد خرج وعليه المهابة فرفع اليه الوالى الكتاب (١) .

ونحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين نجد الفرق بينا فنراه فى عهد أحد الولاة مغضوبا عليه يسحب ويجرد من ثيابه ويضرب خمسين سوطاً ويهان ، ونراه فى العهد الثانى يتهيب الوالى أن يكلمه . فمالك فى حاليه يعطينا درساً فى معرفة أغراض السياسة مع رجال الامة وان لها الوانا من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمغريات .

والغرض ان نجم مالك بزغ بذلك الافق فاصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم وأفقه كربيعة الرأى (٢) وغيره ، فامتاز

---

(١) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٧٥

(٢) ربيعة بن عبد الرحمن بن فروخ التيمى ابو عثمان المدنى الفقيه المعروف بربيعة الرأى روى عن أنس والسائب بن يزيد وابن المسيب وعنه سليمان التيمى ويحيى بن سعيد القطان وسعيد والليث وخلق كثير . وكان أبوه فروخ خرج فى البعوث الى خراسان أيام بنى امية وربيعة حمل فى بطن امه فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال يا عدو الله اتهجم على منزلى ، فقال فروخ : ياعدو الله أنت دخلت على حرمى فتوائبا حتى اجتمع الجيران وكثر الضجيج فبلغ مالك بن أنس فقال مالك : ايها الشيخ لك سعة فى غير هذه الدار فقال الشيخ هى دارى وامافروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقال هذا زوجى وهذا ابنى الذى خلفه وانا حامل به فاعتنقا جميعاً . قال سوار بن عبد الله : مارايت أحداً اعلم من ربيعة الرأى قيل ولا الحسن وابن سيرين ؟ قال : ولا الحسن وابن سيرين ، وقال مالك ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأى وكانت وفاته فى سنة ١٣٦ هـ بالهاشمية ودفن هناك وقيل سنة ١٣٣ .

بتلك المنزلة واكتسبت شخصيته ابراد العظمة ، وحاول العباسيون ان يجعلوا منه مرجعاً عاماً للامة فى الفتوى ولكنها محاولة لم تنجح ، عندما أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر فكلمه مالك فى ذلك وامتنع فقال المنصور : ضعه فما أحد اليوم أعلم منك (١) فوضع الموطأ .

وهذه الكلمة لها مكانتها فى نظر الاعتبار ، فالمنصور حينما يعلن بان مالكا اعلم الناس ويلزمه بوضع كتاب تصادق عليه الدولة فيكون نظامها المتبع وتطلب الالتحاق بقافلة الدين - وما أبعدها عن ذلك - فمن يستطيع أن يتخلف عن الاعتراف بمنزلة مالك وأنه أعلم الامة ؟

والرشيد يأمر عامله على المدينة بان لا يقطع أمراً دون مالك ، وكان الرشيد يجلس على الارض امامه لاستماع حديثه (٢) .

كيف لا يكون لمالك ظهور وسمعة ومنادى السلطان يهتف أيام الحج : أن لا يفتى إلا مالك . فاصبحت له مكانة فى المجتمع وهيبة فى النفوس ، وتقرب الناس اليه بشتى الوسائل ، والتفوا حوله ، وتزاحموا على مجلسه الذى عين له وقتاً خاصاً فى يوم معين يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث ، وأخذ الفتيا ، وله كاتب بين يديه يقرأ للناس وليس لأحد أن يدنو منه ولا ينظر فى كتابه ولا يستفهمه فى شىء ، وبذلك لا يستطيع أحد مناقشته وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره .

قال اسماعيل الفزارى : دخلت على مالك وسألته ان يحدثنى فحدثنى اثنى عشر حديثا ثم امسك ، فقلت : زدنى اكرمك الله وكان له سودان قيام على رأسه فاشار اليهم فأخرجونى من داره (٣) .

---

(١) شرح الموطأ الزرقانى ج ١ ص ٨ (٢) مناقب مالك الزاوى

(٣) الانتقاء ج ٢ ص ٤٢

ولا ريب ان هذه المعاملة من مالك تبعثنا على التساؤل وهو انه لم يضن على الناس بما ينفعهم من احاديث نبوية وارشادات تربوية ؟ وهذا الوضع منه لا شك أنه من الطراز المستغرب .

ويحدثنا أبو بكر بن عبد الله الصنعانى قال : اتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأى فكنا نستزيده فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعة وهو نائم فى ذاك الطاق ؟ فاتينا ربيعه فقلنا : كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟ فقال : اما علمتم ان منقالا من دولة خير من حمل علم (١) .

ومهما يكن من أمر فقد اسعده الحظ فكان له شأن ولمذهبه قبول ولكتابه منزلة حتى قالوا : ما على ظهر الارض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك . وفى لفظ آخر ما على الارض كتاب هو أقرب الى القرآن من كتاب مالك .

وكان انتشار مذهبه على ايدى القضاة والملوك ، وقد انتشر بالاندلس بسبب حمل ملك الاندلس الناس عليه بالقهر لما بلغه كلام من مالك فى مدحه عندما سئل عن سيرة الملك فى الاندلس فذكر له عنها ما اعجبه فقال : نسأل الله تعالى ان يزين حرمنا بملككم . فلما بلغ قوله الى الملك حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الاوزاعى وهذا من اقوى عوامل الانتشار ودواعى الظهور والسمعة واقبال الناس عليه اتباعاً للسلطان وخضوعاً للسلطة بدون تمييز لما هو الارجح والاولى .

وقد نشر مذهب مالك فى افريقيا القاضى سحنون ، يقول المقريزى : ولما ولى المعز باديس حمل جميع أهل افريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ماعداه فرجع أهل افريقيا وأهل الاندلس كلهم الى مذهبه رغبة فيما عند السلطان ، وحرصا على طلب الدنيا إذ كان القضاء والافتاء فى جميع تلك المدن لا يكون

---

(١) طبقات الفقهاء لابن اسحاق ص ٤٣

إلا لمن تسمى بمذهب مالك ، فاضطرت العامة الى احكامهم وفتاواهم ففشى هذا المذهب هناك .

وبذلك نستدل على ان سيره وانتشاره لم يكن على حسب نظامه الطبيعي وإنما سار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصر ، كما ان انتشاره بالمغرب الاقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان ، وخضوعا لما افترضوه على الناس ، ولم يكن ثبوته مستقلا بروحانيته عن تأثر السلطة التنفيذية فان دولة بني تاشفين قامت في الاندلس في القرن الخامس وتولى ثانيهم علي بن يوسف بن تاشفين فعظم امر الفقهاء ، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك ، فنفقت في زمنه كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث الرسول ﷺ ، فلم يكن أحد يعتني بهما كل الاعتناء .

وما ذلك إلا من اختراع السياسة لأمور كان الاصلح للامة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها ، اذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح امرها ما دام مفروضا عليها امر معيناً من قبل السلطان وهي تجهل ذلك وبهذه المؤثرات انتشر مذهب مالك بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي فله اسوة به وإذا ما قصرت خطاه في بعض الاماكن فبمجرد تولي القضاء المالكي من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه ويشتد اقبال الناس عليه وتمسكهم به ، لذلك أنه لما حمل ذكره في المدينة مدة من الزمن فبمجرد أن تولى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خموله ، فيظهر لنا ان الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد والواقع بل أن في الأمة ضعفاء قلدوا الأقوياء بأهم أمر وكان الاجدر استقلالهم بمعرفته ، وأخذهم له من أهله ، وانى لهم ذلك وكل سلطة تحاول ان تجعل امورها ذات صبغة دينية ، وأمر التشريع بيد قضاة صارعتهم

الدنيا فصرعتهم إلا من عصم الله وقليل ما هم .

قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى مبدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب ابى حنيفة فانه لما ولى ابو يوسف القضاء كان لا يولى قاضياً إلا من أصحابه والمنتسبين اليه والى مذهبه .

والثانى مذهب مالك عندنا فى الاندلس فان يحيى بن يحيى (١) كان مكيناً عند السلطان مقبولا فى القضاء ، فكان لا يولى قاضياً فى أقطار الاندلس إلا بمشورته واختياره ولا يسير إلا باصحابه والناس سراع الى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم (٢) .

وقال شاه ولى الدهلوى : وأى مذهب كان أصحابه مشهورين واسند اليهم القضاء والافتاء واشتهرت تصانيفهم فى الناس ، ودرسوا درساً ظاهراً انتشر فى أقطار الأرض ، وأى مذهب كان اصحابه خاملين ولم يولوا القضاء والافتاء ، ولم يرغب فيهم الناس اندرس مذهبهم بعد حين .

وهذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرخين والعلماء حتى لقد شاع بين الناس قولهم (إن الناس على دين ملوكهم) وقد مر فى مطاوى هذا البحث تنويه به واشارة اليه .

---

(١) هو ابو محمد يحيى بن يحيى الاندلسى ويعرف بابن عيسى سمع مالك بن انس وجمع مسائله وكتب سماع بن القاسم عن مالك ثم انصرف الى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلا فاقام بالمدينة الى ان توفى مالك وقدم الى الاندلس وخالف مالكا فى كثير من المسائل قال أحمد بن خالد لم يعط أحد من أهل العلم بالاندلس منذ دخلها الاسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما اعطيه يحيى بن يحيى توفى سنة ٢٣٣

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١١٦

المذهب الشافعي :

كان ظهوره أولا بمصر وكثر أصحابه بها وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان ودخل شيء منه الى افريقيا والاندلس بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وقويت شوكته وعظمت شهرته فى عهد الدولة الأيوبية التى كانت تتسم سمة شافعية وبذلوا جهدهم فى نصرته ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم ، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة فى عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، وكان المذهب يدرس فى الجامع الأزهر وغيره فابطل صلاح الدين درسه فيه واحيا مذهب الشافعى وابى حنيفة ومالك وبنى لهم كثيراً من المدارس ورغب الناس فيها بالأوقاف التى حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا فى تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب .

وكان انتشار مذهب الشافعى بعد صلاح الدين اكثر من غيره لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعى ، وقد نجح الشافعى فى بدء أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك حتى تعصب عليه المالكية لأنه كاد ان ينسى الناس مذهب مالك الى ان آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب كما يأتى بيانه .

وكان سبب نجاحه مؤازرة بنى عبد الحكم له فان لهم مكاناً رفيعاً بمصر ومنزلة سامية وجاهاً عظيما ، وقد وازره ابو محمد عبد الله بن الحكم بن اعين بن الليث وكان عالماً عاقلا متحققاً بمذهب مالك واليه أفضت الرياسة بعد أشهب فلما نزل الشافعى عليه اكرم مثواه وبلغ الغاية فى بره ومات الشافعى فى بيته فاعتنق

مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه مع ان الشافعي لن يعدم رعاية السلطان هناك فانه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتاباً لواليه على مصر يوصيه به ويلزمه بعنايته ووقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر .

وكان قدوم الشافعي الى مصر في سنة ١٩٨ هـ ويقال انه جاء مع أميرها عبد الله ابن العباس بن موسى العباسي فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبني عبدالحكم والربيع بن سليمان وابي ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني والبويطي وكتبوا عنه ونشروا مذهبه .

المذهب الحنبلي :

ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمناً فى الحدوث وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جداً ولم ينل شهرة غيره من المذاهب ، وظهر فى مصر فى القرن السابع بين أفراد معدودين ولكنه انتشر بعد فترة قصيرة عندما تولى القضاء عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازى فلقد زاد انتشاره هناك وذلك فى سنة ٧٣٨ هـ .

قال ابن خلدون : فاما احمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد واصالته فى معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث .

وعداد أحمد بن حنبل عند القدماء أنه من أهل الحديث لا الفقهاء ولذا لم يعد مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء وكان ابن جرير يقول : انه رجل حديث لا رجل فقه ، وعده المقدسى كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء ، ولم يذكره ابن قتيبة فى معارفه فى عداد الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر فى كتابه الانتقاء على ذكر مالك والشافعى وابى حنيفة .

والحاصل أن المذهب الحنبلى أقل المذاهب انتشاراً وقد عدّ متبعوه هذه القلة فخراً . نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان متبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك ، وقد أصبحوا فى زمن ما ولهم قوة استطاعوا بها ان يقلقوا بال الحكومة ، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ولكنهم تستروا بذلك فكانت صولتهم عظيمة واوقعوا فى سائر المذاهب التى تخالفهم ماتشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى ، وقضت الحكومة على تلك الحركات غير المنظمة وضيقوا دائرة اتساع دعوتهم .

ولم ينل المذهب الحنبلى قوة أنصار ورجال دعوة إلا فى البلاد النجدية فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابى وان كان مذهب أحمد وشهرته اندكت الى جانب شهرة الوهابى ومذهبه ولا ينكر مالابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية من الفضل فى انتشار المذهب ونشاطه وهما فى الحقيقة ابطال دعوته وعنهم أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد . ومع ذلك فان معتنق هذا المذهب هم اليوم اقل عدداً بالنسبة الى معتنق المذاهب الأخرى فى العالم الاسلامى .

* * *

وبهذه الاسباب وعوامل الترغيب التى اتخذها اولئك الامراء وذووا النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامة فى الصيت والشهرة ، ماجعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية فى الرأى ، وظلت حقيقتها غامضة إذ لا يمكن استكشافها . فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه وكان عدم تدخل الحكومة فى مثل هذه الامور أعود على الامة وأصلح لدينها ودنياها فتدخلها فيه قد جر الامة الى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهبت ضحيتها نفوس بريئة تدين لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالنبوة وقد أدت الخلافات الى فرقة وتباعد مما كدر صفو الامة ورماها بالشتات بعد الألفة ، وبالعداء بعد الأخوة .

وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير فى التدليل على ما فى هذا الالتزام من النقص وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان ، فوقوف التشريع الاسلامى وانحصاره بأقوال الأربعة إنما هو تحجير للفكر ،

وجمود للتشريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة ، الذين يريدون أن يطبعوا أعمالهم بطابع الدين وماهم من الدين فى شىء الا قضاء مآربهم ، على ان الأئمة الأربعة أنفسهم لا يعرفون هذا ويفتون بضده ، فاقوالهم تدل على عدم الالتزام بقول أحـــد هذا مالك بن أنس يقول : « إنما أنا بشر اصيب واخطىء فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة » ويقول ابو حنيفة : « هذا رأيى وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأى خلافه قبلناه » ويقول الشافعى : « اذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط » ويقول أحمد : « من ضيق علم الرجل ان يقلد دينه الرجال » وقال : « لا تقلد دينك الرجال فانهم لم يسلموا من أن يغلطوا » ، كما سنبين ذلك قريباً .

وكيف كان فقد استطاعت المذاهب الاربعة أن تخطو الى ساحة الرقى وتكتسب قيمتها المعنوية ، لانها موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين بالرغم مما رافقها من خلافات ومنافرات ، وان عناية السلطة تكسب الشىء لوناً من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعى . فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخـــذ بالتوسع شيئاً فشيئاً ، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها .

ثم كان بعد هذا ما هو أدهى وأمر فانه فى سنة ٦٤٥ هـ أحضر مدرسو المدرسة المستنصرية الى دار الوزير . فطلب منهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شىء منها ، بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدبا معهم ، وتبركا بهم . فاجاب جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزى الحنبلى بالسمع والطاعة . وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحى المالكى : ليس لاصحابنا تعليقة ، اما النقط من مسائل الخلاف فما ارتبه .

وقال شهاب الدين الزنجانى الشافعى وأقضى القضاة عبدالرحمن بن اللمغانى

الحنفى : إن المشايخ كانوا رجالا . ونحن رجال . فاوصل الوزير ما اجابوا به الى المستعصم ، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فاحضرهم أمامه ، وطلب منهم جميعاً ان يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم ، فاجابوه جميعاً بالسمع والطاعة ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بانفسهما .

وقال المقريزى : فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى ولى بمصر أربعة قضاة وهم شافعى ، ومالكى ، وحنفى ، وحنبلى ، فاستمر ذلك من سنة ٦٦٥ حتى لم يبق فى مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة ، وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط فى سائر ممالك الأسلام ، وعودى من تمذهب بغيرها ، وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والأمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاء الامصار فى طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدى أحد علماء الازهر فى كتابه ميدان الاجتهاد :

« فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم فى القهر لا تجديهم ، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم ، فيتولوا أمره بانفسهم ، ليربوا العلماء على الخضوع لهم . ويملكوهم بالمال من أول أمرهم ، وكانت الامة هى التى تتولى أمر التعليم بعيداً عن الحكومة ، كما تتولاه الآن الأمم الراقية فى اوربا وامريكا ، فيقوم فى المساجد حراً لا يخضع لحكم ملك أو أمير ، ويتربى العلماء بين جدرانها أحراراً لا يراقبون إلا الله فى عملهم ، ولا يتأثرون بهوى حاكم ، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم ، فاراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم ، ويتولوا بانفسهم أمر التعليم بين المسلمين ، فاخذوا ينشئون

له المدارس بدل المساجد ، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها ، ويجعل لهم سلطانا عليهم ، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا فى سنتهم ، حتى صار التعليم خاضعاً للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية ، وكان لهذا أثره فى نفوس العلماء ، فنزلوا على ارادة الملوك ولم تقو نفوسهم على مخالفتهم فى رأيهم ، أو توجيه شىء من النصح اليهم ، وكانت المدرسة البيهقية أول ما انشئت من تلك المدارس ، وهى منسوبة الى البيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ثم انشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور ، انشأها الامير نصر بن سبكتكين ، ثم انشئت بعدها النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك سنة ٤٥٩ هـ وقد احتفل بافتتاحها احتفالا عظيما . . . » .

الى أن يقول : « ثم جاء صلاح الدين الايوبى لمصر ، فقام بانشاء المدارس فيها للتعليم ، وأنشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعى سنة ٥٦٦ ثم انشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ بجوار الامام الشافعى وجعل لناظرها أربعين ديناراً فى كل شهر ، ورتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز وراويتين من ماء النيل ، ثم أنشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسينى ، وجعل دار العباس العبيدى مدرسة للحنفيين » .

وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها الى أحياء مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، ورغب الناس فيها بالأوقاف التى حبسها عليها ، فرغبوا فيها وأخذوا فى تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب .

وقد جاء المستنصر العباسى(١) بعد هذا فانشأ فى بغداد المدرسة المستنصرية

---

(١) هو ابو جعفر منصور بن الظاهر ولد سنة ٥٨٨ هـ وبويع له سنة ٦٢٣ هـ وتوفى سنة ٦٤٠ هـ .

سنة ٦٢٥ هـ ، وانفق فى بنائها أموالا لا تحصر حتى تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، فاحتفل بافتتاحها احتفالا عظيما حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة ، وكذلك الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء ، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ورتب لها مدرسين ونائبي تدريس ، وكان المدرسان محى الدين محمد بن يحيى بن فضلان الشافعى ، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغانى الحنفى ، وكانا نائبا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزى ، وأبا الحسن عليا المغربى ، وجعل لها ستة عشر معيداً ، أربعة لكل مذهب ، وجعل ربع القبلة الأيمن للشافعى ، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية ، وجعل الربع الذى على يمين الداخل للحنابلة ، وجعل الربع الذى على يساره للمالكية ، وقد شرط المستنصر فى وقفه عليها ان يكون عدد فقهائها مائتين وثمانية وأربعين من كل طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة ، والجراية الدارة ، واللحم الراتب الى غير هذا من وسائل الترغيب فى هذه المذاهب .

فاقبل الناس على دراستها واهملوا غيرها من المذاهب التى لم يقدر لها مثل هذه الاوقاف المغرية » .

وهكذا اخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الاربعة فى مثل هذه المدارس ويسمعون فى خلال دراستهم طعوناً على اى مذهب آخر فيمتلئون حقداً على من لم يترك مذهبه لينتسب الى احد هذه المذاهب الاربعة .

خلاصة البحث :

ظهر لنا مما سبق أن العامل الأساسى لتكوين الالتزام بمذهب معين ، وعدم الترخص فى استنباط الاحكام الشرعية إنما هو السلطة ، وأن بقاء هذه المذاهب إنما يكون بتلك الوسائل المشجعة ، حتى كثر أنصارها . ولو قدرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقى لها جمهور يقلدها أيضاً ، ولكانت مقبولة عند من ينكرها ، ولكنها عدمت رعاية السلطة فمحيت من الوجود إذ لا قابلية لها فى ذاتها على البقاء بقوتها الذاتية .

وقد فاز المذهب الحنفى بتشجيع أكثر من غيره . فهو فى العصر العباسى المذهب الذى ترجع الدولة اليه فى مهمات التشريع ، ورآسة القضاء بيد أهل الرأى ، لم يشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب ، وبعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الاتراك عندما أرادوا انطباق إسم الخلافة الاسلامية عليهم لان من شروطها : أن يكون الخليفة قرشياً طبقاً للحديث « الخلافة فى قريش » والحنفية لا يشترطون هذا الشرط ، وأول من تولى الخلافة الاسلاميه من غير قريش السلطان سليم الفاتح وصحح الحنفية هذه الخلافة وحجتهم ان الخليفه يتولى الخلافة بخمسة حقوق (١) حق السيف (٢) حق الانتخاب (٣) حق الوصاية (٤) حماية الحرمين (٥) الاحتفاظ بالامانات . وهى المخلفات النبوية المحفوظة فى الاستانة وهم يقولون : إن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر فى بغداد فحملها الخليفة العباسى الى القاهرة

حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية فى صندوق من الفضة وهى البردة النبوية ، وسن من أسنان النبي وشعرات من شعره ونعاله ، وبقية من العلم النبوى وإناء من حديد وجبة الامام أبى حنيفة (١) .

وبهذا الشكل صارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنباً لجنب ، إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاة ورغبة السلطة ، حتى كثر التحول من مذهب الى مذهب تقربا للسلطان وطلباً لرفده ، وتحول كثير من الشافعية الى الحنفية لأجل الدنيا ، وذلك أن الامير بلبغا ابن عبد الله الخاصكى الناصرى الامير الكبير صاحب النفوذ والصولة كان يتعصب لمذهب ابى حنيفة ، ويعطى لمن تحول اليه العطاء الجزيل ، ورتب الجامكيات الزائدة ، وحاول فى آخر عمره أن يجلس الحنفى فوق الشافعى (٢) .

وانتقل أبو البركات الحنفى الى مذهب الحنبلى فآذاه الحنفية فانتقل الى مذهب الشافعى فقال المؤيد التكريتى فى هجائه :

ألا مبلغ عنى الوزير رسالة ... وإن كان لا تجدى اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى تديناً ... ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر ... الى مالك فافهم لما أنا قائل (٣)

وهذا أبو بكر البغدادى الحنبلى تحول شافعياً لأجل الدنيا ، وولى القضاء ، وكان ابو المظفر يوسف بن قزغلى سبط ابن الجوزى حنبلياً نقله الملك المعظم الى مذهب أبى حنيفة (٤) .

---

(١) التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٠٩
(٢) شذرات الذهب ج ٦ ص ٢١٣
(٣) مرآة الجنان ج ٤ ص ٣٤
(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٧

وخلاصة القول أن تلك الوسائل المشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس الى الرغبة فيها والاعراض عما سواها ودعت اكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف وتعطيل موهبة الاجتهاد .

قال الشيخ أبو زرعة : قلت مرة لشيخنا البلقيني ما يقصر بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الاجتهاد وقد استكمل الآلة وكيف يقلد ؟ ولم أذكره هو استحياء منه ولما اريد أن أرتب على ذلك .

فسكت عني ، ثم قلت : ما عندي ان الامتناع من ذلك إلا للوظائف التي قررت للفقهاء على المذاهب الأربعة وإن من خرج عن ذلك لم ينله شيء وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس من استفتائه ونسب الى البدعة فتبسم ووافقني .

ومن هنا قويل مذهب أهل البيت بتلك الهجمات العنيفة والحملات الظالمة واصبح الشيعة المتمسكون بمذهب اهل البيت عرضة لكل خطر وغرضاً للتهم واصبح الشيعي في نظر اتباع السلطة خارجاً عن الاسلام مفارقاً لجماعتهم ولكن الشيعة ثبتوا على اخذ تعاليم الرسول ﷺ في احكام الاسلام من طريق اهل البيت لانهم عدل القرآن والتمسك بهم من دعائم الاسلام ففي اتباعهم الهدى وهم كسفينة نوح وباب حطة .

وبذلك تحملوا ماتحملوا في سبيل المحافظة على وصاية النبي في آله وساروا على نهجهم وبقي باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ومدرستهم مستقلة عن تاثر السلطة .

ونرى من الخير ان نتعرض لذكر الاراء حول الاجتهاد والتقليد في نقل اقوال السلف وبعض المعاصرين بايجاز وللتفصيل محل آخر .

وأستطيع أن أقول إن هذا هو الصواب والكل يوافق الشيخ على هذا

الرأى وإلا فماهو الداعى لغلق باب الاجتهاد ، وفتحه أعود على الأمة وأجمع لشملها ؟ وها نحن نقدم بين يدى القارىء بعض أقوال العلماء فى عدم الدليل على وجوب التقليد وانه نظام ليس على كثير من العدل ولا قليله .

فلننتقل الى البحث عن الاجتهاد والتقليد مقتصرين على نقل أقوال بعض السلف ومن المعاصرين ممن تحضرنا كلماتهم الآن وفى ذلك تتجلى حقيقة غلق باب الاجتهاد ، ولأى أمر الزم المسلمون بالجمود .

بين الاجتهاد والتقليد :

إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة .
مالك بن أنس

إذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى الحائط .
الشافعى

هذا رأيى وهذا أحسن مارأيت فمن جاء برأى غير هذا قبلناه . حرام على من لم يعرف دليلى ان يفتى بكلامى .
ابو حنيفة

من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال ، لا تقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من أن يغلطوا . وقيل له لم لا تضع لاصحابك كتابا فى الفقه ألاحد كلام مع كلام الله ورسوله ؟
أحمد بن حنبل

لا يجوز ترك آية أوخبر صحيح لقول صاحب أو إمام ومن يفعل ذلك فقد ظل ظلالا مبيناً وخرج عن دين الله .
محى الدين ابن العربى

لم يبلغنا أن أحداً من السلف أمر أحداً أن يتقيد بمذهب معين ، ولو وقع ذلك منهم لوقعوا فى الاثم ، لتفويتهم العمل بكل حديث لم يأخذ به ذلك المجتهد الذى أمر الخلق باتباعه وحده ، والشريعة حقيقة إنما هو بمجموع ما بأيدى المجتهدين كلهم لابيد مجتهد واحد ، ومن أين جاء الوجوب والأئمة كلهم قد تبرأوا من الأمر باتباعهم ، وقالوا : إذا بلغكم حديث فاعملوا به واضربوا بكلامنا الحائط .
الشعرانى

سئل الشيخ تقي الدين بن تيمية عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب وتبصر فيه واشتغل بعده بالحديث فوجد احاديث صحيحة ، لايعلم لها ناسخاً ولا مخصصاً ولا معارضاً ، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث فهل له العمل بالمذهب ، أو يجب عليه الرجوع الى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ فاجاب بما هذا نصه :

الحمد لله رب العالمين قد ثبت في الكتاب والسنة والاجماع أن الله افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجب على هذه الامة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ، ونهى عنه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان صديق الامة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ورضى الله عنه يقول : اطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم . واتفق كلهم على أنه ليس أحد معصوماً في كل ما أمر الله به ونهى عنه إلا رسول الله ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام . وهؤلاء الأئمة الأربع رحمهم الله تعالى أجمعين قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولون ، وذلك هو الواجب ، قال الامام أبو حنيفة : هذا رأيي وهذا أحسن مارأيت فمن جاء برأي خير منه قبلناه .

ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه ابو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ومسألة الاجناس ؟ فاخبر مالك بما دلت عليـــه السنة في ذلك . فقال ابو يوسف : رجعت لقولك يا ابا عبد الله ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . ومالك رحمه الله كان يقول : انما انا بشر أصيب واخطيء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة أو كلام هذا معناه ، والشافعي رحمه الله كان يقول إذا صح الحديث بخلاف

قولى فاضربوا بقولى الحائط ، وإذا رأيت الحجة موضوعة على طريق قولى(١)

من حصر فضل الله على بعض خلقه ، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره ، فقد تجرأ على الله عز وجل ، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده الذين تعبدهم بالكتاب والسنة ، فاذا كان التعبد بهما مختصاً باهل العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء المتأخرين إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة كتاب الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة ، والمقالة الزائفة ، وهل النسخ إلا هذا ؟ سبحانك اللهم هـــذا بهتان عظيم . ! !

حسن خان

ليس على الانسان التزام مذهب معين ، وانه لا يجوز له العمل بمايخالف ما عمله على مذهبه مقلداً فيه غير إمامه مستجمعاً شروطه ، ويعمل بامرين متضادين فى حادثتين لا تعلق لواحدة منهما بالأخرى وليس له إبطال عين ما فعله بتقليد إمام آخر لأن إمضاء القاضى لا ينقض (٢) .

ابن عابدين

إعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه ، وفى التقليد إبطال منفعة العقل ، لانه إنما خلق للتدبر ، وقبيح بمن اعطى شمعة يستضىء بها أن يطفئها ويمشى فى الظلمة ، واعلم أن عموم اصحاب المذاهب يعظم فى قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال ، لأن النظر ينبغى ان يكون الى القول لا الى القائل (٣) .

جمال الدين بن الجوزى

إعلم انه لم يكلف الله احداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً ، أو حنبلياً ، بل اوجب عليهم الايمان بما بعث به محمداً ﷺ

---

(١) جلاء العينين للالوسى ص ١٠٧

(٢) نفس المصدر .

(٣) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص ٨١

والعمل بشريعته (١) .

عبد العظيم المكى

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف احدهم على ضعف قول إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك مقلد فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة والاقيسة الصحيحة لمذهبهم ، جموداً على تقليد امامه ، بل يتحيل لظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة ، نضالا عن مقلده ، ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء الى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فان أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الادلة ، مقلداً فيما قال كأنه نبي ارسل ، وهذا نأى عن الحق ، وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولى الألباب (٢) .

عز الدين عبد السلام

ينبغى لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على إمام ، ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب الى دلالة الكتاب والسنة المحكمة وذلك سهل عليه ، وليتجنب التعصب والنظر فى طرائق الخلاف ، فانها مضيعة للزمان ، واصفوه مكدرة ، فقد صح عن الشافعى أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره (٣) .

الشيخ أبو شامة

إن قفل باب الاجتهاد معناه الضربة القاضية على حرية الفكر ، بل على الاسلام الذى قلنا إنه جاء للناس كافة ، ليساير مختلف العصور والشعوب والآن بعد سير الف سنة سار خلالها المسلمون جامدين (١) .

محمد على مؤلف كتاب الدين الاسلامى

---

(١) رسالة القول السديد ص ٣

(٢) رسالة الانصاف .

(٣) انظر دائرة للمعارف لفريد وجدى ج ٣ ص ٢٤٨

(٤) مجلة المسلم .

وإنى استطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة ، وبوسائل القهر والاغراء بالمال . ولا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة التى نقلدها الآن لبقى لها جمهور يقلدها أيضاً ، ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها ، فنحن إذاً فى حل من التقييد بهذه المذاهب الأربعة التى فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة ، وفى حل من العود الى الاجتهاد فى أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطرق القهر ، والاسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين كما قال تعالى فى الآية (٣٨) من سورة الشورى « وأمرهم شورى بينهم » (١) .

عبد المتعال الصعيدى أحد علماء الأزهر

رأى بعض المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة ، بحيث يأنفون أن تنسب الى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم حتى اذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد ، وتكلم فى المسائل ، ولم يرتبط إلى إمامهم رموه بالنكير ، وفوقوا اليه سهام النقد ، وعدوه من الخارجين عن الجادة والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل ، بل بمجرد الاعتبار العامى ، ولقد لقى بقى بن مخلد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق من هذا الصنف الأمرّين حتى أصاروه مهجور الفناء ، مهتضم الجانب ، الى أن يقول وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك بحيث أنكروا ما عداه ، وهذا تحكيم الرجال على الرجال ، والغلو فى محبة المذاهب (٢) .

الشاطبى

بأى نص سد باب الاجتهاد ، أو أى إمام قال : لا ينبغى لأحد من

---

(١) ميدان الاجتهاد ص ١٤

(٢) الاعتصام ج ٣ ص ٢٥٩

المسلمين بعدى أن يجتهدوا ليتفقهوا فى الدين ، أو ان يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجد ويجتهد بتوسيع مفهومه ، والاستنتاج على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ، ولا ينافى جوهر النص ان الله بعث محمداً رسولا بلسان قومه العربى ليعلمهم ما يريد افهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم .

ولا ارتياب بأنه لو فسح فى أجل ابى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وعاشوا الى اليوم لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم زادوا فهما وتدقيقاً ، نعم أن اولئك الفحول من الأئمة ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا فجزاهم الله خير الجزاء ، ولكن لا يصح أن نعتقد انهم احاطوا بكل أسرار القرآن وتمكنوا من تدوينها فى كتبهم (١) .

جمال الدين الافغانى

منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين ، وهذا هو الباب المرن الذى عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم ، فاضحى ما وضعه السابقون لا يمكن ان يغير ويبدل لأنه لاعتبارات سياسية .

منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم ، ويطمئنوا الى أنه لن يعارضهم معارض ، واذا ماعارضهم أحد - لأنه لاتخلو أمة من الامم إلا وفيها المصلح النزيه ، والزعيم الذى لايخشى فى الحق لومة لائم فلن يسمع قوله - لأن باب الاجتهاد قد اغلق . لهذا جمد التشريع الاسلامى الآن ، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الامة ، وإنى ارجع الفتنة الشعواء ، التى حصلت فى عهد الخليفة عثمان والتى كانت سبباً فى وقف الفتح الاسلامى حيث تحولت فى عهده الحرب الخارجية الى حرب داخلية - ارجع ذلك - الى ان

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ١٧٧

عثمان كان من المحافظين ، وقد شرط ذلك على نفسه ، عندما وافق عبد الرحمن ابن عوف على : « لزوم الاقتداء بالشيخين فى كل ما يعنى دون اجتهاد » عند انتخابه خليفة ولم يوافق الامام على على ذلك حينئذ قائلا : ان الزمن قد تغير . فكان سبب تولى عثمان الخلافة هو سبب سقوطه (١) .

الدكتور عبد الدائم البقرى الانصارى

كم بين دفتى التاريخ من احزاب سياسية استحالت الى مذاهب دينية ، رب مغفل أرعن يحقد على اخيه لاختلاف مذهبهما اختلافا فى الفروع منشؤه الاجتهاد ، ولا يذكر ان كلمة التوحيد التى تجمعه واخاه على خطر عظيم ، وان حقده هذا يزيده خطراً .

الاجتهاد مجلبة اليسر ، واليسر من اكبر مقاصد الشارع وأبدع حكم التشريع ، بالاجتهاد يتلاطم موج الرأى فينفذ جوهر الحقيقة على الساحل ، الحوادث لا تتناهى والعصور محدثات ، فاذا جمدنا على ما قيل فما حيلتنا فيما يعرض من ذاك القبيل ؟ سد باب الاجتهاد اجتهاد فقل للقائل به انك قائل غير ما تفعل (٢) .

العلامة العبيدى

* * *

هذه بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الاجتهاد الذى حدث فى ظروف خاصة ولمآرب سياسية ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف بل ساروا على طريقة اهل البيت واخذوا احكام الاسلام عنهم عليهم السلام .

ولقد الفت فى هذا الباب رسائل عدة لكبار العلماء ، وكلهم يندبون فى جمود التشريع على المذاهب الأربعة ويطلبون حل تلك العقدة التى عقدها ولاة

---

(١) الفلسفة السياسية للاسلام ص ٢١

(٢) النواة فى حقل الحياة ص ١٣٦

أمر لا يطلبون بذلك الا مصالح الدولة ، وقد أوضح العلماء أسباب هذا الجمود كالغزالى ، والعز بن عبد السلام وغيرهما من الأئمة الذين لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، فمنها بالنسبة الى بعضهم كالمباراة والمماراة ، وحب الظهور ، وما يتعلق بذلك ، ومنها المنافع ، والمرافق فى القضاء ، والافتاء ، والاوقاف بالنسبة الى آخرين .

ومنها الثقة والاطمئنان بالتربية العلمية على المذهب والاقتصار عليه فى التعليم والافتاء ، ومن طبع الانسان أن ما يعتاده زمناً طويلا يملك عليه امره ويؤثر فى نفسه تأثيراً يصرفها عن كل ما عداه ، إلا أصحاب العقول الكبيرة والنفوس العالية الذين تكون الحقيقة ضالتهم والصواب وجهتهم (١) .

* * *

أما الذين يحاولون الجمود ويلتزمون بالتقليد فانهم عجزوا عن الوصول الى رتبة الاجتهاد واقتنعوا بعناية السلطان على ما هم فيه من النقص ، فلا يروق لهم بلوغ أحد رتبة الاجتهاد ، ونسبوا مدعيه الى الجنون كما ذهب اليه الشيخ داوود النقشبندى ويرى ان مدعى الاجتهاد ضال مبتدع (٢) .

ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحيم : فى تقسيم طبقات المجتهدين : الطبقة الثالثة من نشأ من المسلمين من رأس المئة الرابعة ويجب على العامى تقليد المجتهد المنتسب لاغير ، « أى لاحد المذاهب الاربعة » لامتناع وجود المستقل من هذا التاريخ حتى اليوم ، ثم اورد على نفسه وأجاب واهم شىء يعتمد عليه فى ادلته ، قوله : انه اجتمعت الامة على ان يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة فلابد لنا من الرجوع اليهم ، ولا يرجع الا الى المروى عن السلف

---

(١) انظر الوحدة الاسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص ٢١٢

(٢) انظر كتاب أشد الجهاد للشيخ داوود النقشبندى .

بسند صحيح مدون فى الكتب المشهورة ، مع بيان الارجح من دلالتها ، وتخصيص عمومها أو تقييدها والجمع بين مختلفاتها ، ولا توجد هذه الخصوصيات الا فى المذاهب الاربعة ، وليس مذهب بهذه الصفة الا الامامية ، والزيدية وهم (أهل البدعة) (١) لا يجوز الاعتماد على اقاويلهم فتعين الأخذ باحد المذاهب الأربعة .

هذا أهم ما عندهم من الادلة . وذهب بعضهم الى القول بعصمة الاربعة مستدلا بعصمة النبي وهم ورثته فهم معصومون من الخطأ واذا كانوا كذلك فيجب الرجوع اليهم فحسب .

ولا حاجة بنا الى اطالة نقل اقوال المانعين لملكة الاجتهاد لعلماء الأمة بعد المذاهب الأربعة ، لانها حجج لقضية تبتنى على عدم لياقة اى أحد بعدهم لهذه الرتبة ، وان مدعيها ضال مضل بل ممن يريد فى الارض الفساد ، ويجب اقامة الحد عليه ، ومن ادعى من الامة تلك المنزلة أو كانت له لياقة استنباط الاحكام الشرعية شنعوا عليه ، ورموه بالنكير . فهذا العلامة جلال الدين السيوطى ادعى رتبة الاجتهاد المطلق قام عليه علماء عصره فرموه بالنكير ، ووقعوا فيه ، وكذلك انكروا على كل من ادعى ذلك .

والواقع ان فى القرون المتأخرة رجالا برهنوا بمؤلفاتهم على تلك الملكة التى ادعى استحالتها عليهم ، حتى فضلوا بعضهم على رؤساء المذاهب . فهذا ابو حامد احمد بن محمد الاسفراييني فضلوه على الشافعى ، وكثير منهم كانوا بمنزلة من العلم لا يستبعد اتصافهم بتلك الملكة .

كالشيخ عبد العزيز بن سلام المتوفى سنة ٥٧٨ هـ

والشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن

---

(١) رسالة الانصاف الدهلوى .

القزويني المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . واسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، ومحمد بن اسحاق صدر الدين القونوي المتوفى سنة ٦٧٣ هـ . وابراهيم ابن محمد بن ابراهيم الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ هـ .

وناهيك ما للقفال ، وامام الحرمين الجويني ، والصيدلاني ، والسبخي والسرخسي ، والجصاص ، من منزلة في العلم وموهبة في استنباط الأحكام ولكنهم الجموا من قبل العامة الذين رأوا ادعاء الاجتهاد ضلالة ، بل يتلبس مدعيها بتهمة التشيع لأنهم يقولون بذلك (١) .

وكان ابو الحسن الداركي أحد المجتهدين في عصره اذا سئل عن فتوى يجيب بعد تفكر ، فربما كانت فتواه مخالفة لمذهب الشافعي وأبي حنيفة فينكرون عليه ذلك ، فيقول : ويلكم روى فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ كذا وكذا ، فالاخذ به أولى من الأخذ بمذهب الشافعي ومخالفتهما أسهل من مخالفة الحديث .

ولقد لقي بقي بن مخلد من الأذى وشدة الانكار لدعوى الاجتهاد ماجعله مهجور الفناء ، مهتضم الجانب وكثير من أمثاله ، كابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم .

ولست أدري ما هذه الاستحالة وعدم الامكان من حصول درجة الاجتهاد والحكم على الرجال بالقصور والنقص وحصر الكمال في عدد معين بدون دليل ؟ ! ونرى من الخير تعريف الاجتهاد والتقليد عندهم اجمالا لنعرف مدى تحجير الافكار ووقوف العقل عن ادراك ذلك .

﴿ الاجتهاد ﴾ : وهو لغة بذل الوسع في مافيه كلفة ، مأخوذ - كما نقل ابن ابي زرعة عن الماوردي - من جهاد النفس وكدها في طلب المراد ، وفي

---

(١) انظر اشد الجهاد لمدعي الاجتهاد ص ٢٥

الأصطلاح : على ما فى جمع الجوامع استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم ، والفقيه والمجتهد لفظان مترادفان وهو البالغ العاقل أى ذو ملكة يدرك بها العلوم ، وهذه الملكة العقل .

قال ابو اسحاق : ومن كان موصوفا بالبلادة والعجز عن التصرف فليس من أهل الاجتهاد ، وفى انكاره للقياس خلاف وان يكون عارفا بالدليل العقلى وهو البراءة الاصلية ، وان يكون عارفا بلغة العرب وبالعربية وعلم النحو اعرابا وتصريفاً ، وباصول الفقه ليقوى على معرفة الادلة وكيفية الاستنباط ، وبالبلاغة ليتمكن من الاستنباط بحيث يميز العبارة الصحيحة من الفاسدة . وأن يكون عارفا بالكتاب والسنة ولا يعتبر العلم بجميعها ولا حفظها .

قال العلامة السبكى : المجتهد من هذه العلوم من له ملكة واحاطة بمعظم قواعد الشرع ، ومارسها بحيث اكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع ، ويعتبر على ماقيل كونه خبيراً بمواقع الاجتماع كيلا يخرقه ، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وشرط المتواتر والآحاد ، والصحيح والضعيف ، وحال المرويات وسير الصحابة ، ولا يشترط فيه الكلام ، وتفاريع الفقه ، والذكور والحرية ، وكذا العدالة على الأصح .

هذه هى شروط المجتهد عندهم ، وأنت لو نظرت الى الواقع لم تجد سبباً لمنعه من أجل قصور عن ادراكه لمن أراده ، وكم من العلماء من عرفنا عنه تمام المعرفة لهذه العلوم وزيادة ولكن المانع شىء آخر .

(والتقليد) هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله ، قال ابن ابى زرعة فى شرح الجوامع : وقد اختلف العلماء فى تقليد المفضول من المجتهدين مع التمكن من تقليد الفاضل على مذاهب ، أحدها وهو المشهور جوازه وقد كانوا يسألون الصحابة مع وجود أفاضلهم ، والثانى : منعه ، وبه قال الامام

احمد وابن سريج ، واختاره القاضى حسين وغيره ، والثالث يجوز لمن يعتقده فاضلا ، أو مساويا لغيره فان اعتقده دون غيره امتنع استفتاؤه ، وكذا اختلفوا فى تجويز تقليد الميت على أقوال أحدها : جوازه وبه قال الجمهور ، وعبر عنه الشافعى بقوله : المذاهب لا تموت بموت أربابها ، والثانى : منعه ، أى منع تقليد الميت مطلقاً ، وعزاه الامام الغزالى لاجماع الاصوليين واختاره الامام فخر الدين ، والثالث : يجوز مع فقد حى ولا يجوز مع وجوده انتهى ملخصاً . وقال الشيخ محى الدين فى الباب الثامن والثمانين من الفتوحات المكية : والتقليد فى دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حى ولا ميت ، انتهى فتدبر . وقال ابن عابدين الشامى : انه يجوز تقليد المفضول مع وجود الأفضل وبه قالت الحنفية والمالكية والشافعية واكثر الحنابلة ، وعن أحمد وطائفة كثيرة من الفقهاء : لا يجوز .

بين المذاهب

كان النزاع بين طوائف المسلمين إنما هو نزاع على ، واختلاف لا يتعدى حدود القول فى النقض لبعض ما ينهجه الطرف الآخر ، وسرت الأمور على هذا المنوال ولكن حركة الانشقاق تتسع وروح الاختلاف تسرى فى المجتمع بسرعة لقوة الدافع السياسى الذى يحاول ان لا تتفق الامة على رأى واحد فهو يعمل على احياء العصبية ، إذ لا حياة للنظام الملكى إلا بها » (١) .

ومضى عصر أئمة المذاهب وجاء دور اتباعهم فشغل كل بمذهبه الذى يرتضيه ، وتأصلت روح الخصومة وانحاز كل الى جهة بدون التفات الى ماوراء هذا التحيز من خطر على العلم فى ضياع حقيقته ، وسلب منافعه التى أراد الاسلام ان تسير الأمة على ضوء تعاليمه القيمة لاكتساب السعادة ، ولم يصل الامر الى تحديد الاخذ بمذهب معين لاغير والزام الناس بالاخذ عن المذاهب الاربعة فحسب إلا بعد مدة من الزمن كما سنبينه .

يقول الشاه ولى الدهلوى (٢) : اعلم ان الناس كانوا فى المئة الاولى والثانية غير مجتمعين على التقليد فى مذهب واحد بعينه ، بل كان الناس على درجتين : العلماء والعامة ، وكانوا فى المسائل الاجماعيه التى لا خلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل واحكام الصلاة ، والزكاة ونحو ذلك من آبائهم ، أو معلمى بلادهم فيمشون على ذلك ، واذا وقعت لهم واقعة نادرة

---

(١) فلسفة السياسة للاسلام ص ٢١ نقلا عن ابن خلدون .

(٢) رسالة الانصاف ص ٨ .

استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب .

واما العلماء فكانوا على مرتبتين : منهم من امعن فى تتبع الكتاب والسنة والآثار حتى حصل له بالقوة القريبة من الفعل ملكة تؤهله لفتيا الناس يجيبهم فى الوقائع غالباً بحيث يكون جوابه اكثر مما يتوقف فيه ويخص باسم المجتهد ، وهذا الاستعداد يحصل تارة باستفراغ الجهد فى جميع الروايات ، فانه ورد كثير من الاحكام فى الأحاديث وكثير منها فى آثار الصحابة والتابعين .

ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ، ذهبوا يميناً وشمالا ، وحدث فيهم امور منها : الجدل والخلاف فى علم الفقه وتفصيله ، على ماذكره الغزالى(١)

انه لما انقرض عهد الخلفاء الراشدين أفضت الخلافة الى قوم تولوها بغير استحقاق ، ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام ، فاضطروا الى الاستعانة بالفقهاء ، والى استصحابهم فى جميع أحوالهم ، وكان بقى من العلماء من الطراز الأول ، فكانوا اذا طلبوا هربوا واعرضوا ، فرأى أهل تلك الأعصار ـ غير العلماء ـ اقبال الأئمة عليهم مع اعراضهم ، فاشتروا طلب العلم توصلا الى نيل العز ، فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم ، إلا من وفقه الله ، وقد كان من قبلهم قد صنف ناس فى علم الكلام ، واكثروا القال والقيل والايراد والجواب وتمهيد طرق الجدال ، وقع ذلك منهم بموقع من قبل ان كان الصدور والملوك من مالت نفسه الى المناظرة فى الفقه من مذهب الشافعى

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالى نسبة الى غزالة قرية من قرى طوس ، الملقب حجة الاسلام صاحب كتاب احياء العلوم الذى نال شهرة عظيمة إلا انه أورد فيه خمسمائة حديث مرسل ليس لها طريق ولم يروها أحد ولم يخرجها الحفاظ وله مؤلفات كثيرة ومنزلته العلمية أشهر من أن تذكر ولد فى سنة ٤٥٠ هـ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ ودفن بالطابران فى طوس وكان فى عداد الشافعية إلا أنه مجتهد .

وأبي حنيفة ، فترك الناس الكلام وفنون العلم ، واقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وابي حنيفـــة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وزعموا ان غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب ، وتمهيد اصول الفتاوى ، واكثروا فيها التصانيف وهم مستمرون عليه الى الآن . ولسنا ندرى ماالذى قدره الله تعالى فيما بعده من الأعصار ؟ اه .

ويعطينا الخطابى (١) فى كتابه معالم السنن صورة عن الخلاف الذى حصل بعد المئة الثالثة بين فقهاء المسلمين ومتبعى المذاهب اذ يقول :

رأيت أهل زماننا انقسموا الى فرقتين : أصحاب حديث وأثر ، وأهل فقه ونظر ، ووجدت هاتين الفرقتين اخوانا متهاجرين .

أما أهل الحديث والأثر فان الاكثر منهم انما كدهم الروايات وجمع الطرق ، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذى أكثره موضوع أومقلوب لا يراعون المتون ولا يفهمون المعانى ، وربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن .

واما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر ، فان اكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على اقله ، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه ، اذا وافق مذاهبهم التى ينتحلونها ووافق آراءهم التى يعتقـــدونها ، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم فى قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع اذا كان ذلك قداشتهر

---

(١) هو الشيخ حمد (بفتح الحاء وسكون الميم) بن محمد بن الخطاب الخطابى البستى قال السمعانى : كان الخطابى حجة صدوقا رحل الى العراق والحجاز وجال فى خراسان وخرج الى ما وراء النهر وقال السبكى فى طبقات الشافعية : كان اماماً فى الفقه والحديث واللغة ، وقال الذهبى : كان ثقة من اوعية العلم وقال البهنسى : انه من الاعلام المجتهدين فى قواعد الاحكام توفى سنة ٣٨٨ .

عندهم ، وتعاورته الالسن فيما بينهم من غير تثبت فيه ، أو يقين علم به ، ولو حكى لهم عن واحد من رؤساء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاده من قبل نفسه طلبوا فيـــه الثقة واستبرؤا له العدة ، فتجد أصحاب مالك لايعتمدون فى مذهبه إلا على ماكان من رواية ابن القاسم واشهب ، فاذاجاءت رواية عبدالله بن الحكم واضرابه لم يكن عندهم طائلا وترى أصحاب ابى حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه ابو يوسف ومحمد بن الحسن ، فان جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤى وذوى روايتـــه قول بخلاف لم يقبلوه ولم يعتمدوه .

وكذلك تجد أصحاب الشافعى ، إنما يعولون فى مذهبه على رواية المزنى والربيع بن سليمان المرادى ، فاذا جاءت رواية خزيمة والجرمى وأمثالهما لم يلتفتوا اليها ، ولم يعتدوا بها فى أقاويله . وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء فى أحكام مذاهب أئمتهم وأساتذتهم . فاذا كان هذا دأبهم وكانوا لايتتنعون فى أمر هذه الفروع والرواية عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والتثبت فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا فى الأمر الأهم ، والخطب الأعظم ، وأن يتواكلوا الرواية والنقل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة ﷺ الواجب حكمه ، اللازمة طاعته الذى يجب علينا التسليم لحكمه والانقياد لأمره ، من حيث لا نجد فى أنفسنا حرجاً مما قضاه ، ولا فى صدورنا غلا من شىء أبرمه وأمضاه ولكن أقواماً عساهم استوعروا طريق الحق ، واستطابوا الدعة فى ذلك الخط ، وأحبوا عجالة النيل فاختصروا طريق العلم ، واقتصروا على نتف وحروف منتزعة من معانى اصول الفقه سموها عللا وجعلوهم شعاراً لأنفسهم فى الترسم برسم العلم ، وأخذوها جنة عند لقاء خصومهم ونصبوها ذريعة للخوض والجدال يتناظرون بها ويتلاطمون عليها ، وعند التصادر عنها قد

حكم الغالب بالحذق والتبريز ، فهو الفقيه المذكور فى عصره والرئيس المعظم فى بلده ومصره . انتهى باختصار (١) .

* * *

هذه بعض كلمات علماء ذلك العصر أوردناها ليتضح للقارىء سير العلم - فى تلك الأدوار - والخلاف الذى أدى الى الارتباكات التى أحاطت بمفهومه وبلغ الحال الى تطور مؤلم أدى بالطعن فى المعتقدات ، ونتج من وراء ذلك ثورات دموية ذهبت بكثير من النفوس والاموال بشكل يبعث على الأسف الشديد لما حل بالأمة من التطاحن بين المذاهب ، فاصبحوا أعداء متخاصمين فى المعتقدات وقد عامل بعضهم بعضاً معاملة الخارجين عن الدين حتى قال محمد بن موسى الحنفى قاضى دمشق المتوفى سنة ٥٠٦ هـ : « لو كان لى من الأمر شىء لأخذت على الشافعية الجزية » ويقول أبو حامد الطوسى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ : « لو كان لى أمر لوضعت على الحنابلة الجزية » .

ان اسباب تلك الفتن التى حلت بالمسلمين كلها تعود لمسايرة بعض العلماء الدولة ، يشايعها ويؤيد وجهة نظرها ، فاغدقت عليه العطاء وبذلك أصبح العلم مسايراً للدولة .

ولو استقل العلم عن مؤثرات السياسة فى تلك العصور ، لأرغمت الدولة على الخضوع له ، ولسارت فى ركابه وفى ذلك سعادة الأمة ، ولكن حملة العلم بمسايرتهم لولاة الأمر الذين انحرفوا عن الدين اصبحوا دعامة تستند عليها سلطتهم الجائرة فى أهم الامور ، مما جعل الناس ينظرون الى الاسلام وهو مسلوب القوة العادلة عن تنظيم شؤون العالم . والدين أجل واسمى من أن يكون مهباً للاهواء ، أو مثاراً لاختلاف الآراء أو مجالا لتحزب العلماء .

---

(١) رسالة الانصاف الدهلوى ص ١٧ .

وعلى أى حال فقد اصطدمت الطوائف اصطداماً عنيفاً ، وخلقت كثيراً من المشاكل التى هى فى نهاية التعقيد ولا يمكن حلها مادام علماء الدولة هم المحور لتلك الأمور ، ومنهم تنبعث تلك الافكار التى تتحرك بها شعور العامة فيقع من وراء ذلك حوادث مؤلمة .

* * *

واذا نظرنا الى الحوادث المؤلمة التى حصل فيها التشاجر والتطاحن بين معتنق المذاهب الاربعة ، فان ذلك يبعث فى نفوسنا الالم ، مما وصلت اليه الحالة السيئة بين جماعات الامة ، ويدلنا ذلك بكل وضوح على ابطال من يدعى لهم الاتفاق وعدم الخلاف ، وهو بذلك يستدل على احقية مذاهبهم ، وصدق معتقداتهم ، كما ذهب اليه صاحب كتاب التبصير وغيره ممن يطلقون الاقوال بدون تدبر ، ويحكمون بدون تثبت .

ليت شعرى أخفيت عليهم تلك الحوادث التى وقعت بين الحنفية والحنابلة ، وبين الحنابلة والشافعية ، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر ، والحنابلة يحرقون مسجداً للشافعية بمرو .

وتقع هناك فتنة هائلة ذهب تحت هياجها خلق كثير ، ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية فى نيسابور ، وتقع فتنة مبعثها التعصب المذهبى ، فتحرق الاسواق والمدارس ، ويكثر القتل فى الشافعية فينتصرون بعد ذلك على الحنفية ، ويسرفون فى أخذ الثار منهم وذلك فى سنة ٥٥٤ هـ ومثلها تقع بين الشافعية والحنابلة ، وتضطر السلطة الى التدخل فى حسم النزاع بالقوة ، وذلك فى سنة ٧١٦ هـ (١) وكثر القتل وحرق المساكن والاسواق فى اصبهان وكان منشؤه التعصب (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٦ .

(٢) مرآة الجنان ج ٣ ص ٢٤٣

واشدة وقوع الفتن ببغداد فقد نادى مناد السلطان بمنع الفتن وعدم ذكر المذاهب والخصومة فيها (١) .

وكان الحنابلة يخلون فى اعمالهم بالأمن ، ويرهجون بغداد . ويستظهرون بالعميان على الشافعية الذين كانوا يأوون للمساجد ، فاذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم(٢) وكان رئيس الحنابلة وزعيمهم الدينى الشيخ البربهارى يتولى اثارة الفتنة وذلك فى سنة ٣٢٣ ﻫ .

ولما تولى القشيرى الواعظ بالمدرسة النظامية عظم ذلك على الحنابلة فحطوا منه ، وكان ينال منهم فوقعت بينهم فتنة ذهبت بكثير من النفوس (٣) واشتد تعصب محب الدين بن محمد الهندى الحنفى المتوفى سنة ٧٨٩ ﻫ على الشافعية وكان يظهر التدين والنسك ، ويرى تعصبه عليهم تديناً والدين برىء من ذلك (٤) وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضباً على أعمال ابن تيمية ونودى فى دمشق وغيرها : من كان على دين ابن تيمية حل ماله ودمه بمعنى انهم كفرة يعاملون معاملة الكافرين ، على ان الشيخ ابى حاتم الحنبلى يقول : « من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم » (٥) فهو يكفر جميع المسلمين ، وعكسه الشيخ ابو بكر المقرى الواعظ فى جوامع بغداد ذهب الى تكفير الحنابلة اجمع (٦) .

وقد لقى الشيخ عبد الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ ﻫ من التحامل عليه والتكفير له وللحنابلة بدمشق وقد وقع الشىء الكثير مما لا مجال لذكره حتى هجر دمشق .

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ١١١

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٢٩

(٣) مرآة الجنان ج ٣ ص ٩٧

(٤) شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٤٠

(٥) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٧٥

(٦) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٥٣

وتكفير الفرق بعضها بعضاً أمر شائع يحز فى صدر الحق ، ويؤلم التاريخ وقعه ويتبرأ الاسلام منه .

هذا أبو سهل بن زياد القطان وكان من الحفاظ والثقات عندهم يذهب الى تكفير المعتزلة مستدلا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض » الآية .

وهذا الشيخ ابو اسحاق ابراهيم بن على بن يوسف الفيروز ابادى المتوفى سنة ٤٧٩ هـ وكان شيخ الشافعية وعالمهم المبرز تعصب الحنابلة عليه فتكلموا فيه وبالغوا فى الأذى بالسنتهم فثارت فتنة عظيمة أدت الى ذهاب نفوس من الطرفين ، وانتصر السلطان لأبى اسحاق فسجن شيخ الشافعية (١) . وهذا الفقيه ابو منصور المتوفى سنة ٥٦٧ هـ قتله الحنابلة بالسم تعصباً عليه ، قال ابن الجوزى : إن الحنابلة دسوا اليه امرأة جاءت اليه بصحن حلوى وقالت : هذا يا سيدى من غزلى ، فاكل هو وامرأته وولد له صغير فاصبحوا موتى وكان من علماء الشافعية المبرزين (٢) ، وكذلك ابو الحسن بن فورك قتل مسموماً بسبب التعصب وابو على خادم المستنصر كان من أئمة الشافعية فى مصر وكان يجلس فى حلقة ابن عبد الحكم ويناظرهم فسعوا به الى السلطان وقالوا : هذا جاسوس فحبسه سبع سنين ، واجتمع مشايخ المذاهب فى هراة عند الملك الب ارسلان يستغيثون به من الشيخ محمد بن عبدالله الأنصارى الحنبلى بعد أن جعلوا صنما تحت سجادته ويقولون للملك انه مجسم وانه يترك فى محرابه صنما يزعم أن الله على صورته فتفحص الملك ووجد الأمر كذلك (٣) .

---

(١) طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٠٩

(٢) طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٨٤

(٣) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٥٨

ويحدثنا ابن خلكان (١) عن الشيخ الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ هـ كان أول اشتغاله حنبلى المذهب وانحدر الى بغداد وبقى مدة ثم انتقل الى مذهب الشافعى وعاد الى الديار المصرية وتولى الاعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعى فحسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوا اليه فساد العقيدة وانحلال الطوية ومذهب الفلاسفة والحكماء وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ووضعوا خطوطهم بما يستباح به دمه .

وفى مصر يأمر القاضى المالكى وهو الحارث بن مسكين باخراج الحنفية والشافعية من المسجد وامر بنزع حصرهم .

وفى سنة ٥٣٨ هـ قدم بغداد الحسن بن ابى بكر النيسابورى الحنفى وتحامل على الاشعرى وعلى الشافعية وفيها اخرج ابو الفتوح الاسفرايينى من بغداد لما حصل فيها من الفتن بين الاشعرية والشافعية (٢) .

ولعل أعظم صورة تتجلى بها روح العصبية والخلاف بين الطوائف هى قضية القفال عند السلطان محمود بن ناصر وذلك انه كان حنفياً وتحول شافعياً فاحضر علماء الفريقين وطلب من القفال المروزى أن يصلى ركعتين طبق المذهب الحنفى فصلى القفال على مذهب الشافعى ، وكان شافعى المذهب بوضوء وشرائط معتبرة ، ثم صلى على مذهب ابى حنيفة وما يجوزه فى الصلاة فصلى ركعتين بتلك الصورة القبيحة التى ذكروها ونحن نعرض عن ذكرها (٣) .

وهذا الشيخ على بن الحسن الملقب بسيف الدين المتوفى سنة ٦٣١ هـ كان حنبلياً ثم صار شافعياً وتعصب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة (٤)

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٠١

(٢) المنتظم ١٠ / ١٠٦ ـ ١٠٨

(٣) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٨٦ والطبقات ج ٤ ص ١٤

(٤) مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٤

وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصب بشهادة رجال ذلك العصر ، ولا يستبعد ان ذلك كله افتراء محض وأن أكثر هؤلاء هم بريؤن مما نسب اليهم ، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور على من يخالفهم تديناً .

استفتى بعضهم فى شهادة على شافعى زور أفاجابه المفتى ألست تعتقد ان دمه وماله حلال ؟ قال : نعم . قال : فما دون ذلك . فاشهد وادفع فساده عن المسلمين . وهذه الامور التى ابتلى بها الاسلام إنما هى من جنايات علماء السوء الذين تزلفـــوا للدولة وتأثروا بسياستها لفتح باب الشحناء والنزاع والتخاصم والبغضاء بين طوائف المسلمين ، فتجد الحنابلة يتعصبون على الحنفية والحنفية على الحنابلة . ولو انعمنا النظر فى طيات التاريخ ، واستعرضنا حوادث الفتن بين المنتسبين الى السنة بعضهم مع بعض فاننا نجد من الوقائع ما يؤلم قلب كل مسلم .

يقول الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار : ومن أغرب ماتجد أن العدوان بين الشافعية كان من أسباب حملة التتار على المسلمين ، تلك الحملة التى كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعا لم يلتئم من بعده . أدر طرفك فى بلادهم اليوم وانظر حال هذه المذاهب على ضعف الدين فى نفوس الجماهير تجد بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى كما قال الله تعالى فى وصف من لا إيمان لهم ولا أيمان (١) .

* * *

تعددت عوامل التفرقة ، وكثرت طرق الخلاف بين الطوائف وتعصب كل الى جهة ، فاهل الجرح والتعديل أدى بهم التعصب الى الحط مما يخالف مذهبهم فاستهان بعضهم ببعض واختلق بعضهم مكارم لبعض ، فكم من

---

(١) الوحدة الاسلامية ص ٢

مجروح عدلوه ، وعادل جرحوه ، وأعطف عليهم المؤرخين فانهم ربما وضعوا اناساً ورفعوا اناساً ، إما لتعصب ، أو لجهل ، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به أو غير ذلك .

يقول السبكى : « والجهل فى المؤرخين أكثر منه فى الجرح والتعديل وكذلك التعصب قل أن رأيت تاريخاً خالياً من ذلك وأما تاريخ شيخنا الذهبى غفر الله له فانه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب ، فانه أكثر الوقيعة فى أهل الدين الذين هم صفوة الخلق ، واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية والحنفية ، ومال فافرط ومدح فزاد فى المجسمة .

ويقول الحافظ صلاح الدين : إن الحافظ شمس الدين الذهبى لا شك فى دينه وورعه ولكنه غلب عليه مذهب الاثبات ومنافرة التأويل ، والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك فى طبعه انحرافا شديداً (١) .

وعلى أى حال فقد مالت الأهواء وأثرت النزعات فنفروا من الحقائق ولم يتقبلوها ، فكتبوا بما توحيه اليهم أهواؤهم وأغراضهم ، لا بما تقتضيه الحقيقة من حيث هى حقيقة لا تقبل الدجل والتدليس .

وتأصلت روح العداء ، وتحيز كل الى مذهبه ، وغلوا فى أئمتهم غلواً أخرجهم عن حدود الاتزان ، ووضعوا فى مدحهم ما شاءت رغباتهم بدون قيد وشرط ، وتوسعوا فى وضع الأحاديث عن النبى بالبشائر بأئمة المذاهب كما أورد الحنفية مرسلا : أن آدم افتخر بى وأنا أفتخر برجل من امتى اسمه النعمان ، وبصورة أخرى : الأنبياء يفتخرون بى وأنا أفتخر بابى حنيفة ، من أحبه فقد أحبنى ومن أبغضه فقد أبغضنى (٢) .

---

(١) طبقات الحافية ج ١ ص ١٩٠

(٢) الدر المختار فى شرح تنوير الابصار ج ١ ص ٥٣ و ٥٤

وتوسعوا فى الادعاءات لتصحيح مذهبه ووجوب اتباعه وان عيسى يحكم بمذهبه وان الله غفر له ولأهل مذهبه الى يوم القيامة (١) وانه أعظم معجزة للنبي بعد القرآن .

ومن ذلك قولهم إن الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة ومن كرامته ان الخضر عليه السلام كان يجيء اليه كل يوم وقت الصبح ويتعلم منه أحكام الشريعة الى خمس سنين ، فلما توفى ابو حنيفة دعا الخضر ربه فقال : يارب ان كان لى عندك منزلة فاذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على عادته حتى اعلم الناس شرع محمد على الكمال ليحصل لى الطريق ، فاجابه ربه الى ذلك . واتم الخضر دراسته على أبى حنيفة وهو فى قبره فى مدة خمس وعشرين سنة الى آخر ما فى هذه الاسطورة التى تتلى فى مجالس الحنفية فى الهند ومساجدهم (٢) وقد صنعت فى عصور التعصب . ولو بعث أبو حنيفة لأقام الحد على هؤلاء المتجرئين بالكذب والافتراء على مقام الانبياء ، ولخر صعقاً الى الارض وعفر خده فهو يعرف نفسه ، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا فاساءوا ويقول شاعرهم لتأييد صحة مذهبه وترجيحه على غيره .

غدا مذهب النعمان خير المذاهب ... كذا القمر الوضاح خير الكواكب
مذاهب أهل الفقه عندى تقاصرت ... واين عن الروسى نسج العناكب

ويقول الشاعر الشافعى :

مثل الشافعى فى العلماء ... مثل البدر فى نجوم السماء
قل لمن قاسه بنعمان جهلا ... أيقاس الضياء بالظلماء

والمالكية يدعون لامامهم أموراً ، منها انه مكتوب على فخذه بقلم

---

(١) الدر المختار فى شرح تنوير الابصار ج ١ ص ٥٢ و ٥٤
(٢) انظر كتاب الياقوت فى الوعظ لابى الفرج على بن الجوزى ص ٤٨

القدرة مالك حجة الله فى أرضه (١) ، وانه يحضر الأموات من أصحابه فى قبورهم وينحى الملكين عن الميت ولا يدعهما يحاسبانه على أعماله (٢) ، ومنها انه القى كتابه الموطأ فى الماء فلم يبتل ويقول شاعرهم :

اذا ذكروا كتب العلوم فحى هل ... بكتب الموطأ من تصانيف مالك
فشد به كف الصيانة تهتدى ... فمن حاد عنه هالك فى الهوالك

ويقول الحنبلى :

سبرت شرائع العلماء طراً ... فلم أر كاعتقاد الحنبلى
فكن من أهله سراً وجهراً ... تكن أبداً على النهج السوى

ويقول آخر :

أنا حنبلى ما حييت وان امت ... فوصيتى للناس أن يتحنبلوا

والحنابلة يقولون : أحمد بن حنبل امامنا فمن لم يرض فهو مبتدع ، فما اكثر المبتدعين فى نظرهم على هذه القاعدة .

وتقولوا على الشافعى قوله : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر ، فقيل له : أتطلق عليه اسم الكفر ؟ فقال : نعم ، من أبغض أحمد عاند السنة ، ومن عاند السنة قصد الصحابة ومن قصد الصحابة أبغض النبى ﷺ ومن أبغض النبى ﷺ كفر بالله العظيم (٣) .

وانى استبعد صدور هذا القول من الشافعى وهو فى مكانته ولكن الغلو لا يقف عند حد ولا يتقيد بشرط ، وإلا فلماذا لا يسمى من أبغض علياً كافراً ؟ مع انا نراهم يعظمون المتوكل العباسى ويسمونه بناصر السنة ويحوكون

---

(١) شرح تائية ابن الفارض للمرنوبى .
(٢) مشارق الانوار للعدوى ٢٨٨
(٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣

له المناقب والفضائل وهوهو فى تحامله على على عليه السلام وبغضه له ، وتقريبه من عرف بالنصب والعداء له : كعمر بن فروخ ، وابو السمط ، وعبد الله بن محمد ابن داود ، وعلى بن الجهم وغيرهم من حزبه وأعوانه ، حتى انه كان لايأنس إلا بنقص على عليه السلام والحط من كرامته ، وكان يقصد من يبلغه عنه انه يتولى علياً وأهل بيته فيأخذ ماله ويهدر دمه . ولكنهم لم يلتفتوا الى هذا الخطأ فوسموه بأنه ناصر السنة ، وأنه من أهل الجنة ، ومن أولياء الله ومجاوريه فى حظيرة القدس ، وجعلوه فى عداد ابى بكر وعمر بن عبد العزيز (١) .

وكذلك حزبه النواصب وسموهم بالسنة . قال ابن الجوزى فى مناقب أحمد : وكان على بن الجهم من أهل السنة حسن الرأى فى أحمد .

فعلى هذا ان كل من كان حسن الرأى فى أحمد هو من أهل السنة وان اساء الرأى فى جميع المسلمين ونال منهم . ؟ ! قاتل الله الغلو كيف يحيد بصاحبه عن طريق الحق .

وكذلك يقولون : انه ما قام بامر الاسلام أحد بعد رسول الله ما قام به أحمد بن حنبل ولا ابو بكر الصديق مثله ، وان الله جل وعلا كان يزور قبره الى آخر ما هنالك من مناقب مبعثها الجهل والتعصب (٢) .

ويحدثنا الشيخ عبد الله بن محمد الهروى اذ يقول : قصدت أبا حاتم بن جاموس بالرى ، وكان مقدم أهل السنة ، وقد أمر السلطان محمود أن كل من دخل الرى أن يعرض اعتقاده على الشيخ أبى حاتم ، قال : فلما قربت من الرى كان معى رجل فى الطريق ، فسألنى عن مذهبى ؟ فقلت : حنبلى ، فقال : مذهب ما سمعت به ، وهذه بدعة وأخذ بثوبى وقال : لا أفارقك

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ٣٢٥

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزى

حتى تذهب الى الشيخ ابى حاتم ، فذهب بى الى داره فاخبره بذلك ، فقال الشيخ : دعه فكل من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم (١) .

فسائر أهل المذاهب الاسلامية أجمع فى نظر هذا الشيخ كفار وما أعظمها من قسوة فى الحكم ، وما أبعد هذا الشيخ عن الانتساب لمنزلة العلم ، ولكن حكم العاطفة العمياء يسلب الرجل رشده ، وللعصبية وقعها وطابعها الخاص

وكان القضاء للحنفية لايثار الخلفاء لهم بذلك ، ولما أراد القادر بالله نقله الى الشافعية ، وعين أبا العباس أحمد بن محمد البارزى الشافعى بدلا من الاكفانى الحنفى قاضى بغداد باشارة أبى حامد الاسفرائينى ، وكتب أبو حامد بذلك الى السلطان محمود ، وأهل خراسان : أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد حزبين ثارت بينهما الفتن ، فاضطر الخليفة الى جمع الأشراف والقضاة وأخرج اليهم رسالة تتضمن أن الاسفرائينى ادخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والامانة وكانت على اصول الدخل والخيانة ، فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزى الحكم والعدول بامير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرف البارزى وأعاد الأمر الى حقه ، وأجراه على قديم رسمه ، وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة ، والحرمة والاعزاز ، وتقدم اليهم ان لا يلقوا ابا حامد ولا يقضوا له حقاً ولا يردوا عليه سلاماً ، وخلع على ابى محمد الاكفانى ، وانقطع ابو حامد عن دار الخلافة وظهر التسخط عليه والانحراف عنه (٢) .

ظهر لنا من هذه القصة عظيم اهتمام الحنفية فى منصب القضاء . ويعود

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٣٧٥

(٢) نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا .

الأمر لعظيم منزلة القضاة إذ هم همزة الوصل بين البلاط واهل ذلك المذهب ، وتكون لهم تلك الحظوة ونيل الكرامة والعناية والحرمة ، والاعزاز ما حمل الحنفية على اثارة تلك الفتنة عندما أراد الشافعية سلبها منهم ، والاختصاص بهذه المنزلة دونهم ، وانتهت تلك المشكلة بتنازل الخليفة عن رأيه ، وعاد الأمن الى نصابه .

والتزاحم بالمناكب على القضاء هو أقوى عامل لاثارة تلك الفتن وبث روح الشغب والفرقة ، وتغليب مذهب على مذهب بقوة السلطة القائمة ونشر القضاة المناصرين لمذهب على مذهب .

وكان القضاة فى أغلب الأوقات يثيرون الفتن ويوقدون نار الحرب بين الطوائف . كان أحمد بن صاعد الحنفى رئيس نيسابور وقاضيها وكان يلقب بشيخ الاسلام وقد بالغ فى تعصبه على بقية المذاهب فاغرى بعضهم ببعض حتى لعنت الخطباء اكثر الطوائف على المنابر (١) .

وأراد القاضى بكار أن يعمل فى جامع بنى امية إماماً حنفياً ، وكان لايؤم فيه إلا شافعى ، ولاصعد منبره غير شافعى فاراد هذا القاضى أن يشاركهم بامام على مذهبه فثارت الشافعية وأغلقوا الجامع وعزل القاضى (٢) .

ولعل من أعظم تلك الفتن التى وقعت بين المذاهب هى فتنة ابن القشيرى عندما ورد بغداد سنة ٤٦٩ هـ وجلس فى النظامية وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم الى التجسيم ، وكتب الى الوزير يشكو الحنابلة ويسأله المعونة ، وهجم أصحاب القشيرى على زعيم الحنابلة عبد الخالق بن عيسى ، ووقع قتال بين الطرفين واغلق اتباع ابن القشيرى وهم الشافعية أبواب سوق مدرسة النظام ، وغضب

---

(١) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٦١

(٢) طبقات الشافعية ج ١ ص ١٧٤

أبو اسحاق الشيرازى وكاتب فقهاء الشافعية نظام الملك غضباً لتسلط الحنابلة ، واتسعت الفتنة وفكر الخليفة فى حل هذه المشكلة واهتدى الى سعيه فى الصلح فجمع القشيرى واصحابه وابا جعفر الشريف زعيم الحنابلة وأصحابه بمحضر الوزير ، فقام القشيرى رئيس الشافعية والتفت الى الوزير عندما طلب منه الصلح وقال : أى صلح يكون بيننا ؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو ديناً أو تنازع فى ملك . فاما هؤلاء القوم فانهم يزعمون انا كفار ، ونحن نزعم ان من لا يعتقد ما نعتقده كان كافراً ، فاى صلح يكون بيننا ؟ (١)

* * *

وقد واجه كثير من العلماء وتحملوا بلاء عظيما عندما يتحولون من مذهب الى مذهب حتى قالوا : « إن من يصير حنفياً يخلع عليه ، ومن يصير شافعياً يعزر » (٢) .

فهذا أبو سعيد المتوفى سنة ٥٦٢ هـ كان حنفى المذهب وتحول شافعياً ، ولقى عناء وامتحن لذلك ، وهذا السمعانى لما انتقل من المذهب الحنفى الى المذهب الشافعى لقى محناً وتعصباً وقامت الحروب على ساق ، واضطرمت نيران الفتنة بين الفريقين ، فكانت تملأ ما بين خراسان والعراق واضطرب أهل مرو لذلك اضطرابا فظيعاً ، وفتحت باب المشاقة ، وتعلق أهل الرأى باهل الحديث وساروا الى باب السلطان الى آخر ماوصفه السبكى (٣) فى الطبقات

والشيخ عبد العزيز بن الخزاعى - كان من أكابر المالكية فلما قدم الامام الشافعى بغداد تبعه وقرأ عليه كتبه ونشر علمه ، والشيخ محمد بن عبد الله

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج ١ ص ٢٢ باختصار .
(٢) انظر الدين الخالص ٣ / ٣٥٥
(٣) طبقات الشافعية ٣ / ٢٢

المتوفى سنة ٢٦٨ كان على مذهب الامام مالك فلما قدم الشافعى الى مصر انتقل الى مذهبه ثم رجع ، وابو جعفر بن نصر الترمذى سنة ٢٩٥ هـ رأس الشافعية بالعراق كان حنفياً فلما حج انتقل الى مذهب الشافعى ، وابو جعفر الطحاوى كان شافعياً وتفقه على خاله المزنى ثم تحول حنفياً بعد ذلك ، والخطيب البغدادى الحافظ سنة ٤٩٣ هـ كان حنبلياً ثم صار شافعياً ، وابن فارس صاحب كتاب المجمل فى اللغة ، كان شافعياً تبعاً لوالده ثم انتقل الى مذهب مالك ، والسيف الآمدى الاصولى المشهور سنة ٦٣١ هـ كان حنبلياً ثم تحول الى مذهب الشافعى ، والشيخ محمد بن الدهان النحوى سنة ٥٩٠ هـ كان حنبلياً ثم انتقل الى مذهب الشافعى ثم تحول حنفياً حينما طلب الخليفة نحو يايعلم ولده النحو ثم تحول شافعياً ، والشيخ تقى الدين بن دقيق كان أولا مالكياً ثم تحول الى مذهب الشافعى وكل هؤلاء امتحنوا وعذبوا من قبل أنصار المذهب الذى يتحولون منه وأمثالهم كثيرون .

وقد طغت موجة التعصب حتى أصبح التكتم بالمذهب لازماً . يقول أبو بكر محمد بن عبد الباقى المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وكان حنبلياً :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثه ... سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة ... بمكفر وبحاسد ومكذب

ويعطينا الزمخشرى صورة واضحة من صور الخلاف وشدة التطاحن بين المذاهب وطعن البعض على البعض بقوله :

إذا سألوا عن مذهبى لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لى أسلم
فإن حنفياً قلت قالوا بأننى ... أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعياً قلت قالوا بأننى ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأننى ... أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

وان قلت من اهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدرى ويفهم (١)

* * *

هذا عرض موجز لحركات التعصب الطائفى الذى تسترت به السلطة الحاكمة من وراء تلك الحوادث لتوقع الفرقة فى صفوف المسلمين فتصل الى غاياتها ، ويشق علينا ذكر أمثال هذه الحوادث المؤلمة وقد ذكرنا بعضها استطراداً فى البحث لاظهار حقيقة يلزمنا اظهارها نصرة للحق ، ورداً للباطل وتكذيباً لما يدعيه البعض كالاسفرائينى وغيره من اتفاق المذاهب وعدم حصول أى خلاف بينهم ولم يحصل بينهم شقاق وتطاحن ، ولم يكفر بعضهم بعضاً ، مستدلين بذلك على صحة مبادئهم وبطلان مذهب الشيعة وفساد عقائدهم بحصول الخلاف فيما بينهم وتكفير بعضهم بعضاً ، ونحن لا نستغرب من الاسفرائينى هذه الدعوة الباطلة فكم له فى كتابه من غرائب وافتعالات على سائر فرق المسلمين بدون دليل بل هو تقول بالباطل ورجم فى الغيب ، واليك قوله :

الفصل الثانى من هذا الباب فى طريق تحقيق النجاة لأهل السنة ، والجماعة فى العاقبة .

منها ان أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لايكفر بعضهم بعضاً وليس بينهم خلاف يوجب التبرى والتكفير فهم إذاً أهل الجماعة . قائمون بالحق والله تعالى يحفظ الحق وأهله كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » قال المفسرون : أراد به الحفظ عن التناقض ، وما من فريق من فرق المخالفين إلا وفيما بينهم تكفر وتبرى يكفر بعضهم بعضاً . كما ذكرنا من الخوارج والروافض والقدرية ، حتى اجتمع سبعة منهم فى مجلس واحد فافترقوا عن

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٩٨ ط بولاق .

تكفير بعضهم بعضاً ، وكانوا بمنزلة اليهود والنصارى حين كفر بعضهم بعضا حتى قالت اليهود : « ليست النصارى على شيء » ، وقالت النصارى : « ليست اليهود على شيء » .

أخفى على الاسفرائيني تلك الحوادث التي مر ذكرها فيذهب الى هذا الرأي ؟ أم نسي محنة القول بخلق القرآن ، وما حدث من ورائها من تكفير البعض للبعض ؟ فقد ذهب احمد بن حنبل الى تكفير من يقول بخلق القرآن ، ويقول أبو عبد الله محمد بن يحيى الدهلي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ : من زعم ان القرآن مخلوق فقد كفر ، وبانت منه امرأته ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ومن وقف وقال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر ، ومن زعم ان لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، على ان أحمد بن حنبل لم يقبل توبة التائب ، وكان لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن ، ولم يصل على أحد منهم ، وكان يرتب عليهم احكام الكفار ، وشاع التكفير حتى عند النساء . يحدثنا الخطيب : ان امرأة تقدمت الى قاضي الشرقية عبد الله بن محمد الحنفي ، فقالت : ان زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن ، ففرق بيني وبينه (١) .

واتسع الخلاف بين المسلمين ، من تكفير البعض للبعض ، فطائفة تقول : ان من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر ، وعليه ابن ابي داود وجماعته ، حتى ان الواثق استفك من الروم أربعة آلاف من الاسارى ، ولكنه اشترط ان من قال القرآن مخلوق يخلق من الأسر ، ويعطى دينارين(٢) ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفك ، بمعنى انه رتب آثار الكفر

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٤

(٢) طبقات الحنفية ج ٣ ص ٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٤

على من لم يقل بخلق القرآن .

ولما قدم أحمد بن نصر اليه قال له الواثق ما تقول فى القرآن ؟ ـ وكان أحمد ممن يذهب الى أن القرآن غير مخلوق ـ فقال كلام الله وأصر على رأيه غير متلعثم فقال بعض الحاضرين : هو حلال الدم ، وقال ابن ابى داود : هو شيخ مختل لعل به عاهة أو تغير عقله ، يؤخر أمره ويستتاب ، فقال الواثق ما أراه إلا داعياً للكفرة ، ثم دعى بالصمصامة فقال : إذا قمت اليه فلايقومن أحد معى فانى احتسب خطاى الى هذا الكافر الذى يعبد ربالانعرفه ثم أمر بالنطع فاجلس عليه وهو مقيد ، وأمر ان يشد رأسه بحبل ، وامرهم ان يمدوه ، ومشى اليه برجله وضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه الى بغداد(١) .

هذا بعض ما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة ، وحوادث الشغب بين معتنقى المذاهب الاربعة ، وهو امر يبعث على الاسف الشديد ، لما حل بالامة من التفكك والتحيز ، الامر الذى جعل المتدخلين فى صفوف المسلمين ينفذون خططهم ، ويحققون اهدافهم فى تفريق كلمة المسلمين وصدع وحدتهم .

ولم نقصد بهذا العرض الا اعطاء صورة عما حدث من الحوادث التى لا يزال اثرها فى تاريخ الامة الاسلامية من اكبر عوامل التأخر والانحطاط .

* * *

واذا اردنا أن نولى وجوهنا شطر الحوادث التى حدثت بين المسلمين : السنة والشيعة . فان ذلك ادهى وامر ، واشد وقعاً ، واعظم خطراً .

لقد وقعت بين السنة والشيعة حوادث مؤلمة ادت الى اثارت نيران الفتن ، واراقة الدماء ، وحرق المساكن .

وليس بودنا أن نذكر هنا كلما حدث من خلاف بين هاتين الطائفتين فى

---

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٧

امور لو طرحت على بساط البحث والمناقشة العلمية لزال كل شيء ، وكان الحكم للحق وحده ، والحق احق أن يتبع .

لأن الخلاف كان لا يتعدى حدود النزاع فى مسألة الامامة وغيرها من المسائل التى حدث الخلاف بين الطائفتين فيها ، ثم تطور الوضع الى تحزب ضد الشيعة ، واتجاه معاكس ، فحاكوا لهم التهم وحملوا عليهم بكل ماهو شائن من دون التفات الى حق العلم ، او خضوع للحق .

ويطول بنا الحديث حول ذلك هنا وسنتحدث عن ذلك فيما بعد والشيء الذى نود أن نشير اليه هو : أن الامر بلغ أشده حتى ادى الى ثورات دموية مؤسفة ، وفتن ذهب تحت هياجها خلق كثير ، ولعل من اعظم ذلك يوم كان الشيعة يقومون باقامة شعائرهم الدينية كيوم عاشوراء ، ويوم الغدير ، فان ذلك يدعو الى الانكار من اخوانهم السنيين ، بدعوى أن النياحة واقامة الزينة يوم الغدير بدعة .

وكان يصحب هذا الانكار اعتداء ادى الى اراقة الدماء بين الفريقين وقتل خلق كثير (١) .

ومع هذا فان السنة قاموا بما قامت به الشيعة من النياحة على مصعب بن الزبير مقابلة للحسين ، واقاموا الزينة يوم الغار مقابل يوم الغدير وقد مرت الاشارة لذلك (٢) .

كما انهم اقاموا النياحة على كثير من الناس ، وقد رأوا أن ذلك من الامور المستحسنة ، حتى قال محمد بن يحي النيسابورى - حين بلغه موت احمد ابن حنبل - : ينبغى لاهل كل دار فى بغداد أن يقيموا على احمد بن حنبل

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١١ - ٢٣٥

(٢) انظر ١٠٢ - ١٠٤ من هذا الجزء .

النياحة فى دورهم (١) .

واقيمت النياحة على احمد بن حنبل وعظم الحزن عليه ، ولازموا قبره مدة من الزمن ، اظهاراً للتفجع ، واقيمت مجالس العزاء عليه ، كما اقيمت النياحة على غيره من الرجال والمثال نذكر بعضاً من ذلك :

يموت ابو الفتح اسماعيل بن السلطان محمود سنة ٥٦٧ هـ فتقام عليه المآتم ويناح عليه نوح الثكلى ، ويكثر البكاء فى الطريق ، وتفرش بالرماد اظهاراً للحزن ، وتعظيما للمصاب (٢) .

ويموت ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ فتحضر جنازته خمسون الف امرأة ينحن عليه ، ومائتا الف رجل يرفعون أصواتهم بالتكبير مزيجاً بالبكاء والعويل ، ولما غسل جمع ماء غسله فشربوه تبركا به ، واقتسم جماعة بقية السدر الذى غسل به تبركا ، ودفع بالطاقية التى على رأسه خمس مائة درهم ، والخيط الذى فى رقبته فيه الزئبق لدفع القمل دفع فيه مائة وخمسون ديناراً ، وسارت جنازته بين الضجيج والبكاء ، والمنادى امامه ينادى هكذا تكون جنائز أهل السنة ، ولما وضع على المغتسل دخل الرجال عليه يقبلونه وينوحون عليه ، ثم اذن للنساء ففعلن مثل ذلك (٣) واقيمت عليه المآتم ودامت النياحة ورثاه خلق كثير منهم شمس الدين الذهبى وغيره (٤) .

ويموت أحمد بن السلطان ملك شاه سنة ٤٨١ هـ فمكث الناس ينوحون عليه سبعة أيام ولم يركب أحد فرساً والنساء ينحن عليه فى الاسواق ، وسود أهل البلاد أبوابهم .

---

(١) طبقات الحنابلة ٢ ـ ٥١

(٢) شذرات الذهب ج ٦ ص ١١٢

(٣) تاريخ ابن كثير ج ١٤ ص ١٣٨

(٤) العقود الدرية فى مناقب ابن تيمية ص ٣٩٩

ويموت شيخ الحرمين فتطوف تلامذته فى الشوارع ينوحون عليه نوح النساء وكسروا المحابر وأقاموا النياحة عليه سنة كاملة (١) .

وأبو عمر الحنبلى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ يعظم عليه البكاء والعويل ويتناحون عليه رجالا ونساء ، وغسل فى المسجد ، ونشف ماء غسله بخمر النساء ، وعمائم الرجال - للتبرك طبعاً - ويتسابقون الى تمزيق كفنه يتبركون به ، وكادت تبدو عورته ، لو لا محافظة الدولة على كرامته . فدفعت الناس عنه بالسيف ، قال ابن العماد : ولولا الدولة لماوصل من كفنه الى قبره شيء (٢) .

وتخرج النساء يوم وفاة المسترشد العباسى سنة ٥٢٩ هـ ينحن عليه ويلطمن وهن منشرات الشعور ينشدن المراثى فى الطرقات ، اما الرجال فشاركوهن بالنياحة وزادوا بان شقوا الثياب عليه (٣) .

وغير هؤلاء ممن يطول بنا الحديث عنهم وما حدث من مظاهر الحزن والاسى يوم وفاتهم وبعده .

* * *

ونحن اذا نظرنا الى أسباب تلك المؤاخذات التى تؤاخذ بها الشيعة واستوجبت حدوث تلك الحوادث ، نجد الأسباب تعود الى متابعة أغراض السلطة ، حتى تحكم العداء للشيعة وأصبح الابتعاد عن تهمة التشيع ، أمر لازم حتى حرموا التشبه بهم .

ذكر الزرقانى فى المواهب اللدنية فى صفة عمة النبى ﷺ على رواية على عليه السلام فى اسدالها على منكبه حين عممه رسول الله ﷺ ثم ذكر قول الحافظ العراقى :

---

(١) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٥٩

(٢) شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٠

(٣) تاريخ دول الاسلام الذهبى ج ١ ص ١٨٢

ان ذلك اصبح شعار كثير من فقهاء الامامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم .

فهذا الشيخ يفتي بترك التشبه بالشيعة في اتخاذ العمة التي كان رسول الله يلبسها وهذا شاهد من آلاف الشواهد التي عامل بها رجال اولئك العصر شيعة آل محمد .

ولا غرابة فان تهمة التشيع تدعو لسخط الدولة ، وهل وراء ذلك إلا ازهاق الارواح ، ونهب الأموال أو السجن أو التبعيد ؟ لذلك التجأ الاكثر الى التظاهر في الوقيعة بهم فادى الأمر الى التباعد عنهم والحذر من تهمة التشيع حتى في الرؤيا .

يحدثنا الخطيب البغدادي : ان رجلا رأى علياً عليه السلام في المنام فلم يجسر على الدنو منه فسأله صاحبه فقال : اخشى ان قربت اليه اسأله ان اتهم بالتشيع .

هكذا أرادت السلطة الجائرة ، تفريق كلمة المسلمين ، وايقاد نار العداء فيما بينهم ، لغايات تعود لمصالحهم الخاصة ، ورغبات في نفوسهم ، لا تنال مع الوحدة والاتحاد ، وتبادل الثقة والاخاء .

وكان في الأمة رجال يدعون الى الحق ، وينبهونهم على هذه الأخطاء ولكن جهودهم لم تثمر كثير فائدة ، لأن الفوضى تحكمت في المجتمع ، ودبت روح الاختلاف في النفوس ، وطغت موجة التعصب ، حتى كانت عاقبة ذلك الجهل ان سلط عليهم أعداء لا يعرفون الرحمة ، فالبسوهم الذل ، وحكموا فيهم السيف ، وسقوا من دمائهم الأرض ، وأقاموا من رؤوسهم تلالا ، فتمكن من قلوب المسلمين الرعب ، وسلبت منهم تلك القوة والشجاعة ، والتفاني في سبيل نشر كلمة التوحيد ، يوم ساروا تحت راية الاسلام ، وهم يستهينون بالحياة ، ويستقبلون الموت ، ويتمنون الشهادة ، حتى أخضعوا جبابرة الأرض ودانت لهم البلاد .

واذا بهم بعد تلك العزة ، يستولى عليهم الذل ، ويدخل فى قلوبهم الرعب ، ولا يدافعون عن أنفسهم ، فكان الرجل الواحد من التتر يقتل جماعة من المسلمين الواحد بعد الآخر .

ودخلت امرأة داراً وقتلت جماعة من أهلها ، ولم يدفعوها عن أنفسهم ودخل واحد منهم دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحـــداً حتى أفناهم ، ولم تمد اليه يد بسوء .

وأخذ رجل من التتر رجلا من المسلمين ولم يجد ما يقتله فيه ، فقال له : ضع رأسك على هـذا الحجر ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقى نائماً حتى جاء التترى وقتله (١) .

وهذا ما يذهب بنفس المسلم حسرات ويميث قلبه أسفاً وحزنا ، وهانحن اليوم امام تيار المبادىء الفاسدة ، والآراء الهدامة ، والعقائد السخيفة ، وان خطرها على المسلمين لاعظم خطر يخاف عاقبته ، وتخشى مغبته ان لم ينهج المسلمون لمكافحتها بتفهيم التعاليم الاسلامية والقيام بتطبيقها عملياً ، وأن يتحدوا لابعاد المتدخلين بين صفوف المسلمين ، لهدم المجتمع الاسلامى ، وتشويه تعاليمه الدينية والأخلاقية ، واستبداله بتعاليم اباحية ، ولا يدفع ذلك الخطر إلا باتحاد الكلمة وفهم الاسلام فهما صحيحاً ، وان تستسق تعاليمه من ينبوعه الذى أراد الله ان نأخذ منه ونتبع قول الحق ، وأئمة الصدق .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »

---

(١) المد والجزر لابى الحسن المناوى ص ٣٧

المذاهب وانتشارها :

اشتهر الاخذ بالمذاهب الاربعة وانتشر العمل بها فى الاقطار الاسلامية فهى فى القرن الرابع الهجرى قد تغلبت على ما سواها من المذاهب المعمول بها فى القرن الثانى والثالث ما عدى المذهب الشيعى فانه سار بقوته الروحية رغم العقبات التى وقفت فى طريقه ، ويحدثنا المقدسى عن انتشار المذاهب فى القرن الرابع بما يلى :

سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وجهر وصعده شيعة . والغالب على صنعاء أصحاب أبى حنيفة والجوامع بايديهم ، وفى نواحى نجد واليمن مذهب سفيان . وفى العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة ، وبه مالكية وأشعرية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فانها سنة ، وأكثر أهل البصرة قدرية و (شيعة) وثم حنابلة ، وببغداد غالية يفرطون بحب معاوية ، وهنا يحدثنا المقدسى عن دخوله جامع واسط واستماعه لقصاص يقص على الناس حديثاً عن النبى ﷺ : ان الله يدنى معاوية يوم القيامة فيجلسه الى جنبه ثم يجلوه على الخلائق كالعروس ، قال المقدسى فقلت له : بماذا ؟ بمحاربته علياً رضى الله عنه ؟ كذبت يا ضال ، فصاح خذوا هذا الرافضى ، فاقبل الناس على ، فعرفنى بعض الكتبة فكركرهم عنى .

اقليم اقور وهو اليوم شمال العراق - أى الموصل ونواحيها - مذهبهم

سنة وجماعة ، إلا عانه فانها كثيرة المعتزلة : ولا ترى فى الرأى غير مذهب ابى حنيفة والشافعى ، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة ، واقليم الشام مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس واكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكياً والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث .

اقليم مصر على مذهب أهل الشام ، غير ان اكثر فقهائهم مالكيون ألا ترى انهم يصلون قدام الامام ويربون الكلاب ؟ واعلا القصبة شيعة وسائر المذاهب فى الفسطاط موجودة ظاهرية .

واقليم المغرب : فالمذاهب على ثلاثة أقسام ، واما فى الاندلس فمذهب مالك ، وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله ، وموطأ مالك فان ظهروا على حنفى أوشافعى نفوه ، وان عثروا على معتزلى أوشيعى ونحوهما ربما قتلوه ، وبسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعى إلا مذهب أبى حنيفة ومالك ، وأصحاب مالك يكرهون الشافعى ، يقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه .

اقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش فانهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبد الله السرخسى .

واقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة ، إلا أن أهل الحديث حنابلة ، والغالب بدبيل مذهب أبى حنيفة .

واقليم الجبال اما بالرى فمذاهبهم مختلفة ، فالغلبة للحنفية وهم نجارية ، وبالرى حنابلة كثيرة ، وأهل قم شيعة ، وفى الدينور جلبة لمذهب سفيان الثورى

اقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة ، اكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة ونصف الأهواز شيعة . وبه من أصحاب أبى حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون .

اقليم فارس ، العمل فيه على اصحاب الحديث ، وأصحاب ابى حنيفة ، وللداودية دروس ومجالس وغلبة . ويتقلدون القضاء والأعمال .

اقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعى .

اقليم السند : مذاهبهم اكثرها أصحاب حديث . ورأيت القاضى أبا محمد المنصور داوديا اماما فى مذهبه . وأهل الملتان ، شيعة يحيعلون فى الاذان ويثنون فى الاقامة ، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب ابى حنيفة وليس بهم مالكية ، ولا معتزلة ، ولا عمل للحنابلة (١) .

فى الوقت الحاضر :

اما احصائيات المذاهب الاربعة فى الوقت الحاضر ، وانتشارها فى البلاد الاسلامية فيحدثنا عن ذلك العلامة احمد تيمور (٢) بما يلى :

المغرب الأقصى يغلب عليه الآن المذهب المالكى . وعلى الجزائر وتونس أيضاً .

« طرابلس » المذهب المالكى بكثرة . والحنفى بقلة . وهم من بقايا الاسر التركية ، وأكثرهم فى تونس ومنهم افراد بيت الامارة بها ، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفى مشاركا للقضاء المالكى ، وأما سائر أعمالها : فقضاتها مالكية ، وفى الحاضرة كبير المفتين الحنفى ويلقب بشيخ الاسلام وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع ، والمالكى وله المقام الثانى ، وقد تساهلوا الآن

---

(١) انظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالشارى طبع سنة ١٩٠٩م بمطبعة بريل .

(٢) انظر ما كتبه أحمد تيمور باشا فى كتاب نظرة تاريخية ص ٤٢

فى تلقيبه بشيخ الاسلام أيضاً . ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفى فان من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسى جامع الزيتونة حنفية ، والنصف الآخر مالكية . وإنما امتاز الحنفى بذلك لكونه مذهب الاسرة المالكة .

« مصر » : الشافعى والمالكى ويغلب الأول فى الريف والثانى فى الصعيد والسودان ، ويكثر الحنفى وهو مذهب الدولة والمتبع فى الفتوى والقضاء والحنبلى قليل بل نادر .

« الشام » : الحنفى يشمل نصف أهل السنة بها والربع شافعية ، والربع الآخر حنابلة .

« فلسطين » : يغلب على مذاهب أهل السنة فيه الشافعى ، ويليه الحنبلى فالحنفى ، فالمالكى .

« العراق » : يغلب الحنفى فيه على مذاهب أهل السنة ويليه الشافعى وبه مالكية وحنابلة .

« الترك » : العثمانيون والالبان وسكان بلاد البلقان المذهب الحنفى .

« الاكراد » : المذهب الشافعى وهو الغالب على بلاد ارمينية لأن مسلميها من أصل تركمانى أو كردى ، والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية .

« الأفغان » : المذهب الحنفى والشافعى والحنبلى بقلة .

« تركستان الغربية » : التى منها بخارى المذهب الحنفى ، واما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعى ، ثم تغلب الحنفى بمسعى العلماء الواردين عليها من بخارى القفقازوما والاها الحنفى وفيهم شافعية .

« الهند » : الحنفى والشافعى بقلة ، وفيها مذاهب أخرى .

« الهند الصينية » : شافعية وكذلك مسلموا استرالية ، وفى البرازيل من

امريكا نحو ٢٥ الف مسلم حنفية .

« امريكا » : فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ الفاً وهم مختلفوا المذاهب

« الحجاز » : الشافعي والحنبلي وفيه حنفية ومالكية في المدن وأهل عسير شافعية .

« اليمن » : السنيون فيها وفي عدن . وحضرموت شافعية ، وقد يوجد بنواحي عدن حنفية والغالب على عمان الاباضية ولكنها لاتخلو من حنابلة وشافعية .

« قطر والبحرين » : المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد .

« الاحساء » : الغالب على أهل السنة فيها الحنبلي والمالكي .

« الكويت » المالكي .

هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الاربعة وانتشارها ولم يتعرض لانتشار المذهب الشيعي في الاقطار الاسلامية في العصر الحاضر وسنشير لانتشار المذهب الشيعي في الاقطار الاسلامية بعد عرضنا لتاريخ المذهب ونشأته .

* * *

وكما قلنا سابقاً أن هذه المذاهب قد لقيت تشجيعاً من السلطة وتعددت عوامل انتشارها وكان من اهمها انشاء المدارس لها مما يدعو الى الاقبال عليها ولنشرهنا الى بعض تلك المعاهد التي انشأت لدراسة فقه المذاهب الاربعة خاصة .

انشاء المدارس

لترويج المذاهب الأربعـــة

كانت بغداد فى العهد العباسى ربوعاً عامرة أنشئت فيها دور للعلم ، وبنيت مدارس لتعلم الفقه الاسلامى على المذاهب الأربعة ، واجريت على طلاب العلم منهم نفقات طائلة ، وقـــد انفق نظام الملك عليهم فى كل سنة ما يبلغ ستمائة الف دينار ، وكان ابو الحسن على بن محمد وزير المقتدر العباسى يقوم بنفقات خمسة آلاف طالب منهم ، وبذلك اصبحت بغداد دار هجرة يؤمها طلاب العلم من كل ناحية وصوب ، وأهم تلك المدارس هى :

١ - : النظامية : التى انشأها نظام الملك الطوسى على شاطىء دجلة سنة ٤٥٧ هـ وبنى حولها اسواقا وجعلها وقفاً عليها مع كثير من الضياع والخانات والحمامات .

٢ - : التاجية : وقد بنيت سنة ٤٨٢ هـ بناها تاج الدين ابو الغنائم المتولى لتدبير دولة ملك شاه بعد نظام الملك .

٣ - : التتوشية : التى بناها خمار تكين خادم تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق ، وهى خاصة لاصحاب ابى حنيفة فقط .

٤ - : باب الازج بنيت لثقة الدولة ابى الحسن على بن محمد القزوينى .

٥ - : مدرسة ابن دينار : بنيت لأبى حكيم ابراهيم بن دينار البغدادى الفقيه الشافعى .

٦ - : مدرسة زيرك أو مدرسة سوق العميد : خاصة للحنفية .

٧ - : المدرسة الشرابية : انشأها شرف الدين اقبال الشرابى سنة ٦٢٨ على عهد المستنصر بسوق العجم .

٨ - : المدرسة البشيرية : انشئت بالجانب الغربى من بغداد وقد أمرت ببنائها حظية المستعصم وجعلتها وقفاً على المذاهب الاربعة ، ووقفت عليها أوقافاً كثيرة .

ولكن أهم تلك المدارس هى المستنصرية التى مرت الاشارة اليها فى الابحاث السابقة وقد وصفها السيوطى (١) وابن بطوطة فى رحلته وابن الفوطى (٢) وغيرهم . وكانت تعد هذه المدرسة كالجامعة لتخريج العلماء على المذاهب الأربعة فى ذلك العصر .

أما فى مصر فكان مجموع المدارس التى انشئت للمذاهب الأربعة لا يقل عددها عن تسعين مدرسة واليك ذكر البعض منها :

١ - : المدرسة الفائزية : انشأها شرف الدين بن صاعد سنة ٦٣٦ هـ وهى خاصة للشافعية .

٢ - : المدرسة القطبية : انشئت سنة ٥٧٠ هـ انشأها الأمير قطب الدين خسرو وهى للشافعية .

٣ - : المدرسة السيوفية : انشئت سنة ٥٧٢ هـ وهى للحنفية انشأها الملك الناصر صلاح الدين ايوب واوقف على مستحقيها ٣٢ حانوتا .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٨٥ ط بولاق .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٥٣

٤ - : المدرسة الفاضلية انشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم سنة ٥٨٠ وجعلها لفقهاء الشافعية والمالكية .

٥ - : مدرسة المحلى انشأها برهان الدين ابراهيم بن على المحلى .

٦ - : المدرسة الفارقانية انشئت سنة ٦٧٦ هـ وهى للشافعية والحنفية .

٧ - : المدرسة الشريفية : انشأها أحد امراء مصر فى الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ هـ وهى للشافعية .

٨ - : المدرسة الصالحية : أنشأها الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ للفقهاء الأربعة .

٩ - : المدرسة الكاملية : انشأها السلطان ناصر الدين محمد بن الملك العادل للشافعية .

١٠ - : المدرسة الظاهرية : للشافعية والحنفية .

١١ - : المدرسة القطبية : انشئت فى القرن السابع بوصية من الست عصمة الدين مونسة خاتون (١) .

ولا يسعنا ذكر بقية المدارس التى انشأت فى سائر الاقطار الاسلامية للمذاهب الاربعة ونكتفى بهذه الاشارة الى عظيم تشجيع الدولة والامراء فى تلك العصور لنشر العلم طبقاً للمذاهب الأربعة فقط ليلتزم الناس التمسك بها دون غيرها :

اما مذهب اهل البيت وهو المذهب الجعفرى فلم يلق تشجيعاً من دولة أو تاييداً من سلطة بل الامر بالعكس فهو عرضة لمقاومة السلطة وهدفاً لسهام الاتهام بكل مالايليق به وقد صمد المذهب امام تلك الحوادث متمسكا بمبادىء أهل البيت ممتثلا وصايا رسول الله ﷺ فى آله حتى انتشر على وجه البسيطة بقوته الروحية والآن نتحدث عنه باختصار .

---

(١) انظر الخطط المقريزى ج ٤ من ص ١٩١ الى ٢٦٢

المذهب الجعفرى

نشأته وعوامل انتشاره

هو مذهب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وهو أقدم المذاهب نشأة وأقواها عاملا ، يستمد تعاليمه من الينبوع الاسلامى الفياض : القرآن الكريم وسنة نبيه ، وقد غرس النبى ﷺ بذرته ووجه الناس اليه بتعاليمه وارشاداته وعمل به فى زمن الصحابة ، وقام بنشره جماعة منهم كأبى ذر الغفارى وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر وغيرهم كما يأتى بيانه .

واختصاصه بالامام الصادق للاسباب التى مر ذكرها عند حصول تلك الفترة بين شيخوخة الدولة الاموية وطفولة الدولة العباسية ، وفيها اتسع المجال للامام الصادق عليه السلام لنشر العلم وهو امام عصره فتوسع فى بث الأحكام الإلهية ، ونشر التعاليم النبوية التى استقاها عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ ، عند رفع تلك الرقابة التى جعلها الامويون للحيلولة بين الامة وبين أهل البيت ، فاشتهر فى ذلك العصر ذكر جعفر بن محمد واتسعت أمامه حرية القول وحرية النقض والابرام فى شأن الحقائق الدينية من جهة والمشتبهات والموضوعات على غير اساس صحيح من الاحاديث والسنة من جهة اخرى وازدحم طلاب العلم على أبواب مدرسته ، وكثرت الهجرة اليها ، فنسب المذهب اليه فى عهد ازدهار العلم لأن كل ما ذهب الامام الصادق الى تصويبه والوثوق بصحته من الاحكام اصبح بجملته يسمى (مذهب جعفر الصادق عليه السلام)

ولم يكن المذهب الجعفرى كسائر المذاهب الاسلامية فى تطور نشأته وعوامل انتشاره بل امتاز باستقلاله عن مقومات المادة ومؤازرة السلطة واستطاع بمؤهلاته الذاتية اخضاع الزمن واجتياز العقبات التى تقف فى طريق نشره .

ولو لا فيض من القدسية فى مبادئه ، وقوة روحية فى تعاليمه ، وعناية قبل كل شىء من الخالق الحكيم رحمة بهذا الخلق المتعوس ، لقضت عليه السلطات بمحاولتها القضاء عليه ، فكان نصيبها الفشل ونصيبه النجاح .

وقد اتضح لنا بالبحث عن المذاهب الاسلامية ودراساتنا للظروف التى تكونت فيها والعوامل الرئيسية لنشر البعض وخمول البعض الآخر ، انما هو لتدخل السلطة التنفيذية ، فقد أخذت على عاتقها نشر ما ترتضيه منها ومعارضة المذهب الذى لا يروق لها نشره ، وكانت الأسباب التى أدت الى محو تلك المذاهب البائدة بعد شهرتها بين المسلمين هى عدم المؤازرة والترغيب من قبل الدولة ، كما مرت الاشارة اليه .

* * *

اما مذهب أهل البيت فقد بذلت السلطات جهودها على قمعه ادواراً متعاقبة . وكان لكل دولة غايات تعمل على تحقيقها فى مقابلة أهل البيت ، والوقوف فى طريق انتشار مذهبهم فى البلاد الاسلامية ، أما الدولة الاموية فكانت مدفوعة للمعارضة بأمور ثلاثة :

١ ـ العداء للبيت النبوى عداء ذاتياً متأصلا ، توارثته الأبناء عن الآباء ولم يغير الاسلام من وجهة نظرهم هذه أى شىء ، بل يزداد حقدهم كلما زاد انتشار الاسلام بالصورة التى أرغمتهم على الدخول فيه استسلاما لقوته

٢ ـ ان مذهب أهل البيت بانتشاره فى عهدهم وعدم معارضتهم له ، معناه الضربة القاضية على الدولة للتفاوت العظيم بين سياسة أهل البيت وسياسة الامويين فى اشاعة العدل والمساواة بين الطبقات الاجتماعية ، ونشر التعاليم الاسلامية .

٣ ـ انهم بدون شك لا يجهلون أنفسهم ومؤهلاتها للخلافة الاسلامية

ويعرفون الأمة واتجاه أنظارها لآل محمد ﷺ ولا توجد أى نسبة بين الأمويين وبين أهل البيت ، فاذا تركوا الامور تسير بمجراها الطبيعى يوشك أن يتأخر فوز الامويين بالخلافة (حتى يلج الجمل فى سم الخياط) وهم يعلمون هذا فاتخذوا تلك التدابير لنجاح أمرهم وإن كان فى ذلك تأخر المسلمين عن التقدم السريع حيناً من الدهر .

* * *

وعلى اى حال فقد واجه محبوا على عليه السلام وانصاره فى عهد معاوية انواع الاذى وضروب المحن ، وقد استعمل شتى الوسائل فى معاقبتهم ومنع الناس من الرواية عن على عليه السلام فكان المحدثون يكنون عنه بابى زينب خشية العقوبة من التصريح باسمه عليه السلام .

ويصور لنا اهتمام معاوية فى محو ذكر على عليه السلام ولاية زياد على الكوفة وتتبعه لشيعة على عليه السلام تحت كل حجر ومدر حتى حملهم على البراءة من على عليه السلام ولنا فى قتل حجر بن عدى واصحابه رحمهم الله اكبر دليل على محاولة معاوية على ذلك كما سنبينه قريباً .

ولا نطيل الحديث حول الجهود التى بذلها معاوية فى الوصول لتلك الغاية ولكنها اتعاب لم تثمر الفائدة التى كان يسعى لتحصيلها .

فقد انتشر مذهب أهل البيت فى عاصمة الامويين على عهـــده وازداد انتشاره على مر العصور ، وان أول من نشر المذهب فى الديار الشامية هو الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى ، فقد قام بدوره فى نشر تعاليم الاسلام ، واظهار الانكار على معاوية لسوء سيرته وتصرفه بامور الامة بما لا يتفق ونظم الاسلام فاستغاث معاوية بالخليفة عثمان لاخراج ابى ذر من الشام ليصفو له الجو ، فكان نصيب ابى ذر التبعيد عن دار الهجرة ، وموته

وحيداً بالربذة .

ولم يقض معاوية على تلك الحركة الاصلاحية التى قام بها أبو ذر ، بل توسعت بصورة أرغمته على اثارة العصبية بين القبائل وبث روح التفرقة بين الناس ، وبذل كل ما فى وسعه فى مقابلة على وانصاره كما تقدم .

وتقف الكوفة - التى هى أهم مراكز الاسلام ويعترف الأمويون بخطرها على الدولة - موقف المعارضة والانكار للاوضاع الشاذة التى ارتكبها ولاة الأمر ويترأسهم الصحابى الجليل حجر بن عدى وخلصاء أصحابه ، فقاموا يطالبون بالحق ، وينتصرون للعدل ، ويتألمون لهجر تعاليم الأسلام والخروج على نظامه المقدس ، وينبهون الأمويين على تلك الأخطاء التى ارتكبوها ، والمخالفة لاحكام الاسلام بصورة واضحة بما لا مجال للدفاع عنهم .

فكان موقف امراء الامويين فى الكوفة كالمغيرة بن شعبة موقف تريث وتانيب واستعمال طرق الاقناع لزعماء هذه الحركة عسى أن يتحولوا عن هذا الرأى ، ويسالموا معاوية ويكونوا فى جملة المؤيدين لسياسته ، ولكن الأمر يزداد شدة يوماً بعد يوم ويكثر الناقمون وبالاخص عندما أعلن الوالى زياد بن سمية على المنبر الزام الناس بالبراءة من على (ع) وشتمه وهم يرون أن على بن أبى طالب عليه السلام هو بطل الاسلام وناشر دعوته ، وأنه أقرب الناس الى رسول الله ﷺ ، وأشدهم تمسكا بالعدل والقضاء .

ولما ولى زياد الكوفة استقر رأيه ورأى معاوية على الوقيعة بهم ، فزوروا شهوداً - وما اكثرهم فى ذلك العهد - من الذين استخدمهم معاوية بصلاته فشهدوا على حجر (١) وأصحابه بما يستطيعون ان يردوا بعض

---

(١) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة بن الأدبركان من فضلاء الصحابة ومن شيعة على (ع) وحضر معه حروبه وكان على كنده يوم صفين ، وعلى الميسرة يوم النهروان -

الانكار عنهم فكانت خاتمة مطاف حياتهم فى مرج عذراء بتلك الصورة المؤلمة

* * *

لقيت الأمة فى سبيل الانتصار للحق والانضمام لجانب أهل البيت وهم أهله ، أنواع العذاب .

أما أهل البيت أنفسهم فكانوا فى الدور الاموى ـ دور الارهاب والظلم ـ يلاقون المصائب على ايدى تلك الفئة التى تضمر العداء لآل محمد وتحاول القضاء عليهم بكل وسيلة .

وتزلف الناس اليهم ، بالعداء لآل محمد ﷺ ، وتطوع آخرون لنصرتهم بضرب الأحاديث المكذوبة على صاحب الرسالة ، استجابة لاقتراح معاوية ، واتباعاً لاوامره التى أصدرها بلاطه الجائر ، فكانت هناك مجموعة أحاديث كلفت بيت مال المسلمين مئات الآلاف من الدنانير ، وقليلا ما يبذلون ، فان اولئك الدجالين يبيعونهم دينهم ، وانهم يريدون ان يجعلوا من الفارة جملا ، ويحاولون ادخال الأسد فى البيضة .

يريدون أن يجعلوا ممن حارب الاسلام هو وابوه من قبل شخصية تعترف الامة الاسلامية بانها شخصية روحانية طاهرة مطهرة ، تمنحه الامة ثقتها ، وتنقاد له بدافع العقيدة وهذا أمر لا يكون .

انهم يريدون أن يجعلوا لمعاوية حق وراثة النبى ﷺ وتولى سلطانه وهو عدوه الألد ، انهم يريدون ان يجعلوا من أبى سفيان شخصية اسلامية تتفانى فى نصرة الدين ، وهو لا يجهل أحد حاله .

ـ حمله زياد بامر معاوية فى اثنى عشر رجلا موثقين فى الحديد فقتل معاوية ستة منهم حجر واستحيا ستة وأوصى حجر من حضر من أهله أن لا تطلقوا عنى حديداً ولا تغسلوا عنى دماً فانى ملاق معاوية غداً على الجادة ، وكان قتله فى مرج عذراء سنة احدى وخمسين للهجرة .

ومن هذا وذاك فان قبول مثل هذه الامور تحتاج الى قوة تسيطر على العقل ، وتفقده التميز وتطفىء شعلته ، ولا يستبعد ما للمال من عوامل مؤثرة ، فهى فى الواقع أقوى من عامل السيف ، ولذلك أصبحت لتلك المفتريات اثرها ، وطابعها الخاص ، واذا بمعاوية تحاك له أحاديث المدح ، فيصبح (أمين هذه الامة) وخصما لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام حتى عد على عليه السلام ذلك من أعظم مصائبه فقال : (انزلنى الدهر حتى قيل على ومعاوية) ، وأصبح ابو سفيان بمقتضى تلك الاوضاع المقلوبة مسلماً صحابياً له مكانته ومناقبه .

وأبو طالب مؤمن قريش وناصر الاسلام الاول وحامى دعوته ومن بذل جهده لنصرة دعوة الحق ، وتفانيه بالدفاع عن محمد صلى الله عليه وآله بدافع العقيدة والعاطفة وموجات الحق ، تردد اناشيده وترسمها على لوحة الخلود :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

وساند النبى صلى الله عليه وآله فى دعوته وبذل أقصى جهده فى حمايته ، وأعزالله جانبه فيه ، وألجم أعداءه عن مقابلته ، كيف يسمى كافراً ولا ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وتذهب أتعابه سدى وتسند اليه كلمة الكفر ؟ ! وماذلك إلا رغبة لنوال من لا رغبة له إلا أن ينال من على عليه السلام ، ويحاول ان يخمل ذكره ، ولا ترضى نفس ابن ابى سفيان ان تكون لعلى تلك السلسلة الطاهرة التى لم تنجسها الجاهلية بارجاسها ، وهو والرسول الأعظم ركيضا رحم ورضيعا لبن .

ومعاوية نفسه يعلم من هو وابن من ، ولكنه تمكن بمكره وخدعه ، وجلب ما استطاع بخيله ورجله ، فى تركيز هذه الفكرة .

وما ذنب ابى طالب ولم يبق فى كنانته سهما إلا رماه فى نصرة الدين ،

ولكن علياً هو سبب تلك المؤاخذات المفتعلة على أبي طالب ، وما ذنب على عليه السلام إلا انه على الحق ومعاوية على الباطل ، فعداء معاوية لعلى (عداوة جوهرية يستحيل تحويلها . هى عداوة الشر للخير والخبيث للطيب والباطل للحق والكفر للايمان) .

* * *

ومهما يكن من امر فقد نشأ مذهب أهل البيت وتكون فى عهد صاحب الرسالة ﷺ فهو أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الاسلام يوم غرس دوحة شريعته الغراء جنباً الى جنب وسواء بسواء ، ولم يزل غارسها ﷺ يتعاهدها بالسقى والعناية حتى ثبتت ونمت فى حياته ثم اثمرت بعد وفاته حيث كان يتعاهدها أهل بيته وخلص أصحابه ، وقد قام كل بما يجب عليه من رعايتها ، وتحمل من نكبات واضطهاد فى سبيل حفظها من تلك السلطات التى كانت تحاول القضاء عليها لمحو ذكر آل محمد ﷺ .

وقد وقفوا امام تلك التيارات وقفة اخلاص وايمان وثبات على مبدأ الحق ، ولم يأبهوا يوماً ما الى سلطة أو سياسة ، ومرت تلك الادوار العصيبة المظلمة ، ولم يزل ذلك الغرس ثابت الجذور نامى الفروع يسقى من ماء غير آسن ، حتى أفرعت دوحته وامتدت أغصانه وأينع ثمره بحفيد النبى الكريم ووارث علمه الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام .

كان الامام الصادق عليه السلام مهتماً فى تلك الفترة المارة الذكر ببث العلوم ونشر المعارف الاسلامية بين طبقات المجتمع ، فاقبل الناس على مدرسته وازدحموا على أبوابها ينتهلون من علومه ، ويقتبسون من أنوار معارفه ، واقبلت وفود طلاب العلم من الاقطار الاسلامية حتى اصبح عدد تلاميذه والمنتمون الى مدرسته أربعة آلاف ، منهم أئمة مذاهب كابى حنيفة ، ومالك

ابن أنس ، وسفيان الثورى ، وابن عيينة ، والأعمش وغيرهم وكذلك منهم رؤساء طوائف واعلام الحديث والفقه .

وكثر التأليف فى عصره ودون فقه أهل البيت وحديثهم بصورة واسعة حتى أحصى ما دونوه فى عصره فكان أربعمائة مؤلف لاربعمائة مؤلف ممن سمعوا الحديث منه ، فدونوه وعرفت بالاصول الاربعمائة (١) وستأتى الاشارة لذلك .

* * *

وبالجملة فان مذهب أهل البيت عليهم السلام هو اقدم المذاهب ، وقد تخطى فى العصر الاموى تلك العقبات التى حاول الامويون بها أن يعرقلوا سيره ، ويقفوا فى طريق انتشاره ، وسيأتى بيان مقاومة العباسيين له ، ومعارضتهم لانتشاره .

واود هنا أن أعود للاشارة عما تجناه ابن خلدون على الحقائق التاريخية اذ يصف هذا المذهب بالبدعة حيث يقول فى مقدمته : وشذ أهل البيت فى مذاهب ابتدعوها ، وفقه انفردوا به (٢) .

وليس من الغريب صدور مثل هذا القول من رجل كان يحقد على العرب ويضمر لهم كل سوء ، وليس ببعيد تحامله على سادة أهل البيت وأئمة المسلمين فهو يتعصب عليهم ، ويتجاهل مكانتهم ، هذا مع جهله بمذهبهم فانه لم يقرأ كتب المذهب وانما قرأ كتب الخصم ، ولم يتصل بزعمائه ، وانما اتصل باعدائه ، فراق له ما سمع من قالة السوء ، واستعذب ما قرأ فى كتب المناوئين لآل محمد ﷺ وشيعتهم .

---

(١) سيأتى بيان هذه الاصول عند ذكر تدوين الفقه الجعفرى .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون / ٢٧٤

ولعل هالة الاكبار والتقدير لابن خلدون التى احاطت بشخصيته من قبل بعض الكتاب ابعدتهم عن الوقوف على شخصية هذا الرجل بواقعها ، والتعرف على ما تضمنته مقدمته من اخطاء ومخالفات للحقيقة .

ولقد رأينا دوماً أن ابن خلدون موضع اجلال اكثر الباحثين والكتاب ، سيراً على طريقة السلف ، ونجد برغم ما تضمنته مقدمته من علوم فى الأجتماع والعمران . الا أن ذلك لايبيح لنا أن نتغاضى عن مواقف وقفها تجاه العرب وحضارتهم ، فيجردهم من ذلك ويسلبهم فضائلهم فيصفهم بأنهم امة متوحشة ، وهم اهل نهب وعبث ، بل هم اداة خراب للاوطان التى يتغلبون عليها الى غير ذلك مما يدلنا بكل وضوح على تعصبه أو تجاهله كما يصفه لنا الاستاذ موسى سلامة بقوله :

والخطأ البارز فى ابن خلدون : هو تنقصه حضارة العرب ، فانه هنا اعمى كامل العمى ، لا يرى بصيصاً من نور . . . ، هذا مع انى احتفظ له بحيانات شخصية وثقافية ، فانه مثلا خان معظم الامراء والملوك الذين خدمهم ثم انه سرق كلما كتبه اخوان الصفا وعزاه الى نفسه . . .

ولا ادل على تجاهله او تحامله من كلمته هذه فى مذهب اهل البيت ووصفه لهم بالشذوذ .

ولوكان له قليلا من التأمل لما قال هذا القول الذى لم يتوصل اليه بالنتائج العلمية وهذه الكلمة هى التى بعثتنا على خوض غمرات البحث والتعرف على المذاهب ، وعوامل انتشارها ، وأسرار نجاح المذاهب الأربعة واسباب خلودها دون غيرها من مذاهب المسلمين ، فاتضح لنا ان ذلك مستنداً الى دواعى السلطة ، واغراء المادة ، التى من أجلها نسى ابن خلدون نفسه ، فجرى قلمه بظلم الحق والحقيقة .

ولا يستبعد ذلك من انسان تربع على دست قضاء دولة لا ترغب فى اظهار فضل آل محمد ﷺ اسوة باخواتها التى سارت على ذلك من قبل ، فهو عبد لسلطانه ، وأسير لشيطانه .

ورأى ابن خلدون هذا لاينبعث إلا عن جهل ، أو عقل أعمى لايبصر الحقائق ، فيجهل مواقف آل محمد فى الدفاع عن الاسلام ، وتفانيهم فى نشر تعاليمه وتعليم الناس احكام الاسلام وفرائضه ، ومحاربة ذوى العقائد الفاسدة ، وقيامهم بتعليم الأمة مستمدين من الرسول الاعظم ﷺ بما لامجال للشك فى ذلك ، ولكن ابن خلدون لتحامله نقل كثيراً من الاشياء مبتعداً عن طريق الواقع ، وقد صبها فى قالب رغباته ، وتساهل فى ابداء الحقيقة ، وجعلها فى طيات الخفاء والكتمان .

ولنعود الى الحديث عن المذهب الجعفرى فى العصر العباسى تحت عنوان :

فى أدوار التاريخ :

كانت سيطرة الطبقة الحاكمة تلجىء المفكرين الى كبت الشعور ، وتلجم الألسن عن قول الحق ، ومن التجأ الى المعارضة فقد عرض نفسه الى السخط وجعلها هدفا للنقمة ، وبذلك ضاعت اكثر الحقائق وأثرت تلك السيطرة على سير المسلمين وتقدمهم لعدم الحرية فى الرأى والعقيدة بخلاف ما قرره نظام الاسلام ، ولولا ذلك لما حدثت تلك الحوادث التى أخرت المسلمين .

لقد كان اولئك القوم يلتجئون دائماً الى خلق مشكلات يفرقون بها كلمة الامة ، ويثيرون الشحناء ويشغلون الافكار لاستخدام الاكثر لمصالحهم

الذاتية ، وقد أجهدوا أنفسهم بربط العقائد فى دستورهم الذى يتمشى مع رغباتهم ، وان أهم مشكلة فى تاريخ الاسلام هى مشكلة الخلافة أو الاعتقاد بالامامة بأنه منصب إلهى كالنبوة . فكما ان الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة التى هى كنص من الله عليه فكذلك يختار للامامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه فالنبى ﷺ مبلغ عن الله والامام مبلغ عن النبى ﷺ .

والشيعة تعتقد أن تلك المنزلة لم تحصل إلا لعلى وولده والامامة متسلسلة فى اثنى عشر اماماً كما نص النبى ﷺ على ذلك . ولا ترى تلك الخلافة الإلهية لغير على وبنيه عليهم السلام ، ولا يسعنا التعرض لبحث الامامة ولكننا نريد الاشارة بهذه العجالة الى الادوار التاريخية التى سار فيها شيعة آل محمد ﷺ فى المحافظة على وصايا النبى ﷺ من التمسك بالكتاب والعترة .

وقد قام أصحاب محمـــد ﷺ فى نشر تلك الدعوة فى الصدر الأول وتحملوا ما تحملوا فى سبيل ذلك ، ومر ذكر الدور الاموى وما لقى فيه آل محمد ﷺ وشيعتهم من الاضطهاد والمحنة فلا نتعرض للبيان باكثر من ذلك .

ويجدر بنا الاقتصار على ذكر العصور والادوار المتأخرة عن ذلك العهد .

* * *

كان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة النطاق والنهضة العلمية التى ازدهرت فى عصر الامام الصادق عليه السلام هو انتشار مذهب أهل البيت فى الاقطار الاسلامية .

وكانت الدولة العباسية فى طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب من وراء الستار إذ ليس فى امكانهـــا التظاهر فى المعارضة لأنهم فى حاجة ملحة لاستمالة أعيان أهل البيت والاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركان الدولة .

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الامام الصادق عليه السلام والتاريخ يدلنا بوضوح على ذلك .

أما مالك بن أنس فقد كان فى حياة الامام الصادق عليه السلام كأحد رجال المدينة ولم ينتشر ذكره إلا فى سنة ١٤٨ هـ وهى سنة وفاة الامام الصادق ، وكان ضربه بالسياط واهانته فى سنة ١٤٦ هـ أى قبل وفاة الامام الصادق باقل من سنتين ، وبعد سنة ١٤٨ هـ وجه المنصور نظره نحو مالك وأمره أن يضع كتابا يحمل الناس عليه ويوزع نسخاً فى الامصار ولا يكون غيره .

وكان غرض المنصور من ذلك هو معارضة انتشار مذهب أهل البيت لأنه يثقل عليه تخليد ذكر جعفر بن محمد عليه السلام وقيام ولده الامام موسى بن جعفر عليه السلام بعده والتفاف الناس حوله حتى لقبوه بالعالم وهو هو فى زهده وورعه وعلمه .

لم يغب عن مالك مغزى هذا التكليف فاجابه : يا أمير المؤمنين لاتفعل أما هذا الصقع فقد كفيتكه ، وأما الشام ففيه الرجل الذى علمته يعنى الاوزاعى ، وأما أهل العراق فهم أهل العراق .

فكان المنصور يشد أزر الاوزاعى ويراسله ويلحظ مالكاً ويواصله حتى ازدحم الناس على باب داره التى أصبحت كأبواب دور الملوك ، وبذل جهده بالانتصار الى أهل الرأى وهو يأمل من وراء ذلك كله تغليب مذهبه على مبادىء أهل البيت ، ولما اشتد جانب الدولة وقوى ساعدها ، أظهر المنصور ما كان يضمره ، فاعلن مقاومة أهل البيت ومعارضة انتشار مذهبهم ، وشدد النكير على أهله .

* * *

وكان المنصور يأمل بالامام ابى حنيفة عندما رعاه بعنايته ونصره

وقدمه على كثير من الفقهاء أن يوجد منه شخصية علمية تقف امام انتشار مذهب جعفر بن محمد عليه السلام ولكنه قد خاب امله ، فهذا الامام ابو حنيفة يصرح للملأ بأنه مارأى أعلم من جعفر بن محمد عليه السلام وأنه أعلم الامة (١) .

وسأله رجل يوماً عن رجل وقف ماله للامام فمن يكون المستحق ؟ فاجاب أبو حنيفة : المستحق هو جعفر الصادق لأنه هو الامام الحق (٢) .

وذهبت تلك المحاولات فاشلة ولم يزل المذهب الجعفرى يتسع فى الاقطار وينتشر فى العواصم ، وكثرت اتباعه رغم تلك المحاولات والخطط التى خطها المنصور ومن بعده المهدى والهادى والرشيد ، وقد بذل الرشيد كل ما فى وسعه من تحويل انظار الناس عن آل محمد ، وأظهر تعظيم مالك بن أنس ، فكان يجلس بين يديه تأدبا يتعلم منه العلم ، ويأمر أولاده وخواصه باحترامه .

وكان يقرب الفقهاء وينظر الى الشافعى نظر عطف وحنان لأنه قرشى وأرسله الى مصر صحبة الوالى ، وأمره باحترامه وإكرامه ، وتقريب أصحابه واعطاه سهم ذى القربى .

وقد عامل اهل البيت بالشدة والقسوة ، من تتبع انصارهم ، والقضاء على من اتهمه فى موالاتهم ، حتى ثقل عليه ان يكون على بن ابى طالب عليه السلام رابع الخلفاء ، فحاول ان ينفى ذلك ويعاقب من يثبته .

قال أبو معاوية : دخلت على هارون الرشيد فقال لى : يا ابا معاوية هممت بمن اثبت خلافة على فعلت به وفعلت . قال أبو معاوية : فسكت فقال لى : تكلم قلت : إن اذنت لى تكلمت قال : تكلم .

فقلت : يا امير المؤمنين ، قالت تيم : منا خليفة رسول الله . وقالت

---

(١) جامع أسانيد ابى حنيفة ج ١ ص ٢٢٢

(٢) تاريخ العلويين محمد امين غالب ص ١٤٠

عدى : منا خليفة رسول الله . وقالت بنو امية : منا خليفة الخلفاء ، فاين حظكم يا بنى هاشم من الخلافة ؟ والله ما حظكم إلا ابن ابى طالب (١) وبهذا استطاع ابو معاوية ان يصرف الرشيد عن رأيه .

واستعمل فى معاملة أهل البيت مالا يستعمله أحد وفيه صبابة من الرحمة ، لقد سجن الامام موسى بن جعفر عليه السلام وهو عالم عصره ، ومن له السلطة الروحية ، وضيق عليه حتى قتله بالسم وبذلك انزل بالمسلمين خسارة فادحة اذ لم يتهيأ لهم الاتصال بالامام والأخذ من علومه وآرائه إلا فى مدة قليلة ، وتتبع بقية أهل البيت وشيعتهم ، وطلبهم تحت كل حجر ومدر ، وكان بحكم السياسة العمياء التى لا تعرف إلا غايتها ، ولا تفرق بين الحق والباطل ، ولا ترى سوى السيطرة على الناس باى طريق وباى نوع كان ، فانه قد حمل الناس على العداء لآل محمد ، وحاول قلع بذرة حبهم التى غرسها الرسول ، وسقاها بماء غديره العذب ، تلك البذرة الطيبة التى اينعت فأثمرت وجنى ثمرها رجال العلم ، وصلحاء الامة ، رغم تلك المحاولات والجهود الجبارة التى بذلها العباسيون وهم يطلبون من وراء ذلك استقرار ملكهم بالوراثة الشرعية ، بادعائهم الخلافة دون آل على بن ابى طالب عليه السلام .

دخل شريك القاضى على المهدى . فقال له المهدى : ما ينبغى ان تقلد الحكم بين المسلمين ، قال : ولم ؟

قال : لخلافك على الجماعة . وقولك بالامامة .

فقال شريك : اما قولك بخلافك على الجماعة ، فعن الجماعة اخذت دينى فكيف اخالفهم وهم اصلى فى دينى ؟ واما قولك بالامامة ، ما اعرف إلا كتاب الله وسنة رسوله . واما قولك : مثلك ما يقلد فى الحكم فهذا شىء انتم فعلتموه

---

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٤٤

فان كان خطأ فاستغفروا الله منه . وان كان صوابا فامسكوا عليه .

قال الرشيد : ما تقول فى على بن ابى طالب ؟

قال : ما قال فيه جدك العباس وعبد الله ، قال : وما قالا فيه ؟

قال : فاما العباس فمات وعلى عنده أفضل الصحابة ، وكان يرى كبراء المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل ، وما احتاج هو عليه السلام الى احد حتى لحق بالله ، واما عبد الله فانه كان يضرب بين يديه بسيفين . وكان فى حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً ، فلو كانت امامته على جور ، كان اول من يقعد عنها ابوك لعلمه وفقهه فى احكام الله ، فسكت المهدى ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلا حتى عزل شريكا (١) .

* * *

وعلى اى حال فقد تغلب المذهب الجعفرى على سائر الاقطار الاسلامية فكانت له فى بغداد من القوة والنشاط ما استطاع ان يقاوم الدولة التى كانت تنضم فى اغلب الأحيان الى جانب خصوم الشيعة ، وكان فيهم من كثرة العدد وعدة القوة ما جعلهم يستطيعون اقامة الشعائر الدينية بدون خفاء وتكتم ، وكانت الدولة تعد هذا التظاهر تهديداً لها وخطراً عليها .

وفى أيام المأمون كانت الغلبة للمذهب الجعفرى فى جميع الاقطار بل امتدت دعوة التشيع الى رجال الدولة أنفسهم فكان منهم الوزراء والامراء ، وقواد الجيش والكتاب ، ورؤساء الدواوين ، الامر الذى دعا المأمون الى التظاهر بالتشيع والميل الى العلويين ، لأنه خشى على زوال ملكه فدعا الامام على بن موسى الرضا عليه السلام الى البيعة ، والتنازل عن العرش ، ولكن الامام رد هذه الدعوة علماً منه بانها مفتعلة ولكنه تفادى ايقاع نفسه فى

---

(١) تاريخ بغداد ٩ / ٢٩٢

التهلكة بقبول ولاية العهد قبولا شكلياً لا اكثر ولا اقل .

وقبل ولاية العهد بعد أخذ ورد ، واكثر المأمون عقد المجالس للمناظرة فى الامامة وقد نجح بما دبره فى سياسته ودهائه ، إذ استمال قلوب الشيعة وامن ثورة العلويين المتوقعة وفاخر علماء الاديان الاخرى بالرضا وعلوم الرضا عليه السلام .

وفى أيام المعتصم التجأ الشيعة الى التكتم نوعاما ، ونراهم يخرجون على الدولة بعدة كاملة ، وقوة لم تستطع الدولة معارضتها ، وذلك عندما استخرجوا جنازة الامام الجواد عليه السلام فى سنة ٢٢٠ هـ عندما حاول دفنه سراً ، ولا يسمح لأحد فى تشييعه ، ولكن الشيعة خرجوا بذلك الموكب المهيب الذى يربو عددهم على اثنى عشر الف والسيوف على عواتقهم ، فشيعوا جنازة الامام رغم معارضة السلطة .

* * *

وأشتد الأمر وعظمت المحنة فى أيام المتوكل العباسى فكان بغض على وشيعته يأكل قلبه كما تأكل النار يابس الحطب ، وكان لا يذوق طعم الراحة ولعلى عليه السلام ذكر فى الوجود ولشيعته مجتمع زاهر بالعلم محتفظ بكرامته ، مستقل بمواهبه ، منفصل عن الدولة ، وتتبع العلويين وحط من كرامة أهل البيت ولم يسمح لأى احد ان يذكرهم بخير .

ويدلنا على شدة بغضه وتحامله أن نصر بن على الجهضمى حدث بحديث عن النبى صلى الله عليه وآله انه اخذ بيد الحسن والحسين وقال : (من احبنى واحب هذين واباهما وامهما كان معى فى درجتى يوم القيامة) ، فامر المتوكل بضربه الف سوط الى ان كلمه جعفر بن عبد الواحد بان نصراً لم يكن شيعياً وانما هو من

أهل السنة ، فضرب خمسمائة سوط وعفى عن الباقى (١) .

ويحدثنا المقريزى : ان يزيد بن عبد الله امير مصر ، أمر بضرب جندى تأديباً لشىء صدر منه ، وكان عقابه حنيفياً ، وعندما احس الجندى بألم الضرب ، اقسم على الامير بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه ، فامر الامير بضربه ثلاثين سوطاً جزاء لهذا القسم ، وكتب الى المتوكل فى بغداد يخبره بخبر الجندى . فورد الكتاب على يزيد يأمره بضربه مئة سوط وحمله الى بغداد (٢) .

ولعل النطع والسيف كانت خاتمة المطاف به وامر بضرب أحمد بن محمد ابن عاصم صاحب خان عاصم الف سوط ، لاتهامه بسب الشيخين حتى مات قال فى الحضارة الاسلامية نقلا عن المنتظم : وكانت الحكومة اذا ارادت ان تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر اسم على بل يجعل سبب العقوبة انه شتم ابا بكر وعمر (٣) .

وما اكثر من عوقب بهذه الوسيلة . ولكن انصار المتوكل وحزبه الذين يرون البغض لعلى وشيعته يقربهم اليه زلفاً . نالوا بذلك إربهم فى الدنيا وعقابهم فى الآخرة .

وخلاصة القول ان المتوكل اشتد فى العداء لاهل البيت والنيل منهم . واستقدام أبا الحسن الهادى عليه السلام من المدينة الى سامراء فى سنة ٢٣٦ وعامله بالشدة والاذى وتوصل المنحرفون عن آل على الى اساءة الامام الهادى عليه السلام فسعوا به الى المتوكل وأخبروه ان فى منزله سلاحا وكتباً من شيعته فهجموا على داره ليلا ولم يعثروا على أى شىء من ذلك وما زال الامام

---

(١) الخطيب ج ٢ ص ٢٨١

(٢) الخطيب ج ٤ ص ١٥٣

(٣) سيأتى زيادة بيان فى هذا الموضوع .

الهادى عليه السلام مقيما فى سامراء الى أن مات مسموما سنة ٢٥٤ هـ وكانت مدة اقامته فيها ١٨ سنة .

* * *

ومرت الأدوار ، وتعاقبت السنين ، والشيعة يلاقون الأذى ويخوضون غمار الحروب ويواجهون المصاعب ، ويتجرعون من ولاة الأمر ضروب المحن ، كل ذلك فى سبيل نصرة آل محمد صلى الله عليه وآله ونشر مذهبهم على وجه البسيطة وما دفعهم الى تحمل ذلك إلا حبهم لآل محمد صلى الله عليه وآله وامتثالهم لأوامر النبى صلى الله عليه وآله فى المحافظة عليهم ووصاياه المتكررة باتباعهم .

ولقد بذل الشيعة كلما فى وسعهم لنصرة أهل البيت الذين عنهم يأخذون معالم دينهم ، وكانوا فى هذه الأدوار يتصلون بمدرسة أهل البيت مهما كلفهم الأمر ، فلا يقعد بهم خوف ظالم ، ولا تحول دونهم ودون الاتصال بهم تلك الارهابات التى اتخذها اعداء آل محمد صلى الله عليه وآله وسيلة لفصل الامة عنهم ، فهم من زمان على عليه السلام الى زمان الامام الحسن العسكرى يأخذون عنهم معالم الدين حتى وقعت الغيبة الصغرى . وسيأتى بيان ذلك عند ذكرنا للنهضة العلمية عند الشيعة بعد عصر الأئمة عليهم السلام .

وكان الامام العسكرى قد جلبه المتوكل مع أبيه على الهادى عليه السلام الى سامراء ، وما زال مع أبيه الى ان التحق أبوه بالرفيق الأعلى وبقى العسكرى مدة إمامته القصيرة فى سامراء (ست سنين) فى نكد وأذى ، وانفرد بعد أبيه بما يقصده به العباسيون من الاساءة والغض من مقامه والتضييق عليه والسجن الى ان اغتاله المعتمد العباسى بالسم ، فى سامراء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٦٠ هـ ودفن مع أبيه فى دارهما حيث قبرهما الآن ، وكان عمره الشريف ثمان وعشرين سنة .

وفى ذلك العهد كان مذهب أهل البيت ينتشر فى البلاد الاسلامية وأصبحت قم من عواصم العلم للشيعة وفيها من رواة حديث أهل البيت عدد كثير ومن المؤلفين فى الحديث والفقه وفنون العلم جم غفير ، وكذلك الكوفة وبغداد والمدائن وسامراء والشام عاصمة الامويين كما سيأتى بيانه .

* * *

وإن تمسك الشيعة بمذهب أهل البيت ، لا لتحزب أو تعصب ، ولا لطعن فى مذهب المسلمين أو حط من كرامة أحد من أئمة المذاهب ولكن الأدلة الشرعية أخذت باعناقهم ، لوجوب الأخذ بمذهب أهل البيت لحكم الأدلة القاطعة وتعبداً بسنة سيد النبيين ﷺ . ولو وجدوا طريقاً للأخذ عن غيرهم لاتبعوه ، ولم يتحملوا المحن فى سبيل اتباعهم ، ولكن لا طريق الى ذلك بل وجدوا الحق معهم والحق أحق أن يتبع ، ولأنهم عليهم السلام كانوا يمثلون الرسول ﷺ فى خلقه وهديه وورعه وزهده ، فهم عدل القرآن متكاتفين معه يمتثلون اوامره ويسارعون الى تنفيذه ، واطلعوا على أسرار أحكامه ودقائق أطواره والقرآن قد اشاد بفضلهم كثيراً .

ولقد بذلوا جهدهم فى هداية الناس ، كما بذلوا لهم النصح ليرشدوهم الى طرق السعادة ، وقد نشروا العلم والعدل ، وقاوموا الجهل والظلم ، وليس هذا مجرد فرض وانما هو أمر واقع وحقيقة ظاهرة لا يمكن انكارها ، ووجد الناس فيهم أئمة هدى ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه وهم دعائم الاسلام وولائج الاعتصام بهم عاد الحق الى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثيرة ورعاته قليل » .

وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومهبط الوحى ولم تسمح الادلة

بمخالفتهم والأخذ عن غيرهم .

وقد صرح النبي ﷺ بوجوب اتباعهم والتمسك بهم في مواطن عديدة واشتهر حديث الثقلين كالشمس في رائعة النهار وحديث مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى ونرى من الخير أن نذكر بعض الاحاديث الواردة عنه ﷺ في الحث على حب آله واتباعهم .

* * *

أخرج الطبراني في مسنده بالاسناد الى ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علياً من بعدي وليوال وليه ، وليقتد باهل بيتي من بعدي ، فانهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهمي وعلمي ، فويل للمكذبين بفضلهم من امتي ، القاطعين صلتي لا أنالهم الله شفاعتي » (١) .

وقال ﷺ : « في كل خلف من امتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين . وتأويل الجاهلين ، ألا وان أئمتكم وفدكم الى الله فانظروا من توفدون » (٢) .

وقال ﷺ : « فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم » .

وقال ﷺ : « اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين » (٣) .

وقال ﷺ : « اوصى من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب فمن تولاه فقد تولاني ، ومن تولاني فقد تولى الله ، ومن أحبه فقد احبني

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده .

(٢) أخرجه ابن حجر في صواعقه .

(٣) أخرجه جماعة من الحفاظ عن أبي ذر الغفاري .

ومن أحبنى فقد أحب الله ، ومن أبغضه فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله » .

وقال ﷺ : « اللهم من آمن بى وصدقنى فليتول على بن ابى طالب فان ولايته ولايتى وولايتى ولاية الله » .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس قال : قال رسول ﷺ : ما أنزل الله آية وفيها « يا أيها الذين آمنوا » إلا وعلى رأسها وأميرها .

واخرج عن حذيفة قال : قالوا : يا رسول الله ألا تستخلف علياً ؟ قال : إن تولوا علياً تجدوه هاديا مهديا يسلك بكم الطريق المستقيم (١) .

وأخرج بطريق آخر عنه ﷺ : إن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا يحملكم على المحجة البيضاء .

وأخرج النسائى فى الخصائص من طريق عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال : ما تريدون من على ؟ إن علياً منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن من بعدى (٢) .

وأخرج أيضاً من طريق أم سلمة قالت : سمعت رسول الله يقول : من سب علياً فقد سبنى (٣) .

وأخرج عن حبشى بن جنادة السلولى قال : قال رسول الله ﷺ : على منى وأنا منه فلا يؤدى عنى إلا انا أو على .

وأخرج الحاكم من طريق أبى ذر عن النبى انه قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع علياً فقد أطاعنى ومن عصى علياً فقد عصانى » .

---

(١) ج ١ ص ٦٤

(٢) انظر الخصائص ص ٣٢ ط مصر

(٣) نفس المصدر ص ٢٤

وأخرج أيضاً من طريق ابى ثابت مولى ابى ذر عن أم سلمة عن النبى ﷺ انه قال : « على مع القرآن والقرآن مع على لن يفترقا حتى يردا على الحوض » (١) .

وعن ابن عباس قال : كنا نتحدث ان اقضى أهل المدينة على بن ابى طالب .

وعن ابى هريرة قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطى على بن ابى طالب ثلاث خصال لأن تكون لى خصلة منها أحب إلى من أن اعطى حمر النعم . قيل : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل فيه ما يحل له .

وأخرج الحاكم أيضاً قال : كنا مع رسول الله فانقطعت نعله فتخلف على يخصفها فمشى قليلا ثم قال : إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرف لها القوم وفيهم ابو بكر وعمر .

قال ابو بكر : أنا هو ؟ قال : لا ، قال عمر : أنا هو ؟ قال : لا ولكن خاصف النعل . يعنى علياً فاتيناه وبشرناه فلم يرفع رأسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ (٢) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : فاين تذهبون وأنى تؤفكون والاعلام قائمة والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فاين يتاه بكم بل كيف تعمهون ؟ وبينكم عترة نبيكم وهم ازمة الحق ، وأعلام الدين وألسنة الصدق ، فانزلوهم منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاشى .

أيها الناس خذوها من خاتم النبيين إنه يموت من مات منا وليس بميت

---

(١) انظر المستدرك ج ٢ ص ١٢٢

(٢) نفس المصدر ولهذه الأحاديث طرق كثيرة ذكرها الحفاظ أعرضنا عن ذكرها .

ويبلى من بلى منا وليس ببال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون فان اكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه وانا هو ، ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر واترك فيكم الثقل الأصغر ، وركزت فيكم راية الايمان ؟

وقال عليه السلام : انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم فى ردى ، فان لبدوا فالبدوا ، وان نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا .

وأخرج الحاكم عن الكنانى قال : سمعت اباذر يقول ـ وهو آخذ بباب الكعبة ـ : من عرفنى فقد عرفنى ومن انكرنى فانا ابوذر . سمعت رسول الله يقول : « مثل اهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تأخر عنها غرق » .

وأخرج الطبرانى فى الاوسط عن عمار بن ياسر قال : وقف على علىّ سائل وهو راكع فى تطوع فاعطاه خاتمه فنزلت « إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون » الآية وأخرج السيوطى عن ابن عباس انها نزلت فى على واخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مثله وأخرج أيضا عن على عليه السلام وأخرج ابن جرير مثله ولهذا شواهد كثيرة لا يمكن انكارها . وسيأتى مزيد بيان حول هذه الآية وغيرها فى الاجزاء الآتية .

* * *

وعلى كل حال فالأخذ عن أهل البيت بموجب هذه النصوص وغيرها التى لا يسعنا حصرها لازم شرعاً والرجوع لغيرهم لا يحصل معه صحة العمل .

ونحن مع احترامنا للمذاهب الأربعة ، لا نستطيع أن نتخطى أوامر الرسول فى اتباع آله ووجوب الأخذ عنهم ولنا بحديث الثقلين ، وحديث الغدير وآية التطهير ، وآية الموالاة كفاية لبراءة الذمة وصحة العمل بمذهبهم

عليهم السلام ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من أهل البيت او تهيأ لنا إيثار غيرهم عليهم أو تمكننا من تحصيل نية القربة فى مقام العمل على مذهب غيرهم لاتبعناه ، على انه لا دليل للجمهور فى رجحان شيء من مذاهبهم فضلا عن وجوبها .

كيف وأئمة المذاهب أنفسهم قد أخذوا عن أهل البيت ، وجعلوا ذلك فخراً لهم وسبباً لنجاحهم فهذا الامام ابو حنيفة كان يأخذ باقوال على عليه السلام حتى جعلوا ذلك من مرجحات مذهبه على غيره من المذاهب لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « انا مدينة العلم وعلى بابها » (١) ذكر ذلك المقدسى فى أحسن التقاسيم .

وكان ابو حنيفة يفتخر بالاخذ عن الصادق عليه السلام ويقول : « لولا السنتان لهلك النعمان » .

ونرى مالك بن انس هو أحد تلاميذ الصادق ، وعنه أخذ الشافعى واخذ أحمد بن حنبل عنه وكان الشافعى لا يروى إلا عن على عليه السلام ولذلك اتهموه بالتشيع فافتخر بذلك قائلا :

أنا الشيعى فى ديني وأصلى ... بمكة ثم دارى عسقلية
باطيب مولد وأعز فخر ... وأحسن مذهب يسمو البرية (٢)

ورماه يحيى بن معين بالرفض وقال : طالعت كتابه فى السير فوجدته لم يذكر إلا على بن ابى طالب وقد أظهر الشافعى ذلك فى قوله :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً اذا فاض الحجيج الى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان انى رافضى (٣)

---

(١) لهذا الحديث طرق كثيرة يتجاوز عددها المائة .
(٢) مناقب الشافعى للفخر الرازى ص ٥١
(٣) نفس المصدر .

وكذلك الامام أحمد كان يفضل علياً على الصحابة ، وسئل يوماً عن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ فقال ابو بكر ثم عمر ثم عثمان قيل فعلى ؟ قال : سألتموني عن اصحابه وعلى نفس محمد .

الى غير ذلك مما يطول ذكره ، على اننا نجد اهل المذاهب متفرقين كل يذهب الى رجحان مذهبه وبطلان غيره ، ويقيم كل فريق أدلة للغلبة والظهور على الآخر ولسنا بصدد البحث عن ذلك ولكن الغرض ان اخذ الشيعة عن أهل البيت انما هو لدلالة الكتاب والسنة ويرون ضرورة للاخذ باصول الدين وفروعه عنهم ، فهم سفن النجاة وأمان الامة ، وباب حطة من دخله كان من الآمنين ، والعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، واحد الثقلين لا يضل من تمسك بهما ولا يهتدى من ضل عن أحدهما .

* * *

وقد أشرنا للاسباب التى دعت لمقاومة مذهبهم من قبل ذوى النفوذ والسلطة باوهام حاولوا تركيزها بدون اقامة دليل شرعى ، ولا برهان عقلى .

وقد سرت تلك الامور المرتجلة يتلقفها السذج فماً عن فم ويتوارثونها جيلا عن جيل كقضية مسلمة ، والحق انها شبه وأوهام تناقلتها الالسن ، وساعدتها الظروف والأحوال فصعب هجرها .

ومع هذا كله فان تلك المحاولات لم تقف موقف النجاح فقد انتشر المذهب بصورة واسعة النطاق كما سيأتى بيانه .

وهنا أمر آخر لابد من توضيحه : هو ان تلك المعارضات التى اجهد الساسة انفسهم فى تركيزها ، ووازرهم على ذلك مرتزقة باعوا ضمائرهم بابخس الثمن ، إنما كانت بعيدة كل البعد عن الواقع ، ولاتجد من اولئك المتشدقين بذم الشيعة والحط من كرامة أهل البيت من اقام دليلا منطقياً يستطيع أن

يثبت ذلك الذم وذلك الحط ، وانما هم يتحمسون ويهرجون ، والحقيقة بعيدة عنهم ، والدين يتبرأ مما قالوا .

ونسبوا الى الشيعة اموراً كثيرة ، لا يسعنا عرضها الآن ، حتى انهم نسبوهم الى القول بالوهية الأئمة ، وهذا نهاية الحمق وغاية الجنون ، وان الاعتدال فى القول خير من التهور ، ومن اعتدل فكره اعتدل قوله .

من اين أخذوا ذلك عن الشيعة وبأى دليل يثبتونه . نعم حملهم بغض الشيعة والتحامل على أهل البيت بأن اضافوا الى الشيعة المخلصين طوائف الغلاة وحاولوا ربط عقائدهم بعقائد الشيعة ، مع الفرق البين وعدم امكان الارتباط ولكنهم ظلموا الحقيقة ، وتجرأوا على أهل البيت بنسبة الغلاة الى اتباعهم ، وهنا يلزمنا التعرض لذكر موقف الأئمة من التبرؤ من هذه النسبة ومعاملة الشيعة لتلك الفرق .

مشكلة الغلاة :

إن أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم واضافتها اليهم وأستطيع أن اثبت بان تلك الفرق الضالة قد وازرتهم السياسة ، وسهلت لهم الطرق ليصلوا الى غايات فى نفوسهم من تحطيم الشيعة ، والحط من كرامة أهل البيت إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينقصوهم بشيء ، والأمر واضح كل الوضوح فأن مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتعاليمهم هى المحور الذى يدور عليها نظام الاسلام

فكان دخول الغلاة فى صفوف الشيعة حركة سياسة أوجدتها عوامل من جهة ، والفتك بالاسلام من جهة اخرى ، لأن دخول الغلاة فى الاسلام كان انتصاراً لمبادئهم ، اذ لم يجدوا طريقاً للانتقام من الاسلام الا باختراع

المغالاة فى بعض العقائد الاسلامية عندما عجزوا عن مقابلته بالقوة وجهاً لوجه وانهزموا أمام قوم وطأوا أرضهم باقدام لا تتأخر خطوة الى الوراء أما الموت أو الفتح ، فاذلوا عزيزهم ، وأسروا ذراريهم ، وأخذوا منهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

وقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة ، وعرفوا الدوافع التى دعت هؤلاء الكفرة الى الالتحاق بصفوف الشيعة ، واتضح لهم غايات خصومهم الذين يريدون أن يوقعوا بهم فكان أهل البيت عليهم السلام يعلنون للملأ البراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم وامروا شيعتهم بالتبرىء منهم والابتعاد عنهم ، وتلقى الشيعة تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتثال فاعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبرىء منهم ، وافتوا بحرمة مخالطتهم واجمعوا على نجاستهم وعدم جواز غسل ودفن موتاهم وتحريم اعطائهم الزكاة ، ولم يجوزوا للغالى ان يتزوج المسلمة ولا المسلم ان يتزوج الغالية ولم يورثهم من المسلمين وهم لا يرثون منهم .

وكان الامام الصادق عليه السلام يلعن المغيرة بن سعيد ويصرح بكذبه وكفره ولعن ابا الخطاب واصحابه وجميع الدعاة الى المبادىء الفاسدة . وكان هذا الاعلان من الامام الصادق عليه السلام قد اوقف سريان دائها القاتل ، ولم يبق من تلك الفرق إلا الاسم فى التاريخ وبادت بمدة قصيرة .

وقال عليه السلام لمرازم : قل للغالية تربوا الى الله فانكم فساق كفار مشركون وقال عليه السلام له : اذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى وقل له يقول لك جعفر ابن محمد : يا كافر يا فاسق انا برىء منك .

قال مرازم : فلما قدمت الكوفة قلت له يقول لك جعفر بن محمد : يا كافر يا فاسق يا مشرك انا برىء منك ، قال بشار : وقد ذكرنى سيدى

قلت : نعم ذكرك بهذا ، قال : جزاك الله خيراً .

ولما دخل بشار الشعيرى على ابى عبد الله الصادق عليه السلام قال له : اخرج عنى لعنك الله ، والله لا يظلنى وإياك سقف ابدا ، فلما خرج قال عليه السلام : ويله ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر انه شيطان بن شيطان خرج ليغوى اصحابى وشيعتى فاحذروه وليبلغ الشاهد الغائب انى عبد الله وابن امته ضمتنى الاصلاب والأرحام ، وانى لميت ومبعوث ثم مسؤول .

وكتب الامام الحسن العسكرى عليه السلام ابتداء منه الى احد مواليه : إنى أبرأ الى الله من ابن نصير الفهرى وابن بابه القمى فابرأ منهما ، وانى محذرك وجميع موالى ومخبرك انى العنهما عليهما لعنة الله ، يزعم ان بابا انى بعثته نبياً وانه باب ، ويله لعنه الله سخر منه الشيطان فاغواه فلعن الله من قبل منه ، يامحمد إن قدرت أن تشدخ رأسه فافعل .

وقال ابو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لاصحابه : لعن الله المغيرة بن سعيد لعن الله يهودية كان يختلف اليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق ، ان المغيرة كذب على ابى ، وان قوما كذبوا على ما لهم ! أذاقهم الله حر الحديد فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا ما نقدر على ضر ولا نفع إلا بقدرته ، ان رحمنا فبرحمته وان عذبنا فبذنوبنا ، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول فى أنفسنا ، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذى خلقنا واليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا .

وقال عليه السلام : ان ابا منصور كان رسول ابليس : لعن الله ابا منصور ، قالها ثلاثاً .

وقال عليه السلام : إنا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد ان يسقط صدقنا بكذبه علينا ، ثم ذكر المغيرة وبزيغ والسرى

وأبا الخطاب ، ومعمر وبشار الشعيرى وحمزة اليزدى وصائد النهـــدى ، فقال : لعنهم الله اجمع وكفانا مؤنة كل كذاب .

وعن حمدويه قال : كنت جالساً عند ابى عبد الله وميسرة عنده فقال له ميسرة : جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون الى هذا الموضع فانقطعت اخبارهم وآثارهم وفنيت آجالهم .

قال عليه السلام : ومن هم ؟ قلت : ابو الخطاب واصحابه ، فقال عليه السلام - وكان متكئاً ورفع بنظره الى السماء - : على ابى الخطاب لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، فاشهد بالله انه كافر فاسق مشرك ، وانه يحشر مع فرعون فى اشد العذاب .

وذكر عنده اصحاب ابى الخطاب والغلاة فقال عليه السلام : لا تقاعدوهم ، ولا تواكلوهم ، ولا تشاربوهم ، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم .

وقال عليه السلام : ان من الغلاة من يكذب حتى ان الشيطان يحتاج الى كذبه .

وقال عليه السلام : ان قوماً يزعمون انى لهم امام والله ما انا لهم بامام مالهم لعنهم الله ! أقول كذا ويقولون كذا ، انما انا امام من اطاعنى ، ومن قال باننا انبياء فعليه لعنة الله ، ومن شك فى ذلك فعليه لعنة الله (١) .

* * *

هذا بعض ماورد فى الغلاة الذين حاول خصوم آل محمد الحاقهم بالشيعة لغاية الحط من كرامة المبدأ وليظهروهم للملأ بابشع المظاهر وأشنعها ، ويعلنوا للعالم ان الشيعة يعتقدون فى الأئمة الألوهية ، فلا يصلح عدهم من المسلمين فتراق بذلك دماؤهم وتنهب أموالهم ، وكم حدثنا التأريخ عن تلك الفظايع

---

(١) انظر كتاب الشيعة فى التاريخ .

السود ومن أراد ان يعرف موقف الشيعة من طوائف الغلاة فليرجع الى كتاب روض الجنان للشهيد الثانى المتوفى سنة ٩٩٦ هـ ، ونهج المقال للمرزا محمد الاستربادى المتوفى سنة ١٠٢٦ هـ والانتصار للسيد المرتضى سنة ٤٣٦ هـ ، والتهذيب للشيخ الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، والسرائر لابن ادريس المتوفى سنة ٥٩٨ هـ والمنتهى ، ونهاية الأحكام ، والتذكرة والقواعد ، والتبصرة للعلامة الحلى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ والبحار للشيخ المجلسى المتوفى سنة ١١١ هـ ، والدروس للشهيد الأول المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ، وجامع المقاصد للشيخ على الكركى المتوفى سنة ٩٤٠ هـ والشرايع والمعتبر والنافع للمحقق ابى القاسم الحلى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ والجواهر للشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ وغيرها من آلاف الكتب الفقهية التى تنص باجماع على كفر الغلاة ونجاستهم وبعدهم عن الدين ولا رابطة بينهم وبين الشيعة .

كما ان كتب الرجال طافحة بذمهم والتبرؤ منهم ومن معتقداتهم ، ويلعنونهم بلغة واحدة .

فاملنا بابناء المستقبل ان لا يركنوا الى الأوهام والاباطيل وان يطلبوا الحقيقة فالعلم يطلب منهم اداء رسالته والحق يدعوهم الى مؤازرته فقد آن ان تماط عن العيون غشاوات التعصب التى منعتها من رؤية الحق وابرزت الواقع معكوساً إذ هى كعدسة المصور فليعتدل الكتاب عن هذه السيرة الملتوية وليغيروا خططهم ولغتهم فى ذكر الشيعة ولا يلتفتوا لأوضاع تلك العصور المظلمة التى جنت على الاسلام جناية لا تغفر ، وملأوا القلوب بالاحقاد والضغائن ونسبوا مبدأ التشيع الى عبد الله بن سبأ اليهودى وطعنوا بذلك على اصحاب محمد ﷺ الذين عرفوا بتشيعهم لعلى ويتجاوز عددهم المئات وغيرهم ممن تكتم جريا مع الظروف ومتابعة الأحوال على ان كلمات اللغويين

والمفسرين قد اجمعت على ان معنى الشيعة هى الموالاة لعلى إذ أصبح علماً فى ذلك .

عبد الله بن سبأ :

اما عبد الله بن سبأ ، ذلك الشخص الوهمى الذى وصفوه بصفات البطولة والاقدام ، وهو صاحب السلطة المطلقة فى المجتمع الاسلامى وقالوا عنه أنه استطاع أن يسيطر على أهل مصر ويقود منهم جيشاً لقتل الخليفة عثمان وان ابا ذر تعلم منه ، وعماراً أخذ بارائه ، وحرب الجمل من دسائسه ، ووقعة صفين من تصلبه ومبادىء التشيع من تفكيره و . و . و . وقد ورد ذكره فى كثير من الكتب حتى اصبحت قصته وكأنها حقيقة ملموسة وقضية واقعية .

والذى يلفت النظر هو أنه بعض الشيعة ترجموا له ، وذكروه للتبرىء منه ، وأخف عبارة يقولونها فى ترجمته : عبد الله بن سبأ ألعن من ان يذكر .

واذا اردنا أن نرجع لواقع هذه الشخصية ، وما لها من صلة فى الواقع وذلك على ضوء البحث الدقيق ، فان النتائج العلمية تثبت لنا عدم ثبوت هذه الشخصية ، وأنها اسطورة وحديثها حديث خرافة ، وهى من مبتكرات التعصب الطائفى ، ودسائس السياسة ، للحط من قيمة مذهب أهل البيت ، والوقيعة فى شيعتهم .

ولو أن هؤلاء الذين ذكروا عبد الله بن سبأ بتلك الصورة المدهشة ، لينالوا من مقام الشيعة ، وقفوا قليلا امام مصادر هذه الاسطورة ، ومنحوا لها بعض الوقت من التأمل ، لانكشف لهم الواقع وظهر أن المصدر الوحيد

هو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ولم يسبقه أحد فى ذكرها ، والكل رواها عنه وهو يرويها عن سيف بن عمر بسلسلة مظلمة مجهولة وسيف قد أجمع علماء الرجال على أنه كذاب وسيأتى الحديث عن قصة ابن سبأ فى الجزء السادس .

ولنصغى الآن الى حديث الاستاذ كرد على حول مذهب التشيع وعلقة ابن سبأ به . يقول الاستاذ كرد على فى خطط الشام :

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة على فى عصر رسول الله ﷺ مثل سلمان الفارسى القائل : بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والإئتمام لعلى بن ابى طالب والموالاة له ، ومثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول : أمر الناس بخمس فعلوا باربع وتركوا واحدة ولما سئل عن الاربع ، قال : الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج ، قيل فما الواحدة التى تركوها ؟ قال : ولاية على بن ابى طالب .

قيل له : وإنها لمفروضة معهن ، قال : نعم هى مفروضة معهن .

ومثل ابى ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وذى الشهادتين خزيمة بن ثابت ، وابى ايوب الأنصارى ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وقيس بن سعد بن عبادة .

واما ما ذهب اليه بعض الكتاب من أن مذهب التشيع من ابتداع عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم ، ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وأعماله وكلام علمائهم فى الطعن فيه بلا خلاف بينهم فيه علم مبلغ هذا القول من الصواب ، ولا ريب فى أن أول ظهور الشيعة كان فى الحجاز بلد المتشيع له . انتهى . (١)

* * *

(١) الخطط ج ٦ ٢٥١ ـ ٢٥٦

ويقول الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمه الله - حول الغلاة ونسبتهم للشيعة - .

أما الشيعة الامامية فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم على أن تلك الفرق لا تقول بمقالة النصارى بل خلاصة مقالتهم بل ضلالتهم : ان الامام هو الله سبحانه ظهوراً واتحاداً أو نحو ذلك مما يقول به كثير من متصوفة الاسلام ومشاهير مشائخ الطرق ، وقد ينقل عن الحلاج والكيلانى ، والرفاعى ، والبدوى وأمثالهم من الكلمات - وان شئت فسمها كما يقولون شطحات - ما يدل بظاهره على ان لهم منزلة فوق الربوبية ، وان لهم مقاما زائداً عن الالوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود .

أما الشيعة الامامية وأعنى بهم جمهرة العراق وايران وملايين المسلمين فى الهند ومئات الالوف فى سوريا والافغان فان جميع تلك الطائفة من حيث كونها شيعة يبرؤن من تلك المقالات ، ويعدونها من أبشع الكفر والضلالات وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق ، أو ملابسة لهم فى صفة من صفات النقص والامكان والتغيير والحدوث ، وما ينافى وجوب الوجود والقدم والأزلية ، الى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم فى الحكمة والكلام من مختصرة أو مطولة .

* * *

وعلى اى حال فان الشيعة براء مما نسب اليها من الغلو واما أهل المقالات فى الغلو كالبيانية والمنصورية وغيرهم فان نسبتهم الى الشيعة ظلم - وما اكثر الظلم للشيعة - وتهجم على أمة تدين لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ولآله بالمودة واستطيع الجزم بان هذه الامور لم تخف على اولئك القوم الذين

أصبحوا يتهجمون على الشيعة بالطعن فى عقائدهم ، إذ نسبوا اليهم هذه المقالات الفاسدة التى يقول بها الغلاة . نعم انهم يعرفون الامر ولكن الحق مر لا يمكن ان تتقبله أذواقهم ، ولقد أعجزهم الأمر عن مؤاخذة الشيعة والطعن فى عقائدهم عندماوجدواطرق المؤاخذات امامهم مغلقة فلايستطيعون منها النفوذ الى مقاصدهم فالتجأوا الى هذه الخرافات والاباطيل التى لا تثبت أمام التدقيق واليحقيق .

كيف يستطيعون مؤاخذة الشيعة ومنهم صحابة الرسول والتابعين لهم باحسان : كأبى ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر ، وجارية بن قدامة ، وجابر ابن عبد الله الأنصارى ، وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسى ، وصعصعة ابن صوحان ، والمقداد الكندى وغيرهم . ؟ ! !

ومن الغريب أن اكثر الكتاب قد نسبوا لاصحاب محمد ﷺ تأثرهم بآراء ابن سبأ واى طعن على الاسلام وعلى رسوله ﷺ اعظم من هذا بأن يسيطر يهودى على عقول اصحاب النبى ومن تادبوا بآدابه واليك ماكتبه بعض كتاب العصر الحاضر عند ذكره لعبد الله بن سبأ ونسبة ظهور التشيع اليه ، إذ يقول :

ان هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء ، وكان يبث دعوته بخبث وتدرج ودهاء ، واستكثر اتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشددين فى الدين المتنطعين فى العبادة الى ان يقول : وعنى بالتأثير فى أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم فى الجهاد والفتح فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المتنطعين جماعات كان على رأسهم فى الفسطاط الفاقعى بن حرب العتكى وعبد الرحمن بن عديس البلوى ، وكنانة بن بشر بن عتاب وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعى وعمر بن الحمق

الخزاعى ، وعروة بن النباع الليثى وقتير السكونى . وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ فى الكوفة عمرو بن الأصم وزيد بن صوحان العبدى والاشتر ابن مالك بن الحارث النخعى وزياد بن النضر الحارثى وعبد الله بن الأصم .

ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدى وحكيم بن جبلة العبدى وذريح ابن عباد العبدى وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسى وابن المحرش .

اما المدينة فلم يندفع فى هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر . محمد بن ابى بكر ومحمد بن حذيفة وعمار بن ياسر (١) .

هكذا يقول ونبرأ الى الله مما يقول ليت شعرى أى جرأة أعظم من هذه الجرأة على أصحاب محمد ﷺ ووصفهم بهذه الصفة بأنهم مخدوعين بدعوة ذلك الشيطان واستجابوا لما جاء به هذا اليهودى المزعوم وهم خريجوا مدرسة محمد ﷺ ودعاة الحق واتباعه ، ولكن الشيطان خدع هذا الكاتب فجاء بهذا الافتراء وهو (يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أن من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير) .

ونحن نامل من كتابنا الذين يكتبون لذات الحق ولا يميل بهم الهوى ولا تستولى عليهم النزعات الطائفية - أن يوجهوا عنايتهم لاظهار الحقيقة عند دراستهم لقضية ابن سبأ بأن يدرسوها دراسة مؤرخ لا يتحيز ولا يتعصب ، ولا يقصد الا خدمة العلم واظهار الحق ، ويقف موقف المدقق على مصادرها ورواتها والظروف التى اوجدتها ، ليتضح له الامر ، ويتميز الحق من الباطل .

واعود فاقول مؤكداً : إن قضية ابن سبأ اسطورة خرافية اوجدتها

---

(١) انظر كتاب حملة رسالة الاسلام لمحب الدين الخطيب ص ٢٣

عوامل للحط من تعاليم الاسلام والنيل من رجاله ، بأنهم قد تاثروا باراء رجل يهودى فاوردهم موارد الهلكة ، من دون تميز وتفكير ، الى غير ذلك مما يؤدى اليه ايجاد هذه الخرافة من مناقضاة .

هذا مع أن سندها باطل ، وراويها وهو سيف بن عمرو كذاب ، وسيأتى التحقيق حول ذلك فى الجزء السادس من هذا الكتاب .

انتشار المذهب الجعفرى :

وخلاصة القول أن المذهب الجعفرى انتشر بقوته ومقوماته من دون استناد الى سلطة او عوامل الترغيب فى اعتناقه وان أول ظهور الشيعة كان فى بلد الحجاز ، وهو أول أرض بذرت فيه بذرة التشيع . وفى المدينة المنورة فى القرن الرابع انتشر بصورة ظاهرة وقد عظم ذلك على من يسوؤهم انتشار مذهب أهل البيت كابن حزم فقد وصف المدينة المنورة بما لا يليق بها لوجود الشيعة فيها (١) .

كما انتشر التشيع فى الشام وكان أبو ذر الغفارى هو الذى نشر المذهب هناك ، ولا يزال فى قرية الصرفند بين صيدا وصور مقام معروف باسم أبى ذر اتخذ مسجداً معموراً .

وهم اليوم عدد كثير اشتركوا فى ادارة البلاد وشغلوا مناصب مهمة فى حكومة سوريا ، ومنهم التجار والأطباء ، ولهم مركز مهم هناك ، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علناً فى عاصمة الأمويين ، ويحضرها كثير من أهل السنة ، والخطيب يفصح بمخازى معاوية ويزيد وبنى امية مستنبطاً ذلك من التاريخ الصحيح .

ويقول ابن جبير فى رحلته فى وصف المذاهب المتغلبة على الشام فى القرن السادس : ان الشيعة اكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم .

---

(١) انظر النبذ فى اصول الفقه الظاهرى لابن حزم .

ويقول كرد على : وفى دمشق يرجع عهدهم ، أى الشيعة ، الى القرن الأول للهجرة ، وفى اكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل ، وفى شمال لبنان والمنن والبترون وهم مهاجرة بعلبك ، ولا يقل عدد الشيعة فى الشام من الامامية عن مئتى الف نسمة . (١)

اما جبل عامل وهو البلد الواقع بين صفد جنوبا ونهر الادلى شمالا ، وغور الحولة وماوالاها الى ارض البقاع شرقا ، والبحر المتوسط غربا فقد كان بدء التشيع فى جبل عامل بفضل الجهود التى بذلها المجاهد فى الله أبو ذر الغفارى رضى الله عنه وانتشر بسبب دعوته ، وكانت حركة العلم واسعة حتى اليوم ، فالتشيع فى لبنان منتشر بكثرة ويسير بكل نظام وهدوء ، محفوظ الحقوق ، مرعى الجانب ، ولهم فى جامعة النجف الأشرف جماعة وتخرج منها عدد كثير من أبطال العلم ، وحملة دعوة الاصلاح ، ومنهم المجتهدون المجاهدون فى نصرة الدين وجمع كلمة المسلمين .

ويقول الاستاذ كرد على ايضاً : ان فى حمص قرى للشيعة خاصة ، وفى نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة ، وفى أعمال اذلب قرى الغوغة ونبل وغيرهما ، وكلها شيعة وفيها الى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف فى مدينة حلب ، وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم .

يشير بذلك الى الكارثة التى أصابت الشيعة عندما أفتى الشيخ نوح الحنفى بكفر الشيعة واستباحة دمائهم تابوا أو لم يتوبوا فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون الفاً من الشيعة وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون الى القرى .

وغلب مذهب التشيع فى حلب بصورة ظاهرة ولهم قوة استطاعوا أن

---

(١) انظر خطط الشام لكرد على ج ٦ ص ٢٥٢

يمنعوا سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عن بناء المدرسة الزجاجية وذلك فى سنة ٥١٧ هـ .

* * *

وسرى التشيع فى افريقيا بانتشار عظيم ، الى ان قاومته السلطة ، يوم كان امير افريقيا المعز بن باديس ، فانه فتك بالشيعة فتكا ذريعاً وذلك فى عام ٤٠٧ هـ فقد أوقع بهم وقيعة عظيمة ، ونسبوا ذلك الى سب الشيخين وهى المادة التى يطبقها الولاة على من يريدون الفتك به من أى الفرق كان .

وذلك ان المعز بن باديس (١) مر على جماعة من الشيعة فى القيروان وقد سأل عنهم ، فلما أحس الناس من المعز الميل عنهم انصرفت العامة من فورها الى مجتمعات الشيعة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وتوجه العسكر للنهب ، وشجعهم عامل القيروان فقتل منهم خلق كثير ، واحرقوا بالنار ، ونهبت دورهم ، وتتبعوهم فى جميع افريقيا ، واجتمع جماعة منهم الى قصر المنصور قريب القيروان فتحصنوا به ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم ، فاشتد عليهم الجوع فاقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ، ولجأ منهم بالمدينة الى الجامع فقتلوا كلهم (٢) .

وهذه أحدى النكبات الفظيعة التى لاقاها التشيع فى حياته وما اكثرها ومع ذلك فان التشيع اليوم منتشر فى افريقيا الوسطى والجنوبية زهاء عشرة ملايين نسمة .

وفى اندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة وللعلويين هناك اليد الطولى فى نشر المذهب ، وكان منهم العلامة السيد محمد السيد عقيل

---

(١) تقدم بيان انتصار المعز باديس الى مذهب مالك وحمل الناس عليه قهراً .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٢٣ ط ١

صاحب المؤلفات القيمة كالنصائح الكافية والعتب الجميل وتقوية الايمان والقول الفصل وكان يقيم فى سنغافورا وكانت لهم أندية ادبية تربط أواصر بعضهم مع بعض .

* * *

اما فى مصر فقد انتشر التشيع عند انتشار الاسلام هناك وذلك بواسطة أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا فتح مصر ، وهم المقداد بن الاسود الكندى وأبو ذر الغفارى ، وأبو رافع ، وابو ايوب الانصارى فهؤلاء هم دعاة التشيع وانصاره .

ولما دخلها عمار بن ياسر أيام عثمان دعا الى التشيع ونمت روحه حتى اصبحت البلاد كلها الى جانب على واجمعوا على مقاومة عثمان .

ثم دخلها بعد ذلك قيس بن سعد والياً فركز دعائم التشيع هناك ، وخفق لواؤه وكثرت جنوده ، لكن بدخول عمرو بن العاص تأخر سير تلك الحركة الى ان زال ملك الامويين ، فاظهر المصريون ما انطوت عليه قلوبهم من الولاء لعلى عليه السلام ولازال التشيع يظهر فى مصر ويخفى حسب العوامل التى تدعو الى خفائه وظهوره وهو اليوم منتشر هناك وفيه فئات كثيرة .

* * *

وفى الهند ظهر التشيع هناك وانتشر بسبب الروابط المتصلة بين العرب والهنود ، وقد اعتنق مذهب التشيع جماعة كبيرة من الوثنيين بمساعى المرشدين الذين دخلوا بلاد الهند من الشيعة ، ومنهم جماعة كثيرة باقون الى اليوم ولهم امارات فى جميع الاقطار الهندية ، ولا يخلو بلد منهم وهناك بلد تختص بهم وأخرى يكونون الاكثرية بها وهى لكنهور وهى المركز الوحيد للشيعة فى الهند وعاصمة مملكة اودة الفانية ومنبع علمائها قديماً وتعد اليوم من اكبر البلاد

العلمية ، وفيها مدارس عربية أهمها الجامعة السلطانيـــة ، ومنها مدرسة الواعظين وهى تختص بالتبليغ . والمدرسة الناظمية وقد أسسها العلامة السيد أبو الحسن كما أسس الجامعة السلطانية وفى لكنهور الشيء الكثير من آثار الشيعة كالمساجد والحسينيات . ومن البلدان جانبور ، بتن آباد ، مظفر آباد ، لاهور ، بنجاب (١) .

اما فى تركيا فقد انتشر المذهب بصورة محسوسة وكثر اتباعه ولكن السلطان سليم المتوفى سنة ٩٢٦ هـ قاوم الشيعة وقتل منهم مقتلة عظيمة .

يقول ابراهيم الطبيب الاول للجيش التركى : وكان السلطان سليم شديد التعصب على أهل الشيعة ، ولاسيما أنه كان فى تلك الايام قد انتشرت بين رعاياه تعاليم شيعية تنافى مذهب أهل السنة ، وكان قد تمسك بها جماعة من الاهالى ، فامر (السلطان سليم) بقتل كل من يدخل فى هذه الشيعة ، فقتلوا نحو اربعين الف رجل ، واخرج فتوى شيخ الاسلام بأنه يوجر على قتل الشيعة واشهار الحرب ضدهم (٢) .

ومع هذا فهم اليوم فى تركيا عدد كثير منتشرون فى اطراف البلاد .

وفى السعودية فالقطيف وقراها شيعـــة خالصة . وأما الاحساء وقاعدتها هفوف فالشيعة فيها يشاطرون غيرهم كما ان فى قطر يوجد كثير من الشيعة ولا يزال من الاحساء والقطيف فى النجف الاشرف مهاجرون لتحصيل علم أهل البيت ، ومنهم علماء مبرزون وادباء لهم مكانتهم الادبية والعلمية

وفى الافغان انتشر التشيع من زمن بعيد ويقدر عددهم اليوم بعشر ملايين ويوجد منهم فى النجف زهاء ثلاثة آلاف نسمة منهم من يدرس الفقه

---

(١) انظر تاريخ الشيعة ٢٥٨

(٢) انظر مصباح السارى ونزهة القارى / ١٢٣ ـ ١٢٤

الجعفرى ومنهم من يلتمس الرزق وقد برز منهم علماء لهم مكانتهم العلمية .

* * *

وهاجر كثير من الشيعة الى اميركا من السوريين وجبل عامل للتجارة والزراعة من قبل نصف قرن ، وينوف عددهم اليوم على خمسين الفا وهم ذوو شأن وعزة هناك يقيمون شعائر الاسلام علناً ، وقد بنوا مسجداً فخماً فى الولايات المتحدة وفى اميركا من الشيعة قوم من الفرس والهنود وقليل من العراقيين .

كما دخل مذهب التشيع الى الصين منذ القرن الرابع ولهم عدد كثير هناك حتى اليوم .

* * *

وفى روسيا كان للشيعة فى البلاد الروسية حرية واسعة فى اقامة الشعائر الدينية كبلاد بخارى والقوقاس ، وكانوا قبل الحرب العالمية عام ١٢٣٢ هـ يتواردون بكثرة لزيارة المشاهد المقدسة ، ويفدون مهاجرين لطلب العلم ، والى اليوم منهم جماعة فى النجف حالت دون وصولهم لأوطانهم ودون الصلات لهم فى بلادهم هذه السلطة الحاضرة .

اما العراق فقد انتشر فيه مذهب أهل البيت فى الصدر الأول ، وقام بذلك أصحاب الرسول ﷺ فى الكوفة ، والمدائن والبصرة ، وعرفت الكوفة بانها علوية النزعة وقام رجال الدعوة فى الدفاع عن أهل البيت ، وتحملوا فى عهد معاوية ما تحملوا كما مر بيان ذلك .

وفى المدائن كان سلمان الفارسى ، وحذيفة بن اليمان ، قد نشرا دعوة التشيع هناك ، وكذلك البصرة وغيرها من مدن العراق من الشمال الى الجنوب وانتشر التشيع فيها بصورة ظاهرة ، والعراق اليوم معروف بتشيعه لأهل

البيت وولائهم للعترة الطاهرة . والشيعة هم الاكثرية فى العراق وقد قاوموا ظلم الاتراك بثورات سجلها التاريخ بكل فخر لهم فى محاربة الاستبداد وقاوموا الاستعمار الانكليزى واعلنوا ثورة العشرين التى شيدت صرح الاستقلال الوطنى

* * *

وكانت قم وحدها فى القرن الاول شيعية وكان سير التشيع فى ايران ثقيل الخطا وهم شيعة بنى العباس وفيهم من يذهب الى تقديس الامويين ومناصرتهم كما أن فى خراسان نواصب وغلاة فى معاوية يدعون نبوته ولكن مذهب أهل البيت انتشر فى بلاد ايران بصورة تدريجية على ممر الأدوار حتى أصبحت ايران اليوم كلها شيعة حكومة وشعباً وقامت بخدمة المذهب ونشر مآثر أهل البيت وعمارة مراقدهم .

* * *

اما عدد الشيعة فى اليمن فكثير جداً حسبما بلغنا ممن زاروا بلادهم هناك وقد انتشر التشيع فى بقاع اليمن منذ صدر الاسلام .

هذه اهم الاصقاع التى تنبسط فيهـــا منابت الشيعة (١) ولهم فى جميع اصقاع العالم جاليات منتشرة .

* * *

هذا وسيأتى الحديث ـ ان شاء الله ـ عن بعض مآثر الشيعة وتراثهم القيم وخدماتهم الاسلامية ومواقفهم فى وجوه الظلمة بصراحة لا اثر فيهـــا للخداع والغش ، ولا يشوهها الحرص ـ الممقوت ـ على الصلات والجوائز وطلب المناصب .

---

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على عدة مصادر منها : خطط الشام الاستاذ كرد على ومع الشيعة الامامية للعلامة الشيخ محمد جواد مغنيـــة ، وتاريخ الشيعة للشيخ المظفر ، واحسن التقاسيم المقدسى ، ومجالس المؤمنين للتسترى وغيرها .

كما سنتكلم عن آدابهم التى تأثرت بآداب الاسلام وثقافته ، وأن ذهنيتهم صقلتها التجارب ، فكانت اكثر ما تعنى بالافكار العميقة ، والمعانى الدقيقة ، وانهم يمتازون بالعواطف الثورية الهائجة لاستنهاض الامة من كبوتها ، وايقاضها من غفلتها .

والشىء الذى يجب الالتفات اليه هو أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التى ترفع الغموض الذى يكتنف مبادئهم وتطورهم اذ المصادر التى يستمد منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لا توضح الطريق الموصل الى الحقيقة ، لانها مصادر لم تسلم من سيطرت التعصب الاعمى وغلبت الاهواء المردية والتحيز الممقوت .

كما أن كتاب الفرق قد سلكوا طريق الافتراء والتحامل ولم يكتبوا للعلم بل كانت كتاباتهم مجردة عن كل ماله صلة بالحقيقة وسنوضح ذلك ان شاء الله عسى أن نكشف جانباً مهما له تمام الصلة بحياتنا الاجتماعية والله الموفق للسداد .

تصفية الحساب

يطالعنا التاريخ بحوادث مؤلمة ، ونزاع بين طوائف المسلمين عامة وبين الشيعة والسنة بصورة خاصة ، فاذا أردنا ان نبحث عن الأسباب التى أدت الى حدوث تلك المنازعات نجدها سياسية قبل أن تكون دينية ، وقد اتضح لنا فى الابحاث السابقة أن تدخل اولى النفوذ والسلطة هو الذى جر الامة الى تلك المنازعات ، وأوقعهم فى ورطة الاختلاف ونشوء تلك المعارك التى اضطرمت نارها ، وتنوعت أسبابها بصورة ظاهرة ، ويعود ذلك الى سبب رئيسى هو عامل السياسة .

فذهبت آلاف من النفوس ، واتسعت بذلك شقة الخلاف ، وفتحت باب الظنون والاتهامات ، ونحن لا يتعلق لنا غرض بذكر الخلاف بين جميع طوائف المسلمين لانا نعلم ان هذا الخلاف قديم عميق ، ومن المؤسف ان كثيراً من قادة المسلمين لم يلتفتوا الى ما وراء ذلك من خطر يهدد كيان الأمة ويقضى على وحدتها التى هى أقوى جهاز تستطيع به الانتصار على خصمهم الذى وقف لهم يتحين فرص الوثبة للتشفى منهم ، وقد مرت الاشارة الى ذلك

وحيث كان مبحثاً عن المذهب الجعفرى وعوامل انتشاره ، فنحن لا نتعرض إلا بالاشارة لأسباب الخلاف المتكون بين السنة والشيعة ، وقد مرت عليه قرون وقرون ، ولم تسعد الأمة يوما ما برفع سوء التفاهم وازالة تلك الحواجز التى تقف بينها وبين وحدتها التى أمر الله سبحانه وتعالى جميع المسلمين بالمحافظة عليها ، وعالج الدين الاسلامى مشاكل الخلاف وبينها بادق صورة .

فنحن نرى أن هذا الخلاف القائم بين الطائفتين يتكون من عاملين

رئيسيين هما :

١ - الخلاف فى الخلافة الاسلامية ومن هو المتأهل اهلية صالحة للولاية العامة والرئاسة الشاملة وهى لا تحصل إلا لمن خصه الله بالكمال ، وخلصه من شوائب النقص فى الأقوال والأفعال ، ونزهه عن الظلم للرعية ، حتى يقيم الحدود و (الله أعلم حيث يجعل رسالته) والشيعة لا يرون تحقق تلك الشروط وحصول هاتيك الصفات إلا فى من اختاره الله وأمر نبيه بالنص عليه .

٢ - عوامل السلطة فان الطبقة التى سيطرت على نظام الحكم رأت من نفسها عدم انطباق تلك الشروط عليها ، والشيعة لا يرون قيمة لسلطان لا يتمسك حق التمسك بالشرع ، ولا يتنزه عن الظلم ولا يتورع عن المحارم ، وليس له قابلية تحمل أعباء الخلافة الاسلامية ، وإن من هؤلاء الذين تربعوا على دست الحكم يريدون أن يكسبوا ثقة الامة ويركزوا أنفسهم بالسلطتين الروحية والزمنية فينالوا الثقة التامة ، ويصبحوا امراء المسلمين بحق مع عدم انطباق ما يؤهلهم لذلك ، فهم اذاً يرون الشيعة حزبا معارضاً ، وعقيدتهم لا تتمشى مع أغراضهم ، فكانوا لا يعارضون العقائد ، ما دامت لا تعارض سياستهم وأغراضهم الخاصة ، والناس فى ذلك العصر كانوا يسيرون فى حرية العقيدة وحرية العبادة بأمن تحت ظلال السلطة وأمام القانون .

اما اذا كانت العقيدة مخالفة لرأيهم أو أن لها دخلا فى سياسة الدولة ، فلا يسمح القانون باظهارها ، ولا تقعد السلطة عن مقاومتها ، ومن الواضح ان عقائد الشيعة تخالف دستور الحكومة فى أغلب الاشياء التى تخرج عن مقاييس حرية الرأى أو سلامة النية والقصد الحكيم والعقائد الصحيحة ومن هذا التجأ القانون الى عدم المساواة فى العقائد من جهة والى مساواتها من جهة أخرى ، فلذا ترى مواقف الحكومة مختلفة اختلافا كلياً ، وتقف فى أكثر

حالاتها موقف الحيرة خوفا من انتشار العقائد التى لها أثرها عند المفكرين فتصبح الأغلبية اكثرية ، ولا يمكنها الوقوف أمام جارف الانكار ، فهى تلتجىء أبداً الى خلق مشكلات تفرق بهـــا كلمة الامة لتثير الشحناء ، وتشغل الافكار .

وعلى هذا الاساس حاولوا ابراز الشيعة فى ذلك المجتمع بصورة تدعو الى مقاومتهم من كل الجهات ، وفصلهم عن المجتمع الاسلامى بالطعن فى عقائدهم مرة ، وبالخروج على الجماعة مرة أخرى .

فوجهوا اليهم التهم ، وتقولوا الأقاويل التى لا روابط لها بالواقع ولا علائق بينها وبين الحق ، وانما هى اتهامات كاذبة وافتراء محض ، تمكنت من قلوب السذج فاصبحت كالأمر الواقع لكثرة العوامل التى دعت الى تركيز تلك المفتريات فى أذهان الناس .

وأنت اذا نظرت بعين البصيرة تجد تلك المؤاخذات والاتهامات التى رميت بها الشيعة غير محدودة بحد ، بل هى تتسع باتساع غرض السلطة الحاكمة التى لعبت دورها فى مقاومة الشيعة على ممر أدوار التاريخ .

* * *

وسارت الأمور على ذلك الشكل الذى قضى على حرية التفكير فى فهم الامور ، وأن لا يكون إلا ما تراه السلطة وما تتمسك به .

يدخل الامام مالك بن أنس على أبى جعفر المنصور ، فيوجه اليـــه سؤالا : من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟

وهنا يقف مالك موقف الحيرة عندما يريد أن يعبر عن رأيه الصحيح فربما يخالف رأى المنصور فيكون عرضة للنقمة ، كما نقم منه من قبل لمخالفته فى فتوى طلاق المكره .

ولكنه درس نفسية المنصور وعرف أغراضه المكنونة ، فاجابه : أبو بكر ، وعمر ، فقال المنصور : أصبت وذلك رأى أمير المؤمنين .

وبالطبع ان رأيه محترم والرعية تابعة له فلا يمكن لأحد مخالفته ، ومن ذهب الى غير هذا فانما يعرض نفسه للسخط ويصبح فى قائمة المتهمين لمعارضة الدولة ، وناهيك بما وراء ذلك من بلاء ومحن ، ويمكننا ان نعتبر مسألة التفضيل بين الخلفاء بدعة سياسية ودعاية من دعايات التفرقة منذ أول نشوئها فى البيئات الاموية فى الشام ، وفى غير الشام ، ومن المعلوم عند الراسخين فى دراسة التاريخ ان مسألة التفضيل بين الخلفاء انما كانت بهذا الشكل الحتمى لا من حيث الواقع وإلا لو ترك الأمر بدون تدخل للسلطة فيه لما كانت المسألة من المسائل المشكلة التى ابتليت بها الامة حتى أصبح القائل بافضلية علىّ على الشيخين مبتدعاً زائغاً عن الحق سىء المذهب ، رافضياً خبيثاً ، زنديقاً مارقاً ، الى ما هنالك من التعابير التى اتخذها المتزلفون لرضا السلطة .

* * *

واذا رجعنا الواقع من حيث الواقع بدون مغالطة ولا تعصب فى ضوء التفكير الحر ، والدراسات الصحيحة الخالية من نزعة الأهواء نجد ان ترتيب الخلفاء حسب ازمنة خلافتهم ليست حجة على فضل بعضهم على بعض وجدارتهم بالحكم وانما هى تقليد أعمى ، وجمود على اتباع السلف الذين عرفت نزعاتهم وأهواؤهم وميلهم للسلطة التى أصبحت ترغم الناس على ربط العقائد بدستور الدولة ، فترى المأمون يخلق مشكلة القول بخلق القرآن ويحمل الناس عليه بالقهر ، ولا يجعل للتفكير فى الأمر مجالا ، فيقع ما يقع من قتل وتكفير الى غير ذلك ، ويأتى من بعده المتوكل فيخالف رأيه ويقضى على ما أمر به المأمون ويحمل الناس على القول بقدم القرآن بالقهر والقوة .

ويأتى القادر العباسى سنة ٤٢٢ هـ فيحمل الناس على الاعتقاد بما يراه فى فضل الصحابة ، وتكفير المعتزلة القائلين بخلق القرآن ويؤلف بذلك كتابا يتلى على الناس فى كل جمعة كما أنه حملهم بالقهر على الاعتقاد بالسنة ، واستتابة من خالفه من المعتزلة والشيعة ، وأخذ خطوطهم بالتوبة ، وبعث الى السلطان محمود ، يأمره ببث السنة فى خراسان ، ففعل ذلك ، وبالغ وقتل جماعة ونفى جماعة آخرين من المعتزلة والشيعة وغيرهم ، وأمر بلعنهم على المنابر وذلك فى سنة ٤٠٨ هـ (١) وفى سنة ٤٠٣ هـ يصدر مرسوم من البلاط العباسى يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر وانهم ليسوا من ابناء على (٢) .

ونشر هذا المرسوم ووزعت نسخه والزم علماء بغداد بتوقيعه الى غير ذلك مما يطول شرحه من الامور التى تدخلت بها الدولة لغاياتها الخاصة ، ولا يريدون بذلك إلا فتح باب المناقشات ، لا بصورتها الواقعية ولكن بالصورة التى يريدون من ورائهـــا الشغب والاختلاف بين الامة للنفوذ الى مصالحهم الخاصة ، وإلا فيلزمهم اعطاء الحرية الكاملة فى المناقشات العلمية التى تختلف فيها الامة من حيث فهم الواقع ، ولا يوجد عندهم ذلك ، لأن الحذر يحوط بهم من اتساع دائرة الفكر ، فيؤدى الى مؤاخذتهم على ما ارتكبوه من الشذوذ وسوء السيرة .

ونرى فى جميع أدوار التاريخ ان الامة لم تأخذ حريتها الكاملة فى امور الدين وبذلك قطعوا الصلات الاجتماعية بين أفراد الامة فى طول البلاد وعرضها فنرى انهم بهذا التدخل وبهذا الشكل من المعاملة القاسية للمفكرين قد

---

(١) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٦

(٢) تاريخ ابن الفداء ج ٢ ص ١٥٠

اساؤا الى المجتمع الاسلامى ، وتركوهم يخوضون غمرات المعارك المذهبية والعقائد الدينية .

* * *

والغرض ان نظر الدولة لموقف الشيعة الى جنب آل محمد يعتبرونه موقفاً معارضاً لسياستهم ، ومحاولة ظاهرة للقضاء على كيان الملك اذ هو من آل محمد ﷺ ، فهم يحذرونهم أشد الحذر ، ويدفعون الناس الى التبرى منهم بشتى الوسائل حتى أصبحت تهمة التشيع يفرون منها ويرون انها أعظم من تهمة الزندقة .

قال الزمخشرى فى كيفية الصلاة على محمد ﷺ : وأما اذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد ، فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولانه يؤدى الى الاتهام بالرفض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلايقفن مواقف التهم . وأمثال هذه الفتاوى كثيرة جداً . وقد تركوا القول باشياء رغم صحتها وثبوت تشريعها ، وليس لهم فى تركها إلا لأن الشيعة تقول به ومتابعتهم يؤدى الى الرفض كما سيأتى .

ومن هذا نعرف عظيم حراجة الموقف ، والى أى حد انتهى الأمر فى الابتعاد عن شيعة أهل البيت فى عصر تأصلت به روح العداء فى قلوب الناس الذين ساروا مع الدولة جنباً لجنب وهل الرفض إلا حب أهل البيت كما يوضح لنا الشافعى بقوله :

اذا فى مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال تجاوزاً يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضية
برئت الى المهيمن من اناس ... يرون الرفض حب الفاطمية

ويقول :

قالوا ترفضت قلت كلا ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك خير امام وخير هـــادي
إن كان حب الوصي رفضاً فانني أرفض العبـــاد

وأظرف شيء ما يحدثنا به الخطيب عن الفتح بن شخرف قال : حملتني عيني فنمت فبينما أنا نائم اذا انا بشخصين فقلت للذي يقرب مني : من أنت يا هذا ؟ فقال : من ولد آدم ، قلت : كلنا من ولد آدم ، فما الذي وراك ؟ قال لي : علي بن ابي طالب ، قلت له : أنت قريب منه ولا تسأله ، قال : أخشى ان يقول الناس اني رافضي (١) .

وكان الفضل بن دكين يتشيع فجاءه ولده يوماً يبكي فقال له : ما لك فقال : ان الناس يقولون انك تتشيع فانشأ يقول :

وما زال بي حبيك حتى كأنني برجع جواب السائلي عنك اعجم
ولا سلم من قول الوشاة وتسلمي سلمت وهل حي على الناس يسلم (٢)

وان أمرأ يدعو الولد الى هذا الحذر ، ويحمله على البكاء لعظيم جداً ، ولا غرابة من ذلك فانه يخشى على أبيه القتل ، وعلى داره الهدم ، وماله النهب ، طبقاً لقانون الدولة المقرر تنفيذه في حق الشيعة لأنهم كانوا ينفذون هذا القانون في حق من اتهم بالميل للعلويين .

كان ابراهيم بن هرثمة شاعراً مجيداً مدح آل البيت بابيات منها :

ومهما (أُلام) على حبهم فاني أحب بني فاطمـــه
بني بنت من جاء بالمحكما ت وبالدين والسنة القائمه

---

(١) الخطيب ج ١٢ ص ٢٥١
(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٨٦

فلست ابالى بحبى لهـــم سواهم من النعم السائمـــه

ولما دخل على المنصور قال : لا مرحباً ولا أهلا ، يا ابراهيم قد بلغنى عنك أشياء لولا ذلك لفضلتك على نظرائك فاقرلى بذنوبك فاستعفاه فعفى عنه حفظاً لدمه ، وقال : لئن بلغنى عنك امر اكرهه لاقتلنك .

ولما دخل ابراهيم المدينـــة اتاه رجل من العلويين فسلم عليه فقال له ابراهيم تنح عنى لا تشط بدمى (١) .

وهذا منصور النميرى أنشأ أبياتاً منها :

آل النبى ومن يحبهـــم يتطامنون مخافة القتل
امن النصارى واليهود ومن فى امة التوحيد فى ازل

فغضب الرشيد وأرسل اليه من يقتله فوجده ميتاً فقال : لقد هممت ان أخرج لسانه من قفاه . وأراد أن ينبش عظامه فيحرقها ولكنه لم يفعل (٢)

وقطعوا لسان ابن قرايا لأنه كان يمدح آل محمد ﷺ وينشد الأشعار فيهم ، فثارت العامة فى بغداد ، وقدم للقاضى ، فحكم عليه بقطع لسانه ويده استناداً الى مادة الحط من كرامة الصحابة ، بمدحه علياً ﷺ وتفضيله عليهم .

وليت الامر ينتهى عنـــد هذا الحد ، ولكنهم تبعوه عندما أخذ للمارستان ، ورموه بالحجارة ، فالقى نفسه فى دجله فغرق وأخرجوه ميتاً وأحرقوا جسده ، ووقعت بذلك معركة بين السنة والشيعـــة وذلك فى سنة ٥٧٤ (٣) .

وقامت البينة على الحسن بن محمد بن ابى بكر الشيعى ، بانه سب الصحابة

---

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ١٢٧
(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٧٠
(٣) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٤٦

عند القاضى شرف الدين المالكى ، فحكم عليه بضرب عنقه بسوق الخيل بدمشق فى جمادى الاولى سنة ٧٤٤ هـ (١) .

وامثال هذه الفضائع كثيرة لا يسعنا عرضها ، ولكننا أوردنا طرفاً منها لنأخذ صورة عن أعمال الدولة وسياستها مع الشيعة ، وهنا أمر مهم يلزمنا ان نتساءل عنه :

وهو ان الاقدام على سفك دم المسلم باسم الشريعة هو جرأة عظيمة ، وان دولة تدعى السير على نظام الشرع كان يلزمها أن تتخذ طريقاً للخلاص من الانكار والمؤاخذة ، كما اتخذت ذلك فى كثير من القضايا المخالفة لنظام الاسلام

اذاً ماذا اتخذوا تجاه هذه الفضائع وهذه المنكرات فى معاملة الشيعة ؟ أليس فى الأمة علماء ينبهون الحكومة والعامة على هذا الخطأ عند مخالفتهم نصوص الكتاب والسنة باراقة الدماء فى جرم لا يستوجب ذلك ؟ فكيف تغفل الحكومة عن هذه المهمة ؟ وكيف سكت العلماء عن هذا الفعل الشنيع ؟

نعم انهم لم يغفلوا عن ذلك وأتخذوا التدابير اللازمة فى رد المنكرين بامور منها :

١ - انهم رفعوا مقام الصحابة على الاطلاق ، ومنعوا الناس عن الخوض فى أحاديثهم وحوادثهم ، وجعلوا لهم منزلة العصمة الادعائية ، وقرنوهم بالرسول الأعظم ﷺ وجعلوا مؤاخذتهم بشىء انما هو مؤاخذة للرسول ﷺ . وأن الطعن فى حديثهم هو طعن فى حديث الرسول ﷺ .

ذكر عند الرشيد حديث ابى هريرة : أن موسى لقى آدم فقال : انت آدم الذى أخرجتنا من الجنة ، فقال القرشى اين لقى آدم موسى ، فغضب

---

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٤٠

الرشيد ، وقال : النطع والسيف زنديق يطعن فى حديث رسول الله (١) .

وبهذا الجمت الامة ليحرموهم حرية التفكير ، والتزموا بالنزول لارادتهم فمن خرج عن ذلك عد زنديقاً والزنديق يقتل ، وبالطبع ان الشيعة لا تقيم لهذا الحكم وزناً فهم فى نظر القانون يحل قتلهم من هذه الجهة ، ومع ذلك فقد وضعت أحاديث كاذبة على صاحب الرسالة فى تكريم الصحابة مطلقاً وبمقتضى ذلك لا يشملهم نظام الاسلام وأحكامه . وسيأتى بيان رأى الشيعة فى الصحابة وانه اعدل الآراء .

٢ ـ ان مبادىء الشيعة وعقائدهم مستقاة من ينبوع أهل البيت عليهم السلام ، ويرونهم نصب أعينهم يقيمون الصلاة ، ويحتفظون بشعائر الدين اذاً كيف يحكم عليهم بالكفر ؟ فلابد اذا من سلوك طريق لاتهام الشيعة بما يخالف الاسلام وبالفعل سلك خصوم الشيعة طريقاً نجحوا فيه ، وذلك فى تركيز فكرة الغلو عند الشيعة فى أذهان العامة ، وان الشيعة يدعون لآل البيت الربوبية ، وقام بنشر هذه الفكرة بين العامة اولئك الدجالون الذين يفترون على الله الكذب ، من قصاص ووعاظ وزهاد ، يتصفون بالتدين وهم جزارون لا يتورعون عن المحارم .

٣ ـ ان الشيعة لما عرفوا بموالاة أهل البيت ومحبتهم لهم ، وأخذ الأحكام عنهم ، أصبح ولاة الأمر يحذرون الانكار عليهم من رجال الفكر الذين لا يخدعون باقوال الدجالين من وعاظ وقصاص ، لكيلا تتسع عليهم دائرة المؤاخذة ، وربما يطالبون بشىء أوضح مما مر فى تكفير الشيعة والطعن فى عقائدهم .

وان هناك أحاديث صحيحة وردت فى أهل البيت وشيعتهم لا مجال

---

(١) تاريخ بغداد ج ٩٤ ص ٧

لانكارها ، اذا كيف يصنعون وليس فى امكانهم انكار تلك الاحاديث فى مدح الشيعة ولزوم اتباع آل محمد ﷺ وقد أخذت تلك الاحايث مكانتهـــا فى المجتمع الاسلامى ؟ ولم تستطع الارهابات محوها من الاذهان ، وليس فى قدرة السلطة أن تفرض طاعتها على الشيعة قهراً .

فلنعرف إذا كيف استطاعوا ان يفهموا الناس انحراف الشيعة عن الدين ؟ مع وجود تلك الأحاديث الصحيحة . أيكفى أن يستندوا الى المادتين الأوليتين ، أم ان الأمر يحتاج الى اكثر من ذلك ؟

نعم الامر أهم من أن يتهاون فيه ، ويلزمهم أن يتخذوا شيئاً يستطيعون فيه تغيير تلك الأحاديث اووضع زيادة يصلون من ورائها لغايتهم المقصودة فكانت النتيجة ان توضع زيادة تلحق ببعض الأحاديث ليبطل الاستدلال بها واليك بعض الاحاديث الواردة فى محبة أهل البيت .

كقوله ﷺ : ياعلى لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق (١) .

وقوله ﷺ : يا على انك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عدوك غضابا مقمحين (٢) .

وقوله ﷺ وقد أخذ بيد حسن وحسين فقال : من أحبنى وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة (٣) .

وقوله ﷺ : حب على براءة من النارحب على براءة من النفاق شيعة على هم الفائزون (٤) .

---

(١) صحيح مسلم ج ١ . والترمذى ج ٢ ص ٢٩٨ . وأحمد فى مسنده ج ٢ ص ١٠٢ ط ٢

(٢) أخرجه الطبرانى انظر الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٩٣

(٣) أخرجه الحاكم ج ٢ ص ١٤٩ . وأحمد فى مسنده ج ٢ ص ٢٥ ط ٢

(٤) أخرجه الديلمى انظر كنوز الحقائق .

وقوله ﷺ : من يريد ان يحيى حياتى ويموت موتى ويسكن جنة الخلد التى وعدنى ربى فليتول على بن ابى طالب فانه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم فى ضلالة (١) .

وقوله ﷺ : على وشيعته هم الفائزون يوم القيامة (٢) .

ولما نزلت « قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » قالوا يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال ﷺ : على وفاطمة وابناهما (٣) .

وقوله ﷺ : يا على أنت وشيعتك فى الجنة .

وقوله ﷺ : يا أبا الحسن أنت وشيعتك فى الجنة .

وقوله ﷺ : يا على أنت وشيعتك تردون على الحوض رواء .

ولما نزلت « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك خير البرية » قال هو أنت يا على هو أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين (٤) .

هذا نزر من تلك الأحاديث الصحيحة الواردة عن صاحب الرسالة ﷺ فى فضل على وأهل بيته عليهم السلام والزام الناس باتباعهم ، وكثير غيرها كحديث الثقلين الذى مرت الاشارة اليه وحديث مثل أهل بيتى . . . وباب حطة وغيرها .

وهنا تأتى يد الوضع فتعمل عملها بالتحريف او بالحاق زيادة لهذه الأحاديث ، ولكنها زيادة تدل بنفسها على نفسها ، واليك انموذجا من تلك الموضوعات على صاحب الرسالة . فالنبى ﷺ يقول : ياعلى أنت واصحابك

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ١٢٦

(٢) انظر كنوز الحقائق .

(٣) أخرجه الطبرى فى ذخائر العقبى ص ٥٢

(٤) أخرجه الخطيب من طريق أم سلمة ج ١٢ ص ٣٥٨

فى الجنة ، أنت وشيعتك فى الجنة ، فيأتى الفضل بن غانم بوضع زيادة والحاقها بهذا الحديث ، وهى ألا ان ممن يحبك قوما يضفزون الاسلام بالسنتهم يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ، لهم نبز يسمون الرافضة فاذا لقيتهم فجاهدهم فانهم مشركون (١) .

ويأتى ابو يحيى الحمانى بزيادة عن على عليه السلام أنه قال : قلت : يارسول الله ماالعلامة فيهم ؟ قال : يقرضونك بماليس فيك ويطعنون على اصحابى ويشتمونهم

وبصورة أخرى يا على ينتحلون حبك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم وعلامتهم انهم يسبون ابا بكر وعمر .

وبصورة أخرى وسيأتى قوم لهم نبز يقال لهم الرافضة فاذا لقيتموهم فاقتلوهم فانهم مشركون (٢) وكتحريف حديث الثقلين بوضع سنتى مكان عترتى

وهكذا تجرأ اولئك المتقربون لاسيادهم بالكذب على الله ورسوله بوضع تلك الزيادة فى الاحاديث الواردة عن صاحب الرسالة بمدح شيعة أهل البيت ، فاصبحت تلك الاكذوبة مقررة بصورة رسمية كقانون تسير عليه السلطة التنفيذية ، وتلقاها السذج بكل قبول ، وأخذت مكانتها من ذوى العقول القاصرة .

أما العلماء فقابلوها بالانكار ، وصرحوا بوضعها بكل صراحة ، وان رواتها كذابون .

(منهم) الفضل بن غانم المروزى القاضى ، وقد كان مشهوراً بفساد الأخلاق ومتهما فى دينه وكان غير مقبول الرواية ، وقد ترك الحفاظ أحاديثه وطعنوا فيه .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٥٨

(٢) انظر الاشاعة فى اشتراط الساعة .

قال الدارقطنى : الفضل بن غانم ليس بالقوى ، وقال يحيى بن معين : ضعيف ليس بشىء .

وغير ذلك من أقوال رجال العلم . وكيف يؤتمن على حديث رسول الله ﷺ من عرف عنه حب الغلمان وفساد الأخلاق كما جاء ذلك فى ترجمته (١)

و (منهم) سوار بن مصعب الهمدانى الكوفى الأعمى ، قال فيه يحيى بن معين : سوار بن مصعب ليس بشىء ، وقال البخارى : منكر الحديث ، وقال النسائى وغيره : متروك ، وقال ابو داود : ليس بثقة ، وقال احمد وابو حاتم : متروك الحديث ، وقال النسائى : ليس بثقة ، ولا يكتب حديثه وقال الحاكم : روى عن الأعمش وابن خالد المناكير (٢) .

ولا نطيل الكلام بذكر الآخرين من رجال هذه الزيادة كأبى جناب الكلبى وسويد بن سعيد فقد نص الحفاظ على كذبهم وعدم قبول روايتهم كما انهم نصوا على هذه الزيادة بالوضع ، وصرح بذلك على بن محمد الشوكانى وابن حجر وابن تيمية والخطيب البغدادى والسيوطى وغيرهم .

والغريب ان هذه الحقيقة يقررها الكثير من العلماء وينصون على كذب هذه الزيادة ، ولكن هناك حثالة من المتعصبين الذين لا يروق لهم الا ايقاع الفرقة بين صفوف المسلمين ، جعلوا هذه الاكذوبة وسيلة للوقيعة بشيعة أهل البيت ، وتقربوا الى ولاة الجور بنشرها وادخالها فى قالب الأعتبار ، ولكنها محاولة فاشلة « فجولة الباطل ساعة ، وجولة الحق الى الساعة » .

* * *

والغرض أن ولاة الجور اتخذوا هذه الامور كقانون يحكمون به على

---

(١) انظر ترجمته فى لسان الميزان ج ٤ ص ٤٤٥ وتاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٥٧

(٢) انظر ترجمته فى لسان الميزان ج ٣ ص ١٢٨

المعارضين لاحكامهم ، فكان من الخطر البالغ ان يجهر الانسان بأى رأى حر أو يذهب الى خلاف ما تراه السلطة الحاكمة ، ومن سوء حظ الرجل ان يكون له خصوم يسعون به للسلطان ، فتنطبق بحقه هذه المادة فيكون نصيبه القتل أو السجن .

لذلك نرى أن الكثير من غير الشيعة حكم عليهم بهذه المادة وليس لهم ذنب إلا التحرير عن الجمود الفكرى ، والصراحة بشىء يخالف غرض الدولة

فهذا المولى ظهير الدين الاردبيلى ، حكم عليه بالاعدام واتهم بالتشيع ، وذلك لأنه ذهب الى عدم وجوب مدح الصحابة على المنبر وانه ليس بفرض فقبض عليه ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه القاضى بالاعدام ، ونفذ الحكم فى حقه فقطعوا رأسه ، وعلقوه على باب زويلة بالقاهرة (١) .

وامتنع أحد القضاة من المبايعة للخليفة المقتدر ، وقال : هو صبى لا تصح مبايعته ، فحكموا عليه بالقتل وذبح أمام الملأ بدمشق .

وهذا سليمان بن عبد القوى المعروف بابى العباس الحنبلى المتولد سنة ٦٥٧ هـ والمتوفى سنة ٧١٦ هـ كان من علماء الحنابلة ، ومن المبرزين فى عصره ، ودرس فى اكثر مدارس الحنابلة فى مصر ، فقد نسب الى الرفض ، وقامت عليه الشهود فى ذلك حتى تعجب هو من هذه النسبة واستغربها فقال :

حنبلى رافضى ظاهرى اشعرى انها احدى الكبر

وقد عزر فى القاهرة لمدحه علياً بابيات منها :

كم بين من شك فى خلافته وبين من قيل انه الله

ونسب الى هجاء الشيخين ، والحط من مقام عمر بن الخطاب لقوله فى شرح الأربعين : إن اسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات

---

(١) شذرات الذهب ج ٧ ص ١٧٣

والنصوص ، وبعض الناس يزعم أن السبب فى ذلك هو عمر بن الخطاب ، لأن الصحابة استأذنوه فى تدوين السنة فمنعهم مع علمه بقول النبى ﷺ : « اكتبوا لأبى شاه » ، وقوله ﷺ : « قيدوا العلم بالكتابة » ، فلو ترك الصحابة يدون كل واحد منهم ما سمع من النبى ﷺ لانضبطت السنة ، فلم يبق بين آخر الامة وبين النبى ﷺ إلا الصحابى الذى دونت روايته ، لأن تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم كما تواتر البخارى ومسلم . انتهى .

وبهذه الصراحة نسب هذا الحنبلى الى الرفض ، وناله الضرب والسجن والتبعيد عن وطنه ، وفصل عن وظيفة التدريس (١) .

* * *

ومن أغرب الاشياء مايحدثنا المقدسى عند دخوله الى اصفهان بقوله : وفيهم بله وغلو فى معاوية ، ووصف لى رجل بالزهد والتعبد ، فقصدته وتركت القافلة خلفى ، فبت عنده تلك الليلة ، وجعلت أسأله الى ان قلت : ما قولك فى الصاحب ؟ فجعل يلعنه .

قلت : ولم ؟ قال : انه اتى بمذهب لا نعرفه ، قلت : وما هو ؟ قال : انه يقول ان معاوية لم يكن مرسلا .

قلت : وما تقول أنت ؟ قال أقول كما قال الله عز وجل : ولا نفرق بين أحد من رسله ، ابو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، ثم عد الأربعة ، ثم قال : ومعاوية كان مرسلا .

قلت لا تفعل ، أما الاربعة فكانوا خلفاء ، ومعاوية كان ملكا ، وقال النبى ﷺ : « الخلافة بعدى الى ثلاثين سنة ثم تكون ملكا » ، فجعل يشنع على ، واصبح يقول للناس : هذا رجل رافضى .

---

(١) انظر تاريخ علماء بغداد للسلامى ص ٥٩ والدرر الكامنة لابن حجر .

قال المقدسى : فلو لم أهرب وأدركت القافلة لبطشوا بى (١) .

* * *

وعلى هذا سار الناس على غير هدى يزدحمون فى دائرة ضيقة ، وقد سلبوا حرية الرأى وحرية التفكير . فلذلك تراهم لا يعرفون معنى الطعن ، ولا يهتدون لطرق المؤاخذة ، ولا يتورعون فى أمر ، ولا يقفون عند حد وانما هى فوضى الاتهام والتقول فكان كلمن يورد حديثاً فى فضل على عليه السلام يتهم بالتشيع او الزندقة - على حد تعبيرهم - .

وكذلك كلمن يناقش اعمال السلف طبقاً للموازين العلمية والحوادث التاريخية يتهم بالتشيع .

لذلك نراهم يحكمون على اناس بشىء وهم لا يتصفون به .

فقد حكموا على الحاكم أبى عبد الله النيسابورى صاحب المستدرك بانه شيعى لذكره فى كتابه حديث الطائر المشوى ، وحديث من كنت مولاه فعلى مولاه ، وبالطبع ان ثبوت هذين الحديثين الصحيحين يخالفان سياسة الدولة ، وهل يستطيع أحدأن يتفوه بشىء منها ؟ وقد عقدت الالسن وكمت الأفواه ، فمن يستطيع الخروج على نظام الدولة إذ لا قيمة لنظم الاسلام ومقاييس العقل ومن اغرب الاشياء ما ذهب اليه ابن كثير فى تاريخه ج ١٠ ص ٢١ وهو أن شهاب الدين احمد المعروف بابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد كان من الشيعة بل أن فيه تشيع شنيع وذلك لانه روى اخبار خالد القشرى وما هو عليه من سوء الحال .

يقول ابن كثير : وقد نسب اليه (اى لخالد) اشياء لا تصح لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة فى أهل البيت ، وربما لا يفهم احد

---

(١) احسن التقاسيم ج ٢ ص ٢٩٩

كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره .

ونحن نكل امر هذه التهمة الى قراء عقد الفريد وذوقهم السليم .

ومهما يكن من أمر فالشيء المهم الذى نريد التنبيه عليه هو ان تلك الخلافات التى وقعت بين المسلمين إنما هى من الامور التى اتخذتها السلطة لاغراضها الخاصة .

وان تلك الاتهامات التى اتهم بها رجال الامة فاريقت بها دماؤهم ، انما كانت بسبب حرية الرأى وقوة التفكير المخالف للسياسة فى ذلك العصر ، فانهم يريدون أن يجعلوا رجال الفكر وحملة العلم من الأمة كقطيع غنم يوجهونهم الى أى جهة أرادوا بدون تفكير منهم أو اختيار فى الأمر . ولذلك فقد اجتاز المسلمون دوراً عصيباً من ادوار القهر والقمع والضغط الاجتماعى السافر

* * *

ومما تقدم نستنتج مالتلك النظم الموضوعة رغبة ورهبة من التأثير العميق فى روح الجماعات ، من تحمل العداء للشيعة ، فلا نستغرب إذاً تعبيرهم عن التشيع بكونه بدعة كما هو فى كثير من عبارات أهل الحديث ، فالبدعة هنا فى مقابلة سنة السياسة لا سنة الشريعة المقدسة .

واذا أردنا اجراء الحساب معهم عما ارتكبوه فى حق الشيعة فلا يستطيعون الجواب بشيء ، لأنهم ساروا مع التقاليد ، والا فما هى بدعة التشيع وهم مجمعون على ان الشيعة هم الذين شايعوا علياً وتابعوه ، ومن الغريب جداً أن تكون متابعة على والأخذ عنه ومحبة أهل بيته بدعة ؟ « ماجاءنا بهذا من سلطان » .

اليس فى ذلك مخالفة صريحة لاقوال النبى ﷺ فى على الدالة بوضوح على وجوب حبه ولزوم اتباعه كقوله ﷺ : « يا على لا يحبك الا مؤمن

ولا يبغضك الا منافق » .

ولما سئل الامام احمد بن حنبل عما يروى أن علياً عليه السلام قسيم الجنة والنار فقال احمد : وما تنكرون من ذا ؟ اليس قد روينا أن النبى صلى الله عليه وآله قد قال : « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق » قالوا بلى . قال : فاين المؤمن ؟ قالوا : فى الجنة . قال : فاين المنافق ؟ قالوا : فى النار قال احمد : فعلى قسيم الجنة والنار .

وعلى اى حال فان خصوم الشيعة لم يظفروا يوماً ما بالذى حاولوا تحقيقه من وراء اتخاذ تلك الوسائل فى مقابلة الشيعة ، وقد أحاط الفشل بتلك العوامل ، ولم تنجح النجاح المأمول فى عرقلة سير انتشار مذهب أهل البيت ولم تؤثر تلك الدعايات لانها أسباب بعيدة عن الواقع ، لذلك وقف تيارها وأخذ المذهب فى الانتشار ، فاصبح فى أقطار العالم عدد من الامامية لا يقل عن تسعين مليون . وبذلك يصح لنا ان نحاسب الكتاب الذين تولعوا بذم الشيعة ، والتهجم عليهم خضوعاً لمؤثرات العاطفة ، واستجابة لدواعى الفرقة بين طوائف المسلمين ، ولا أدرى بماذا استساغوا هذا النقد وتولعوا بالذم .

واذا أردنا أن نحاسب الناقين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح ، فان الأرقام تقف عن مسايرتنا ، وربما تقصر عن الاحصاء ، ولا نريد منهم . الا الاعتدال فى الحكم وترك المغالطات والتقولات ، فان ذلك نقص بمن يدعى العلم والثقافة ، فقد مرت العصور الذى تقتضى اثارة الفتن ، وايقاد نار البغضاء بين المسلمين ، فما لهم يضربون على وتر الطائفية بين آونة واخرى ولحساب من يكون هذا ومن هو الرابح فى تلك المعركة ؟ نعم انما الربح فى جانب اعداء الاسلام .

والغرض أن تلك العوامل التى اتخذها خصوم آل البيت وحسبوا كل

حساب لنجاحها قد باءت بالفشل ولم تنجح النجاح المطلوب . فقد انتشر مذهب أهل البيت رغم تلك العقبات وتخطاها بقوة .

وان من يفسح لفكره المجال فى البحث النزيه ، للتحقيق العادل عما اتهم به الشيعة من امور تخالف الاسلام فانه يقف على خلاق ما قيل عنهم .

ان كل ما احيط بالتشيع من امور تبتعد به عن دائرة الواقع انما هى امور مصطنعة لا تمت بالحقيقة فى شىء ولا يفوتنا أن ننبه عن اعمال الكذابين الذين اتخذتهم السياسة الجائرة لدعم كيانها .

ان هؤلاء باعوا ضمائرهم ، واشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق .

ومن المستحسن أن نشير لبعضهم وقد عبرنا عنهم (بلجنة الوضع) ولا نريد أن نسهب فى الموضوع فله محل آخر .

لجنة الوضع :

اتسع نطاق الكذب على الله وعلى رسوله ، وتلاطمت امواج الافتراء وتصدر قوم لا أمانة لهم ، ولا دين يردعهم ، ولاعهد لهم بالصدق ، فحدثوا الناس بالأكاذيب ، ونمقوا وزوروا ، ووضعوا من الاحاديث كيفما شاءت رغباتهم ، ارضاء لسلطان لا يرعى للصدق حرمة ، ولا يرى للدين قيمة ، فدرج الناس على ذلك وتلقنوا تلك الاحاديث بلا تمحيص ولا تتبع .

ولااريد أن أتعرض لعهد الصحابة وما حدث فيه من أحاديث ، فان يد الوضاعين انتحلت سلسلة تتصل بهم فى الحديث ، لان اصحاب محمد ﷺ أجل قدراً واعلى منزلة من تعمد الكذب عليه ، إلامن صارعته الدنيا فصرعته وباع آخرته بدنياه فكان نصيبه الخسران ، وما هو من مصداق الصحبة فى شىء كسمرة بن جندب وغيره ، الذى كان يساومه معاوية فى وضع الاحاديث أو تحريف ما انزل الله بمئات من الآلاف من الدنانير كما هو مشهور عنه .

ولكن نريد ان نتعرض لعصر اشتداد الفوضى والخروج على حدود الأمانة فى النقل ، يوم دار الزمان دورته ، ودب داء الحسد والتنافس على حب الرئاسة والتقرب الى السلطان ، عندما اشتدت حاجته الى مرتزقة يجعلهم قنطرة الى غايته ، ليبرر مواقفه المخالفة لاحكام الدين ، فكان ماكان من تشجيع للكذابين والوضاعين ، فكانت هناك سلسلة أحاديث موضوعة رغبة فى نواله ، وطلباً لاستصفاء وده ، وقد فتحت باب التقرب الى السلطان

بمفاتيح الاكاذيب ، فدخل الكثير منهم .

فهذا غياث بن ابراهيم يدخل على المهدى ، وكان المهدى يحب الحمام ، فطلب منه المهدى ان يحدثه فيأتى بحديث عن ابى هريرة لا سبق إلا فى حافر أو نصل ، واضاف اليه أو جناح ، فامر له المهدى بعشرة آلاف درهم ، فلما قام غياث قال المهدى : أشهد انه قفا كذاب على رسول الله ﷺ ماقال رسول الله ﷺ جناح ولكنه أراد أن يتقرب الى (١) .

ويدخل ابو البخترى وهب بن وهب قاضى بغداد على هارون الرشيد ، وهارون يطير فى الحمام فقال هل تحفظ فى هذا شيء ؟

فقال نعم : حدثنى هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة ان النبى ﷺ كان يطير الحمام ، فنرى القاضى هنا سريع الارتجال بوضع الأحاديث رغبة لنوال السلطان وتحبباً اليه ، بدون التفات الى مؤاخذة أو خوف من الله تعالى .

وكان شاه بن بشر بن ماميان معروفا بالوضع فى الدولة العباسية . ومن أحاديثه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : اتانى جبرئيل وعليه قباء أسود ومنطقة وخنجر ، فقلت ما هذا ؟ فقال : يأتى زمان يكون لباسهم كهذا قلت : يا جبرئيل من يكون رئيسهم ؟ قال : من ولد العباس .

واستجلب الرشيد اسحق المعروف (بابى حذيفة) المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، وهو معرف بالكذب ومشهور بالوضع ، فامره الرشيد أن يجلس فى مسجد ابن رغبان ويحدث الناس ، فاخذ اسحق يحدث بالاكاذيب ، ويروى عن خلق من الثقات اكثرهم ماتوا قبل أن يولد (٢) .

واستقدم المهدى ابا معشر السندى ، واشخصه الى بغداد ، وقال :

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٩٣

(٢) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٤٦

تكون بحضرتنا تفقه من حولنا . وكان ابو معشر ماهراً بوضع الأحاديث والقصص . قال ابن جزرة : ابو معشر اكذب من تحت السماء (١) وصنف كتاب المغازى ، وروى عنه الواقدى وابن سعد ، وقد نعم فى بغداد برضا كثير من رجال البلاط العباسى ، وقد استمد منه الطبرى معلومات عن التاريخ الانجيلى ومن تاريخ النبى ﷺ ، كما استمد منه بنوع خاص معلومات تاريخية تنتهى الى عام وفاته .

وناهيك ما ابتدعه هؤلاء من الأحاديث حباً للدنيا بما يقربهم عند السلطان زلفى ، لمخالفتهم الشرع وخروجهم عن سلطان العقل .

وهناك عناصر فى الوضع من طراز آخر ، وهم الذين قاموا بنصر مبادئهم فى وضع الاحاديث على لسان صاحب الرسالة ، بدون مبالاة .

فهذا نعيم بن حماد بن معاوية المتوفى سنة ٢٢٧ هـ كان ماهراً فى وضع الحديث متجرئاً على مقام صاحب الرسالة . قال الذهبى : وكان يضع الحديث فى تقوية السنة ، وحكايات فى ثلب ابى حنيفة وكان صلباً فى السنة .

ومنهم أحمد بن عمرو بن مصعب بن بشر كان من الوضاعين ومن أهل السنة المجودين ووضع بذلك كتباً فى تقوية السنة كلها موضوعة منتشرة عند الخرسانيين فى عصره وكان معروفا فى نصرة السنة بوضع الأحاديث الكاذبة عن الثقاة (٢) .

ومنهم على بن أحمد بن محمد بن عمرو كان شديد العصبية فى السنة يضع الاحاديث فى نصرتها (٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الله الانصارى كان من الوضاعين لنصرة السنة ،

---

(١) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤٣١

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٧٣

وهو واضع الحديث عن ابن عمر مرفوعاً فى قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال : فاما الذين ابيضت وجوههم - أهل السنة - واما الذين اسودت وجوههم - أهل البـــدعة - (١) وغيرهم وسيأتى الحديث عنهم فى الاجزاء الآتية .

* * *

لقد كان خطر اولئك الدجالين عظيما جداً ، فانهم تزلفوا لولاة الأمر بوضع الاحاديث ، فاتخذوا منهم اعواناً على حل مشاكل يعجزهم حلها بالقوة ولكنهم جعلوا ما يضعونه وسيلة لتعزيز مركزهم أولا ، ومقابلة خصومهم ثانياً ، واشغال الرأى العام ثالثاً ، وكان الأمر الذى يهمهم قبل كل شىء ، هو أمر الشيعة الذين آثروا تضحية النفس على الاذعان للخصم ، ولم تربطهم معهم رابطة ، ولم يعترفوا بصحة تلك الولاية الجائرة ، فلا يصح لهم السكوت عن معارضتها وهم ظالمون لهذا المنصب لذلك اتخذت السلطة معهم طرق المكر والخداع والتمويه على الناس ، حتى بلغ بهـــم الأمر الى وضع الأحاديث بخروج الشيعة عن الاسلام كما مر بيانه ، وهى تدل بمنطوقها على تحليل دمائهم ومعاملتهم معاملة الكفرة ، وهيهات ان ينطبق ذلك على الواقع ، ورجال الامة لم يكونوا بتلك الدرجة من الانحطاط وعدم المعرفة بحيث يجهلون الشيعة وما لهم من الاثر فى المجتمع الاسلامى ، فقبول مثل تلك المنكرات أمر شاق يصعب تحقيقه . ويبعد نجاحه ولكن السلطة بذرت تلك البذرة فى اذهان السواد وجعلت تتعهدها وتحسن رعايتها بيد علماء السوء الذين اتخذوهم أعوانا فى ساعة هم احوج اليهم من السيف والجند ، فقوة فتكهم اثمرت الشحناء بين أفراد المجتمع الاسلامى ، وتركوها قرحة داميـة فى جسم الامة عجز رجال

---

(١) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٢٦

الأصلاح من علاجها حتى ايامنا هذه .

وقد كان اولئك الدجالون على انواع فى الوضع ، واختلاف فى الغاية .

فمنهم من يضع الحديث طمعاً فى الدنيا وتزلفاً لولاة الأمر وهم الذين نعبر عنهم بلجنة الوضع ، واول من اتخذ ذلك معاوية بن ابى سفيان (١) .

ومنهم من كان يتعصب لمبدئه فيضع الحديث تقوية له ، ومخالفة لخصمه ويعدون ذلك تديناً ، وسينالون الجزاء عليه يوم الجزاء .

ومنهم من يضع الحديث فى نصرة مذهبه ، وهؤلاء يرون الانتصار لمذهبهم انتصاراً للحق ومقاومة للباطل ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فراحوا يضربون الأحاديث بمهارة فى الضرب ، ويخلقون الحكايات والقصص .

ويطول بنا الحديث اذا أردنا التوسع فى البحث عن الوضاعين والكذابين ، ولعل لنا فى الوقت متسعاً فننشر اسماءهم ، وقد أحصى شيخنا الأمينى منهم عدداً بلغ ستمائة وعشرين ومجموع ما وضعوه من الاحاديث وما قلبوا أسانيده على اختلاف الاهواء والنزعات فكان ٤٠٨٣٢٤ حديثاً (٢) .

وقد أخرجنا من تلك الموضوعات مايقارب الاربعمائة فى الفضائل والمناقب وفى بعضها أساطير لاأحاديث ، وحكايات يصنعها القصاصون بمهارة ويبثونها بين الناس .

ومن اعظم تلك الافتعالات هى اسطورة بن سبأ التى لا زالت تحتل مكانتها فوق صفحات التاريخ وتاخذ وقتاً من كتاب عصرنا الحاضر .

* * *

ولعمرى إنها محنة ولكن كيف المخرج ؟ وهل يتسنى لنا تصفية الحساب

---

(١) شرح النهج ج ١ ص ٢٥٨

(٢) الغدير ج ٥ ص ٢٤٥

لنعالج هذه المشاكل ؟ كيف وقد سرى داؤها فى المجتمع ، وأخذها المهرجون مأخذ القبول وجعلوها بمحل الاعتبار ، وراحوا يؤيدون تلك الموضوعات اذ وافقت أغراضهم ، وجعلوها فى منهاج الاحتجاج ، ولم يلتفتوا لحالها وحال رواتها ممن أعماه التعصب ، فضعفت مواهب إدراكه ، ولم يستطع تمييز الحق من الباطل ، وقد خانه الاتزان والتعقل ، فهوس وهرج . وموه وافترى ، وحاول اخفاء حقيقة لا يمكن اخفاءها .

القصاصون :

ولابد لنا من الاشارة الى بعض أعمال القصاص وما لهم من الاثر فى توجيه الرأى العام لقبول تلك المنكرات عند العامة . فانهم قاموا فى المساجد والجوامع والطرقات والأندية يبثون تلك المنكرات نصرة للسلطة . وتأييداً للمبادىء المبتدعة ولقد اتخذت السياسة منهم سلاحاً فاتكا . فكانوا ينشرون القصاصين فى ساحات الحرب . يشجعون الجند على التضحية حتى تطورت الحالة الى اختراع الاحاديث والقصص لايقاع الفتن بين طوائف المسلمين . ولقد خضعت العامة لتصديقهم وقبول مفتعلاتهم حتى أصبح من العسير الانكار عليهم .

يحدثنا الشعبى : انه انكر على قاص حدث عن النبى ﷺ أن الله خلق صورين ، له فى كل صور نفختان .

فقال الشعبى : اتق الله يا شيخ ولاتحدث بالخطأ ان الله لم يخلق الاصوراً واحداً . فقال القصاص : يا فاجر انما حدثنى فلان عن فلان وترد على ؟ ثم رفع نعله فضربه ، وتتابع القوم عليه بالضرب فما خلص نفسه حتى حلف

ان الله خلق ثلاثين صوراً فى كل صور نفخة (١) .

وحدث أحدهم بحديث عن النبى ﷺ ان من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار . فلم يبق أحد منهم الا وأخرج لسانه يومىء به الى أرنبة أنفه (٢)

وانكر الطبرى على قاص ببغداد ما يحدث به من الاكاذيب فرمى العامة باب دار الطبرى بالحجارة حتى سدوه ، وصعب الخروج منه .

ونزل القصاص الى غمار العامة يقصون لهم القصص الدينية ، والاساطير والنوادر فى المساجد والطرق ، وينالون بها مالا كثيراً ، وكان يجتمع اليهم الرجال والنساء .

قال ابن الجوزى فى المنتظم : وكان القصاص فى أواخر القرن الرابع اكبر مثيرى الفتن بين السنة والشيعة .

وعلى اى حال فلو حاولت ـ ان أصف هنا عظيم الاثر الذى تركته تلك الاوهام ، والاكاذيب التى وضعها الدجالون والقصاصون الذين يلقنون العوام اياها ، وبالاخص بغض الشيعة وعداء أهل البيت ـ لطال بنا الحديث ، وعظمت قائمة الحساب ، ولكننا نقتصر على هذا القدر ولا نلم بجميع العوامل التى دفعت الناس الى التهجم على الشيعة ، فذلك يحتاج الى وقت طويل ، وصفحات تزيد على صفحات هذا الكتاب .

ولهذا نقتصر على نتيجة واحدة فى تصفية الحساب وهى لفت نظر أبناء العصر الحاضر الى رعاية حقوق الامة ، وان يستعرضوا تاريخ الشيعة بدون تعصب وتحيز ، وان يلحظوا تطور المذهب الجعفرى وسيره فى طريق التقدم بما لديه من القوى الحيوية ، والقدرة على مقاومة الطوارىء ، وتخطى تلك

---

(١) تحذير الخواص للسيوطى .

(٢) الاغانى ج ١٢ ص ٥

الحواجز التى وقفت فى طريقه ، مالو وقف بعضها فى طريق غيره من المذاهب لما استطاع ان يخطو خطوة واحدة ، لأنها عوامل جبارة .

على ان المذهب الجعفرى ليس باستطاعة أى أحد مؤاخذته بشىء فى ذاته ، فهو موافق للشعور المتطور والوجدان ، ولكتاب الله العزيز ، والسنة المستقيمة ، وقد وجد العقل السليم فيه بغيته ، كما أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه ، وقد برهن بغزارة مادته ، ومرونة أحكامه ، ودقة بحوثه وسلامة قواعده ونقاوة اصوله وفروعه على انه أقوى مصدر للتشريع الاسلامى ، ويتطور مع الزمن ومع كثرة الحوادث .

ولكن المؤسف ان نرى الكثير ممن كتبوا عن التشريع الاسلامى قد اقتصروا على ذكر المذاهب الأربعة فحسب ، واذا انجر الحديث الى ذكر اختلاف الآراء وتعدد الأقوال فى مسألة فقهية ذكروا آراء رؤساء المذاهب البائدة ولم يذكروا أقوال أهل البيت وآراءهم .

عذرنا اولئك القوم الذين دونوا الفقه فى العصور الغابرة لأن الخشية من ذكر مذهب أهل البيت قد أرغمتهم على الاعراض عن ذكره ، فان التعرض لذلك انما هو تعرض للخطر ، ولكننا نعجب من المتأخرين الذين ساروا تلك السيرة الملتوية ، ولم يعطوا مذهب أهل البيت حقه من العناية فى البحث .

ولا يستبعد أن التقليد من حيث هو قد دعاهم لمخالفة الواقع ، والا فما المانع من التعرض لذكر مذهب أهل البيت عندما يكتبون عن التشريع الاسلامى ؟ وقد انتشر فى أقطار الارض ، وعبر الى ما وراء البحار ، واصبح مؤيدوه يتجاوز عددهم التسعين مليونا ، ولكن هناك عوامل حالت بينهم وبين الاحتكاك بمذهب أهل البيت ، وليس عليهم كلفة فى معرفته إلا أن يقرأوا

الكتب المدونة فى ذلك ليقفوا على الحقيقة وعليهم أن يتقبلوا الحق وان كان مراً . . أو يرفضوه إن وجدوا لديهم ادلة عقلية .

ولعل تلك الدعايات المارة الذكر قد خامرت الادمغة ، وتوارثتها الاجيال ، وهى التى أدت الى ابتعادهم عن الحقيقة . ولذلك عجز المصلحون عن مسألة التوفيق بين المسلمين ، ورفع سوء التفاهم ، مع ما بذلوه من النصح وأجهدوا أنفسهم لتحقيق هذه الغاية ، وهذا أمر غريب جداً فانه لم يكن هناك شيء من الامور المتضادة التى لا يمكن بحثها ، والوقوف على حقيقتها ، حتى اصبح من الصعب التوفيق بين المسلمين ، ونبذ تلك الخلافات ، فالشيعة لم يكن لهم مذهب يخالف باحكامه كتاب الله وسنة رسوله .

وارى من الخير أن أتعرض هنا لما ذكره المقدسى فى كتابه احسن التقاسيم عن عدول الناس عن مذهب الشيعة - بالاخص - فى أربعة مسائل ، ونجيب عن ذلك باختصار من القول ، وموجز من البيان .

يقول المقدسى :

إعلم ان الناس قد عدلوا عن مذهب أبى حنيفة فى أربع : صلاة العيدين إلا بزبيد ، وصدقة النخيل ، وتوجيه الميت عند الموت ، والتزام الاضحية .

وعدلوا عن مذهب مالك فى اربع : الصلاة قدام الامام إلا بالمغرب ويوم الجمعة بمصر ، وفى أكل لحوم الكلاب إلا بمدينتين بالمغرب تباع جهراً وتطرح فى عرائس مصرويثرب سراً ، وفى الخروج من الصلاة بتسليمة واحدة

وعدلوا عن مذهب الشافعى فى أربع : الجهر بالبسملة إلا بالمشرق فى مساجد أصحابه ، وكذلك القنوت بالفجر ، وفى اختصار النية فى تكبيرة الافتتاح ، وفى ترك القنوت فى الوتر .

وعدلوا عن مذهب داود فى أربع : تزويج مافوق الاربع ، واعطاء الانثيين النصف ، ولا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد ، وفى مسألة العول .

وعدلوا عن أصحاب الحديث فى أربع المتعة فى الحج ، والمسح على العمامة وترك التيمم فى الرمل ، وانتفاء الوضوء فى القهقهة .

وعدلوا عن مذهب الشيعة فى أربع : المتعة ، ووقوع طلاق الثلاث واحدة ، والمسح على الرجلين ، والحيعلة فى الأذان .

وتلك المسائل التى عدلوا فيها عن المذاهب موجودة فى كتب الفقه ، ولا حاجة بنا الى التعرض لذكرها لأنا قد أفردنا بحثاً خاصاً بالفقه وسيأتى ، نعم الشىء المهم هو النظر فى هذه المسائل التى يقول فيها المقدسى بعدول الناس عنها

فى المذهب الجعفرى ، فهل هى بدعة فتركها الناس أم انها من المسائل المقررة فى الشريعة الاسلامية فلابد لنا من البحث - بايجاز - عن هذه المسائل لنرى ما هو الحق :

١ - المتعة

اما عدولهم عن متعة النساء فانما هو عدول عما شرعه الله ورسوله للمسلمين وقد عمل به أصحابه من بعده مدة خلافة ابى بكر ، وشطراً من خلافة عمر ، وهم مستمرون على العمل بها حتى نهى عنها عمر بقوله : «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وانا انهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة الحج ومتعة النساء» ، فاباحة المتعة مقطوع به على عهد النبى ﷺ وادعاء النسخ لذلك الحكم لا يثبت .

وكان ابن عباس حبر الأمة يأمر الناس بالمتعة ، وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر فقال : على يدى دار الحديث تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلما قام عمر قال : ان الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء فاتموا الحج والعمرة وابقوا نكاح هذه النساء ، فلن اؤتى برجل نكح امرأة الى أجل إلا رجمته بالحجارة .

وأخرج مسلم فى باب نكاح المتعة من صحيحه عن ابى نضرة قال : كنت عند جابر بن عبد الله فاتاه آت فقال : إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا فى المتعتين فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله ، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعدلهما .

وقد ذهب الى القول بها جماعة من أصحاب النبى ﷺ كأمير المؤمنين على عليه السلام كما روى عنه انه قال : لولا ان عمر نهى عن المتعة مازنى الا شقى .

ومنهم عبد الله بن عباس وكان يقول : ما كانت المتعة الا رحمة رحم الله بها امة محمد ﷺ لولا نهيه (يعنى عمر) عنها ما احتاج الى الزنا إلا شقى .

ومنهم عبـــد الله بن عمر ، أخرج الامام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمر قال : سأل رجل ابن عمر عن متعة النساء فقال : والله ما كنا على عهد رسول الله ﷺ زانين ولا مسافحين .

ومنهم عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شىء ، فقلنا الا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا ان ننكح المرأة بالثوب الى أجل . ثم قرأ عبد الله « يايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) .

وأخرج البخارى عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الاكوع انه قال : كنا فى جيش فاتانا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : انه قد أذن لكم ان تستمتعوا فاستمتعوا (٢) .

وعلى اى حال فان تشريع زواج المتعة فى الاسلام بشروطه المعتبرة فيه قد اتفق عليه السنة والشيعة ودل عليـه القرآن الكريم كقوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة » .

وعلى هذا الاتفاق ساروا على القول بها فى عهـــد النبى ﷺ وأيام ابى بكر وشطراً من عهد عمر الى ان نهى عنهـا كما مر فافترقوا عند هذا الحد فالشيعة أخذوا بحليتها ولم يتركوا قول رسول الله لقول عمر .

وقد ذهب لتحليل المتعة جماعة من الصحابة ، منهم جابر ابن عبد الله ومعاوية ، وعمرو بن حريث ، واسماء بنت ابى بكر ، وابو سعيد وسلمة

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٩

(٢) أخرجه البخارى ج ٣ ص ١٥٠

ابنا أمية بن خلف وغيرهم .

وقال بها جماعة من التابعين منهم طاووس ، وعطاء ، وسعيد بن جبر وسائر فقهاء مكة (١) .

وسيأتى تفصيل البحث فى الاجزاء القادمة ان شاء الله .

٢ - الطلاق

اتفقت الامامية على أن طلاق الثلاث واحدة ، فلو طلقها ثلاثا بدون مراجعة لم تحرم عليه ، ويجوز له مراجعتها ولا تحتاج الى محلل .

نعم الطلاق المحرم الذى لاتحل المطلقة بعده لمطلقها إلا بالمحلل الشرعى ، انما هو لو طلقها ثم راجعها وهكذا ثلاثا حرمت عليه فى الطلاق الثالث ، وهو المسبوق برجعتين مسبوقتين بطلاقين ، وحينئذ لا تحل المطلقة بعدُ لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره ، وبه جاء التنزيل « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » الى قوله عز وجل : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » الآية .

وقد خالف الاكثر من علماء السنة ، فجعلوا قول الزوج لزوجته : انت طالق ثلاثاً يوجب تحريمها ولا تحل الا بالمحلل ، وقد كان على عهد رسول الله ﷺ يعد طلاق الثلاث واحدة ، وكذلك فى أيام ابى بكر وشطراً من عهد عمر بن الخطاب .

أخرج مسلم فى صحيحه بسند عن ابن عباس انه كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ ، وابى بكر وسنتين من عهد عمر طلاق الثلاث واحدة ،

---

(١) نيل الاوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٣٣ وذكر ذلك ابن حزم فى المحلى فراجع .

فقال عمر بن الخطاب : ان الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم فيه اناة : فلو أمضيناه عليهم ، فامضاه (١) .

وأخرج عن ابى الصهباء انه قال لابن عباس : أتعلم انما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ وابى بكر وثلاث من امارة عمر فقال ابن عباس : نعم (٢) .

واخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام ﷺ غضبان ثم قال : أيلعب فى كتاب الله وانا بين أظهركم (٣) .

وعن ابن عباس ان ركانة طلق زوجته ثلاثاً فى مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديداً فسأله رسول الله ﷺ : كيف طلقتها ؟ قال : ثلاثا . قال ﷺ : فى مجلس واحد ؟ قال : نعم قال ﷺ : انما تلك واحدة فارجعها ان شئت (٤) .

قال الالوسى فى تفسيره : وفى وقوع الثلاث بلفظ واحد وكذا فى وقوع الطلاق مطلقاً فى الحيض خلاف فعند الامامية لا يقع الطلاق بلفظ الثلاث ولا فى حالة الحيض لانه بدعة محرمة وقد قال ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد » ونقله غير واحد عن ابن المسيب وجماعة من التابعين .

قال الشوكانى : وقع الخلاف فى الثلاث اذا وقعت فى وقت واحد ، هل يقع جميعها ويتبع الطلاق أم لا ؟ ثم ذكر القائلين بالوقوع : وهم أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم ثم قال : وذهب بعض من أهل العلم : لا يتبع بل

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ج ٤ ص ٢٢٦

(٤) نفس المصدر .

يقع واحدة فقط ، وحكى ذلك عن ابى موسى ، ورواية عن على عليه السلام ، وابن عباس ، وطاووس ، وعطاء ، ورجاء ، والهادى والقاسم ، والباقر . الى آخره .

والحاصل انه لا خلاف عند المسلمين بوقوع الطلاق الثلاث واحدة ، فى عهد النبى وابى بكر وشطراً من امارة عمر ، وبعد ذلك الزم عمر الناس بوقوع مثل هذا الطلاق اجتهاداً منه ، وعند هذه النقطة تفترق الشيعة عن السنة ، فالشيعة يأخذون بقول النبى ويتبعون ما شرعه ولا يلتزمون بتنفيذ اجتهاد عمر وترك تلك النصوص الدينية المقدسة من الكتاب والسنة فقد دعته مصلحة رآها ولكن المصلحة عندنا هى اتباع الرسول امتثالا لقوله تعالى : وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

يقول الاستاذ الغزالى : وجمهور الفقهاء الاقدمين جعلوه بدعياً ويقع الطلاق به وهم فى هذا يتبعون اجتهاد عمر رضى الله عنه الى أن يقول : وبدلا من أن يلتزموا منهج السنة آثروا البدعة المحرمة ونطقوا بالطلقات الثلاث دفعة واحدة وكان ذلك اذا حدث فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم غضب منه اشد الغضب ولم يجعله الا واحدة (١) .

٣ - المسح على الرجلين

المسح على الرجلين مشروع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله كما رواه الجمهور عن معلى بن عطاء عن أبيه عن ادريس بن ابى اويس الثقفى انه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله توضأ ومسح على قدميه . وأخرج مسلم فى صحيحه عن

(١) حقوق الانسان للاستاذ محمد الغزالى ١٧٢

عبد الله بن عمر انه قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فادركنا وقد حضرت الصلاة ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى : « ويل للاعقاب من النار » .

قال القرطبي : وهذا الأثر وان كانت العادة قد جرت بالاحتجاج به فى منع المسح فهو أدل على جوازه منه فى منعه ، لأن الوعيد انما تعلق فيه بترك التعميم لا بنوع الطهارة بل سكت عن نوعها ، وذلك دليل على جوازه ووجوب المسح هو أيضاً مروى عن بعض الصحابة والتابعين .

والغرض أن أهل السنة اختلفوا فى فرض الرجلين ، فقال قوم : فرضهما المسح .

وقال آخرون : فرضهما الغسل وذهب بعضهم الى التخيير بين المسح والغسل ، كما هو مذهب ابن جرير وداود الظاهرى وغيرهما .

أما الشيعة فاتفقوا على وجوب المسح لدلالة الآية الكريمة وهو قوله تعالى : « وامسحوا برؤسكم وارجلكم » بالنصب عطفاً على موضع برؤسكم كما هو المعروف باللغة العربية وهو كالعطف على المحل ، وقرأ غيرهم بالخفض على المجاورة ، وهو شاذ فى اللغة ورد فى مواضع لا يلحق بها غيرها ولا يقاس عليها سواها ، ولا يجوز حمل كتاب الله على الشذوذ الذى ليس بمعهود ولا مألوف ، والأعراب بالمجاورة انما يكون عند من اجازه ، عند فقدان حرف العطف .

وقد صح فى صفة وضوء النبي ﷺ من طريق أهل البيت انه غسل وجهه وذراعيه ثم مسح رأسه وقدميه ، وصح عن ابن عباس انه قال : ما أجد فى كتاب الله إلا غسلتين ومسحتين .

٤ - الاذان

إن كلمة « حى على خير العمل » - كانت على عهد النبي ﷺ - جزأ من الأذان ومن الاقامة ، ولكنهم ادعوا نسخها بعد ذلك ، والصحيح انها كانت على عهد النبي ﷺ وابى بكر وشطراً من عهد عمر ولكنه نهى عنها كما نهى عن متعة النساء (١) ولقد ابدلوا مكانها كلمة الصلاة خير من النوم ، كما يروى مالك بن أنس فى موطأه : ان المؤذن جاء الى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح فوجده نائماً فقال : الصلاة خير من النوم ، فامره عمر أن يجعلها فى نداء الصبح ، قال الزرقانى فى شرح الموطأ : هذا البلاغ أخرجه الدارقطنى فى السنن من طريق وكيع فى مصنفه عن العمرى عن نافع عن ابن عمر عن عمر انه قال لمؤذنه : اذا بلغت حى على الفلاح فى الفجر فقل : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم .

ولا وزن لما جاء عن محمد بن خالد بن عبد الله الواسطى أن النبي ﷺ استشار الناس لما ينبههم الى الصلاة ، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى فأرى النداء تلك الليلة رجل من الأنصاريقال له عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب فطرق الأنصارى رسول الله ليلا ، فامر رسول الله ﷺ بلالا فأذن به .

أما رجل هذه الرواية وهو محمد بن خالد بن عبد الله الواسطى كذاب لا يصح أخذ الأحاديث عنـــه وقد نص على ذلك يحي بن معين ، وضعفه ابو زرعة ، وانكر عليـه ابن عدى أحاديثه ، وقال يحي : هو رجل سوء

---

(١) انظر الفصول المهمة لسيدنا الحجة شرف الدين .

فلا يلتفت الى ما يرويه فى تشريع الأذان على الرؤيا ، وقد ذكر الناس رؤيا عبد الله بن زيد فى تشريع الاذان فلما سمع الحسين بن على عليه السلام غضب وقال : الوحى ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد والأذان وجه دينكم ، ولقد سمعت ابى على بن ابى طالب عليه السلام يقول : أهبط الله ملكا عرج برسول الله صلى الله عليه وآله الى السماء الى ان قال : وبعث الله ملكا لم ير فى السماء قبل ذلك الوقت فاذن وأقام وذكر كيفية الأذان ثم قال جبرئيل للنبى صلى الله عليه وآله : يامحمد هكذا أذن للصلاة .

وقد أجمعت الامامية على كون الأذان من الأحكام التى نزل بها الوحى من الله لا يرجع ذلك الى رؤيا كما يقولون وكلمة « حى على خير العمل » جزؤ من الأذان وقول : « الصلاة خير من النوم » إنما هو من اجتهادات الخليفة عمر ، وقد صح عن ابنه عبد الله انه كان يقول فى اذانه : « حى على خير العمل » وكذلك امامة بن سهل بن حنيف كما ذكره ابن حزم فى المحلى وكان أهل البيت يأتون بها لثبوتها وعدم دليل على نسخها وأذّن بها الحسين بن على صاحب فخ (١) وعلى ذلك استمرت الشيعة فى اتباع أهل البيت عليهم السلام وعدم الرجوع لغيرهم وكان ذلك شعارهم فى جميع الأدوار .

والغرض أن هذه الامور التى يقول عنها المقدسى بعدول الناس فيها عن

---

(١) ظهر الحسين بن على بن الحسن السبط بالمدينة المنورة وكان معه جماعة من الطالبيين وحاربه عامل العباسيين فهزمه الحسين وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله المرتضى من آل محمد [ص] وأرسل له العباسيون جيشاً فقتل يوم التروية بفخ ومما هو جدير بالذكر ان موسى بن عيسى العباسى أرسل رجلا الى عسكر الحسين حتى يراه ويخبره عنه فمضى الرجل ورجع وقال له ما أظن القوم إلا منصورون فقال وكيف ذاك يابن الفاعلة ؟ قال الرجل لانى ما رأيت فيهم الا مصلياً أو مبتهلا أو ناظراً فى مصحف أو معـداً للسلاح ، فضرب موسى يداً على يد وبكى ثم قال : هم والله اكرم خلق الله ، وأحق بما فى ايدينا منا ، ولكن الملك عقيم لو ان صاحب هذا القبر يعنى النبى [ص] نازعنا الملك ضربنا خيشومه بالسيف .

مذهب أهل البيت لم تكن من الأمور المبتدعة بل هى مقررة فى الاسلام .

وسيأتى فى مباحث الفقه مزيد بيان حول هذه المسائل وغيرها .

اما المسائل التى عدل عنها الناس - كما يقول المقدسى - عن المذاهب الاخرى فلا يسع المجال للبحث عنها هنا .

وكيف كان فان مذهب أهل البيت يرتبط بكتاب الله وسنة رسوله ارتباطاً وثيقاً ولا دخل فيه للرأى ولا للقياس ، كما انه بعيد كل البعد عما احيط به من تهم رماه بها خصومه كما اوضحنا ذلك فى الابحاث السابقة .

* * *

وهنا نقف عن مواصلة البحث عما حل بالمسلمين من عوامل الفرقة من جراء الخلافات التى اوهنت الكثير من روابطهم وكدرت صفو مودتهم .

وكان التعصب هو العامل القوى فى قطع تلك الروابط والمعول الهدام لصرح الاخوة الاسلامية .

والآن نتحول للبحث عن حياة أئمة المذاهب بعد أن تعرضنا لبيان نشأة المذاهب وعوامل انتشارها .

وقد اشرنا للمذاهب التى لم يكتب لها البقاء فحيت من الوجود وبطل العمل بها فلا نتعرض لها باكثر من ذلك .

ويقتصر بحثنا فى هذا الكتاب عن المذاهب الاسلامية المعمول بها اليوم وهى :

المذهب الجعفرى :

ينسب للامام أبى عبد الله الصادق جعفر بن محمـــد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد سبط رسول الله ﷺ وريحانته ابن الامام على ابن أبى طالب عليه السلام ولد فى المدينة المنورة سنة ٨٣ هـ وتوفى فيها سنة ١٤٨ هـ مسموماً وقد أشرنا فى الابحاث السابقة الى بعض النواحى المتعلقة بتاريخ حياته .

المذهب الحنفى :

ينسب الى الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى ، من أهل كابل أو من أهل نسا وكان أسمه عتيك بن زوطره ، وكان ابوه عبداً مملوكا لرجل من ربيعة من بنى تيم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنى قفل ، ولد سنة ٨٠ هـ فى نسا وتوفى سنة ١٥٠ هـ فى بغداد .

المذهب المالكى :

ينسب الى الامام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الاصبحى ولد سنة ٩٣ بالمدينة وحملت به امه سنتين وقيل اكثر وتوفى سنة ١٧٩ والله اعلم .

المذهب الشافعي

وينسب الى الامام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وقيل ان شافعاً كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش ، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل ، ولد سنة ١٥٠ هـ وتوفى سنة ١٩٨ هـ .

المذهب الحنبلي

ينسب الى الامام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان ولد سنة ١٦٤ هـ فى بغداد وتوفى سنة ٢٤١ هـ فيها .

* * *

ونحن فى هذا الجزء نتعرض لحياة الامام ابى حنيفة من حيث نشأته ومقومات شخصيته .

وفى الجزء الثانى حياة الامام مالك بن انس ، وفى الجزء الثالث حياة الأمام الشافعى ، وفى الجزء الرابع الامام احمد بن حنبل .

اما البحث عن الامام الصادق عليه السلام لم نقتصر عليه فى جزء واحد بل التزمنا ان نذكر طرفاً من اخباره فى كل جزء ابتداء من الجزء الاول .

ولا أقول بانى قد استوفيت البحث ـ فى هذه الموسوعة ـ عن حياة الامام الصادق عليه السلام وماله من آثار ومآثر ، ومناقب ومفاخر فدراسة حياته

لا تستوفى بسهولة ، وان ذلك أمر يشق على الباحث مهما انفق من جهد فى هذا السبيل ، وفى أى ناحية يسلك فى دراسة حياته ﷺ ليفرغ منها فراغاً تاماً ويحيط بها احاطة تامة فانه يجد نفسه فى البداية لا فى النهاية .

وليس ذلك لغموض يكتنف جوانب عظمته ، او وجود زوائد فى دراسة حياته ، او اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلو مقامه ، فهو ارفع من ذلك .

وانما اتساع دائرة معارفه ، وتعدد نواحى شخصيته ، وعظم اثره فى بعث الفكر الاسلامى ، وجهاده المتواصل فى سبيل اسعاد الامة ، ورفع مستوى المجتمع الاسلامى ، هو سبب فى قصور الباحث عن ادراك الغاية المطلوبة فى الدراسة عن شخصيته ﷺ والنفوذ الى معرفة كنهها .

ولولا مرض التعصب الذى ابتليت به نفوس كثير من المؤرخين ، لاعطوا هذه الشخصية بعض ما يجب لها من البيان .

ومع ذلك فقد انتشر ذكره واصبح المنتمون لمذهبه فى العالم مائة مليون او يزيدون وان العلم والحق لكفيلان باظهار مآثر الامام وللعلم حكمه وللحق اتباعه ونسأل من الله التسديد وهو ولى التوفيق .

الامام ابو حنيفة

تمهيد :

ذكرنا فى الابحاث السابقة أسباب نشأة المذاهب الاسلامية وانتشارها بكثرة ، وتعرضنا لذكر المذاهب التى اصابها الخمول والتأخر فكان نصيبها الفناء والابادة بعـــد مدة ، ولم يبق منها لاخواننا أبناء السنة إلا المذاهب الاربعة : الحنفى . المالكى . الشافعى . الحنبلى .

وقد سارت هذه المذاهب فى طريق الانتشار والشهرة ، ولم يعرض لها أى عارض ، ولم يواجهها أى خطر يعرقل حركة السير فكتب لها الخلود واصبح المعول عليها اليوم .

والآن وقد انتهى بنا السير فى البحث عن أئمة المذاهب الأربعة لنأخذ صورة عن كل واحد منهم بدون تعصب لهم أو عليهم فان الباحث اذا اطل من زاوية التعصب الضيقة لا يهتـدى الى الواقع ولا يعرف الاشياء بحقيقتها وليكن ابتداء التعرف عن الامام أبى حنيفة أولا وذلك من حيث الرتبة الزمنية لا رتبة الافضلية والاولوية فذاك أمر يعود لغيرنا .

وان ما اتصل بنا من اخبار ابى حنيفة من طريق المغالين فيه او المتحاملين عليه لا يوضح لنا نهج الوصول الى الغاية .

* * *

فاذا أردنا أن نتعرف على شخصية ابى حنيفة لنعرف مكانته فى ذلك

العصر وأهميته فى مجتمعه ، يلزمنا مناشدة الرجال الذين عاصروه ، ولا ننظر اليه من زاويتى الغلو أو التعصب ، لأنا نطلب الحقيقة ونتبع الحق بلا تعصب له وعليه ، فان رجلا قد أصبح مرجعاً للفتيا لكثير من المسلمين يقتدون باقواله ، ويتمذهبون بمذهبه ، فهو من الأهمية بمكان فلنبحث عن شخصيته لنأخذ عنها صورة عن طريق البحث المتجرد عن التحيز والتعصب .

من هو ابو حنيفة ؟

هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م .

وكان جده زوطى (بضم الزاء وسكون الواو وفتح الطاء) من اهل كابل وقيل من مدينة نسا ، أو من أهل بابل ، وقد اسر عند فتح العرب لتلك البلاد ، واسترق لبعض بنى تيم بن ثعلبة ، ثم اعتق ، فكان ولاؤه لهذه القبيلة .

وقد وقع الاختلاف فى نسب ابى حنيفة ، فالمتعصبون له ينفون عنه الرق ، ويدعون له نسباً عربياً مرة وفارسياً لم يقع عليه الرق اخرى ، والصحيح أن ابا حنيفة فارسى النسب ، تيمى الولاء ، كوفى النشأة .

وكذلك وقع الخلاف فى محل ولادته ، من جهة مقام ابيه فقيل : ترمذ . وقيل نسا . وقيل الانبار او الكوفة ، كما اننا لم نقف على تاريخ حياة ابيه ثابت ، وسنة وفاته ومدة معاشرة ابى حنيفة له .

نعم يروى عن ابى حنيفة أنه قال : حججت سنة ٩٦ هـ ، او ٩٩ هـ مع والدى وانا ابن تسع عشرة سنة ، فلما دخلت المسجد الحرام رأيت حلقة فقلت لابى : حلقة من هذه ؟ فقال : حلقة عبد الله بن الحارث بن جزء الخ .

وهذا شىء بعيد عن الصحة : لأن وفاة عبد الله بن الحارث كانت فى سنة ٨٥ هـ بمصر كما سنوضح ذلك فى بحثنا حول سماع ابى حنيفة من الصحابة .

ومهما يكن من أمر فانا لم نقف على اخبار والده ، وتاريخ حياته ، وهل ولد

على الاسلام ، ام أنه اسلم بعد فتح العرب لبلاده ، واسترقاق ابيه ؟

ويقولون أن زوطى جده اهدى للامام على عليه السلام فالوذجاً يوم النوروز وكان ثابت صغيراً فدعى له الامام على عليه السلام بالبركة .

أما امه فلم يتعرض التاريخ لذكرها بالتفصيل ، وقد ذكرها أخباراً معه من حيث طاعته ومعاشرته لها . وقد وافانا الاستاذ السيد عفيفى المحامى الشرعى بمصر ، ومحرر مجلة المحاماة الشرعية ، بقصة من دون سند وهى تتكفل تعيين أم الامام وشخصيتها واليك نصها :

يقول الاستاذ السيد عفيفى عند ذكره لوالد أبى حنيفة : هو ثابت بن النعمان بن المرزبان ، وكان ثابت هذا يرجع الى دين وعقل ومروءة تصدر عن جد ، فقد روى انه كان فى شبابه ورعاً زاهداً ، وكان يوماً يتوضأ من جدول فجاءت تفاحة فى الماء فامسكها واكلها بعد الفراغ من الوضوء ، ثم بصق فرأى بصاقه دماً فقال فى نفسه : لعل ما أكلته حرام ، وإلا لما تغير بصاق فتبع رأس الجدول فوجد شجرة تفاحها مثل ما أكل ، فطلب صاحبها وقص عليه القصة وأعطاه درهما وقال : اجعلها فى حل ، فلما رأى صاحب التفاحة ورعه وصلابته فى دينه أحبه ، وقال لاأرضى بدرهم ولا بألف درهم ولا باكثر .

فقال ثابت : فبم ترضى ؟ قال إن لى ابنة لا ترى ولا تنطق ، ولا تسمع ولا تمشى ، فان تزوجتها اجعلها فى حل وإلا اخاصمك يوم السؤال والحساب فلبث ثابت فى التفكر ساعة ثم قال فى نفسه عذاب الدنيا أسهل وينقضى ، وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، وتزوج بها فلما دخل عليها تقبلته بقبول حسن ، فاشتبه على ثابت الأمر ، لأنه وجدها حسناء سميعة بصيرة ناطقة ، فقالت له أنا زوجتك بنت فلان قال : وجدتك على خلاف ما وصفك أبوك ،

قالت : نعم فانى كنت من سنين لم أطأ خارج البيت ، ولم أنظر الأجانب ولم أسمع كلامهم ولم يسمعوا كلامى ، فعرف ثابت الحال وقال : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) .

يقص علينا الاستاذ المحامى هذه القصة غير ملتفت الى المؤاخذات التى يؤاخذ بها بصفته مثقفاً من أبناء القرن العشرين ويتولى مهنة المحاماة الشرعية .

فيعلق عليها بقوله : هيهات لا يأتى الزمان بمثل ثابت ، ولا بمثل صاحبته فلا عجب ان يتولد منهما ولد فى صورة الانسان وسيرة الملك ، ويحيى الله به دينه القويم ، ويشيع مذهبه فى الأقطار ، وعلمه فى الامصار ويقول :

من هذا الوالد الورع الزاهد ، وهذه الام الطاهرة ، ولد الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان فى مدينة الكوفة فى سنة ٨٠ من الهجرة النبوية فى عصر الدولة الاموية فى خلافة عبد الملك بن مروان .

ويقول بعد ذلك ان اسمه النعمان وهو منقول من اسم جنس وقيل انه الدم وقيل انه الروح ، فيكون اتفاقا حسناً لأن ابا حنيفة روح الفقه وقوامه ومنه منشأه ونظامه .

ونحن نسائل الاستاذ المحامى عن الاسباب التى دعته لنقل هذه الاسطورة فى مقدمة كتابه ـ حياة الامام ابى حنيفة ـ أكان انتصاراً للامام ليعلن بفضله وفضل أبيه وامه ؟ وهل ضاقت عليه المسالك فى مناقب أبى حنيفة فالتجأ الى أساطير العجائز فى ليالى الشتاء ؟ وليته ترك هذه الاسطورة ، وهو المثقف الذى يحمل شهادة المحاماة ، والمفروض بالمحامى ان يحمل عقلية قوية وفكراً واسعاً يستطيع به ان يتوغل الى اعماق معقولات القوانين .

ونسائله أيضاً لو قدر للشيخ عفيفى حضور تشاجر الفلاح مع ثابت وطلب

كل منهما حكمه فى الأمر أكان يحكم على ثابت بانه مذنب ويلزمه بارضاء الفلاح بكل صورة ؟ وهل فى وسع الشيخ ان يحكم بصحة ما ذهب اليه ثابت من أن التفاحة كانت حراماً لذلك تحولت الى دم ؟ وكيف يكون ذلك من الوجهة الطبية والبيولوجية .

أنا لا أدرى ولعل الاستاذ محب الدين الخطيب يدرى ، لأنه قدم الكتاب وعرفه للقراء .

المناقب :

لعل من أهم المشاكل التى تقف أمامنا ونحن فى طريق البحث عن حياة ابى حنيفة هى مشكلة المناقب ، فانها متضخمة الى أبعد حد ، ولانستطيع ان ندرس حياة ابى حنيفة دراسة صحيحة الا بعد الفراغ من مشكلة المناقب لانها أهم شيء فى الباب .

وان كتب المناقب تعرقل سير الباحث وتحول بينه وبين الوصول الى الهدف لأن فيها الاغراق فى المدح ، والمبالغة فى الوصف ، ونقل اخبار وحكايات بعيدة عن مقاييس الصحة ، ولا نريد التعرض لكل ما قيل بل نقتصر على مناقشة ما يدعى وروده على سبيل البشارة وطريقة التعيين لاهلية الاتباع .

وكيف كان فقد قال اصحاب المناقب ينبغى لكل مقلد امام ان يعرف حال امامه الذى قلده ، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه وشمائله ، وفضائله ، وسيرته فى أحواله ، وصحة أقواله ، ثم لابد من معرفة اسمه وكنيته ونسبه وعصره وبلده ، ثم معرفة أصحابه وتلامذته .

وقد الف كل من علماء المذاهب كتباً فى مناقب امامهم فالف الحنفية كتباً فى مناقب ابى حنيفة : منها عقود المرجان فى مناقب ابي حنيفة النعمان ، ومختصره (قلائد عقود الدرر والعقيان) لأبى جعفر الطحاوى و (مناقب أبى حنيفة) لموفق الدين بن أحمد المكى الخوارزمى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ رتبة على أربعين باباً ، و (البستان فى مناقب النعمان) للشيخ محى الدين عبد القادر

ابن ابى الوفاء ، و (شقائق النعمان في مناقب النعمان) للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ ، و (مناقب أبي حنيفة) لمحمد بن الكردرى المعروف بالزاز المتوفى سنة ٧٨٢ هـ وقد ترجم الى اللغة التركية وغيرها .

وتوجد مناقب كثيرة فى بطون الكتب على اختلاف نزعات المؤلفين وأهوائهم .

يقول الدكتور أحمد أمين : كما ان العصبية المذهبية حملت بعض الاتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لاعلاء شأن امامهم ، ومن هذا الباب ما رووا من الاحاديث بتبشير النبي ﷺ لكل امام من مثل ما روى ان النبي ﷺ قال فى أهل العراق : « ان الله وضع خزائن علمه فيهم » ومثل : « يكون فى امتى رجل يقال له النعمان بن ثابت ، ويكنى بابى حنيفة يحي الله على يديه سنتى فى الاسلام » الخ ، حتى لقد زعموا ان ابا حنيفة بشرت به التوراة .

وكذلك فعل بعض الشافعية فى الشافعى ، والمالكية فى مالك ، وما كان اغناهم عن ذلك . ومن اجل ذلك صعب على الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام ، فقد كان كلما اتى جيل زاد فى فضائل امامه .

وقد وضع احمد بن الصلت بن المفلس اخباراً فى مناقب ابى حنيفة وكان يحكى ذلك عن بشر بن الحارث ويحي بن معين وابن المدينى (١) .

لذلك نرى من اللازم البحث عن بعض المناقب التى أصبح التسليم بصحتها أمراً مفروغاً منه عند بعضهم ، ونرسل فى معرض المدح والثناء ارسال المسلمات

وها نحن نضع بين يدى القراء أهم المناقب فى ابى حنيفة ونعطيه عنها صورة صادقة من حيث الصحة والبطلان ، فالعلم هو الكاشف لذلك ، والتحقيق فى البحث يحل تلك المشاكل ، ولاغرض لنا بهذا الاتجريد شخصية

---

(١) انظر المنتظم ٥ / ١٥٦

أبي حنيفة من ابراد الغلو لنأخذ له صورة طبق الأصل .

البشائر في أبي حنيفة

أورد الحنفية في كتبهم احاديث عن صاحب الرسالة ﷺ تنص على البشارة بابي حنيفة وتصرح باسمه ، وكنيته ، منها :

١ - يكون في امتي رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج امتي .

٢ - يكون في امتي رجل اسمه النعمان وكنيته ابو حنيفة .

٣ - يكون في امتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنى بابي حنيفة يحي الله به سنتي .

بهذا اللسان والتعبير أوردوا هذه الأحاديث عن صاحب الرسالة ونحن نقف هنا موقف الحيرة أنترك هذه الأحاديث بدون فحص ونسدل عليها ستار الاعراض - فالعقل السليم أجل من ان يحتاج الى ايضاح مثل هذه الامور التي تدل بنفسها على بعدها عن الواقع أم نبحث عنها فنصرف زمناً في البحث لطلب الحقيقة فقط ؟

نعم ، البحث عنها أولى ، لأنا وجدناها في كتب الحنفية المعتبرة عندهم ، ويستدل بها اكثر علمائهم في صحة اتباع مذهب ابي حنيفة دون غيره ، على ان المبرزين منهم يكذبون ذلك وينصون على كذبها كما سيأتي بيانه ، اذاً لابد لنا من البحث - بايجاز - عن مصدر هذه الأحاديث والنظر في سلسلة الرواة .

حديث السراج

وهذا الحديث استشهد به كثير من الحنفية في تفضيل ابي حنيفة على غيره ذاهبين الى صحته فلننظر الى سلسلة الحديث ، ونكتفي بالبعض منها ولا

نتتبع حلقاتها جمعاء فسلسلة الحديث تبتدىء من محمد بن سعيد البورقى ، وتنتهى الى ابى هريرة ، اما محمد بن سعيد فاليك حاله ومنزلته فى الرواية لتعرف أهليته لحمل الحديث .

قال ابن حجر : محمد بن سعيد البورقى أحد الوضاعين قد وضع المناكير على الثقات وأوحشها روايته عن بعض مشايخه عن الفضل بن موسى عن محمد ابن عمر عن ابى سلمة عن ابى هريرة مرفوعاً يكون فى امتى رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج امتى ، وزاد رواية أخرى ، وسيكون فى امتى رجل يقال له محمد بن ادريس (يعنى الشافعى) فتنته على امتى أضر من فتنة ابليس (١)

وقال حمزة السهمى : محمد بن سعيد كذاب حدث ببلاد خراسان (سيكون فى امتى رجل يقال له النعمان هو سراج امتى) ثم حدث فى العراق باسناده وزاد (سيكون فى امتى رجل يقال له محمد بن ادريس فتنته على امتى أضر من فتنة ابليس) وقال الحاكم : (محمد بن سعيد حديثه ليس بشىء) .

ويقول ملا على القارىء وهو أكبر علماء الحنفية وله كتاب فى مناقب أبى حنيفة : وقد أورد بعضهم فى مدح ابى حنيفة وذكر حديث السراج وهو حديث موضوع .

محيي الدين ومجدده

وهذا الحديث بهذا اللفظ أوردوه مرفوعاً (سيكون رجل يقال له النعمان بن ثابت ويكنى بابى حنيفة يحيي دين الله وسنتى) .

وقد أجهد الموفق نفسه فى تصحيح هذا الحديث ولم يوفق ، وراوى

---

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ١٧٩

هذا الحديث يحيى بن سليمان عن ابراهيم بن أحمد الخزاعى عن ابى هدبة ابراهيم ابن هدبة عن أنس بن مالك مرفوعاً ولاحاجة بالتعرض لرجالها أجمع ونكتفى بذكر من رواها عن أنس وهو ابراهيم بن هدبة .

قال الخطيب فى تاريخه : ابراهيم بن هدبة حدث عن أنس بالاباطيل . وقال ابو حاتم وغيره : انه كذاب خبيث وقال ابن حبان انه من الدجاجلة كان لا يعرف بالحديث (١) .

وقال بشر بن عمر كان فى جوارنا عرس ، فدعى له ابو هدبة فاكل وشرب ، وسكر فجعل يغنى :

أخذ القمل ثيابى فرقصت لهنـــه (٢)

وقال على بن ثابت : ابو هدبة اكذب من حمارى ـ الى آخر الاقوال فيه وفى فسقه ، وانه كان يسأل الناس فى الاسواق مع أنه كان من أهل القرن الثالث . فكيف سمع من أنس ؟ فلا شك فى كذبه ، إذاً فالحديث موضوع على صاحب الرسالة وقد اختلفت الفاظ هذه الموضوعات لاختلاف الغرض فى وضعها ، وذلك انها اشارة فى أول الأمر الى الكنية فقط ، وبهذا وقعوا فى حذر عظيم ، لأن الذى يكنى بابى حنيفة من العلماء كثير ، فذهبوا الى الصراحة بالاسم ، فقالوا : اسمه النعمان بن ثابت ويكنى بابى حنيفة ، ليخرجوا بذلك جملة من العلماء الذين اشتهروا بهذه الكنية فى عصره وبعد عصره .

قال السيوطى عند ذكر هذه الاحاديث : إن الذى وضع حديث (ابوحنيفة سراج امتى) هو مأمون بن أحمد السلمى ، وأحمد بن محمد الجويبارى وكلاهما من الوضاعين (٣) .

---

(١) لسان الميزان ج ١ ص ١٢٠

(٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) اللئالىء المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة ج ١ ص ٢٣٧

وانهم اوردوا هذه الأحاديث من طرق متعددة ، ولكن المحور الذى تدور عليه ، هو سعيد البورقى ، ومأمون بن احمد الهروى ، وأحمد بن محمد الجوريبارى ، ومحمد بن يزيد الطرسوسى ، وابان بن عياش وهو الراوى عن أنس وابراهيم بن هدبة راوى حديث محي السنة وكل هؤلاء عرفوا بالكذب والوضع .

اما مأمون بن أحمد السلمى الهروى ، وهو راوى حديث يكون فى امتى رجل يقال له النعمان الى آخره . قال ابو نعيم فى مقدمة المستخرج على صحيح مسلم : مأمون السلمى من أهل هراة خبيث وضاع يأتى عن الثقات ، مثل هشام بن عمار ، ودحيم بالموضوعات ، وفيما حدث عن أحمد الجويبارى الكذاب عن عبد الله بن معدان الازدى عن أنس مرفوعاً : سيكون فى امتى رجل يقال له النعمان . الحديث قال ابو نعيم : مثله يستحق من الله تعالى ومن الرسول ومن المسلمين اللعنة . وقال الحاكم بعد ذكر الحديث من طريق مأمون : ومثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه الله أدنى معرفة بانها موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأما محمد بن يزيد فقد كان من الوضاعين ، وقد روى هذا الحديث عن سليمان بن قيس عن ابى المعلى بن مهاجر عن ابان عن أنس قال ابن حجر : وسليمان بن قيس والمعلى مجهولان لا يعرفان (١) .

واما ابان بن ابى عياش البصرى مولى عبد القيس وهو الراوى عن أنس فقد كان يحي بن معين ، وعبد الرحمن بن المهدى لا يحدثان عنه . وقال الفلاس : هو متروك الحديث ، وقال احمد بن حنبل : لا يكتب عنه ترك الناس حديثه . وقال ابو عوانة : لا استحل ان اروى عنه شيئاً ، الى آخر

---

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ٧

ما هنالك من الأقوال فى ذمه ، وقد نص بعضهم على كذبه ، قال ابن حبان : ان ابان سمع من انس احاديث وجالس الحسن فكان يسمع من كلامه : فاذا حدث جعل كلام الحسن البصرى عن أنس أحاديث عن النبى ﷺ ولعله حدث عن انس باكثر من ١٥٠٠ حديث . قال الجوزجانى : ابان ساقط ، وقال شعبة : لأن اشرب من بول حمارى أحب الى من ان أقول حدثنى ابان وقال مرة : لأن يزنى الزانى خير من أن يروى عن ابان . وقال أيضاً لايحل الكف عن ابان انه يكذب على رسول الله (١) وقد مر ذكر ابراهيم والبورقى .

واما الجويبارى فقد نص على كذبه الذهبى فى الميزان ، وابن حجر فى لسانه والسيوطى والخطيب البغدادى وغيرهم .

ونحن لا نتعرض لجميع تلك الأقوال الادعائية فى البشائر النبوية التى التجأ اليها المعجبون بأبى حنيفة ، والمغالون بشخصيته ، ونكتفى بهذا القدر من التوهين لها ، ولم يكن من قصدنا بالبحث عن هذه الامور - شهد الله - الا اظهار الحقيقة وخدمة للعلم لان اغلب من كتب عن ابى حنيفة جعلها من اقوى مؤيدات اتباعه ولزوم الاخذ عنه دون غيره ، وان اكثر من كتب من المعتدلين فى مناقب ابى حنيفة لم يذكروا هذه الأحاديث لعدم الاعتماد عليها كالسيوطى فى تبييض الصحيفة ، وابن حجر فى الخيرات الحسان (٢) وملا على القارىء ، والذهبى فى مناقب ابى حنيفة .

وقد سلك السيوطى طريقاً آخر لاثبات تبشير النبى ﷺ بابى حنيفة . قال : وقد بشر النبى ﷺ بابى حنيفة فى الحديث الذى أخرجه ابو نعيم فى

---

(١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٩٨

(٢) قال ابن حجر فى الخيرات الحسان ص ٥ عند ذكر الحديث : قد أطبق المحدثون على وضعه .

الحلية من طريق ابي هريرة : لو كان العلم بالثريا لتناولته رجال من ابناء فارس

وهذا لا يمكن وفى ابناء فارس من حملة العلم من الصدر الأول الى اليوم من العلماء ما ينطبق هذا العموم عليهم فكيف يخصص بابى حنيفة وحده ! هذا من التخمين والظنون وهو من باب أريه السهى ويريني القمر .

وعلى اى حال فان هذه الموضوعات كانت من نتائج عصور التعصب وعهود التطاحن بين المذاهب .

غياث لكل مهموم

روى الموفق بسنده عن محمد الحارثى باسناده الى ابى البخترى قال : دخل ابو حنيفة على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فلما نظر اليه قال : كأنى انظر اليك وأنت تحيي سنة جدى بعدما اندرست ، وتكون مفزعاً لكل ملهوف ، وغياثاً لكل مهموم .

هكذا نقل الموفق بهذا السند يوصله الى ابى البخترى ، ونحن فى سعة عن مناقشة رجال السند أجمع ، بل يلزمنا ان نتعرف على شخصية ابى البخترى الذى يدعى سماع هذه الكلمات من الامام الصادق عليه السلام فاذا كان محله الصدق والثقة فنحن نأخذ هذه الرواية بعين الاعتبار ، إذ ليس لنا عداء مع الحق ، إذاً

من هو ابو البخترى

هو وهب بن وهب بن وهب القرشى ابو البخترى قاضى بغداد ، الذى يقول فيه المعافى :

ويل وعول لأبي البختري اذا ثوى للناس في المحشر
من قوله الزور واعلانه بالكذب في الناس على جعفر

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات في حوادث سنة ٢٠٠ هـ : وفيها مات وهب بن وهب ابو البختري . . الى ان قال : روى عن هشام بن عروة وطائفة واتهم بالكذب .

وقال ابن قتيبة في المعارف : كان ضعيفاً في الحديث كذبه في المغنى ، وقال يحيى بن معين : ابو البختري كان يأخذ فلساً فيذكر عامة ليله يضع الحديث وقال أيضاً : ابو البختري القاضي كان يكذب على رسول الله ﷺ . وقال أيضاً : ابو البختري كذاب عدو الله خبيث .

وقال عثمان بن ابي شيبة : وهب بن وهب ذاك دجال أرى انه يبعث يوم القيامة دجالا ، ولما بلغ عبد الرحمن بن مهدي موته قال : الحمد لله الذي أراح المسلمين منه ، وقال ابن خلكان : ابو البختري كان متروك الحديث ، مشهوراً بوضعه ، ونص أحمد على كذبه .

وروى الخطيب ان ابا البختري دخل على الرشيد وهو قاض يوم ذاك وهرون يطير الحمام فقال : هل تحفظ في هذا شيئاً ؟ فقال : حدثني هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة ان النبي كان يطير الحمام (١) .

وساق ابن عدي لأبي البختري أحاديثاً موضوعة قال : وابو البختري من الكذابين الوضاعين ، وكان يجمع في كل حديث يرويه باسانيد من جسارته على الكذب ووضعه على الثقات (٢) .

هذا هو ابو البختري راوي هذه المنقبة التي ذكرها الخوارزمي في مناقب ابي حنيفة .

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٥٣ ووفيات الاعيان ج ٢ ص ١٨٢ و ١٨١
(٢) لسان الميزان ج ٦ ص ٢٣١

ونسوق اليك قضية من قضايا قاضى القضاة ابى البخترى لتعرف أهليته لهذه المنزلة : كان الرشيد قد أعطى ليحيى بن عبـــد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن ابى طالب كتاب الأمان ، ثم اراد ابطاله فسأل محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة ؟ فقال : هذا أمان صحيح ودمه حرام ، فدفع الكتاب الى الحسن بن زياد فقال بصوت ضعيف : امان ، فدخل ابو البخترى وهب بن وهب القاضى ، وأخرج من خفه سكيناً فقطع الكتاب من غير ان يسأل عنه ، وقال : هذا أمان مفسوخ ، وكتاب فاسد ودمه فى عنق (١) .

وبارتكاربه لهذه الجريمة واراقته دماً طاهراً لحفيد من أحفاد رسول الله ﷺ نال درجة الرقى فى مناصب الدولة ، وخطا خطوات واسعة إذ قال له الرشيد عند صدور هذه الفتيا : أنت قاضى القضاة وانت أعلم بذلك . واجازه الرشيد بالف الف وستمائة الف درهم فها هو قد أصبح بعد ان كان واحداً من القضاة رئيسهم الاول ، ومرجعهم الأعلى تناط به امورهم ، ومن سوء حظ الامة ان تكون سلطتها القضائية بيد قضاة لايخافون الله ولا يرجون معاداً

هذا هو ابو البخترى وهذه حاله فكيف يوثق بنقله ويعتمد على قوله .

يقول سويد بن عمرو بن الزبير فى أبيات له :

انا وجدنا ابن وهب حين حدثنا عن النبى أضاع الدين والورعا
يروى أحاديث من افك مجمعة اف لوهب وما يروى وما جمعا (٢)

---

(١) انظر مفتاح السعادة لاحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج ٢ ص ١١٠ ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) انظر ترجمة قاضى القضاة ابو البخترى فى لسان الميزان ج ٦ ص ٣٣٢ ، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٧٨ وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٥٤ وغيرها تجد عجباً .

بين المد والجزر :

لقد غالى بعض كتاب المناقب غلواً أخرجهم من الاعتدال فى القول والتثبت فى النقل ، فتقولوا وافتعلوا ، وذهبوا الى أبعد حد من المدح والثناء ، وجاءوا بامور متنوعة فى مناقبه وفضائله حتى وضع بعضهم كتابا موضوعاً فى مناقبه . وللبيان نعطى صورة مختصرة عن تلك الادعاءآت الكاذبة وللتفصيل محل آخر .

فمن أظرف ما ينقل من كرامات ابى حنيفة قضية الدهرى الذى ورد بغداد ليناظر علماء الاسلام أيام الدولة العباسية ، وانهم عجزوا عن جوابه ولم يبق إلا حماد بن ابى سليمان ومعه تلميذه أبو حنيفة ، ولهذه الاسطورة صور فى النقل :

(منها) ان دهرياً من الروم ناظر علماء الاسلام فافحمهم إلا حماداً . ولم يأت أحد بما فيه مقنع ، والامام إذ ذاك كان صبياً فخاف حماد لأنه لو ألزمه يهون أمر الاسلام . فرأى رؤيا لا حاجة لنا بنقلها (١) .

فذهب ابو حنيفة مع استاذه الى الجامع . وصعد الدهرى المنبر . وطلب الخصم ، فحضر أبو حنيفة وهو صبى ، فاستحقره ، فقال ابو حنيفة : دع هذا وهات كلامك ، فتعجب الدهرى من جرأته فسأله الدهرى باسئلة فاجاب عنها فقال أبو حنيفة : هذه الاسئلة وأنت على المنبر وأنا أجبت عنها

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠١ .

والآن انزل الى الأرض وأنا أصعد المنبر ، فنزل وصعد أبو حنيفة وقال: اذا كان على المنبر مشبه مثلك أنزله ، واذا كان على الأرض موحد مثلى رفعه، (كل يوم هو فى شأن) فبهت الدهرى وقتلوه .

هكذا دون بعض أصحاب المناقب هـــذه الاسطورة ولم يلتفتوا الى المؤاخذات فانهم ذكروا ان هذه القصة قد وقعت فى بغداد ، ولا يتأتى ذلك فان بغداد مصرت فى زمن المنصور سنة ١٤٥ فيكون عمر ابى حنيفة فى هذه القصة ٦٥ سنة فكيف كان عمره سبع سنين ؟ وان وفاة استاذه حماد بن ابى سليمان سنة ١٢٠ بالاتفاق أى قبل تمصير بغداد بخمس وعشرين سنة . مع أن أبا حنيفة تتلمذ على يد حماد ، بعد أن قضى شطراً من عمره فى بيع الخز ، واشتغل مدة بعلم الكلام ، وبعد ذلك إلتحق بحلقة حماد .

وقد ذكرت هذه الاسطورة فى عدة كتب وعلق بعضهم عليها بقوله : هذا حال الامام فى صغره فكيف فى كبره (١) .

اما الصورة التى ينقلها الخوارزمى فهى :

ان ملك الروم بعث مالا عظيما بيد أمين الى بغداد ، وقال : سلهم عن ثلاث مسائل ، فان هم أجابوا فادفع اليهم المال ، وإلا فارجع به ، فلما قدم بغداد جمع العلماء وصعد الرومى المنبر ، وقال : ان اجبتم عن اسئلتى أعطيتكم المال ، وإلا رجعت به ، فسألهم وسكت القوم وفيهم أبو حنيفة، وهو يومئذ صبى ، فقال لأبيه : يا أبتا أنا أجيبه ، فاسكته أبوه ، وقام أبو حنيفة واستأذن الخليفة فى الجواب وصعد أبو حنيفة المنبر . الخ . هكذا أوردوا هذه الاسطورة واختلفوا بطرق نقلها .

---

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٠١ ، وشرح وصية ابى حنيفة المخطوط بمكتبة الامام كاشف الغطاء .

ومن أظرف ما نقلوه ما يرويه صاحب مفتاح السعادة ان ثابتاً توفى وتزوج الامام الصادق عليه السلام ام الامام ابى حنيفة ، وكان أبو حنيفة رحمه الله صغيراً وتربى فى حجر الامام جعفر الصادق وأخذ علومه منه . قال مؤلفه : وهذه ان ثبتت فهى منقبة لأبى حنيفة ، وقد أيد ذلك قاضى زاده شريف مخدوم فقال : وبعد وفاة الثابت (أى والد أبى حنيفة) تزوج ام الامام رحمه الله الامام جعفر الصادق وربى أبو حنيفة فى حجره (١) .

وكيف يتأتى ذلك ويستقيم وان أبا حنيفة كان صغيراً وتربى فى حجر الامام الصادق وقد كانت ولادة ابى حنيفة سنة ٨٠ وولادة الصادق سنة ٨٣؟ فلا يصح هذا وان ابوا إلا تصحيح هـــذه المناقب فالله قادر على كل شئ ، ولا يستبعد أن يكون المد والجزر فى الأعمار كما هو فى البحار .

ولنكتف بما ذكرناه ، ولا نتعرض لتلك الادعاءآت الكاذبة فقد ادعوا ان التوراة بشرت به ، وان صفته مكتوبة فيها ، وان الله ناداه يا أبا حنيفة انى قد غفرت لك ولمن هو على مذهبك الى يوم القيامة ، وأن النبى غبط داود لأن فى امته لقمان فبشره جبرئيل بابى حنيفة ، وان حكمته أعظم من حكمة لقمان ، وان الخضر درس عليه خمس سنين فى حياته واكمل دراسته عليه وهو فى قبره الى كثير من تلك السفاسف وهى من الامور التى لا تحتاج الى مناقشة ، وإنما هى وليدة عصر احتدام التعصب للمذاهب ، فذهب كل الى تكوين شخصية امامه طبقاً لأهدافه ، وقد ألفوا كتباً طافحة بالثناء الأجوف والمدح الكاذب .

وقد كان جماعة يضعون الأحاديث والمناقب لنصرة مذهب ابى حنيفة امثال احمد الحمانى المتوفى سنة ٣٠٢ ، وأسد بن عمر البجلى القاضى المتوفى

---

(١) انظر جامع الرموز ١ / ٢ .

سنة ١٩٠ . وأبان بن جعفر الكذاب المعروف وقد حرفه بعضهم عند نقله عنه بابان ليخفى حاله ، وقد خرجوا فى أبى حنيفة أحاديث لا أصل لها (١) وقد وضع اباء عليه اكثر من ثلثمائة حـــديث ، وذكر اكثرها الحارثى فى مسند ابى حنيفة ، وغير هؤلاء كثير لا يسع الوقت لذكرهم ممن دعتهم عصبيتهم الى تكوين شخصية ابى حنيفة طبقاً لرغباتهم ومعاكسة للوجدان ، ومخالفة للحق ، وبذلك صعب الوصول الى معرفة شخصية أبى حنيفة .

فلنترك مناقشة تلك المناقب فانا لا نتعرض إلا لما له أهمية فى الموضوع . فمن ذلك قولهم : إن أبا حنيفة سمع جماعة من الصحابة ودونوا له أحاديث ذكرت فى مسانيده فلننظر لصحة هذه الدعوى .

سماعه من الصحابة

حاول البعض أن يجعل أبا حنيفة من التابعين بل قال بعضهم إنه سيدهم ، والتابعى هو الذى عاصر الصحابة وسمع منهم ، وقالوا : ان أبا حنيفة عاصر جماعة من الصحابة وروى عنهم ومجموع ما رواه خمسون حديثاً

وهذه الدعوى يختص بها الحنفية وقد نفاها علماء الحديث والتاريخ .

كما ان أصحابه الذين دونوا مذهبه لم يثبتوا ذلك ولم يعرفوا من روايته عن الصحابة معرفة قطعية لا تقبل الشك . وإنما هو من إيحاءآت العصبية ونزعة الغلو وللبيان نذكر اولئك الصحابة رضى الله عنهم وتاريخ وفياتهم ، فيتضح

(١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٤٩ .

بطلان هذه الدعوى ، واليك البيان :

١ — عبدالله بن انيس ابو يحيى الجهنى حليف الأنصار شهد العقبة الثانية واحد ، ورحل الى مصر وتوفى فى الشام سنة ٨٠ أى سنة ولادة أبى حنيفة ، وقال بعضهم : توفى فى خلافة معاوية سنة ٥٤ فما يروى عن ابى حنيفة انه قال ولدت سنة ثمانين ، وقدم عبدالله بن انيس الجهنى صاحب رسول الله ﷺ سنة ٩٤ ورأيته وسمعت منه عن رسول الله ﷺ « حبك الشئ يعمى ويصم » لا أصل له .

ويقول مله على القارى - بعد ذكره لهذا الحديث - : فى ملاقاة عبدالله ابن انيس به (أى بابي حنيفة) اشكال لأن أهل السير والتواريخ يجمعون على انه مات بالمدينة سنة ٥٤ (١) .

٢ — عبدالله بن الحرث بن جزء الزبيدى ابو الحرث شهد فتح مصر واختط بها داراً ومات سنة ٨٦ وهو آخر من مات بها من الصحابة ، فما روى عن ابي حنيفة انه قال : حججت مع ابي سنة ٩٦ ، ورأيت عبدالله ابن الحرث يدرس فى المسجد الحرام ، وسمعت منـــه انه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : من تفقه فى دين الله كفاه الله ما أهمه ، ورزقه من حيث لا يحتسب فهذا لا يصح لأن وفاة هذا الصحابي كانت فى سنة ٨٦ وولادة ابي حنيفة فى سنة ٨٠ وأول حج حجه ابو حنيفة سنة ٩٦ هجرية فكيف يصح ملاقاته وسماعة منه ؟ .

قال الشيخ قاسم الحنفى وهو من مشايخ الحنفية : ان سند ذلك الحديث فيه قلب وتحريف ، وفيه كذاب اتفاقاً ، وبان عبد الله مات بمصر ولابي حنيفة ست سنين وعبدالله لم يدخل الكوفة فى تلك المدة .

---

(١) انظر شرح مسند ابى حنيفة ٢٨٦ .

٣ — جابر بن عبدالله الانصارى صحابي جليل شهد العقبة ، وغزا تسع عشرة غزوة مات بالمدينة ٧٨ أى قبل ولادة ابي حنيفة بسنتين فما يروى عن ابي حنيفة عن جابر عن النبي ﷺ انه أمر من لم يرزق ولداً بكثرة الاستغفار والصدقة ، فولد لجابر تسعة ذكور ، فهـــذا حديث موضوع لا أصل له (١) .

٤ — عبدالله بن ابي أوفى الأسلمى ، صحابي ابن صحابي شهد بيعة الرضوان ، مات سنة ٨٥ وسماع ابى حنيفة منه حديث رسول الله ﷺ « من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة » فسماعه غير صحيح لأنه طفل صغير ليس له أهلية السماع ، مع ان أبا حنيفة لم يشتغل بطلب العلم إلا بعد مدة من الزمن .

٥ — معقل بن يسار المزنى بايع بيعة الشجرة ، وتوفى فى خلافه معاوية سنة ٦٠ فرواية أبى حنيفة عنه حيث يقول : سمعت معقلا يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : علامات المنافق ثلاث إذا قال كذب ، واذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، « غير صحيح لتقدم وفاة معقل على ولادة ابي حنيفة بعشرين سنة » .

٦ — واثلة بن الاسقف بن كعب بن عامر من بنى ليث بن عبد مناف ، ويكنى أبا الأسقع أسلم قبل تبوك ، وشهدها مع النبي ﷺ نزل الشام ومات فى خلافة عبدالملك سنة ٨٣ وكان آخر من مات بدمشق من الصحابة روى عنه أبو حنيفة حديثين : (الأول) « لا تظهر الشماتة باخيك فيعافيـــه الله ويبتليك » (الثانى) « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » . والحديثان رواهما الترمذى من وجه آخر عن جمع من الصحابة ، ورواية أبي حنيفة لهما عن

---

(١) انظر الخيرات الحسان ص ٢٤

واثلة لا تصح لأنه مات بالشام وعمر ابى حنيفة ثلاث سنين .

٧ - عائشة بنت عجرد مجهولة لا تكاد تعرف ، قال الذهبي وابن حجر : أن عائشة لا صحبة لها وانها لا تكاد تعرف ، وبذلك رد ما روى ان أبا حنيفة روى هذا الحديث الصحيح (أكثر جنداللة الجراد لا آكله ولا أحرمه) .

٨ — سهل بن سعد الساعدى كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلا توفى سنة ٨٨ وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة ولم يخرج منها الى الكوفة فلا يصح سماح أبي حنيفة منه وروايته عنه لأن أبا حنيفة لم يحج إلا فى سنة ٩٦ أى بعد وفاة سهل بثمان سنوات . ذكر ذلك البزاز فى مناقب ابي حنيفة .

٩ — أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الانصارى شهد بدراً مات سنه ٩٠ وقد جاوز المائة وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (١) .

وعلى كل حال فان رواية ابي حنيفة عن الصحابة قد نفاها جماعة من المحدثين وعلماء الرجال : كالولى العراقى ، وابن حجر ، والسخاوى وغيرهم(٢).

قال محمد بن شهاب البزاز : ان جماعة من المحدثين انكروا ملاقاة أبي حنيفة للصحابة ، وأصحابه اثبتوها .

وقبل أن نتحول عن موضوع المناقب نحب أن نشير الى منزلة ابي حنيفة فى الحديث ، وهل خرج له أصحاب الصحاح أم لا ؟

ولا نحب أن نطيل الحديث ونكتفى ببعض الموضوع ، لنأخذ صورة

---

(١) الخيرات الحسان وخلاصة تهذيب الكمال .

(٢) شرح مسند ابى حنيفة للقارى ٢٨٤

عن ذلك فى مجال المقارنة والموازنة فيما بعد .

حديثه :

قالوا : ان أبا حنيفة لم يكن صاحب حديث ولكن كان قياساً سلك فى القياس مسلكا استوجب شدة الإنكار عليه وعلى أصحابه .

قال مالك بن مغول : قال لى الشعبى - ونظر الى أصحاب الرأى - : ما حدثك هؤلاء عن أصحاب محمد ﷺ فاقبله ، وما خبروك به عن رأيهم فارم به فى الحش . وقال : اياكم والقياس فانكم ان أخذتم به حرمتم الحلال وأحللتم الحرام (١) .

يقول ابن خلدون : بلغت رواية ابى حنيفة الى سبعة عشر حديثاً . ويعلل ذلك بقوله : إنما قلت رواية ابى حنيفة لما شدد فى شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقين اذا عارضها الفعل النفسى (٢) .

قال الدكتور احمد امين - بعد نقل هذه العبارة - : وهى وان كانت موجزة ، وغامضة بعض الغموض إلا انها تدلنا على هذا الاتجاه ، وهو عدم الاكتفاء بالرواية ، بل عرضها على الطبائع النفسية والبيئة الاجتماعية (٣) .

ونحن نستبعد صحة هذا القول وان ابا حنيفة لم يرو إلا سبعة عشر حديثاً أو لم يصح عنده إلا ذلك العدد .

فان الرجل حضر عند علماء الامة ، وسمع من الثقاة وسافر الى مكة

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٧٠

(٢) المقدمة ٣٧٢

(٣) ضحى الاسلام ٢ / ١٣١

والمدينة ، وسمع من أئمة أهل البيت عليهم السلام الامام الباقر عليه السلام ، وولده الامام الصادق عليه السلام ، وزيد بن على عليه السلام ، وعبدالله بن الحسن .

ونحن لا ننكر انه كان قياساً وكان يتشدد فى الرواية ، ولا يقبل الخبر إلا اذا رواه جماعة عن جماعة أو كما يقول أصحابه : اذا كان خبر عام عن عامة ، أو اتفق علماء الامصار على العمل به ، ومهما كان تشدده واشتراطه فلا يصح أن يقال إنه لم يصح عنده الا سبعة عشر حديثاً .

اما أصحابه فلم يتشددوا فى قبول الرواية ، فقد أدخل أبو يوسف فى فقه أبى حنيفة أحاديث كثيرة ، ومن بعده محمد بن الحسن الشيبانى ، فانه لقى مالكا ، وقرأ الموطأ عليه ، ثم رجع الى بلده ، وطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة (١) .

وكيف كان فقد اختلف المحدثون فى قبول رواية أبى حنيفة فمنهم من قبله ، ومنهم من لينه لكثرة غلطه فى الحديث ليس إلا ، قال على بن المدينى ليحيى بن سعيد : كيف كان حديث أبى حنيفة ؟ قال : لم يكن صاحب حديث (٢) .

وقال ابن عدى - فى ترجمة اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة : ثلاثتهم ضعفاء . وقد عده البخارى من الضعفاء والمتروكين .

اما أصحاب الصحاح فلم يخرجوا له حديثاً نعم فى رواية أبى على الأسيوطى والمغاربة عن النسائى قال : حدثنا على بن حجر ، حدثنا عيسى هو ابن يونس ، عن النعمان عن عاصم عن ابن عباس : من أتى بهيمة لا حد عليه .

---

(١) رسالة الانصاف ٨

(٢) الذهبى فى مناقب ابى حنيفة ٢٨

وهو لم ينسب النعمان فهل هو ابو حنيفة أم غيره .

وخرج له الترمذى من رواية عبدالحميد الحمانى أنه قال : ما رأيت اكذب من جابر الجعفى ، ولا أفضل من عطاء .

وهذا ليس بحديث وانما هو قول لأبى حنيفة واذا رجعنا الى الواقع فى امكاننا تكذيب هذا القول ولا يصح نسبته لأبى حنيفة لان جابر من كبار التابعين ووثقه سفيان الثورى ، وزهير ، وشعبة ، ووكيع وغيرهم .

جاء فى جامع اسانيد ابى حنيفة عن زهير انه قال : اذا قال جابر بن يزيد : حدثنى او سمعت فهو من أصدق الناس (١) .

وروى عن جابر كبار العلماء واعيان الامة وهو من شيوخ ابى حنيفة وقد روى عنه عدة أحاديث اوردها أصحابه فى كتبهم وهى منتشرة فى أسانيد أبى حنيفة .

وكان أبو حنيفة يمدح جابر بالحفظ ويقول : ما سألت جابر الجعفى عن مسألة قط الا أورد فيها حديثاً ، ولقد سألته عن ورد رسول الله ﷺ فقال حدثنى نافع عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ كان يجعل وتره آخر صلاته (٢) .

ولا يستبعد ان هذا القول وضع أيام نشاط الخلافات وتحامل الموالى على العرب فان جابر عربى وعطاء من الموالى .

وستأتى ترجمة جابر فى الأجزاء القادمة ان شاء الله .

---

(١) جامع اسانيد ابى حنيفة ١ / ٣٠٥

(٢) نفس المصدر

ابو حنيفة

بين انصاره وخصومه

ليس للباحث عن حياة ابى حنيفة بد من الوقوف على اخباره العامة ، وان يستعرض الأقوال فيه وآراء الناس حوله ، وبهذا لا يجد سهولة فى الوصول الى الغاية ، اذ الطريق غير معبد لوجود ركام من الأخبار المختلفة ، والآراء المتناقضة ، والأقوال التى لا يمكن تصديقها .

فهناك تعصب وغلو فى شخصيته ، واعجاب مفرط فى مواهبه ، وهناك نقد مر لأعماله ، وتحامل شديد عليه ، ووصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب وامام طائفة .

والكاتب هنا يقف بين طائفتين : متعصبون له ومغالون فيه وهم أنصاره ، وناقدون له ومتحاملون عليه وهم خصومه .

اما الطائفة الأولى فقد رفعوه الى منازل النبيين ، وزعموا ان التوراة بشرت باسمه ، وان النبى أخبر به قبل ولادته ، وانه سراج الامة ومحيى السنة ، وأنه معجزة النبى بعد القرآن ، ولولاه لما اهتدى الناس .

والشىء الغريب أنهم رفعوه فوق منزلة الأنبياء ، لأن عيسى اذا رجع يقلده ويحكم بمذهبه ، وان الخضر تعلم أحكام الشريعة منه .

يقول قاضى زادة : اعلم ان المذهب لا يقلده من الصحابة والتابعون

الا ابو حنيفة فان عيسى لما ينزل يحكم بمذهبه (١) !!

وقالوا : ان الله خص أبا حنيفة بالشريعة والكرامة .

ومن كراماته : ان الخضر عليه السلام كان يجيء اليه كل يوم وقت الصبح ، ويتعلم منه أحكام الشريعة الى خمس سنين .

فلما مات ابو حنيفة ناجى الخضر ربه وقال : إلهى ان كان لى عندك منزلة فاذن لأبى حنيفة حتى يعلمنى من القبر على حسب عادته حتى أتعلم شرع محمد صلى الله عليه وسلم على الكمال ، فاحياه الله وتعلم منه العلم الى خمس وعشرين سنة .

وبعد أن أكمل الخضر دراسته ، أمره الله أن يذهب الى القشيرى ، ويعلمه ما تعلم من أبى حنيفة ، وصنف القشيرى الف كتاب ، وهى لاتزال وديعة فى نهر جيحون ، الى رجوع المسيح ، فيحكم بتلك الكتب ، لأنه يأتى فى زمان ليس فيه من كتب شرع محمد صلى الله عليه وسلم فيتسلم المسيح امانة نهر جيحون وهى كتب القشيرى (٢) .

هذا ما قالوه حول انتساب المسيح لمذهب ابى حنيفة ولو رى انهم اساؤا لامامهم بهذه السفاسف وخرجوا عن حدود التبجيل والاكرام له .

كما وصفوه بصفات فوق الطبيعة البشرية كقراءة القرآن سبعين الف مرة ، فى محل واحد ، وصلاته فى كل ليلة ركعتين يختم القرآن فى كل ركعة وصلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وامتناعه من أكل اللحم عشر سنين لأن شاة ضاعت فسئل كم تعيش فقيل عشر سنين الى غير ذلك من الامور التى أساء المغالون لأبى حنيفة فيها .

هذا هو ابو حنيفة فى نظر المعجبين به وأنصاره المغالون فى تكوين شخصيته .

---

(١) انظر جامع الرموز ١ / ٢

(٢) انظر الاشاعة فى اشراط الساعة ١٢٠ والياقوتة لابن الجوزى ٤٥ .

أما الطرف الآخر من معاصريه وغيرهم ، فقد رموه بالزندقة ، والخروج عن الجادة ، ووصفوه بفساد العقيدة ، والخروج على نظام الدين ، ومخالفة الكتاب والسنة ، وطعنوا فى دينه وجردوه من الايمان (١)

وقالوا اجتمع سفيان الثورى ، وشريك ، وحسن بن صالح ، وابن ابى ليلى ، فبعثوا الى ابى حنيفة ، فقالوا : ما تقول فى رجل قتل أباه ونكح امه وشرب الخمر فى رأس أبيه ؟ فقال : مؤمن . فقال ابن ابى ليلى : لا قبلت لك شهادة أبداً . وقال له سفيان الثورى : لا كلمتك أبداً (٢) .

وحكى عن أبى يوسف قيل له : اكان ابو حنيفة مرجئاً ؟ قال نعم : قيل : كان جهمياً ؟ قال : نعم (٣) قيل أين أنت منه ؟ قال : انما كان ابو حنيفة مدرساً ، فما كان من قوله حسناً قبلناه ، وما كان قبيحاً تركناه عليه (٤) .

وحدث ابراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة انه قال : ما رأيت أحداً أجرأ على الله من أبي حنيفة ، وعنه أيضاً : كان ابو حنيفة يضرب لحديث رسول الله الأمثال فيبرره بعلمه (٥) .

وعن الوليد بن مسلم قال : قال لى مالك بن أنس : أيذكر ابو حنيفة فى بلادكم ؟ قلت نعم قال لا ينبغى لبلادكم ان تسكن (٦) .

وعن الأوزاعى يقول : اننا لا ننقم على ابي حنيفة انه رأى كلنا يرى ، ولكننا ننقم عليه إنه يجيئه الحديث عن النبى ﷺ فيخالفه الى غيره (٦) .

---

(١) انظر ابو حنيفة محمد ابو زهرة ص ٥ .
(٢) الخطيب ج ١٣ ص ٣٧٤
(٣) نفس المصدر
(٤) الخطيب ج ٣ ص ٣٧٤
(٥) الانتقاء ص ١٤٨
(٦) ميزان الشعرانى ج ١ ص ٥٩ .
(٧) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٣

قال ابن عبدالبر : وممن طعن عليه وجرحه محمد بن اسماعيل البخارى ، فقال فى كتابه الضعفاء والمتروكين : ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، قال نعيم ابن حماد : حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ سمعنا سفيان الثورى يقول : استتيب ابو حنيفة من الكفر مرتين . وقال نعيم الفزارى : كنت عند سفيان بن عيينة ، فجاء نعى أبى حنيفة ، فقال : ... كان يهدم الاسلام عروة عروة ، وما ولد فى الاسلام مولود أشر منه . هذا ما ذكره البخارى (١) .

وقال ابن الجارود فى كتابه الضعفاء والمتروكين : النعمان بن ثابت جل حديثه وهم .

وقد روى عن مالك رحمه الله انه قال فى ابى حنيفة نحو ما ذكره سفيان : انه شر مولود ولد فى الاسلام ، وانه لو خرج على هذه الامة بالسيف كان أهون . وروى عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب : بالعراق الداء العضال فقال مالك ابو حنيفة وروى ذلك عن مالك كله أهل الحديث .

وعن وكيع بن الجراح انه قال : وجدت أبا حنيفة خالف مائتى حديث عن رسول الله ﷺ . وقيل لابن المبارك : كان الناس يقولون انك تذهب الى قول ابى حنيفة ، قال : ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه ، كنا نأتيه زماناً ، ونحن لا نعرفه ، فلما عرفناه (٢) .

وأورد ابن عبدالبر فى الانتقاء بعضاً من أقوال المادحين له والطاعنين عليه (٣) .

يقول الدكتور على حسن عبدالقادر : ويدعى خصوم أبى حنيفة أنه لم يكن يعطى للحديث أهمية كبيرة ، وأنه يجعل للرأى الطليق مكانه الاول

---

(١) الانتقاء لابن عمر ص ١٥٠

(٢) الانتقاء لابن عبد البر ١٥٠ والخيرات الحسان ٧٦

(٣) المصدر السابق ١٢٤ ـ ١٥٢

بالنسبة للاستنتاج الفقهى ، وانه رد كثيراً من الأحاديث فى سبيل الرأى .

حدث أبو صالح الفراء قال : سمعت يوسف بن أسباط يقول : رد أبو حنيفة على رسول الله ﷺ اربعمائة حديث أو أكثر .

قلت له يا أبا محمد تعرفها ؟ قال : نعم . قلت : إخبر نى بشىء منها قال : قال رسول الله ﷺ : (للفرس سهمان وللرجل سهم) قال ابو حنيفة أنا لا أجعل سهم بهيمة أكثر من سهم المؤمن . واشعر رسول الله ﷺ وأصحابه البدن وقال أبو حنيفة : الاشعار مثله . وقال ﷺ (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا) . وقال أبو حنيفة : اذا وجب البيع فلا خيار . وكان النبى ﷺ يقرع بين نسائه اذا أراد أن يخرج فى سفر ، واقرع أصحابه . قال ابو حنيفة القرعة قمار . وقالوا : أنه كان فى عصره أربعة من الصحابة ، ولكنه لم يهتم للقائهم . وقد ذكر ابن أبى شيبة فى مصنفه فى باب خاص الاحاديث التى خالفها ابو حنيفة وابلغها ١٥٠ حديثاً ... الخ (١).

وقد استعرض الخطيب البغدادى اخبار ابى حنيفة ، وذكر أقوالا عن الفريقين من معدلين ومضعفين ، ومادحين وطاعنين ونسب لابى حنيفة أشياء لا تصح نسبتها اليه .

وقد طعن علماء الحنفية فى الخطيب ونسبوه الى التعصب الأعمى ، وأجابوا عن الطعون التى أوردها الخطيب على ابى حنيفة (٢).

وصفوة القول أن دراسة حياة أئمة المذاهب تلفت نظر الكاتب الى دقة البحث وصعوبته ، لوجود الأقوال المختلفة التى تدل على اندفاع الاتباع لاعلاء تلك الشخصيات فوق منزلتهم الواقعية ، وسنوضح ذلك فيما بعد .

---

(١) انظر نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى للدكتور على حسن عبدالقادر ٢٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣ / ١٣٣ ـ ٤٢٣

وان دراسة حياة أبي حنيفة تتصف - بصورة خاصة - بصعوبة تقف امام الباحث.

يقول الاستاذ ابو زهوة : لقد تعصب له (أى لابى حنيفة) ناس حتى قاربوا به منازل النبيين المرسلين ، فزعموا أن التوراة بشرت به ، وان محمداً ﷺ ذكره باسمه ، وبين أنه سراج امته ، ونحلوه من الصفات والمناقب ما عدوا به رتبته ، وتجاوزوا معه درجته ، وتعصب ناس عليه فرموه بالزندقة ، والخروج عن الجادة وافساد الدين ، وهجر السنة ، بل مناقضتها ثم الفتوى فى الدين بغير حجة ولا سلطان مبين.

ويقول : ان كتب المناقب كثيرة وكثرتها لا تهدى السبيل ، ولا تنير الطريق إذ انها طوائف من الأخبار يسودها المبالغة ، ولا يكاد يخلو خبر منها من الاغراق ، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج الى مقاييس النقد المستقيمة ، فاخبارها لا ترفض جملة ولا تؤخذ جملة ، إذ هى بلا شك فيها الحق والباطل وأخذ الحق من بينها يحتاج الى نظر فاحص (١).

ونحن هنا لا يمكن أخذ صورة واقعية عن شخصية أبى حنيفة ، فان هذه الأقوال المتراكمة أمامنا لا نستطيع أن نتميز بواسطتها تلك الشخصية ولا نبدى رأينا فى الموضوع إلا بعد أن نطل من زاوية التاريخ.

---

(١) ابو حنيفة ٥ - ٧

ابو حنيفة

نشأته ونبوغه

شيوخه وتلامذته

— ١ —

ولد ابو حنيفة سنة ٨٠ فى خلافة عبدالملك بن مروان الاموى ، وعاش الى سنة ١٥٠ وقيل سنة ١٥١ وقيل سنة ١٥٣ فقد أدرك من العصر الاموى اثنتين وخمسين سنة ، ومن العصر العباسى ثمانى عشرة سنة .

وقد نشأ فى الكوفة فى عهـــد الحجاج بن يوسف ، فرأى قسوة الحجاج واستبداده وسيرته السيئة ، وحكمه القاسى ، ومعاملته للناس بما لا يمكن تحمله ، ومات الحجاج وعمره خمسة عشر عاماً ، وشاهد ولاة الامويين يسيرون بالامة ، وقد جاروا فى الحكم ، وخالفوا نظم الاسلام ، اتباعاً لملوكهم ، وطبقاً لرغباتهم ، من غير رادع من دين ، ولا مراعاة لحرمة ، ولم تمنعهم حواجز عن ايقاع الأذى برجال المسلمين وأعيانهم ، ومع هذا يرى العصبية العنصرية فيهم تتجلى بدون خفاء وتكتم ، ومن المعلوم ان ذلك يثير فى نفسه نزعة البغض والكراهة لتلك السلطة ، فلا غرابة حين نراه يساهم فى حركة الانقلاب ، وينضم لجانب العباسيين فى دعوتهم . ويناصر أهل البيت عليهم السلام .

وكان ابو حنيفة منصرفا للعمل فهو يتعاطى بيع الخز ، وله محل لصنعه وصناع تحت يده ، وبهذا كان يعيش برفاهية ، ويصل اخوانه ، وأصحابه ولا نعرف بالضبط مدة بقائه تحت رعاية أبيه فالتأريخ لم يتعرض لذلك .

ولقد كان عصر ابى حنيفة الذى أظله ، والبيئة الفكرية التى عاش بها ،

وترعرعت مواهبه تحت سلطانها أكبر عامل على نبوغه ، وتوجيهه ، وقد كانت الكوفة إحدى مدن العراق العظيمة التى نشأت بها حلقات العلم وكانت الأهواء المتضادة والآراء المتضاربة فى السياسة والعلم واصول العقائد تدعو يومئذ الى الدهشة والامعان .

وتطورت الحركة الفكرية واتجه الناس فى آخر الدولة الأموية الى امور لم يكن فى وسعهم الاتجاه اليها فى ابان عظمة الدولة قبلذاك .

وكانت فى الكوفة حلقات العلم يجلس طلابه الى شيوخ عرفوا بذلك ، فكانت حلقات للمتكلمين بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر والأدب يتكلمون فيها بالقضاء والقدر ، والكفر والايمان ، ويستعرضون أعمال الصحابة فى الحرب وغيرها ، وقد اختار ابو حنيفة حلقة المتكلمين (١) .

ويقال انه نبغ فى علم الكلام والجدل وناظر فيه ، واتسعت دائرة تفكيره . واذا رجعنا الى حديثه عن ذلك فيكون ملازمته لحلقة المتكلمين اكثر من حلقة الفقه التى انتقل اليها بعد هجر علم الكلام ، فاختص بالفقه وحده ، فان ذهابه للبصرة ، ومناظرته الفرق هناك اكثر من عشرين مرة ، وفى كل مره يمكث سنة أو أكثر أو أقل ، فلابد انه قضى الشطر الأكبر من عمره (٢) فى ذلك وان كانت تلك الرواية لا تخلو من مبالغة ان سلمت من الخدشة فى السند .

ومهما يكن فانه نشأ فى أول أمره رجلا يتعاطى التجارة وصنعة الخز وبيعه فى الأسواق ، وقضى شطراً من حياته فى ذلك حتى أرشده الشعبى لطلب العلم فاتجه للكلام ثم اتصل بحلقة حماد بن ابي سليمان المتوفى سنة ١٢٠

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٧٨

(٢) مناقب ابى حنيفة للمكى ج ١ ص ٥٩

وكان هو المبرز من بعده ، وقد ساعدته الظروف على هدم الحواجز التى تقف امامه ، كما ان العصر الذى هو فيه قد هيأ له أسباب الرقى ، ومهد له طرق التقدم ، فقد حدثت تطورات وسنحت فرص استغلها ابو حنيفة ، لما كان يتصف به من ذكاء وفطنة وطموح فى نفسه .

ومن حسن طالعه أن يقع فى عصره الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأى أو بين العرب والموالى وتشتد الخصومة ، ويكثر بينهم التهاجى ، وهو يترأس حلقة استاذه حماد وهى إحدى حلقات العلم بالكوفة ، وبالطبع ان الملتفين حوله والمجتمعين اليه اكثرهم من الموالى واكثرهم يحقد على العرب الذين نظروا اليهم نظر السيد الى المسود والشريف الى الوضيع حتى بعثوا فيهم روح النعرة وتلك نزعة غذتها بنو امية وعاملوا الموالى معاملة سيئة فلم يعدلوا معهم فى الحكم وقد كانت تلك النزعة تبعث فى نفوس المفكرين من الموالى حقداً يأكل قلوبهم .

— ٢ —

زخرت الكوفة برجال العلم ، واتسع نطاق الحركة الفكرية واتجه الناس للبحث ووقع الخلاف بين أهل الرأى وأهل الحديث ، وأخذت السلطة فى تشجيع أهل الرأى واندفع الموالى (١) الى التزاحم على طلب الشهرة والنبوغ فى المجتمع ، عند ما اصبحوا ولهم قوة على ايجاد كتلة متماسكة الأجزاء ، فكثر عددهم فى الكوفة وقوى جمعهم ، وأصبح منهم رجال تبوأوا مناصب الدولة فمنهم قواد جيش وامراء بلدان ، وعلماء يشار اليهم

(١) هو الاسم الذى أطلقه المؤرخون على غير العرب .

بالاصابع ومنهم الأدباء ورواة حديث وقد اجتازوا مراحل العنف والشدة، وانتقلوا من عهد الاستبداد والقسوة وعدم المساواة فى الحكم بينهم وبين العرب ، وقد كان الامويون يتعصبون لأنصارهم وعشيرتهم ويحتقرون الموالى مهما كانت ميزاتهم وكفاءتهم ، وتابعهم بعض المتعصبين من العرب ونهجوا هذا المنهج ، خلافا لما شرعه الله وسار عليه الرسول الأعظم فكانوا يضعون من قيمة الموالى ويحتقرونهم .

يقول الاصفهاني : كانت العرب الى أن جاءت الدولة العباسية ، اذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه فلا يمتنع

وتزوج رجل من الموالى بنتاً من أعراب بنى سليم ، فركب محمد بن بشير الخارجى الى المدينة ، ووليها يومئذ ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، فشكا اليه فارسل الوالى الى المولى ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ، وحاجبه ولحيته :

فقال محمد بن بشير :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد

وقد نفذ الأمويون هذه السياسة بشدة ، وغذوا هذه النزعة باعمالهم التى عاملوا بها الموالى ، وقد شرعها لهم معاوية بن ابى سفيان ، لأنه عرف عدل الامام على بن ابى طالب ومساواته فى الرعية ، الأمر الذى أدى الى تقاعد من تحكمت به هذه النزعة الشريرة عن نصرته ، فاراد معاوية استمالتهم وتحويلهم اليه .

روى المدائنى أن طائفة من أصحاب على عليه السلام مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين اعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس — وانما

قالوا له ذلك لما كان معاوية يصنع فى المال - فقال لهم : اتأمرونى ان اطلب النصر بالجور ؟! (١)

وحوادث التاريخ مملوءة بالشواهد على ذلك من الامور التى بعثت المفكرين من الموالى الى الحقد على العرب .

— ٣ —

وبين هذه الامور وفى ذلك العصر كانت نشأة ابى حنيفة وهو من اولئك القوم الذين نالهم الاذى فى تلك المدة ، وكان يشعر بما يشعر به ابناء جنسه ، ويعظم عليه اهانتهم وتعذيبهم ، وقد شاهد فى الكوفة وغيرها تلك الاوضاع الشاذة ، والسيرة المخالفة للاسلام ، وبالطبع ان نفسه كانت تتأثر .

وبعد أن تحول الحكم من الامويين الى العباسيين ، والموالى هم الذين شاطروا فى هذا الانقلاب بل كان العباسيون يعدونهم من خلص أنصارهم ، ورجال دعوتهم فاتجهوا اليهم ونصروهم ، فكان النشاط الذى احرزه الموالى يسترعى الانظار ، ويبعث على العجب ، خصوصاً حينما نراهم يلتفون حول الامام أبى حنيفة ويعتزون بشخصيته بعد ما أصبح يترأس حلقة علمية خلفها له استاذه حماد ، وهو من الموالى .

وابو حنيفة هو ذلك الرجل الذى عرف بقوة النفس ، وعلو الهمة وكان ذا فطنة ولباقة ، وله سيرة خاصة فى معالجة مشاكل الحياة ، فتراه يقتحم مواقع الخطر ويزج نفسه فيها ، فتحدث الناس عنه واشتهر اسمه وكان مع ذلك على جانب عظيم من المداراة لخصومه فقد كانوا يسمعونه السب ويقرعون

(١) شرح النهج

سمه بالنقد المر ، وكان حسن المعاشرة لاصحابه يصلهم برفده ، ويساعدهم بمعروفه ، وله ثروة تساعدهم على ذلك وتمهد له الطريق . ولما هجاه مساور بقوله :

كنا من الدين قبل اليوم فى سعة حتى بلينا باصحاب المقاييس
قاموا من السوق إذ قامت مكاسبهم فاستعملوا الرأى بعد الجهد والبؤس

فلقيه ابو حنيفة فقال : هجوتنا يا مساور ، نحن نرضيك فوصله بدراهم فقال مساور :

اذا ما الناس يوماً قايسونا بآبدة من الفتيا طريفه
اتيناهم بمقيـــاس صحيح تلاد من طراز ابي حنيفة
اذا سمع الفقيه بها وعاها واثبتها بحبر من صحيفه

فاجابه أصحاب الحديث :

اذا ذو الرأى خاصم عن قياس وجاء ببدعة هنـــة سخيفة
اتيناهم بقول الله فيهـــا وآثار مـــبرزة شريفه

الى آخر الابيات التى ذكرها ابن قتيبة (١) وابن عبد ربه (٢) ولايسع المجال لذكر ما نتج من وراء ذلك الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأى من هجاء ومناوشات وكانت السلطة تشجع تلك الحركة ، وتضاعف أسباب الخلاف من وراء الستار لغاية فى نفوسهم .

وعلى أى حال فقد اتجه ابو حنيفة الى الفقه بعد ان قضى مدة من حياته فى التجارة ثم قرأ الكلام ، ودرس على مشايخ عصره ، وحضر على عطاء بن رباح فى مكة وهو من الموالى وعلى نافع مولى ابن عمر فى المدينة ،

(١) المعارف ص ٢١٦
(٢) العقد الفريد ص ٤٠٨

وأخذ عن عاصم بن أبي النجود وعطية العوفي وعبدالرحمن بن هرمز ، مولى ربيعة بن الحارث ، وزياد بن علاقة ، وهشام بن عروة وآخرين ، ولكنه لزم واحداً منهم ملازمة تامة وتخرج عليه وهو حماد بن ابي سليمان الاشعري وهو الذي اختص به ابو حنيفة وحضر درسه وتخرج عليه الى أن مات سنة ١٢٠ وعمر ابي حنيفة أربعون سنة وقد أكثر ابو حنيفة الرواية عنه .

ويحدث أبو حنيفة عن صلته بشيخه حماد يقول : قدمت البصرة فظننت اني لا اسأل عن شيء إلا أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب ، فجعلت على نفسي أن لا افارق حماداً حتى يموت ، فصحبته ثماني عشرة سنة .

ولم تكن ملازمته لحماد بحيث لم ينقطع عنه ولم يأخذ عن غيره لأنه كان كثير الرحلة الى بيت الله الحرام حاجاً والتقى هناك بكثير من التابعين وسمع منهم واجتمع بأئمة أهل البيت وروى عنهم كزيد بن علي والامام محمد الباقر وابنه الصادق وعبد الله بن حسن بن حسن .

— ٤ —

لم يعرف فقه ابي حنيفه إلا من طريق أصحابه الذين اختصوا به ، فهو لم يكتب فقهه بنفسه ولم يدون شيئاً من آرائه ، ولكن التدوين إنما أخذ من قبل أصحابه وكان لابي حنيفة تلاميذ ، منهم من كان يرحل اليه ، ويستمع منه ، ومنهم من لازمه ملازمة تامة ، وفيهم يقول : هؤلاء ستة وثلاثون رجلا منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وستة يصلحون للفتوى ، واثنان ابو يوسف وزفر يصلحون لتأديب القضاة وأرباب الفتوى!

ولكن الذين خدموا مذهب ابي حنيفة ونشروه هم أبو يوسف ، وزفر ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، والحسن بن زياد اللؤلؤي .

١ — اما ابو يوسف وهو يعقوب بن ابراهيم الانصاري نسباً والكوفي منشأ فهو عربي وليس من الموالي ولد سنة ١١٣ وقد نشأ فقيراً وأتصل بابي حنيفة بعد ان جلس الى ابن ابي ليلى ، ثم انقطع لابي حنيفة واتصل به وقد قام ابو حنيفة بنفقته ونفقة عياله عشر سنين ، وبعد وفاة ابي حنيفة وزفر بن الهذيل استقل ابو يوسف برآسة أصحاب ابي حنيفة ، وساعدته الظروف السياسية ، واقبلت الدنيا عليه ، ووقع موقع القبول عند خلفاء بني العباس ، وولي القضاء لثلاثة منهم للمهدي والهادي والرشيد ، وقد نال عند الرشيد حظاً مكيناً وقربه ، وهو الذي نشر مذهب ابي حنيفة في الاقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم ابو يوسف من أصحابه ، فكان نفوذ المذهب يستمد من نفوذ سلطته ، ولابي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه ، ذكرها ابن النديم منها :

كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب الخراج ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصايا ، كتاب اختلاف الانصار ، كتاب الرد على مالك وغيرها ، وله املاء رواه بشر ابن الوليد القاضي ، يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً ، وابو يوسف هو أول فقهاء أهل الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي واهل الحديث . وقد مرت ترجمته وبعض أحواله في هذا الكتاب وما قيل فيه .

٢ — محمد بن الحسن ، مولى بني شيبان ، ولد سنة ١٣٢ وتوفي سنة ١٨٩ ، حضر على ابي حنيفة ، ولم يتم دراسته عليه ، لأن ابا حنيفة مات وعمر محمد نحو الثامنة عشرة ، ولكنه أتم دراسته على ابي يوسف ، وأخذ

عن الثورى والأوزاعى ورحل الى مالك ، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية ، ومكث عنده ثلاث سنين وهو الذى أدخل الحديث فى فقه أهل الرأى ، والف كتباً فى ذلك أصبحت هى المرجع الاول لفقه ابى حنيفة ، وكان يخالفه فى اكثر مسائله ، وقد مرت ترجمته والاقوال فيه .

٣ — الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى المتوفى سنة ٢٠٤ ، وهو من فقهاء المذهب ورواة آراء أبى حنيفة ، وقد طعن المحدثون عليه ، ورفضوا روايته ، قال ابن معين : انه كذاب غير ثقة ، وقال النضر بن شميل لرجل كتب كتب الحسن بن زياد : لقد جلبت الى بلدك شراً . وقال ابو ثور : ما رأيت اكذب من اللؤلؤى ، وكان ابن ابى شيبة يقول : كان اسامة يسميه الخبيث ووثقه ابن قاسم (١) وأخرج له ابو عوانة فى مستخرجه والحاكم فى مستدركه .

٤ — زفر بن الهذيل ، وهو أقدم صحبة لأبي حنيفة من ابى يوسف ومحمد توفى سنة ١٥٨ ، وكان أبوه عربياً ، وامه فارسية ، أخذ عن ابي حنيفة فقه الرأى ، حتى غلب عليه ، على ما سواه وكان أشد أصحاب ابي حنيفة قياساً ، وهو الذى خلف أبا حنيفة فى حلقته ، ثم من بعده أبو يوسف ، ولم تعرف له رواية لشيخه ويعود ذلك الى قصر حياته من بعده ، إذ لم يتسع الزمن للتدوين ولكن نشره لمذهب ابى حنيفة كان بلسانه وتولى القضاء فى زمن ابي حنيفة فى البصرة وهجاه أحمد بن المعدل المالكى بقوله :

(ان كنت كاذبة بما حدثتنى) فعليك اثم ابى حنيفة أو زفر
المائلين الى القياس تعمداً والراغبين عن التمسك بالخبر (٢)

---

(١) لسان الميزان ج ٢ ص ٢٠٨
(٢) تأنيب الخطيب للكوثرى ص ٩٥

وقد ترك المحدثون الرواية عنه قال : ابو موسى محمد بن المثنى : ماسمعت عبدالرحمن بن مهدى يحدث عن زفر شيئاً . وعن معاذ بن معاذ قال : كنت عند سوار القاضى فجاء الغلام فقال زفر بالباب فقال سوار : زفر الرأى لا تأذن له فانه مبتدع وعده العقيلى فى الضعفاء ، وعن بشر بن السرى قال : ترحمت يوماً على زفر وأنا مع سفيان الثورى فاعرض بوجهه عنى . وقال الأزدى : زفر غـــير مرضى المذهب والرأى ، وقال أحمد بن ابى العوام قاضى مصر فى مناقب ابى حنيفة : قال لى ابو جعفر الطحاوى : سمعت أبا حازم سمعت الضبى يقول : قدم زفر بن الهذيل البصرة فكان يأتى حلقة عثمان البتى فيناظرهم ويتبع اصولهم فاذا رأى شيئاً خرجوا فيه عن الأصل تكلم فيه مع عثمان حتى يتبين له خروجه عن الأصل ثم يقول فى هذا جواب أحسن من هذا فاذا استحسنوه قال هذا قول أبى حنيفة فلم يلبث أن تحولت الحلقة اليه وبقى عثمان البتى وحده .

° ° °

هؤلاء تلامذة ابى حنيفة الذين نشروا فقهه ونقلوا آراءه ، وأول من دون منهم ، هو القاضى ابو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن مولى بنى شيبان وكتبه تعد المرجع الأول لفقه ابى حنيفة ، وقد أخذه عن ابى يوسف ، لأنه أدرك أبا حنيفة وعمره لم يسمح له بنقل فقهه ، ولكنه روى ذلك عن أبى يوسف ، فتراه يذكر فى كتابه الجامع الصغير فى أول كل فصل روايته عنه ، ولم يذكره فى الجامع الكبير ، وقد ذكر ابن نجيم فى البحر فى باب التشهد ان كل تأليف لمحمد بن الحسن موصوف بالصغير فهو باتفاق الشيخين ابى يوسف ومحمد ، بخلاف الكبير فانه لم يعرض على ابى يوسف .

ولقد كان ابو يوسف ومحمد . وغيرهم من تلامذة ابى حنيفة مستقلين فى تفكيرهم كل الاستقلال ، غير مقلدين لشيخهم ، بأى نواحى من نواحى التفكير وكونهم درسوا آراءه أو تلقوه عليه وتثقفوا فى أول دراستهم عليه لا يمنع استقلال تفكيرهم ، وحرية اجتهادهم ، وإلا كان كل من يتلقن على شخص لابد أن يكون مقلداً له ، وتنتهى القضية لا محالة الى أن تنزل درجة ابى حنيفة عن الاجتهاد ، ويكون مقلداً لشيخه حماد بن ابى سليمان لأنه درس عنده ، وكان كثير التخريج عليه ، وخالفه أحياناً ووافقه أحياناً .

وكذلك كان أصحاب أبى حنيفة . فقد درسوا فقهه . وتلقوا عليه فوافقوه فى بعضها وخالفوه فى كثير من الآراء والاقوال وماكانت الموافقة عن تقليد بل عن اقتناع واستدلال وتصديق للدليل . وليس ذلك من شأن المقلد فان لهم آراؤهم الخاصة ولكنهم الطريق الى نقل أقوال ابى حنيفة

وتجد كتب الحنفية تورد أقوال الأربعة وربما يكون لمسالة واحدة أربعة أقوال لأبى حنيفة قول ، ولأبى يوسف قول ، ولمحمد قول ، ولزفر قول ، حسب ما يظهر لهم من الآثار والمعانى (١) .

يقول العلامة الخضرى : وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للامام ، رجع عنها ، ولكن هذه غفلة شديدة عن تاريخ هؤلاء الأئمة بل عما ذكر فى كتبهم ، فان أبا يوسف يحكى فى كتاب الخراج رأى ابى حنيفة ، ثم يذكر رأيه مصرحاً بانه يخالفه ، ويبين سبب الخلاف وكذلك يفعل فى كتاب خلاف ابى حنيفة ، وابن ابى ليلى ، فانه أحيانا يقول برأى ابن ابى ليلى بعد ذكر الرأيين ، ومحمد رحمه الله ، يحكى فى

(١) ابو حنيفة الاستاذ محمد ابو زهر وضحى الاسلام للدكتور احمد امين .

كتبه أقوال الامام ، وأقوال أبي يوسف وأقواله مصرحاً بالخلاف على انه لو كان كما قالوا لم يكن ما رجع عنه من الآراء مذهباً .

ومن الثابت ان أبا يوسف ومحمد رجعا عن آراء رآها الامام لما اطلعوا على ما عند أهل الحجاز من الحديث ، فالمحقق تاريخياً ان أئمة الحنفية الذين ذكرناهم بعد أبي حنيفة رحمه الله ليسوا مقلدين له ، لأن التقليد لم يكن نشأ فى المسلمين فى ذلك التاريخ ، بل كان المفتون مستقلين فى الفتوى ، بناء على ما يظهر من الأدلة ، سواء أخالفوا معلميهم أم وافقوهم ، ولم تكن نسبة ابى يوسف ومحمد الى ابي حنيفة إلا كنسبة الشافعى الى مالك (١) .

وسيأتى إنشاء الله فى مباحث الفقه ذكر أقوالهم التى خالفوا بها أبا حنيفة وآرائهم التى انفردوا بها وقد نقل كتبهم تلاميذهم المبرزون منهم :

١ — ابراهيم بن رستم المروزى المتوفى سنة ٢١١ ، تفقه على محمد بن الحسن وسمع مالك بن أنس ، وقدم بغداد ، له كتاب النوادر عن محمد استاذه ، وهو ينسب الى مرو بفتح الميم وسكون الراء المهملة فى آخرها واو بلدة يقال لها مرو ، والشاهجهان وإلحاق الراء المعجمة بعد الواو فى النسبة ، للفرق بينه وبين المروى ، وهى ثياب مشهورة بالعراق منسوبة الى قرية بالكوفة (٢) .

٢ — أحمد بن حفص الكبير البخارى ، أخذ الفقه عن محمد بن الحسن ، وروى عنه كتبه ، وكتب المبسوط بيده ، وله اختيارات يخالف بها جمهور أصحابه (٣) .

٣ - بشر بن غياث المويسى المتوفى سنة ٢١٨ ابن ابي كريمة مولى زيد

---

(١) الخضرى تاريخ التشريع الاسلامى ٢٢٥

(٢) انظر ترجمته فى كتاب الفوائد البهية ص ٩

(٣) نفس المصدر ص ١٨

ابن الخطاب أدرك مجلس ابي حنيفة وأخذ نبذاً منه ، ثم لازم ابا يوسف ، وأخذ الفقه عنه حتى صار من أخص أصحابه ، وله تصانيف وروايات كثيرة عن ابي يوسف ، وله فى المذهب أقوال غريبة ، وكان ابو يوسف يذمه ويعرض عنه ، وكان غير مرض عند أهل الحديث قال الذهبي : بشر بن غياث لا ينبغى أن يروى عنه (١) .

٤ — بشر بن الوليد بن خالد الكندى القاضى المتوفى سنة ٢٣٨ أحد أصحاب ابي يوسف ، روى عنه كتبه وأماليه ، ولى قضاء بغداد فى زمان المعتصم ، وكان متحاملا على محمد بن الحسن الشيبانى ، وكان الحسن بن مالك ينهاه ، وثقه الدارقطنى وقال صالح بن محمد هو صدوق ولكنه لا يعقل (٢) .

٥ — محمد بن شجاع الثلجى المتوفى سنة ٢٦٧ ، تفقه بالحسن بن زياد والحسن بن ابى مالك ، له كتاب تصحيح الآثار ، وكتاب النوادر ، وكتاب المضاربة ، وكتاب الرد على المشبهة ، وهو ضعيف الرواية عند أهل الحديث (٣) .

٦ — ابو سليمان موسى بن سليمان الجوزجانى المتوفى بعد المائتين ، أخذ العلم عن محمد وكتب مسائل الاصول والامالى ، عرض عليه المأمون القضاء فلم يقبل ، وله كتاب السير الصغير ، والنوادر ، وغير ذلك .

٧ — محمد بن سماعة التميمى ، حدث عن الليث ، وابى يوسف ، ومحمد ، وأخذ الفقه عنهما ، وعن الحسن بن زياد ، وكتب النوادر عن أبى يوسف ، ومحمد ولد سنة ١٣٠ ومات سنة ١٣٣ ، وولى القضاء بعد موت

---

(١) لسان الميزان ج ٢ ص ٣٩

(٢) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية

(٣) نفس المصدر ص ١٧١

يوسف بن الامام ابى يوسف سنة ١٩٢ ، له كتاب أدب القاضى ، وكتاب المحاضرات ، والسجلات ، والنوادر .

٨ — هلال بن يحيى بن مسلم ، تفقه بابي يوسف وزفر ، وله مصنف فى الشروط ، وأحكام الوقف توفى سنة ٢٤٥ .

٩ — احمد بن عمر بن مهير الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ اخذ عن ابيه عن الحسن بن زياد عن ابى حنيفة ، كان عارفا بالمذهب ، صنف للمهتدى كتاب الخراج ، وله كتاب الوصايا ، وكتاب الشروط الكبير والصغير ، وكتاب الرضاع ، وكتاب أدب القاضى ، وكتاب الحيل الشرعية (١)

١٠ — ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الازدى الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ .

قال المولى عبدالعزيز الدهلوى : انه كان مجتهداً ولم يكن مقلداً للمذهب تقليداً محضاً ، فانه اختار فيه أشياء تخالف مذهب ابى حنيفة . لما لاح له من الأدلة القوية ، وقال محمد بن عبد الحى : هو فى طبقة ابى يوسف ومحمد ، لا ينحط عن درجتهما ، وان له درجة عالية ورتبة شامخة قد خالف بها صاحب المذهب كثيراً . وانه من المجتهدين المنتسبين الى امام معين من المجتهدين . لكن لا يقلدونه لا فى الفروع ولا فى الاصول لكونهم متصفين بالاجتهاد وانما انتسبوا اليه لسلوكهم طريقه فى الاجتهاد (٢).

---

(١) للحنفية كتابان فى استعمال الحيل الشرعية ، أحدهما لمحمد بن الحسن الشيبانى ، والثانى للخصاف ، ويقال أن لأبى حنيفة كتاباً فى الحيل وكان يفتى به الناس للتحلل من الاحكام الشرعية والقيود الفقهية ، روى أن عبدالله بن المبارك قال : من كان عنده كتاب الحيل لأبي حنيفة يستعمله أو يفتى به ، فقد بطل حجه ، وبانت منه امرأته . انظر كتاب ابو حنيفة ، محمد ابو زهرة ص ٤١٧ وكتاب تاريخ التشريع الاسلامى ص ٢٨٠ وسيأتى ذكر ذلك وتحقيقه .

(٢) الفوائد البهية ص ٣١

وبهذه الصورة انتشر مذهب ابي حنيفة . فهو فى عصره لم يدون آراءه وأقواله وإنما دون أصحابه ، ولم يكتفوا باخذهم عنه ، فابو يوسف لزم أهل الحديث وأخـــذ عنهم أحاديث كثيرة لعل أبا حنيفة لم يطلع على كثير منها .

ومحمد لم يلازم أبا حنيفة إلا مدة قليلة ، فى صدر حياته ، ثم اتصل بمالك ، وروى عنه وروايته له تعد من أصح الروايات اسناداً (١) .

اذاً فعدهم من المجتهدين فى المذهب كما ذهب اليه ابن عابدين خطأ بين يقول ابن عابدين :

إن الامام لما أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه صار ما قالوه قولا له لابتنائه على قواعده التى أسسها لهم . ونظير هـذا ما نقله العلامة البيرى فى أول شرحه على الاشباه على شرح الهداية لابن الشحنة الـكبير وهذا نصه : « اذا صح الحديث وكان على خلاف المذهب عمل بالحديث ويكون ذلك مذهبه ـ أى مذهب أبى حنيفة ـ فقد صح عن ابى حنيفة انه قال : اذا صح الحديث فهو مذهبى . . . فاذا نظر أهل المذهب فى الدليل وعملوا به صحت نسبته الى المذهب لـكونه صادراً باذن صاحب المذهب . إذ لا شك انه لو علم بضعف دليله لرجع عنه واتبع الدليل الأقوى » (٢) .

وهذا قول لا محل له وإلا لو كان كذلك فان كل فتوى تصدر عن صحة الحديث من أى عالم كان ومن أى مذهب هو . فاللازم نسبة ذلك الى مذهب ابى حنيفة . ولعلهم يرون ذلك فجعلوه أعلم الامة على الاطلاق بل أفضل التابعين وأعلمهم من هذا الباب . والغرض ان الوصول الى معرفة

(١) انظر ابو حنيفة محمد ابو زهرة ص ٤٤١ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٥١

قول ابى حنيفة ومذهبه الخاص متعسراً جداً . وانما هو مجموع الاقوال منه ومن أصحابه وتلامذتهم الذين أخذوا عنهم فلا يمكن استخلاص أقواله منفردة وتكون وحدة فكرية خالصة له من كل الوجوه من غير اقتران اقوال أصحابه باقواله . فان محمد بن الحسن جمع أقوال فقهاء العراق . ولم يجمع أقوال أبى حنيفة وحده . ولم يفصل آراءه . عن آراء غيره . من اصحابه ومعاصريه . بل القى بالفروع والحلول ما بين متفق عليه . ومختلف فيه فجاءت الأجيال وتوارثت تلك المجموعة الفقهية التى تجمع أقوال فقهاء العراق فى الجملة وأقوال ابى حنيفة وأصحابه وتلاميذه خاصة . وقد نهج ذلك المنهج غير محمد ممن روى فقه ابى حنيفة .

وهكذا نجد الرواية لآراء ابى حنيفة تذكر مخلوطة بالرواية عن غيره ، ومزوجة بها . وعلى ذلك النهج تدارس من العلماء تلك الآراء . وسموها المذهب الحنفى . واختاروا للنسبة اسم كبير اولئك الأئمة وشيخهم - وهو ابو حنيفة - ومن التهجم على الحقائق . سلبهم شخصيتهم لتفنى فى شخصية الامام (١) .

والخلاصة ان المذهب الحنفى اتسع بجهود أصحابه ونشرهم له اذ وسعوا دائرته بالبحث والتأليف وان علم ابى حنيفة لا يكاد يعرف لعدم انفراده عن اصحابه ، فالموازنة بينه وبين غيره لا تحصل إلا اذا اتجهنا الى الموازنة بين علماء المذاهب وبين مجموع مؤسسى المذهب الحنفى ، الذين كونوا مجموعة فقهية مزيجة باقوال فقهاء العراق وأقوالهم ، وهذا أمر لا يمكن ، ومحاولة الحنفية بارجاع الجميع اليه أمر غير وجيه ، وسيتضح الامر عند البحث عن آراء ابى حنيفة وأقواله ، وما ذهب اليه أصحابه فى خلافه .

---

(١) انظر ابو حنيفة لمحمد ابو زهرة

مع الامام الصادق

ان عصر ابى حنيفة كان عصر مناظرات وجدل الى اقصى حد فمناظرات بين أهل الاهواء وبين الفرق المختلفة ، وبين الفقهاء بعضهم بعضاً . وكان ابو حنيفة قوى المناظرة شديد الجدل ، يتسلح بكل الوسائل التى تعينه على الوصول الى الفوز بالنتيجة فى غالب الاحيان ، كما وصفه الامام مالك بقوله : رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية ان يجعلها ذهباً لقام بحجته . وفى رواية انه قال : تالله لو قال : ان هذه الاسطوانة من ذهب لأقام الدليل القياسى على صحة قوله وبالطبع ان مثله ينال فى تلك المعارك نصيبه من الشهرة ، على ان المنصور نظر اليه بعين التقدير والعناية تكريماً له ولأبناء قومه الذين طلع نجمهم فى ذلك العصر .

ومما يدلنا على قوة مناظرته ان المنصور انتدبه الى مهمة عجزت قوته عن دفعها ، وخانته حيلته فى التخلص منها ، وهى مسألة انتشار ذكر جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام ، ومن الصعب على المنصور أن تصبح فى الكوفة ، ومكة ، والمدينة ، وقم حلقات علمية هى أشبه شئ بفروع لمدرسة الامام جعفر بن محمد الصادق ، وكانت تقرع سمعه أصوات شيوخ الكوفة ، بكلمة يضطرب لها لبه ، ويفقد عندها اتزانه ، وهى قولهم فى مناظراتهم : حدثنى جعفر بن محمد الصادق ، لذلك اضطر الى جلب الامام من المدينة الى الكوفة

ليفتك به ، وأراد من ابى حنيفة الذى عرف بقوة المناظرة وسرعة الجواب ان يهيء من مهمات المسائل فيسأل الامام بها فى مجلس عام ، عساه أن يظفر بشيء ينال به غرض الحط من كرامة الامام الصادق ، ولم يغب عن المنصور ما للامام الصادق من المكانة العلمية .

قال الحسن بن زياد اللؤلؤى : سمعت ابا حنيفة ـ وقد سئل من افقه من رأيت ـ ؟ قال : ما رأيت افقه من جعفر بن محمد الصادق ، لما اقدمه المنصور بعث الى فقال : يا أبا حنيفة ان الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد ، فهيء له من المسائل الشداد فهيأت له اربعين مسألة .

ثم بعث الىّ ابو جعفر وهو بالحيرة فاتيته فدخلت عليه ، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لابى جعفر المنصور ، فسلمت عليه . وأومأ الىّ فجلست ، ثم التفت اليه فقال :

يا أبا عبدالله هذا ابو حنيفة ، فقال : نعم . ثم اتبعها قد أتانا كأنه كره ما يقول فيه قوم : اذا رأى الرجل عرفه .

قال : ثم التفت الىّ فقال : يا أبا حنيفة القِ على ابى عبدالله مسائلك فجعلت القى فيجيبنى فيقول : أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا . فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الاربعين مسألة ما أخل منها بمسألة .

ثم قال ابو حنيفة رحمه الله : ألسنا روينا ان أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (١) .

---

(١) انظر هذا الجزء ص ٥٠

وكان عليه السلام ينهى ابا حنيفة عن القياس ويشدد الانكار عليه ويقول بلغني انك تقيس الدين برأيك لا تفعل فان أول من قاس ابليس (١).

وقال له يا أبا حنيفة : ما تقول فى محرم كسر رباعية ظبي ؟ قال : يابن رسول الله ما أعلم فيه ، فقال : أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثنى ابداً (٢).

ويحدثنا ابو نعيم : ان ابا حنيفة وعبدالله بن ابي شبرمة وابن ابي ليلى، دخلوا على جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، فقال لابن ابى ليلى : من هذا الذى معك ؟ قال : هذا رجل له بصر ونفاذ فى الدين . قال : لعله يقيس أمر الدين برأيه ؟ قال نعم ! فقال جعفر لأبى حنيفة : ما اسمك ؟ قال نعمان: قال : قال : ما أراك تحسن شيئاً ، ثم جعل يوجه اليه اسئلة فكان جواب ابى حنيفة عدم الجواب عنها فاجابه الامام عنها .

ثم قال : يا نعمان حدثنى ابى عن جدى ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه ابليس » قال الله تعالى له : اسجد لآدم فقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بابليس لأنه اتبعه بالقياس » .

قال ابن شبرمة : ثم قال جعفر أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا ؟ قال ـ ابو حنيفة ـ : قتل النفس . قال ـ الصادق ـ : فان الله عز وجل قبل فى قتل النفس شاهدين ولم يقبل فى الزنا إلا أربعـــة . ثم قال أيهما أعظم الصلاة ام الصوم ؟ قال ابو حنيفة : الصلاة . قال الصادق : فما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة . فكيف ويحك يقوم لك قياسك ! اتق

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٢٨ ، والحلية ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٢ . ومرآة الجنان ج ١ ص ٣٠٥ ، وشذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

الله ولا تقس الدين برأيك (١).

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تلك المواقف ، التى كان فيها لأبي حنيفة موقف تسليم ، لأنه أمام أمر واقع لا مجال للجدل والمناقشة وهو يعرف الامام الصادق وخطته فى مناظراته التى لا يريد بها إلا توجيه المسلمين ، توجيهاً صحيحاً وكان بيته يختلط فيه اشتات الناس على اختلاف آرائهم ، ومبادئهم ونحلهم ، وكان ميدان المعترك الفكرى واسعاً فى جميع الانحاء ، فكان عليه السلام فى ذلك العصر مرجعاً لكل مشكلة ومهمة ، يقصده طلاب الحقيقة من الانحاء القاصية ويختلف اليه أهل الجدل والنظر فيكون جوابه هو القول الفصل والحكم العدل .

وكان اذا ورد الكوفة اختلف اليه علماؤها وأحاط به فقهاؤها يسألون عما يهمهم ويستقون من فيض علمه وهو محل تقديرهم واكبارهم .

* * *

وكان ابو حنيفة ممن يختلف الى الامام الصادق عليه السلام ويسأله عن كثير من المسائل مع أدب واحترام ولا يخاطبه إلا بقوله : جعلت فداك يا بن رسول الله .

وقد روى أبو حنيفة عن الامام الصادق عليه السلام وحدث عنه واتصل به فى المدينة مدة من الزمن ورواياته عنه اثبتها رواة مسانيده وورد منها فى كتاب الآثار لابى يوسف .

وعلى أى حال فان لابى حنيفة صلة مع أهل البيت عليهم السلام وكان ينتصر لهم ويؤازرهم فى جميع مواقفهم .

لقد ناصر زيد بن على وساهم فى الدعوة الى الخروج معه وكان يقول :

---

(١) انظر حلية الأولياء ج ٣ ص ١٩٧

ضاها خروج زيد خروج رسول الله يوم بدر . فقيل له : لم تخلفت عنه ؟

قال حبسنى عنه ودائع الناس عرضتها على ابن ابى ليلى فلم يقبل (١) .

كما انه وازر محمد بن عبدالله بن الحسن وأخاه ابراهيم وكان يحث الناس ويأمرهم باتباعه (٢) .

وجاءت اليه امرأة ايام ابراهيم فقالت ان ابنى يريد هذا الرجل وأنا أمنعه . فقال لا تمنعيه (٣) .

وقال ابو اسحاق الفزارى : جئت الى ابي حنيفة فقلت له : اما اتقيت الله افتيت اخى بالخروج مع ابراهيم بن عبدالله بن الحسن حتى قتل .

فقال : قتل أخيك حيث قتل يعدل قتله لو قتل يوم بدر وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة (٤) فكان اسحاق يبغض أبا حنيفة بعد ذلك .

ووجه ابو حنيفة الى ابراهيم كتاباً يشير عليه أن يقصد الكوفة سراً ليعينه الزيدية وقال : ان فيها من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونك به ، وكانت المرجئة تنكر ذلك على ابى حنيفة وتعيبه به (٥) .

وكان ابو حنيفة عند ما يذكر محمد بن عبدالله بن الحسن بعد قتله تذرف عيناه بالدموع (٦) .

وفى الجملة أن ميل ابى حنيفة لأهل البيت لا خفاء عليه حتى عد من الشيعة الزيدية .

---

(١) ابو حنيفة لمحمد ابو زهرة ٧١ نقلا عن مناقب ابى حنيفة للبزازى ١ / ٥٥

(٢) مناقب ابي حنيفة للمكى ٢ / ٨٤

(٣) نفس المصدر

(٤) مقاتل الطالبيين ٢٤٦

(٥) مقاتل الطالبيين ٢٤٧

(٦) انظر المناقب للكردرى ٢ / ٧٢

ويقول ابو زهرة - بعد البحث عن ميله وتشيعه - : ونلتهى من الكلام السابق أن أبا حنيفة شيعى فى ميوله وآرائه فى حكام عصره أى انه يرى الخلافة فى أولاد على من فاطمة ، وان الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم ، وكانوا لهم ظالمين (١) .

وكان ابو حنيفة يرى ان على بن ابى طالب على الحق فى قتاله لاهل الجمل وغيرهم ويتضح ذلك من اقواله فى عدة مواطن منها :

انه سئل عن يوم الجمل ؟ فقال : سار على فيه بالعدل وهو علم المسلمين السنة فى قتال أهل البغى (٢) .

وقوله : ما قاتل أحد علياً إلا وعلى أولى بالحق منه ... الخ .

وقوله : ان امير المؤمنين علياً إنما قاتل طلحة والزبير بعد أن بايعاه وخالفاه (٣) .

وقال يوماً لاصحابه : أتدرون لم يبغضنا أهل الشام ؟ قالوا : لا .

قال : لانا لو شهدنا عسكر على بن ابي طالب ومعاوية لكنا مع على رضى الله عنه .

أتدرون لم يبغضنا أهل الحديث ؟ قالوا : لا .

قال : لانا نحب أهل بيت رسول الله ﷺ ونقر بفضائلهم . وفى رواية أنه قال : أتدرون لم يبغضنا أصحاب الحديث ؟ قلت لا .

قال : لانا نثبت خلافة على رضى الله عنه وهم لا يثبتونها .

* * *

(١) ابو حنيفة ١٦٥

(٢) مناقب المكى ٢ / ٢٤

(٣) نفس المصدر

ولا نريد هنا أن نستقصى أخبار أبي حنيفة الدالة على صلته باهل البيت عليهم السلام كما لا نريد أن نقيم الأدلة على ميوله الشيعية أو نفيها فان ذلك لا يعنينا فى البحث .

وبقى شئ يجب الالتفات اليه وهو قتل المنصور لابى حنيفة بالسم . فهل كان ذلك لمناصرته لأهل البيت عليهم السلام ؟ أو كان لعدم قبوله القضاء فحسب ؟

اختلفت أقوال المؤرخين فى ذلك ، فمنهم من أرجع الأسباب الى عدم قبوله القضاء فقط ، عند ما أشخصه المنصور من الكوفة الى بغداد وعرض عليه القضاء ولكنه ابى فحبسه ومات فى الحبس ، والروايات فى هذه الحادثة مختلفة ، فبعضهم يرويها على هذا الوجه ، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب ، فقبل القضاء على كره (١) ثم مات بعد أيام ، وآخرون يروون ان المنصور إنما استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فانه أعلن الإنضمام لجانب دعوة محمد وابراهيم ، وافتى بوجوب الخروج مع ابراهيم . يحدثنا ابو الفرج الاصفهاني عن عبدالله بن ادريس قال : سمعت أبا حنيفة وهو قائم على درجته ، ورجلان يستفتيانه فى الخروج مع ابراهيم ، وهو يقول : أخرجا . وانه كتب الى ابراهيم يشير عليه ، أن يقصد الكوفة ، ويدخلها سراً ، فان من فيها من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه ، أو يأخذون برقبته ، فيأتونك به ، وكتب له كتابا آخر فظفر ابو جعفر بكتابه ، فسيره وبعث اليه ، فاشخصه وسقاه شربة فمات منها (٢) .

---

(١) مناقب أبى حنيفة لابن البزاز والمكى

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٢٤٧

والتسليم لهذه الرواية غير ممكن لأن قتل ابراهيم كان فى سنة ٤٥ ووفاة أبي حنيفة فى سنة ١٥٠ وليس فى امكان المنصور التريث فى أمر أبي حنيفة ، مدة خمس سنوات عند ما تحقق منه ذلك كان لا يقف عند حد ، فى تركيز دعائم ملكه ، ولا يتورع فى سفك الدماء ، وان له من القوة ما يخول له قتل أبي حنيفة بسرعة ، فان بقاءه خطر على الدولة ولا يمكن للمنصور ان يغض عن ذلك ، وقد فتك بابي مسلم مع قوته وكثرة جنده ، وفتك بزعماء أهل البيت ، مع علمه بحراجة الموقف ، كما فتك بكثير من الزعماء وذوى الوجاهة ، والنفوذ .

اللهم إلا أن يكون عثور المنصور على رسالة أبى حنيفة لابراهيم بعد مدة من قتله .

وكان ابو حنيفة من جملة الفقهاء المنتصرين لمحمد وابراهيم كمالك بن أنس والأعمش ومسعر بن كدام وعبادة بن العوام وعمران بن داود القطان وشعبة ابن الحجاج وغيرهم ، وكان بعضهم حضر حربه (١) وكانوا يعدون شهداء وقعته كشهداء بدر ويسمونها بدر الصغرى وقد رأينا المنصور يغض عن مؤاخذة اولئك الفقهاء لأنه بحاجة ماسة لبقائهم والمعاونة معهم وبذلك يقصد ايجاد مجموعة منهم لتخفيف خطر انتشار ذكر جعفر بن محمد فى الاقطار فقد كان هو الشجى المعترض فى حلقه .

---

(١) كان خروج محمد فى المدينة سنة ١٤٤ وبايعه أهل الحجاز ، قال ابن العماد : وأحبه الناس حباً عظيما لما كان فيه من الكمال وخصال الفضل ، ويشبه النبي فى الخلق والخلق ، واسمه واسم أبيه . وبايعه المنصور والسفاح ، وكانا من دعاته أيام بنى امية ، وقتل فى المدينة قتله المنصور الدوانيق ، وخرج أخوه ابراهيم فى العراق بعد قتله وكاد أن يظفر بالمنصور لكثرة جيشه ومحبة الناس له وتأييد الفقهاء لنهضته ، ودعوه لدخول الكوفة ليلا فقال أخاف أن يستباح الصغير والكبير . وان حادثة ابراهيم ومحمد لمن أهم الحوادث التاريخية ولم تنل نصيبها من التحقيق والبحث .

ومن الحق والانصاف أن نقول : أن موقف ابى حنيفة ليس كموقف مالك بن انس ، فان مالكا لما عوقب لأجل فتواه بالخروج مع محمد أخلص بعد ذلك للمنصور ، وتغير موقفه حتى كان يظهر ان لا فضل لعلى عليه السلام على غيره من الصحابة ، بل هو كسائر الناس . اما ابو حنيفة فلم يتغير موقفه ، وكان يفضل علياً عليه السلام اما على عثمان فقط أو على جميع الصحابة كما لم تتغير وجهة نظره فى الدولة وانها ظالمة لا تصح موازرتها .

والحاصل ان غضب المنصور على أبي حنيفة قد اختلفت الاقوال فيه ومهما تعددت الأسباب فيـــه فالمرجع كله يعود الى مخالفة أبي حنيفة لرأى السلطة التى تريد تجريد العلماء من مواهب الادراك والتفكير ومنعهم من حرية الرأى والصراحة بالحق وعلى كل فقد مضى ابو حنيفة ضحية فتك المنصور وسطوته .

ولابد لنا قبل نهاية البحث أن نشير الى اتصال ابي حنيفة برجال مدرسة الشيعة وروايته عنهم وسماعه منهم .

* * *

ربما يظن أن أبا حنيفة لم يرو عن رجال الشيعة ، ولم يكونوا من شيوخه ، وذلك لأنهم نقلوا عنه ان أبا عصمة حدث عن ابى حنيفة عند ما سأله ممن تأمرنى أن أسمع الآثار ؟

فقال ابو حنيفة : من كل عدل فى هواه إلا الشيعة فان أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والصحيح أن هذا القول لم يصح عن ابي حنيفة :

أولا انه انفرد به ابو عصمة وهو نوح بن مريم المروزى المتوفى سنة ١٧٣ وهذا الرجل مشهور بوضع الحديث حسبة .

قال الحافظ زين الدين العراقي - في مبحث الوضاعين - : ومثال من كان يضع الحديث حسبة ما رويناه عن ابي عصمة نوح بن مريم المروزي ، قاضي مرو ، فيما رواه الحاكم بسنده الى ابي عمار المروزي ، انه قيل لأبي عصمة : من اين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟

فقال : اني رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ، ومغازي محمد بن اسحاق ، فوضعت هذا الحديث حسبة .

وكان يقال لأبي عصمة هذا : نوح الجامع فقال ابن حبان : جمع كل شيء إلا الصدق .

وقال البخاري : قال ابن المبارك لوكيع : عندنا شيخ يقال له ابو عصمة كان يضع كما يضع المعلى بن هلال (١) .

وقال ابن حجر في ترجمته : قد أجمعوا على تكذيبه (٢) وقال العباس ابن مصعب : كان نوح بن ابي مريم ابوه مجوسياً اسمه « مابنه » ، استقضى نوح على مرو وابو حنيفة حي ، فكتب اليه ابو حنيفة يعضه (٣) .

ولا حاجة بنا الى مزيد من البيان عن ابي عصمة وشهرته بالوضع ، وهو بهذه الكلمة أراد أن يضلل الناس في عقيدة الشيعة بالصحابة رضوان الله عليهم .

ومن المؤسف له أن هذه الكلمة الموضوعة قد أخذت مكانتها من ادمغة كثيرين من كتاب الاصول والحديث ، في السابق والحاضر ، وبنوا عليها تأييد ما يدعى على الشيعة من الطعن على جميع الصحابة .

---

(١) انظر شرح الفية العراقي ١ / ١٦٨ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ٢٢١

(٢) لسان الميزان ٦ / ١٦٨

(٣) ميزان الاعتدال ٣ / ٢٤٥

وإن ابى اولئك إلا أن يصححوا ما أورده أبو عصمة وان هذه الكلمة صادرة عن ابي حنيفة وانها شهادة منه على الشيعة ، فنحن نسائلهم كيف يصح لأبي حنيفة ان ينهى عن شيء وهو يفعله .

لاننا نرى بالوجدان ان ابا حنيفة قد حضر عند علماء الشيعة ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وهذه مسانيده ، وكتب أصحابه مليئة بتلك الروايات امثال كتاب الآثار ، وكتاب الخراج وكتاب الرد على الأوزاعي وغيرها .

ولمزيد من الايضاح نذكر - بايجاز - اسماء بعض شيوخ ابي حنيفة من الشيعة وقد وردت رواياته عنهم في جامع مسانيده وكتب اصحابه .

شيوخ ابي حنيفة من الشيعة

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي المتوفى سنة ١٢٨ .

حبيب بن ابي ثابت ابو يحيى بن قيس الكوفي المتوفى سنة ١١٩ .

مخول بن راشد ابو راشد النهدي المتوفى سنة ١٤١ .

عطية بن سعد العوفي المتوفى سنة ١١١ .

سلمة بن كهيل الحضرمي المتوفى سنة ١١٣ .

اجلح الكندي وقيل اسمه يحيى بن عبدالله ولقبه الاجلح المتوفى سنة ١٤٥ .

اسماعيل بن عبدالرحمن بن ابي كريمة الكوفي المتوفى سنة ١٢٧ .

المنهال بن عمر الكوفي التابعي .

عدي بن ثابت الانصاري الكوفي المتوفى سنة ١١٦ .

زبيد بن الحارث اليامى ويقال الأيامى الكوفى المتوفى سنة ١٢٢ .

* * *

وغير هؤلاء من شيوخ ابى حنيفة الذين عرفوا بتشيعهم لأهل البيت ولا يسعنا ذكر الباقين منهم بهذه العجالة .

وسيأتى فى الجزء السادس من هذا الكتاب تراجم هؤلاء العلماء وتحامل رجال الجرح والتعديل عليهم لتشيعهم فحسب مع ان رجال الصحاح خرجوا أحاديثهم فى صحاحهم .

وعلى أى فان أبا حنيفة أخذ عن رجال الشيعة كما أخذ عن أئمتهم عليهم السلام ونفى ذلك يكذبه الوجدان .

الى هنا ينتهى البحث عن حياة ابى حنيفة من الوجهة التاريخية وقد اختصرت البحث عنه مضطراً الى الاختصار .

ومع هذا قد اعطينا صورة عن اختلاف الناس فيه ، من قادح ومادح ، ومغال ومتعصب ، وذكرنا طرفا من اقوال خصومه بدون تعرض لاثباتها أو نفيها وبقيت اقوال المعتدلين فيه ضاق المجال عن ذكرها والتعليق عليها وسنعطى رأينا فيه وبيان منزلته العلمية ومن الله التسديد .

خلاصة البحث

— ١ —

اظهار الحقيقة من حيث هو أمر يشق على بعض النفوس التى خضعت لسلطان الهوى وفهمت الأشياء من طريق التقليد ، لا من طريق التثبت والواقع ، إنما يلائم أمزجة نقية وطباعاً متنورة .

وان البحث عن المذاهب هو من أهم الأبحاث التى توقع الكاتب فى حيرة وارتباك ، لأن مسالك الوصول الى الحقيقة ملتوية ، والحواجز متكاثرة كما انى لا أجهل أهمية الموضوع وخطره ، فهو من أهم أسباب العداء ، والبغضاء ، بين طوائف المسلمين وهو منبع التباعد والتضارب ، مما أدى بالمسلمين الى الانحطاط ، واتساع نفوذ اعداء الدين الإسلامى ، فى بث روح الفرقة وايقاد نار الخصومة بينهم لانصراف المسلمين ، بكل قوتهم الى الوقيعة بعضهم ببعض لتأييد كل مذهبه الذى يرتضيه ، فنشأ من وراء ذلك فتن ونزاع وتخاصم واتهام بالسوء ، وفرقة وتباعد ، وتركوا ورائهم الأخذ بما أمرهم الله من الاعتصام بحبل الله وان لا يتفرقوا فتذهب ريحهم ، ويتسلط عليهم عدوهم .

ولم يسعد المسلمون بالتفاهم حول أسباب النزاع ، وعوامل التفرقة

ومعالجة مشكلة العصبيات ، لأن الخلاف أصبح فى الجملة طبيعة ارتكازية ، وقد عد ازالته من المستحيل ، وليس كذلك ان تركز البحث على ضوء الأدلة العقلية ، والتجرد عن الهوس والعصبيات ، وترك المغالطات واتحاد الهدف ، وهو اظهار الحقيقة وتقبل الحق وان كان مراً .

وقد مضى زمن رجال وسعوا دائرة الخلاف ليتسع نفوذهم ، ويتم لهم ما أرادوا فى تفريق كلمة المسلمين ، لتركيز دعائم الملك ، وامتداد سلطان الاستبداد إذ اتحاد كلمة الامـــة يضيق عليهم الدائرة ، ويرغمهم على اعطاء المجتمع حرية التفكير ، وبذلك تعتدل طرق سيرتهم ويقل ضرر استبدادهم .

وهذا الخلاف خلاف غرض أئمة المذاهب ، كيف وقد أصبح اتباعهم فى أخذ الأحكام سبباً لانفجار براكين الحقد والكراهية ، واتساع شقة الخلاف ، وتكفير البعض للبعض كما مر بيانه ، فحدث من ذلك فساد عظيم وخلقت مشاكل .

— ٢ —

اتضح لنا من سير الحوادث اهتمام ولاة الأمر فى تلك العصور بتحويل أنظار الناس عن اتباع أهل البيت ، والأخذ من تعاليمهم ، ووجهوا الناس بكل حول وقوة لمعاداة من اتبعهم فى الأحكام الشرعية .

ولما كانت الشيعة متظافرة على الدعوة لآل محمد ، وتقديم مذهبهم على جميع المذاهب فالشيعة يرون أحقية أهل البيت بالأمر ، وانهم حملة رسالة الاسلام ، ودعاة نشره ، وأولياء أمر الأمـــة ، يقودونهم الى السعادة ، وينفذون أحكام الله ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، وهم المثل الأعلى فى طهارة النفس ، وهم ينبوع فياض تتدفق منه انواع توجيه الحياة

الانسانية ، فاتباعهم لازم بدليل العقل والشرع .

ولن تتخل الشيعة أبداً عن الإعتصام بآل محمد والتمسك بهم مهما كلفهم الأمر ومهما اتخذ اعداؤهم من اساليب ووجهوا اليهم من تهم .

لذلك نظرت اليهم السلطة نظر خصم لا تلين قناته ، ولا تعمل الأرهابات عملها المطلوب ، وقد عجزوا عن تحويل عقيدتهم الراسخة رسوخ الطود ، فراحوا يلسقون بهم التهم ويتقولون عليهم ، وهم يعلمون عن الشيعة خلاف ذلك ، ولكنهم عرفوا أن تقويم ملكهم وبقاء عزهم لا يتم إلا بإلجام الألسن ، وكم الأفواه عن المؤاخذات التى توجه اليهم بصفتهم ساسة الامـــة وحكام الاسلام ، وقد حاولوا افهام الناس انهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فطبعوا فى القلوب بغض المعارضين لهم ، حتى أخرجوهم عن الأسلام ادعاء ، ووجهوا اليهم كل مكروه ، واتبعوهم بالاذى ، وعاملوهم بالقسوة والشدة حتى توصلوا الى مخالفة الأحكام ، وهجر السنن الصحيحة عن صاحب الرسالة ، لأن الشيعة قاموا بالعمل بها ، ولنضع صوراً بين يدى القارىء من تلك المخالفات .

يقول ابن تيمية (١) فى منهاجه عند بيان التشبه بالشيعة : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء الى ترك بعض المستحبات ، إذ صارت شعاراً لهم ، فانه وان لم يكن الترك واجباً لذلك لكن فى اظهار ذلك مشابهة لهم ، فلا يتميز السنى من الرافضى ، ومصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة ذلك المستحب .

وقال مصنف الهداية من الحنفية : ان المشروع التختم باليمين ، ولكن لما اتخذته الرافضة جعلناه فى اليسار .

---

(١) هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام المتولد سنة ٦٦١ والمتوفى سنة ٧٢٨ .

وقال الغزالى : ان تسطيح القبور هو المشروع ، ولكن لما جعلته الرافضة شعاراً لها ، عدلنا عنه الى التسنيم . انظر الغدير ج ١٠ ص ٢١٠ .

وقال الشيخ محمد بن عبدالرحمن فى كتاب رحمة الامة فى اختلاف الأئمة المطبوع فى هامش ميزان الشعرانى ج ١ ص ٨٨ : السنة فى القبر التسطيح وهو أولى على الراجح ، من مذهب الشافعى . وقال ابو حنيفة وأحمد : التسنيم أولى ، لأن التسطيح صار شعاراً للشيعة .

— ٣ —

ومهما يكن من أمر فان امتحانات الشيعة وما نالهم من الأذى ، إنما هو فى سبيل الانتصار لآل محمد ﷺ والانضمام الى جانبهم وخاضوا تلك المعارك فى سبيل نصرتهم ، ونشر مبدأهم ولو انهم استجابوا الداعى السلطة ، ورغبوا فى لذة الحياة ، فليس بينهم وبينها إلا النزول على رغبات اولئك القوم الذين لا يرغبون إلا فى القضاء على مبادىء آل محمد ﷺ ، ومحو ذكرهم . لذلك نرى بعض الملوك أو الامراء الذين كدسوا جهودهم فى مقابلة الشيعة ارتكبوا اموراً منكرة يتبرأ منها الدين الاسلامى يريدون بذلك ادخال الأذى على الشيعة .

نرى ملوك بنى ايوب فى مصر الذين وسموهم بكل مدح واطروهم بثناء جميل . اتخذوا يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون فى المطاعم ويصنعون الحلاوات ، ويتخذون الأوانى الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام ، جرياً على عادة أهل الشام ، التى سنها لهم

الحجاج فى أيام عبدالملك بن مروان (*) ليزعجوا شيعة على بن ابى طالب الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن على عليه السلام لأنه قتل فيه . يقول : المقريزى وقد ادركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور (١) .

ويكفى خصوم الشيعة انهم يسيرون على ماسنه الحجاج من ذلك الفعل القبيح ، فهل يا ترى انهم ذهلوا عن قبح هذا العمل ؟ أم ترى انهم لا يعلمون ان هذا الفعل كان يسىء رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ كيف وهم يظهرون الفرح فى يوم بكى رسول الله صلى الله عليه وآله له قبل وقوعه وكان يتألم منه ، وهل جهلوا منزلة الحسين عليه السلام ؟ فعمدوا الى هذا الفعل المنكر . ؟!!

— ٤ —

اندفع ولاة الجور للدفاع عن مراكزهم ، والمحافظة عن كيان ملكهم ، ببث روح الفرقة بين أفراد الامة ، لاستحصال غاياتهم التى رأوا استحالة حصولها مع اتفاق المسلمين وصفاء ودهم وصبغوا تلك الاعمال التى حاولوا بها فرقة وحدة الصف صبغة دينية ولكنها فى الواقع بعيدة كل البعد عن روح الدين .

وقد أفصح لنا التاريخ عن نياتهم السيئة وما يقصدون من وراء ذلك ، وقد وازرهم رجال ابتعدوا عن الحق ، وتهجموا على اصول المحاسنة والمداراة الاجتماعية ، ودعاهم جشعهم الى الابتعاد عن حدود الانسانية ، وخلعوا

(*) ومن الغريب أن بعضهم يستند بذلك الى احاديث وضعها الدجالون ليدفعوا الناس لهذا العمل الشائن وقد أورد منها صاحب كتاب الغنية .

(١) الخطط للمقريزى .

ابراد الحشمة ، واطفأت الأطماع شعلة عقولهم ، فهم فى غيهم يعمهون » .

وعلى أى حال فقد تفرقت الامة كما شاءت السياسة ، أو كما شاء ولاة الجور ، بمقتضى العوامل التى وجهوها لهدم كيان المجتمع الاسلامى ، فاتسع الخلاف وعظم الارتباك ، ووقعت الخصومة ، وبين هـــذا وذاك رفع الاستبداد رأسه وافترس كل ما وجده صالحاً للامة .

وأصبحت المسألة سيئة الوضع نشأ من جرائها عداء متأصل ، توارثته الاجيال حتى عجز المصلحون عن معالجة مشاكل الامة ، وقد اتخذه المستبدون أسهل وسيلة لتفريق المجتمع الإسلامى ، تقوية لسلطانهم ، وقوة لنفوذهم على ممر العصور ، وهم يتظاهرون بمحاربة هذه النعرة ، ولكنهم يبذلون جهودهم فى نصرتها من وراء الستار ، باستخدامهم مرتزقة سلبوا مواهب الادراك ، وفقدوا شعورهم عند حصول تلك الاجرة الزهيدة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، يكتبون باقلامهم المسمومة ، ما يثير الضغائن والاحقاد ، فكانت لهجتهم جائرة ، يختلقون ويفتعلون بدون قيد وشرط تقربا لاسيادهم

هذه بين يدى عشرات من تلكم الكتب التى حررتها تلك الأقلام المأجورة ، الفها مهرجون لا يعرفون من الحق موضع أقدامهم ، يكيلون الذم لامة عرفوا باخلاصهم وولائهم لأهل البيت ، واعتناق مذهبهم الذى تركزت دعائمه على تعاليم صاحب الرسالة ، وانتشر بجهود أصحابه ، وقد رأت السلطة مخالفة ذلك لمصالحهم فجعلوا اتباع النبى ﷺ وأخذ تعاليمه عن أهل بيته بدعة نظراً لعدم تشريع السياسة لذلك .

ولم يجدوا طريقاً لمؤاخذة الشيعة بحكمة ونزاهة ، ولكنهم حاكوا لهم التهم ، تقولا بالباطل وابتعاداً عن الحق ، بل هو تهريج وهوس ، وتعابير لا شعورية ، ومن أعظم تلك التهم التى ألصقوها بالشيعة هو قولهم بتكفير

الشيعة للصحابة وحكموا عليهم فى ذلك بالخروج عن الدين ! ما أقسى هـــذا الحكم ، وما أعظم هذه التهمة ، عفوك اللهم عفوك ، .

اللهم اننا نبرأ اليك مما يقوله الحاقدون ونوالى أصحاب رسولك ﷺ الذين رضيت عنهم واخلصوا فى الدعوة والجهاد فى سبيلك .

— ٥ —

لقد أخذت هذه التهمة نصيبها من التهويل ، وحظها من الشيوع ، فى عصر اتخذ خصوم الشيعة من سلطانه قوة الانتصار ، وازداد نشاطهم بتلك المفتريات ، والاتهامات التى سلكوا بها طرق الخداع والتمويه على السذج وعوام الامة ، فتركزت فى أدمغتهم تلك الفكرة السيئة ، وبحـــكم مؤثرات الدعاية التى بثتها الطبقة الحاكمة ضد الشيعة ، ليثيروا البغضاء ، ويبذروا الحقد ، ويبرزوا للشيعة صورة تشمئز منها النفوس فكانت دماؤهم مهدورة وأموالهم مباحة .

ولم تقف الشيعة تجاه هذه المنكرات مكتوفة اليد ، بل دافعت عن مبدئها وعقيدتها بساطع البرهان وقوة المنطق وحد السيف ، فكانت هناك ثورات يتبع بعضها بعضاً ، وحروب طاحنة دفاعاً عن المبدأ وحفظاً لكرامة الدين .

ما أقسى هذا الحكم وما أعظم هذه التهم ، ولا تستطيع الشيعة السكوت عليه ، ولكن ماذا تصنع وزاوية التعصب مفتوحة يطل منها أولئك الحول القلب الذين يفترون الكذب .

ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ،

ربنا إنا آمنا بك واتبعنا نبيك ، ووالينا أصحابه الذين نهجوا نهجه ، واهتدوا بهديه وسمعوا دعوة الحق فلاقتها نفوسهم بكل قبول وصدق ، واخلاص بالقول والعمل ، ونظروا لمصلحة المسلمين قبل مصالح أنفسهم أولئك هم أصحاب محمد ﷺ ، أشداء على الكفار رحماء بينهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سبقوا الى الاسلام ، وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم ، ونشروا الدين وأظهروا شعائر الاسلام ، وأقاموا الفرائض ، وأحيوا السنن ، آمنو بمحمد ﷺ ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه فايدت نبيك فيهم ، والفت بين قلوبهم فاتحدوا وآزروا ونصروا وصدقوا ما عاهدوا عليه الله ربنا انا آمنا بنبيك ، وتبرأنا من المنافقين الذين مردوا على النفاق ، ونصبوا لنبيك الغوائل ، ولم يؤمنوا ايمان القلب والجنان ، بل ايمان الشفة واللسان فاخبرت نبيك عنهم ، اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، واتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون » .

الذين « يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » .

ونتبرأ من الذين شاقوا رسولك « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا »

* * *

حقاً انها مؤاخذة عظيمة ، لو كان لها من الصحة نصيب ، ولكنها فرية وبهتان ، بعثتها الأغراض ، وأوحتها الأوهام والخيالات ،

فتوارثتها الأجيال ولو تناولتها أقلام غير مأجورة لقبرتها فى مقرها الأخير .

أتكون الشيعة بميلها عن معاوية وحزبه ، ومناقشتهم نقاشاً علمياً يتركز على حرية الرأى مجرمة فى نظر العدالة ، ويحكم عليهم بعدم الاستقامة فتطرح رواياتهم .

نصفاً ياحكام الجرح والتعديل ، فهل القيت أقوال من تجرأ على سب علي وبغضه والحط من كرامته ؟ لا لا انه مقبول القول ثقة فى الرواية ، ويقال انه حسن الاعتقاد ، ناصر للسنة .

ولا يسعنا التوسع بالبحث فى هذا الموضوع فهو واسع ، وستأتيك أسباب توجه التهمة الى الشيعة فى ذلك ونوقفك على الافتراء فيها فى الاجزاء الآتية ان شاء الله .

وكنا نظن ان تلك المفتريات ذهبت مع تلك العصور التى اقتضت اختراعها وافتعالها لتفريق صفوف الامة ، وكنا نتخيل انها قبرت مع أصحابها ومرت على عجلة الزمن ، فابتعدنا عنها ونحن بعصر انطلاق حرية العقل ، ورفع حواجز السلطة وازالة ستار التمويه ، وبمزيد الاسف انا نجد من يريد إحياء تلك النعرات ، ويعيد تلك العصور الغابرة ويضرب على وتر العصبية .

وليس من أصل موضوعى التعرض لأقوال المهرجين فان سلة المهملات لا تضيق عنهم .

وسنشير لبعض الاقوال التى أطلقها أصحابها - من كتاب ومؤرخين - حول الشيعة والصحابة من دون قيد وشرط ، وبدون معرفة لعقيدة الشيعة فى الصحابة رضوان الله عليهم .

ولو ان اولئك الكتاب ساروا بابحاثهم حول هـــذا الموضوع بدقة

وتمحيص ، ونزاهة البحث ، وتجرد عن العاطفة ، خدمة للحق من حيث هو لحكموا على أنفسهم بالخطأ فيما يذهبون اليه من القول بأن الشيعة يكفرون جميع أصحاب النبي ﷺ والعياذ بالله .

وان هذا الموضوع هو أهم موضوع يجب أن نتكلم به ، وان نلم بجميع اطرافه ، وحيث لم يتسع له هذا الجزء وقد ضاق نطاقه عن ذلك ، فقد أرجأنا الحديث عنه الى الجزء الثانى ان شاء الله فالى اللقاء هناك . ومن الله نستمد العون ونسأله التسديد والاخلاص فى العمل ، وهو ولى التوفيق .

والى هنا ينتهى الجزء الأول من هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة على رسوله الذى أرسله « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

الفهرست

فهرس أهم موضوعات الكتاب

	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	
الامام الصادق بين عهدين	٩
١ — العهد الاموى	١١
بنو امية فى عهد عثمان	١٢
٢ — على ومعاوية ، مبايعة معاوية لطلحة والزبير	١٣
٣ — طلب معاوية بدم عثمان ، موقف عائشة ، عمرو بن العاص والفتنة	١٧
أهل الشام يطالبون علياً عليه السلام بالقود	١٨
٤ — معاوية والخلافة ، أعمال معاوية ، بيعة يزيد وجرائمه	٢٣
٥ — تحويل الأمر من آل ابى سفيان الى بنى الحكم	٢٧
٦ — ولادة الامام الصادق . ونشأته ، عصر الامام الصادق ، الفترة السعيدة	٣١
٢ — العهد العباسى	٣٣
السفاح ، المنصور ، أعماله ، حمله لبنى الحسن	٣٧

الصفحة

٣ ـ الصادق ومشاكل العهدين ، اتهام المنصور له ٣٩

الامام الصادق

تاريخ حياته ، أقوال العلماء فيه ، خطأ المؤرخين فى نسبة الزجر والفال اليه ٤٧ - ٦٤

مدرسته وطابعها الخاص ٦٧

ملامذته ورواة حديثه ٧١ ـ ٨١

مع البخارى ٨١

آية التطهير ٨٩

تخريج الحفاظ لها وانها نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين

حديث الغدير ٩٨

رواته من الصحابة ، مناشدة امير المؤمنين به فى مواطن عديدة

خطبة النبى ﷺ يوم الغدير ، عناية الشيعة بعيد الغدير ، موقف خصوم الشيعة فى ذلك

حديث الثقلين ١٠٤

طرق تخريجه

ملوك عصره وامراء بلده

تمهيد ١٠٥

عبدالملك بن مروان ١٢٠

أعمال الحجاج وقسوته ١٢٢

الوليد بن عبدالملك ١٢٥

الصفحة

قتل سعيد بن جبير رحمه الله	١٢٦
سليمان بن عبدالملك	١٢٧
اجحافه في جباية المال	١٢٨
عمر بن عبدالعزيز	١٣١
سيرته في الخراج	١٣٢
منعه شتم علي عليه السلام	١٣٣
تنبيه على بعض اخطاء في التاريخ	١٣٤
يزيد بن عبدالملك	١٣٥
هشام بن عبدالملك	١٣٦
دخول زيد بن علي عليه السلام على هشام	١٣٩
قتل زيد عليه السلام وايضاح حول كلمة الرافضة	١٤٠
الوليد بن عبدالملك	١٤٣
الاحاديث بذم الوليد وفسقه	١٤٥
قتل يحيى بن زيد عليه السلام في ايامه	١٤٥
يزيد الناقص وابراهيم بن الوليد	١٤٨
مروان بن محمد	١٤٩
امراء بلده	١٥٠
هشام بن اسماعيل	١٥١
عمر بن عبدالعزيز	١٥٢
أسباب عمارة الوليد لمسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٣
عثمان بن حيان ، نفيه للعراقيين ومطاردته لهم	١٥٥

الصفحة

ابو بكر بن محمد ، عبدالرحمن بن الضحاك ١٥٦

عبدالواحد النضرى ، ابراهيم بن هشام ، خالد بن عبدالملك ١٥٧

محمد بن هشام ، يوسف الثقفى ١٥٨

دخول حمزة الخارجى الى المدينة

ولاة المدينة فى العهد العباسى ١٥٩

موقف الامام الصادق عليه السلام ١٦٢

الامويون وعدائهم لأهل البيت ، العباسيون ، العلويون ومواقفهم ، تشجيع السلطة لأعداء أهل البيت ، المعارضة لنشر مذهبهم

المذاهب الاربعة ١٧١

١ — نشأة المذاهب ١٧٢

٢ — المدينة مصدر الفتيا ، نشاط الحركة العلمية ١٧٤

٣ — الرأى والقياس ، أهل الحديث وأهل الرأى ، واصحاب الحديث ، أصحاب الرأى

٤ — انتشار العلم وكثرة المذاهب ١٧٩-١٨٨

عرض لترجمة رؤساء المذاهب البائدة ١٨٠

عوامل الانتشار ١٨٩

١ — المذهب الحنفى ، ابو يوسف ، منزلته فى الدولة ، نشره للمذهب ١٩١

٢ — المذهب المالكى ، عوامل انتشاره ؟ فى افريقيا والاندلس ١٩٥

٣ — المذهب الشافعى ، عوامل انتشاره ، تعصب المالكية عليه ٢٠١

الصفحة

٤ — المذهب الحنبلي ، ظهوره ببغداد ٢٠٣
٥ — العوامل العامة ، غلق باب الاجتهاد ، ترك سائر المذاهب والالزام بالمذاهب الأربعة فقط ٢٠٥
كلمة الاستاذ عبدالمتعال الصعيدى ٢٠٦

خلاصة البحث ٢٠٩

تشجيع المذهب الحنفي دون غيره ، الانتقال من مذهب لمذهب

بين الاجتهاد والتقليد ٢١٣

كلمات أئمة المذاهب فى عدم تقليدهم ، كلمات بعض العلماء فى فتح باب الاجتهاد
الذين يحاولون الجمود على التقليد ٢٢٠
الاجتهاد والتقليد ٢٢٢

بين المذاهب ٢٢٥

النزاع ، كلمة الدهلوى ، كلمة الخطابى ٢٢٧
بين الحنفية والشافعية ٢٣٢
التعصب ٢٣٣
عوامل التفرقة ، التعصب لأئمة المذاهب ، العداء بين الحنفية والشافعية ٢٣٤
التحول من مذهب الى مذهب ٢٤٣
حركات التعصب ، محنة القول بخلق القرآن ٢٤٦
بين السنة والشيعة ٢٤٧

الصفحة

المذاهب ٢٥٣

انتشارها فى الاقطار الاسلامية ٢٥٤

انشاء المدارس ٢٥٨

لترويج المذاهب الأربعة

المذهب الجعفرى ٢٦١

نشأته وعوامل انتشاره ، هو مذهب أهل البيت ٢٦٣

العداء لأهل البيت ، معاوية ومعارضته ٢٦٥

بذرة التشيع ، نشر المذهب ، ابن خلدون وخطأه ٢٦٩

فى أدوار التاريخ ٢٧٢

١ — نتائج الحركة الفكرية ، معارضة المنصور للمذهب ، الرشيد ومعارضته ، المهدى وشريك القاضى ٢٧٣

٢ — تغلب المذهب الجعفرى ، موقف المأمون ، أيام المعتصم ، أيام المتوكل المعاملة القاسية ٢٧٧

٣ — الشيعة ونصرة أهل البيت ، الأحاديث الواردة عن النبى ﷺ فى أهل البيت ، الشافعى والتشيع ٢٨١

مشكلة الغلاة ٢٨٨

موقف أهل البيت وكلماتهم فى ذم الغلاة ، إلحاق الغلاة بالشيعة حركة سياسية ٢٨٩

الصفحة

كلمة الاستاذ كرد على ٢٩٤
كلمة الامام كاشف الغطاء ٢٩٥
قول محب الدين الخطيب وطعنه على الصحابة ٢٩٦

انتشار المذهب الجعفرى ٢٩٩

فى الحجاز ، والشام ، وجبل عامل ، وحمص ، وحلب ، وافريقيا ، ومصر ، والهند ، والقطيف ، والاحساء ، وقطر وامريكا ، والصين ، وروسيا ، والعراق ، وايران .

تصفية الحساب ٣٠٧

أسباب الخلاف . عوامل التفرقة ٣٠٩
الدولة والعقائد، حراجة الموقف. الاتهام بالتشيع، ضحايا المبدأ ٣١٠
مواقف الشيعة ، الاحاديث فى مدح على وشيعته ، التحريف ٣١٨
الحكم الجائر ٣٢٣

لجنة الوضع ٣٢٩

الكذب على الله ورسوله . وضع الاحاديث تقرباً للسلطان ٣٣١
المستخدمون لهذا الغرض ، عدد الاحاديث المكذوبة
القصاصون وأثرهم فى المجتمع ٣٣٤
عدول الناس عن المذاهب فى مسائل ٣٣٨
عدولهم عن مذهب الشيعة فى أربعة مسائل :
١ — المتعة وتشريعها ٣٣٩
٢ — الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة ٣٤١

الصفحة

٣ — المسح على الرجلين ٣٤٣
٤ — الاذان وكلمة حى على خير العمل ٣٤٥

المذاهب الاسلامية

المذهب الجعفرى ، المذهب الحنفى ، المذهب المالكى ٣٤٨
المذهب الشافعى المذهب الحنبلى ٣٤٩

الامام ابو حنيفة

تمهيـــد ٣٥٣
من هو ابو حنيفة ؟ ٣٥٥
مناقشة السيد عفيفى المحامى ٣٥٦
المناقب ٣٥٩
البشائر فى ابى حنيفة ٣٦١
حديث السراج ومناقشته ٣٦٢
ترجمة ابى هدبة راوى حديث السراج ٣٦٣
ترجمة مأمون السلمى وابان بن ابى عياش ٣٦٤

غياث لكل مهموم ٣٦٦
ترجمة ابى البخترى ٣٦٧
فتوى ابى البخترى فى قتل يحيى بن عبدالله ٣٦٨

بين المد والجزر ٣٦٩
قضية الدهرى وورود بغداد ٣٧٠
سماع ابى حنيفة من الصحابة ٣٧٢

الصفحة

ترجمة عبدالله بن انيس وعبدالله بن الحرث ٣٧٣
ترجمة جابر بن عبدالله وعبدالله بن ابى اوفى
ومعقل بن يسار وواثلة بن الاسقف ٣٧٤
ترجمة عائشة بنت عجرد وسهل بن سعد وانس بن مالك ٣٧٥

عدينة ٣٧٦
تشدد ابى حنيفة فى الرواية ٣٧٧
أصحاب الصحاح لم يخرجوا حديث ابى حنيفة ٣٧٨
ابو حنيفة بين انصاره وخصومه ٣٧٩
ابو حنيفه نشأته ونبوغه ، شيوخه وتلامذته ٣٨٥
ولادته وعصره الذى عاش فيه ٣٨٧
اتساع نطاق الحركة الفكرية ٣٨٩
الموالى فى عصر ابى حنيفة ٣٩٠
اتجاه ابى حنيفة للفقه ٣٩٢
فقه ابى حنيفة وتدوينه ٣٩٣
ابو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ٣٩٤
الحسن بن زياد ، وزفر بن الهذيل ٣٩٥
امتزاج اقوال الأئمة الاربعة فى الفقه الحنفى ٣٩٧
العلماء المبرزين من الحنفية ونشرهم للمذهب ٣٩٨
نسبة الاقوال الى رئيس المذهب ٤٠١

مع الامام الصادق
ابو حنيفة وقوته فى المناظرة ٤٠٣

الصفحة

أبو حنيفة يعترف باعلمية الامام الصادق	٤٠٤
الامام الصادق ومناظرته لابى حنيفة فى القياس	٤٠٥
رواياته عن الامام الصادق	٤٠٦
مناصرة ابى حنيفة لأهل البيت (ع)	٤٠٧
ابو حنيفة ورأيه فيمن قاتل الامام على عليه السلام	٤٠٨
اسباب قتل المنصور لأبى حنيفة	٤٠٩
اتصال ابى حنيفة بمدرسة الشيعة	٤١٢
شيوخ ابى حنيفة من الشيعة	٤١٣
خلاصة البحث وفيه خمسة فصول	٤١٥
الفهرست	٤٢٥

تفضل صديقنا الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخليلي بهذا التاريخ عند ما باشرنا بطبع الجزء الاول من هذا الكتاب سنة ١٣٧٦ فله الشكر .

كم تفعل الاهواء فى أنفس لما بها أمست لها طيعه
تميل للباطل طبعاً ولن ترغب للحق ولن تتبعه
ألا تراها اختلفت امة كانت بماء واحد مترعة
فاعرضت عن عذبه وارتوت من آسن ما حققت منبعه
ضلت ولم تهد بنور الحجا لما أضاعت للحجا موضعه
فاستخبر التاريخ إذ أظهر ال خلف وأبدى تلكم المعمعة
واستوضح الكتاب إذ صرحوا عما أثار الحقد من زوبعه
وانظر الى السلطة فى عصرها كيف استباحت للهدى مصرعه
قد فرق الطامع مجموعة ونال فى تفريقها مطمعه
فقام داعى الحق يدعو الى الوحدة فى الامة كى تسمعه
وقال فى تاريخها (إنه الصادق والمذاهب الأربعة)

كما تفضل الاستاذ السيد شمس الدين الخطيب بقصيدة وافتنا بعد صدوره فله الشكر وسننشرها فى كلمة الختام فى الجزء السابع .

وكذلك تفضل الاستاذ الشيخ محمد صادق الخليلي بقصيدة وسننشر هناك مع الشكر لعواطفه .

وتوالت علينا رسائل من مختلف الجهات من العلماء والاساتذة والادباء تقريضاً للكتاب منها .

رسالة من حجة الأسلام المجاهد السيد هبة الدين الشهرستانى سلمه الله.

ورسالة من حجة الاسلام السيد محمد جمال الهاشمى .

ومن الأخ العلامة الشيخ محمود أبو ريه ـ القاهرة .

ومن دار التقريب بين المذاهب الاسلامية من الشيخ محمد تقي - القاهرة.
ومن الاخ الشيخ محمد سعيد دحدوح - سوريا .
ومن الاستاذ القانوني الكبير توفيق الفكيكي المحامي - بغداد .
ومن الاديب الفاضل السيد طاهر أبو رغيف - بصرة .
ومن العلامة المجاهد البحاثة السيد مرتضى العسكري .
ومن الأديب الشيخ خلف الشيخ طاهر - كويت .

وسننشر هذه الرسائل وغيرها مما تفضل بها القراء الكرام في الجزء السابع ان شاء الله مع الشكر والاعتزاز بهم والتقدير لشعورهم وعواطفهم وما شملونا به من اللطف مما شجعنا على المضي في عملنا المجهد وبحثنا الشاق ومن الله نسأل أن يوفقنا للاخلاص في العمل وان يسددنا فهو ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

النجف — اسد الشيخ محمد حيدر

مطبعة النجف - النجف الأشرف

١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م